مواهب الرحمن

في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

عني بنشره

محمد علي القره داغي

المجلد الأول

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ٠

مقدمة

الحمد لله المعطي المنان ، المتجلّي على عباده بالرحمة والإحسان ، والصلاة والسلام على سيدنا وشفيعنا محمد الذي أُنزل عليه القرآن ، وعلى آله وصحبه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فلا يخفى أن القرآن الكريم منبع لدين الاسلام ، ومرجع المسلمين في العقائد والأحكام . وقد خوّل الله تعالى رسوله بيانه . فقال (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم) فبينه أحسن البيان ، وقد فسره أئمة هذه الأُمّة بما وصلت إليه طاقاتهم ، آخذين من النصوص الإلهية ، والسنة النبوية ، وإجماع الأمة المحمدية ، وآراء العلماء المجتهدين المخلصين ؛ فنشروا بين المسلمين تفاسير : مختصرة ، ومطولة ، ومتوسطة ، حسب قرائحهم النفسية ، ومنائحهم القدسية . ولكن لما كان لكل زمان أوضاع خاصة مبيّنة ، ومشاكل مهمة معيّنة ، واقتضى زماننا التعرض لبيان الحق في مهمات واردة .. طلب مني بعض الاصدقاء أن أكتب تفسيراً يعالج ما كنا نبغيه . وإني مع قلة بضاعتي في هذا الشأن ، وضعف استطاعتي

لاقتحام هذا الميدان .. توكلت على الله المنان ، واعتمدت على حوله وقوّته، وأخذت في التفسير المرغوب ، ناقلاً أو مستنبطاً من تفاسير الأئمة الكبار ، كالقرطبي ، والامام الرازي ، والبيضاوي ... وغيرهم . واقتصـــرت على الرّاجح الّذي يطمئن به القلب ، ذاكراً بيـــانَ أســـبابِ النزول بقـــدر الإمكان ، وسمّيت تفسيرى هذا ((مواهب الرحمان في تفسير القرآن)) بسلامة البيان . سائلاً مِن منّه سبحانه وتعالى أن ينفعني والمسلمين به في الدارين . إنه الكريم المنّـــان .

ولنقدم على المقصود أموراً مهمة ينبغي للمسلم الاطلاع عليها :

الامر الاول مبدا التنزيل واول زمانه

قـال تعالـى : (حـم والكتـاب المبـين • إنـا أنزلنـاه في ليلـة مباركـة إنـا كنا منذرين • فيهـا يفـرق كـل أمـر حكيـم) وقـال تعالى : (إنا أنزلناه في ليلة القدر ••• الآية) وفي هذا دليل على أن الليلـة المباركة هي ليلة القدر • وقال تعالى : (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس وبيّنات من الهدى والفرقان) وفي هذا دليل على أن ليلة القدر في رمضان المبارك ؛ فيكون إنزال القرآن في ليلة مباركة مسماة بليلة القدر من لياليه • ولا خلاف في أن القرآن ـ كما في الكتب المعتمدة ـ أُنْزِل من اللّوح المحفوظ ليلة القدر جملةً واحدة • فوضع في بيت العزة في سـماء الدنيا • ثم كان جبريل ينزل به نجماً نجماً في الأوامر والنواهي والأسباب في عشرين سنة • قلت : أو في ثلاث وعشرين سنة على ما هو المذكـور في محلّه •

وكان أول ما نزل منه آيات أول سورة العلق • ففي البخاري الشريف : أن عروة بن الزبير روى أن عائشـة زوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : أول ما بديء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرؤيا الصادقة في النوم ؛ فكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح • ثم حُبِّبَ إليه الخلاء ، فكان يلحق بغار حراء فيتحنَّث فيه (والتحنث : التعبد الليـاليَ ذواتَ العدد قبل أن يرجع الى أهله) ثم يرجع الى خديجة فيتزوّد بمثلها حتى فَجَأَه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : إقرأ • فقـال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما أنا بقاريء • قال : فأخذني فغطّني حتى بَلَغ منّي الجهدَ • ثم أرسـلني • فقال : إقرأ • قلت : ما أنـا بقاريء • فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منّي الجهد • ثم أرسـلني فقال : إقرأ • قلت : ما أنـا بقـاريء • فأخذني فغطني الثالثة حتى بلـغ منّي الجهد •

ثم أرسلني فقال : (إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علّم بالقلم . علّم الانسان ما لم يعلم ... الآيات) فرجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة . فقال : زمّلوني زمّلوني . فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع . قال لخديجة : أي خديجة ما لي ؟ لقد خشيت على نفسي ، فأخبرها الخبر . قالت خديجة : كلاّ أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا . فوالله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها . وكان امرأً تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، ويكتب من الأنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت خديجة : يا عم إسمع من ابن أخيك . قال ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خبر ما رأى . فقال ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى ، ليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا (ذكر حرفا) . كذا في هذه الرواية وتقدم في بدء الوحي بلفظ (اذ يخرجك قومك) قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أوَ مخرجيّ هم ؟ قال ورقة : نعم لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي . وإن يدركني يومك حيّاً انصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي . وفتر الوحي فترة أي إنقطع نزوله عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مدة من الزمان .

وفي صحيح البخاري وهو يحدث عن فترة الوحي : فقال في حديثه : بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، جالس على كرسي بين السماء والأرض ،

فرُعِبْتُ منه ، فرَجَعت فقلتُ : زَمِّلُوني زَمِّلوني • فأنزل الله عز وجل : « يا أيها المُدَّثِّر قم فأنذر الى قوله والرجزَ فاهْجُر » فحَمي الوَحْيُ وتواتر انتهى •

ومما ينبغي أن يعلم أن فتور الوحي وانقطاعه عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان في ثلاث نوبات :

الأولى : بعد نزول جبريل ـ عليه السلام ـ عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غار حراء أول مرة إلى أن نزلت عليه سورة المدّثر •

والثانية : بعد سؤال اليهود عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الروح ، وذي القرنين •

والثالثة : قبيل نزول (سورة الضحى) لحادث السرير المشهور من وجود جرو كلب تحت سريره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يدر به •

وان مدة فتوره في النوبة الأولى ـ وان ورد أنها كانت سنتين ونصفاً في رواية ، أو ستة أشهر في أخرى ـ لكن ما حققه صاحب فتح الباري في شرح صحيح البخاري أنها كانت أياماً ولم تحدّد • وفي النوبة الثانية كانت اثنتي عشرة ليلة • وفي الثالثة كانت ثلاثة أيّام فقط • ثم تتابع الوحي على العادة •••

وخلاصة الأمر : انه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تنبّىء في ربيع الأول على رأس أربعين سنة من عمره الشريف • فكان الوحي رؤىً صادقة الى رمضان • وجاءه جبريل في الثامن عشر منه • وقرأ عليه أوائل سورة العلق • ثم نزل عليه الوحي بالقرآن في مدة ثلاث وعشرين سنة عدا أيامَ فتور الوحي كما علمته سابقاً •

الامر الثاني تنزلات القرآن الكريم

وهي ثلاث :

التنزل الأول : الى اللوح المحفوظ • ودليله قوله سبحانه : « بل هــو قرآن مجيد في لوح محفوظ » وهذا الوجود فيه لا يعلمه إلا الله تعــالى ، ومن اَطلَعه على غيبه •

التنزل الثاني : للقرآن الكريم هو من اللوح المحفوظ الى بيت العزة في السماء الدنيا • والدليل عليه قوله تعالى في سورة الدخان : (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) وفي سورة القدر : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وفي سورة البقرة : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) دلت هــذه الآيات على ان القرآن أُنزل كله في ليلة واحدة •

التنزل الثالث : هو تنزل المَلَك الأمين جبريل بأمر الله ســبحانه على قلب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لفظاً لفظاً حسب أمره تعالى بلا زيــادة ونقصان • ودليله قوله سبحانه وتعالى في سورة الشعراء مخاطباً لرســوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (نزل به الروح الأمين على قلبك لِتكــونَ مِــنَ المُنْذرين بلسانٍ عربيٍّ مبين) • وبهذا النزول أَشَعَّ النورُ على العالــم وَوَصَلَتْ هداية الله الى الخلق • فطوبى لمن آمَنَ به وعَمل به ، ففــاز به سعادة الدّارين •

الامر الثالث

كيفية أخذ جبريل للقرآن الكريم وعمن أخذ • وهذا من أنباء الغيب وفيها أقوال : وأَوْفَقَها وأَوقَعَها هو أنّ جبريل ــ عليه السلام ــ أخَذَ القرآن عن ذات الباري سبحانه وتعالى كما أَسْمَعَ اللهُ كلامَه رسولَه محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليلةَ المعراج ، ورسولَه موسى في الوادي

الأيمن • وما ذلك على الله بعزيز • ويؤيده ما أخرجه الطبراني من حديث النوّاس بن سمعان مرفوعاً الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إذا تكلّم اللهُ بالوحي أخذتِ السماء رجفةٌ شديدة مِنْ خَوْف الله • فإذا سمع أهل السماء صَعِقوا وخرّوا سُجّدا • فيكون أوّلهم يرفع رأسَه جبريلُ ، فكلمه الله بوحيه بما أراد فينتهي به الى الملائكة فكلّما مَرّ بسَماءٍ سأله أهلُها : ماذا قال ربُّنا ؟ قال : الحق • فينتهي به حيث أُمِرَ •

الامر الرابع

دليل نزوله مُنَجّماً مفرقاً في مدة الرسالة ، قوله سبحانه وتعالى في سورة الاسراء : (وَقرآناً فَرَقْناه لتَقْرأه على الناس عَلى مُكث ونزّلناه تنزيلا) وقوله في سورة الفرقان : (وقال الذين كفروا : لَولا نُزّل عليه القرآنُ جملةً واحدةً كذلك لِنُثَبِّتَ به فؤادَك ورتّلناه تَرتيلا) •

روي أن الكفارَ مِن يهودَ ومشركين عابُوا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نزول القرآن مُتفَرّقاً ، واقترحوا عليه أن ينزل جملة • فأنزل الله هاتين الآيتين ردّاً عليهم • وهذا الرد يدل على أمرين :

أحدهما : أن القرآن نزل مُتفَرّقاً على النبي ـ صلى الله عليه وسلم •

والثاني : أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملة • كما إشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعاً •

وفي هذا التنجيم أربع حِكَمٍ رئيسية :

الحكمة الأولى : تثبيت فؤاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتقوية قلبه • وذلك من وجوه :

الوجه الأول : إن في تجدد الوحي وتكرار نزول الملَك به من جانب الحق الى رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سروراً يملأ قلب الرسول ، وغبطةً تشرح صدره .

الوجه الثاني : إن في التنجيم تيسيراً عليه من الله تعالى في حفظه وفهمه ، ومعرفة أحكامِهِ وحِكَمِهِ ، كما أنّ فيه تقوية لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كلّه .

الوجه الثالث : أن في كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجم مُعجزةً جديدة غالباً . حيث تحدّاهم كل مرة أن يأتوا بمثل نوبة من نوبات التنزيل . فظهر عجزهم عن المعارضة.ولاشك أن في هذا تثبيتاً لقلبه ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

الوجه الرابع : ان في تأييد حقه وإدحاض باطل عدوه المرة بعد الأخرى تكراراً للذة فوزه بالحق والصواب . وكل ذلك مشجع لقلبه الشريف .

الوجه الخامس : تعهّد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يخفف عليه هذه الشدائد . وفي هذا التخفيف تسلية وتثبيت له ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفيها يقول الله تعالى : (وكُلاً نَقُصُّ عَلَيكَ مِنْ أنباءِ الرسل ما نُثَبّتُ بهِ فؤادكَ) ــ سورة هود ــ . ويقول : (واصبِر لحكم ربّكَ فإنكَ بأعيُنِنا) . في سورة الطور . ويقول : (واللهُ يَعصِمُكَ مِنَ الناسِ) في سورة المائدة .

الحكمة الثانية : التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعَمَلاً . وتحت هذا وجوه خمسة أيضاً :

الوجه الأول : تيسير حفظ القرآن على الأمّة العربية ، وقد كانت آنذاك أُمّةً أميّه . ولم تكن أدوات الكتابة ميسورة لدى المكاتبين ، مع اشتغالها الشديد بأمر الجهاد ، وبتحصيل أمورِها المعاشية . فلو نزل جملةً واحدة لَعَجَزوا عن حفظه .

الوجه الثاني : تسهيل فهمه عليهم كذلك مثل ما سبق في تسهيل حفظه .

الوجه الثالث : التمهيد لكمال تخلّيهم وابتعادهم عن عقائدهم الباطلة شيئاً فشيئاً . بسبب نزول الآيات شيئاً فشيئاً . فكلما نجح الإسلام في هدم عقيدة فاسدة إنتقل بهم الى هدم أخرى .

الوجه الرابع : التمهيد لتحلّيهم بالعقائد الحقة ، والعبادات الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة شيئاً فشيئاً . ولهذا بدأ الإسلام بمنعهم عن الشرك والضلال ، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء ، من أجل ان فتح القرآن عيونهم بأدلة التوحيد وبراهين البعث بعد الموت وحجج الحساب والمسئولية والجزاء . ثم إنتقل بهم بَعْدَ هذه المرحلة إلى العبادات . فبدأهم بفرض الصلاة قبل الهجرة . وثنّى بالزكاة وبالصّوم في السنة الثانية من الهجرة وختم بالحج في السنة السادسة منها .

الوجه الخامس : تثبيت قلوب المؤمنين بعزيمة الصبر واليقين بما يقصّه القرآن عليهم من قَصَص الأنبياء والمرسلين ، وما جرى عليهم وعلى أتباعهم من الأعداء والمخالفين ، وما وعد الله به عباده الصالحين من الأجر .

الحكمة الثالثة : مسايرة الحوادث والطواريء في تجددها ، وتفرقها فكلما حدث شيء جديد نزل من القرآن ما يناسبه ، وبيّن الله لهم من أحكامه ما يوافقه . وتحت هذه الحكمة أمور أربعة :

الأول : إجابة السائلين على أسئلتهم عندما يوجهونها الى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سواء كانت تلك الأسئلة لغرض إمتحانه وتثبتهم من رسالته كما في أسئلة أعدائه عن الروح . وعن ذي القرنين . أو لغرض التنور والإستفادة ، ومعرفة حكم الله تعالى ، كما في سورة البقرة : (يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو) وقوله تعالى : (ويسألونك عن اليتامى ؟ قل : إصلاح لهم خير) . ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت ترفع إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أوقات مختلفة ، فلا بدّ أن ينزل الجواب عليها كذلك .

الثاني : مجاراة الوقائع في حينها ببيان حكم الله تعالى فيها عند حدوثها ووقوعها . ومعلوم أنها لم تقع في يوم واحد ، أو شهر واحد بل وقعت تفصيلاً وتدريجاً .

الثالث : توجيه المسلمين إلى تصحيح أخطائهم التي يقعون فيها وإرشادهم الى الصواب . كما في قوله تعالى : (ويوم حُنَيْن إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا) الآيات . فهي تردع المؤمنين عن رذيلة الإعجاب والاغترار في يوم من أيام الله . والى وجوب رجوعهم الى رشدهم ويتوبوا الى ربهم .

الرابع : كشف حالِ أعداءِ الله المنافقين ، وهَتْكُ أستارهم كي يأخذ المؤمنون منهم حِذرهم فيأمنوا شرّهم . وحتى يتوبَ مَنْ شاء منهم . كما في قوله تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) الى آخر الآيات الثلاث عشرة التي فضحت المنافقين . كما فضحتهم سورة التوبة في كثير من الآيات .

الحكمة الرابعة : الإرشاد الى مصدر القرآن ، وأنه كلام الله وحده ، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا كلام

مخلوق سواه . وبيان ذلك : أنّا نقرأ القرآن الكريم من أوله الى آخره . فاذا هو مُحْكم السّرد ، دقيق السبك ، متين الأسلوب ، قوي الإتصال ، آخذ بعضه برقاب بعض ، في سُوَره ، وآياته ، وجُمَلِه ، يجري فيه روح الاعجاز مِن ألِفِهِ الى يائه كأنه سبيكة" واحدة ، أو هيكل انسان واحدٍ جميل ، جليل القدر ، متناسب الأجزاء والأعضاء ، مبيّن آيات كونية علويّة وسفلية ، برّيّة وبحريّة ، بحيث يعجز عن فهمها بكمال أكمل أرباب الفنون والصناعات . وذلك كله بوجه صالح للدراسة ، وصادق بحسب التأمّل السليم ، وباعتدالٍ تام على الصّراط المستقيم .

الامر الخامس

نزول القرآن على سبعة أحرف ودليله وبيانُ معناه .
أما دليله فهو النقل الصحيح من طرق مختلفة كثيرة . وقد روي حديث نزول القرآن على سبعة أحرف عن جمع كثير من الصحابة . منهم : عمر ، وعثمان ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو بكر ، وأبو جهم ، وأبو سعيد الخدري ، وابن طلحة الأنصاري ، وأُبَيّ بن كعب ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسلمانُ بن صُرَد ، وعبدالرحمن بن عوف ، وعمرو بن أبي سلمة ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأَنَس ، وحذيفة ، وأُمّ أيّوب ـ إمرأة أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فهؤلاء جميعاً رووا حديث نزول القرآن على سبعة أحرف .

وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده الكبير : أن عثمان بن عفان ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال يوماً ـ وهو على المنبر ـ : أُذكِّر الله رجلاً سمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ان القرآن نزل على سبعة أحرف كلّها شافٍ

كافٍ لما قام . فقاموا حتى لم يُحْصَوْا . فشهدوا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أُنزل القرآن على سبعة حروف كلها شافٍ كافٍ . فقال عثمان ـ رضي الله عنه ـ : وأنا أشهدُ معَهم .

وكانت هذه الجموع التي يؤمن تواطؤها على الكذب هي التي جعلت الامام أبا عبيد ابن سلاّم يقول بتواتر هذا الحديث . أي بالنسبة الى القرن الأول . وهناك طائفة من الأحاديث الشريفة نسوقها إستدلالاً على ثبوت المضمون المذكور :

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أَقرأني جبريلُ على حرفٍ فراجَعْتُه ، فلم أَزَل أَستزيدُه ويزيدني ، حتى إنتهى الى سبعة أحرف ، زاد مسلم : قال ابن شهاب : بلغني أن تلك السبعة في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرامٍ .

وروى البخاري ومسلم ـ أيضاً ـ (واللفظ للبخاري) أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول : سمعتُ هشامَ بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستمعتُ لقراءته ، فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يُقرِئْنيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكدت أساوِرُه في الصلاة ، فانتظرته حتى سلّم ثم لَبَّبْتُه بردائه أو بردائي . فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . قلت له : كذبتَ . فوالله إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرأها . فانطلقت أقودُه الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقلتُ : يا رسول الله إني سمعتُ هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقرِئْنيها . وأنت أقرأتني سورة الفرقان ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أَرسِله يا عمر . إقرأ

يا هشام ، فقرأ هذه القراءة التي سمعتها • قال رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ : هكذا نزلت • ثم قال رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ : إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه •

وروى الترمذي عن أُبَيّ ابن كعب قال : لقي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم جبريل عند أحجار المروة ، قال : فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لجبريل : إني بعثت إلى أمة أميين ، فيهــم الشــيخ الفاني ، والعجوز الكبيرة ، والغلام • قال : فَمُرْهُم فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف • قال الترمذي حسن صحيح •

وأما معنى الحديث الشريف : ففيه نحو خمسة وثلاثين رأياً والمختارُ منها خمسة :

الأول : وهو الذي عليه أكثر أهل العلم ، كما في تفسير القرطبي ، أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحــو : أقبِــلْ ، وتعالَ ، وهلمّ • قال الطحاوي : وأبْيَن ما ذكر في ذلك حديث أبي بكــرة قال جاء جبريل الى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : إقرأ على حرف فقال ميكائيل : اسْتَزِدْهُ • فقال : إقرأ على حرفين • فقال ميكائيل : إستزده حتى بلغ الى سبعة أحرف • فقال : إقرأ • فكلٌ شافٍ كافٍ ، إلا أن تخلط آيَةَ رحمةٍ بآية عذاب على نحو : هَلُمّ ، وتَعالَ ، وأقْبِلْ ، وَاذهَبْ ، واسْرِع ، وعَجّل •

وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أُبَيّ بنِ كعب أنه كان يقرأ (للذين آمنــوا انْظُرونا) للذين آمنــوا امْهِلُونا ، للذين آمنوا أخِّرونا •

قال الزهري : إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام .

قال الطحاوي : إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ؛ لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليــل منهم ، فوسع لهم في إختلاف الألفاظ ، إذ كان المعنى متفقاً ، حتى كثر منهــم من يكتب ، وعادت لغاتهم الى لسان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه . فلم يسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافها . فبان بهــذا أن تلك الأحرف السبعة إنما كانت في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك ، ثم إرتفعت تلك الضرورة ، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

القول الثاني : قال قوم : هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها : يمنها ، ونزارها . وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد ســبعة أوجه ، ولكنها متفرقة في القرآن . فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن .

القول الثالث : إن هذه اللغات السبع إنما تكون في مضر ، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكنانة ، ومنها لأسد ، ومنهــا لهذيل ، ومنها لتيم ، ومنها لضبة ، ومنها لقيس ... قالــوا : هــذه قبائل مضــر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب .

القول الرابع : ما حكاه صــاحب الدلائل عن بعض العلماء . قال : تدبرت وجوه الإختلاف في القراءة ، فوجدتها سبعاً . منها ما تتغير حركتــه ولا يزول معناه ولا صورته . مثل : « هن أَطْهَرُ لَكُم » . وأَطْهَرَ . ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب مثل : « رَبَّنا باعِدْ بين أسْفارِنا » و « باعَدَ » . ومنها ما تبقى صورته ويتغيّر معناه باختلاف

الحروف مثل : « نُنْشِزها » و « ننشرها » • ومنها ما تتغيّر صورته ، ويبقى معناه « كالعهن المنفوش » و « كالصوف المنفوش » • ومنها ما تتغيّر صورته ومعناه • مثل : « وطلح منضود » و « وطلع منضود » • ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : « وجاءت سكرة الموت بالحق » و « جاءت سكرة الحق بالموت » • ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله تعالى : « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » أي بالنسبة لقوله تعالى : « وأما الغلام فكان أَبَواه مؤمنَيْن » •

القول الخامس : إن المراد بالأحرف السبعة معاني كتاب الله تعالى ، وهي أمرٌ ونهيٌ • ووعد ووعيد • وقصص ومجادلة • وأمثال •

قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفاً • وأيضاً فالإجماع على أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال ولا في تغيير شيء من المعاني • وقد قيل : إن المراد القراءات السبع التي قرأ بها القرّاء • لأنها صحّت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وهذا ليس بشيء لظهور بطلانها على ما يأتي •

والمختار من بين تلك المعاني أنّ معنى نزول القرآن على سبعة أحرف نزوله على سبع لغات من لغات العرب • وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعةُ أوجهٍ ـ وإن جاء على سبعة أو عشرة أو أكثر ـ ولكن معناه أن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن •

فالأحرف بمعنى الأوجه على معنى أنّ وُجُوهَ الإختلاف لا تتجاوز سبعةَ أوجه مهما كَثُر ذلكَ التعددُ والتنوعُ في أداء اللفظ الواحد • ومهما تعددت القراءات وطرقها في الكلمة الواحدة • فكلمة « مالكِ يوم الدين » التي ورد أنها تقرأ بطرق تبلغ السبعة أو العشرة ، وكلمة « وعَبَدَ

الطّاغوت » التي ورد أنها تقرأ باثنتين وعشرين قراءة ، وكلمة « أُفّ » التي أوصل الرمّانيّ لغاتها الى سبع وثلاثين لغة ... كل ذلك لا يخرج التغاير فيه على كثرته عن وجوه سبعة .

بقي أن نتساءل ما هي تلك الوجوه السبعة التي لا تخرج القراءات عنها مهما تنوّعت وتكثّرت في الكلمة الواحدة ؟ والذي اختاره المحققون من بين الآراء العديدة في الموضوع هو ما ذهب إليه الإمام أبو الفضل الرازي في اللوائح إذ يقول :

الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف :

الأوّل : إختلافُ الأسماء من إفرادٍ ، وتثنية ، وجمعٍ ، وتذكيرٍ وتأنيث ...

الثاني : إختلاف تصريف الأفعال من : ماضٍ ، ومضارع ، وأمرٍ .

الثالث : إختلاف وُجوهِ الإعراب .

الرابع : الإختلاف بالنقص والزيادة .

الخامس : الإختلاف بالتقديم والتأخير .

السادس : الإختلاف بالإبدال .

السابع : إختلاف اللغات (يعني اللهجات) كالفتح ، والإمالة ، والترقيق ، والتفخيم ، والإظهار ، والإدغام وغير ذلك ... غير أن النّقل لم يَشفَع بتمثيل لما ذكر .

وقال الزرقاني : ويمكن التمثيل للوجه الأول منه ، وهو إختلاف الأسماء بقوله سبحانه : « وَالّذين هُم لِأماناتهم وَعهدهم راعون » قُرِيء هكذا (لأماناتهم) جمعاً ، وقريء (لأمانتهم) بالإفراد .

ويمكن التمثيل للوجه الثاني ، وهو اختلاف تصريف الأفعال ، بقوله سبحانه : « رَبَّنا باعِدْ بينَ أَسفارِنا » قرىء هكذا بنصب لفظ ربَّنا ، على أنه منادى . وبلفظ باعِدْ فعلَ أمر ، وبعبارة أَنسَبَ فعل دعاءٍ . وقريء هكذا : (رَبُّنا بَعَّدَ) برفع ربنا على أنه مبتدأ . وبلفظ (بَعَّدَ) فعلاً ماضياً مضعّف العين وجملته خبر .

ويمكن التمثيل للوجه الثالث ، وهو إختلاف وجوه الإعراب ، بقوله سبحانه : « ولا يُضارُّ كاتبٌ ولا شهيدٌ » قريء بفتح الراء وضمّها . فالفتح على أنّ لا ناهية فالفعل مجزوم بعدها . والفتحة الملحوظة في الراء هي فتحة إدغام المثلين ، أما الضم فعلى أن لا نافية فالفعل مرفوع بعدها .

ويمكن التمثيل للوجه الرابع ، وهو الإختلاف بالنقص والزيادة . بقوله تعالى : « وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى » قريء بهذا اللفظ وقريء أيضاً (والذكر والأنثى) بنقص كلمة (ما خلق) .

ويمكن التمثيل للوجه الخامس ، وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير ، بقوله سبحانه : « وجاءت سكرة الموت بالحق » ، وقريء : (وجاءت سكرة الحق بالموت) .

ويمكن التمثيل للوجه السادس ، وهو الإختلاف بالإبدال ، بقوله سبحانه : « وانظُرْ الى العظام كيفَ نُنْشِزُها » بالزاي ، وقريء (نُنْشِرُها) بالراء .

ويمكن التمثيل للوجه السابع ، وهو اختلاف اللهجات ، بقوله سبحانه: « وَهَلْ أَتاكَ حديثُ موسى » تقرأ بالفتح والإمالة في (أتى) ولفظ (موسى) .

ومن فوائد إختلاف القراءة وتعدد الحروف : التخفيفُ والتيسيرُ على هذه الأمة فإنّ كل إنسان مُتَعَوِّد على لهجته : من الفتح ، أو الإمالة، أو غيرها من سائر الأحرف والأوجه .

ومنها : جمع الأمة الإسلامية الجديدة على لسان واحد يوحّد بينها وهو لسان قريش الذي نزل به القرآن الكريم والذي انتظم كثيراً من مختارات أَلْسِنَة القبائل العربية التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج وأسواق العرب المشهورة . فكان القرشيون يستملحون ما شاءوا ، ويختارون ما راق لهم من ألفاظ الوفود العربية القادمة إليهم من كل صوب وحَدب . ثم يُهذّبُونَه ويُدخلونه في دائرة لغتهم المَرِنة التي أذعن جميع العرب لها بالزعامة ، وعقدوا لها رايَةَ الإمامة . ومنها صح أن يقال انه نزل بلغة قريش ، لأن لغات العرب تمثلت في لسان القرشيين بهذا المعنى .

ومن الجدير بالإنتباه إليه : أن القراءاتِ السبع المعروفة ليست هي الأحرف السبعة التي ذكرناها ، ولكنها ليست خارجة عنها البتة . قال القرطبي في تفسيره : قال كثير من علمائنا ، كالداودي ، وابن أبي صفرة ، وغيرهما : هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي إتسعت الصحابة في القراءة بها ، وإنما هي راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذي جمع علَيه عثمان المصحف . ذكره ابن النحاس وغيره . وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء . وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما رَوى وعَلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأَوْلى . فالتزمه طريقةً ورواه ، وأقرأ به ، واشتهر عنه ، وعرف به ، ونسب إليه . فقيل : حرفُ نافعٍ ، وحرف إبن كثير . ولم يمنع واحد منهم إختيار الآخر ولا أنكره ،

بل سوغه وجوّزه . وكل واحد من هذه السبعة روي عنه إختياران أو أكثر وكلٌ صحيح .

وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الإعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا في ذلك مصنفات . فاستمر الإجماع على الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب ، وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون ، كالقاضي أبي بكر ابن الطيب ، والطبري ، وغيرهما ... قال ابن عطية : ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة ، وبها يصلى لأنها ثبتت بالإجماع . وأما شاذ القراءات فلا يصلى به لأنه لم يجمع الناس عليه .

وقال محمد عبدالعظيم الزرقاني في كتابه (مناهل العرفان) : ان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد اختلف أخذهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد ، ومنهم من أخذ عنه بحرفين ، ومنهم من زاد . ثم تفرقوا في البلاد ، وهم على هذه الأحوال ، فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم ، وأخذ تابع التابعين عن التابعين . وهلم جرا حتى وصل الأمر على هذا النحو الى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ، ويُعْنَوْن بها ، وينشرونها ـ كما يأتي ـ هذا منشأ علم القراءات واختلافها ، وإن كان الإختلاف يرجع في الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة الى مواضع الإتفاق الكثيرة كما هو معلوم . ومهما يكن الأمر فإن إختلاف القراء في حدود السبعة الأحرف التي نزل عليها القرآن كلها من عند الله لا من عند الرسول ولا أحدٍ من القراء وغيرهم .

ثم قال : وقد اشتهر في كل طبقة من طبقات الأمة جماعة بحفظ القرآن وإقرائه ؛ فالمشتهرون من الصحابة بإقراء القرآن : عثمان ، وعلي ، وأُبيّ بن

كعب ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ... وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية . والمشتهرون من التابعين : ابن المسيّب ، وعروة ، وسالم ، وعمَر بن عبدالعزيز ، وسليمان بن يسار ، وأخوه عطاء ، وزيد بن أسلم ، ومسلم بن جندب ، وابن شهاب ، وعبدالرحمن بن هرمز ، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القاري ، وكل هؤلاء كانوا بمكة .

وعامر بن عبدالقيس وأبو العالية ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وجابر بن زيد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة وغيرهم ، وكانوا هؤلاء بالبصرة .

وعلقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة ، والربيع بن خيثم ، والحارث ابن قيس ، وعمر بن شرحبيل ، وعمرو بن ميمون ، وأبو عبدالرحمن السلمي وزر بن حبَيش ، وعبيد بن فضلة ، وأبو زرعة بن عمرو ، وسعيد بن جبير والنخعي ، والشعبي ، وهؤلاء كانوا بالكوفة .

والمغيرة بن أبي شهاب المخزومي ـ صاحب مصحف عثمان ـ وخلَيد بن سعيد ، صاحب أبي الدرداء ، وغيرهما ... وهؤلاء كانوا بالشام .

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويُعنَون بها ؛ فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم شيبة بن نصاح ، ثم نافع ابن أبي نعيم .

وكان بمكة عبدالله ابن كثير ، وحميد بن قيس الأعرج ، ومحمد بن محيصن وكان بالكوفة : يحيى بن وثاب ، وعاصم بن أبي النجود ، وسليمان الأعمش . ثم حمزة ثم الكسائي .

وكان بالبصرة : عبدالله بن أبي إسحاق ، وعيسى بن عمرو ابن العلاء وعاصم الجحدري ، ثم يعقوب الحضرمي •

وكان بالشام : عبدالله بن عامر ، وعطية بن قيس الكلابي ، وإسماعيل ابن عبدالله ، وابن المهاجر ، ثم يحيى بن الحارث الذّماوي ، ثم شـريح بن يزيد الحضرمي •

وقد لمع في سماء هؤلاء القراء نجوم عِدّة مهروا في القراءة والضبط، حتى صاروا في هذا الباب أئمـة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم •

ثم اشتهرت عبارات تحمل أعداد القراءات • فقيل : القراءات السبع ، والقراءات العشر ، والقراءات الأربع عشرة • وأحظى الجميع بالشهرة ونباهة الشأن : القراءاتُ السبعُ وهي القراءات المنسوبة الى الأئمـة السـبعة المعروفين ، وهم : نافع ، وعاصم ، وحمزة ، وعبدالله بن عامر ، وعبدالله بن كثير ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعلي الكسائي •

ومما يستحسن التنبيه عليه : أنه كان كـل من الأحرف مما نزل بـه جبريل ــ عليه السلام ــ على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وألقاه إليـه ليقرأه على أصحابه ، فتتوسع لهم دائرة القراءة للقرآن الكريم • ففي تفسير القرطبي : قال إبن عطية : أباح الله تعالى لنبيه ــ عليه السلام ــ هذه الحروف السبعة ، وعارضه بها جبريل ــ عليه السلام ــ في عَرْضاتِهِ على الوجـه الذي فيه الإعجاز ، وجودة الوصف ، ولم تقع الإباحـة في قولـه ــ عليـه السلام ــ فاقرأوا ما تيسّر منه بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه ، ولو كان هـذا لذَهَب إعجاز القرآن ، وكان معرضاً لأن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل من عند الله • وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي ــ صلى

الله عليه وسلم ـ ليوسع بها على أمته فأقرأ مرة لأبيّ بما عارضه به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً • وعلى هذا تجيء قـراءة عمر بـن الخطاب لسورة الفرقان ، وقراءة هشام بن حكيم لها،وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ في كل قراءة منهما ، وقـد اختلفا ، (هكذا أقرأني جبريل) ؟ هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهـذه ، ومرة بهـذه ، وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ (إن ناشئة الليل هي أشـد وَطْئاً وأصوب قيلا) • فقيل له : إنما تقرأ (وأقوم قيلا) فقال أنس : (وأصوب قيلا ، وأقوم قيلا وَأَهْيأ) واحد" ، فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلا فلو كان هذا لأحدٍ من الناس أن يضعـه لبطل معنى قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » •

الامر السادس جمع القرآن الكريم

للقرآن الكريم جمع في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجمع في عهد خلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وجمع في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ ولنذكر ذلك :

أما الأول ـ أي الجمع في عهد الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فلا شك أن همة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه كانت متوجهـة أول الأمر إلى جمع القرآن في القلوب ، وحفظه في الصدور ، ضرورة أنـه نبيّ أميّ بعثه الله في الأميين • علاوة على ذلك انه لم يكن أدوات الكتابـة ميسورة لديهم في ذلك العهد • ومن هنـا كان الإعتماد على الحفـظ في الصدور أكثر من الإعتماد على الحفظ بين السطور • ولكن القرآن الكريم أخذ نصيباً وافياً من الأمرين : أي الحفظ في الصـدور ، والحفـظ بين السطور • فقد اتخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ كُتّـابـاً للوحي المنزل • فكلما نزل من القرآن شيء أَمَرَهُم بكتابته مبالغة" في حفظه •

وكان هؤلاء الكتّاب من خيرة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فيهم : أبو بكر وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ومعاوية ، وإبان بن سعيد ، وخالد بن الوليد ، وأُبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وثابت بن قيس وغيرهم ... وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدلهم على موضع المكتوب في سورته ، فيكتبونه في ما يسهل عليهم من : جريد النخل ، والحجارة الرقيقة ، وما تيسر من جلد ، أو ورق ، وعظام الأكتاف وغيرها ... ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهكذا إنقضى العهد النبوي السعيد .

روي عن ابن عباس أنه قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض مَن يكتب ، فقال : ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا .

وعن زيد بن ثابت قال : كنّا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نؤلف القرآن من الرّقاع . وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل ـ عليه السلام ـ فقد ورد أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان يقول : ضعوا كذا في موضع كذا . ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله ـ عز وجلّ ـ .

أما الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فقد كان منهم من يكتبون القرآن ولكن فيما تيسر لهم من : قرطاس ، أو كتف ، أو عظم ، أو نحو ذلك بالمقدار الذي يبلغ الواحد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ولم يلتزموا توالي السور وترتيبها ، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة أُنزلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو كتبها ثم خرج في سرية مثلا فنزلت في وقت غيابه سورة .. فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ثم يستدرك ما كان قد فاته في غيابه فيجمعه ، ويتتبعه على حسب

ما يسهل له ، فيقع في ما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك . وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب جرياً على عادة العرب في حفظ أنسابها ، واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة .

والحاصل أن القرآن كان مكتوباً كله على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت كتابته ملحوظاً فيها أن تشمل الأحرف السبعة التي نزل عليها . غير أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة وبعضها هو ثابت بخبر الواحد . وربما كتبه غير مرتب ، ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعاً في صحف ولا مصاحف عامة . وذلك لأمور :

أولها : أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد في عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف ، ولا مثل ما وجد على عهد عثمان حتى نسخه في مصاحف . فالمسلمون وقتئذ بخير ، والقراء كثيرون ، والإسلام لم تتسع رقعته بعدُ ، والفتنة مأمونة ، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة ، وأدوات الكتابة غير ميسورة ، وعناية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ باستظهار القرآن تفوق الوصف حتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها .

ثانيها : أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات .

ثالثها : أن القرآن لم ينزل مرة واحدة ، بل نزل منجماً في مدى عشرين سنة أو أكثر .

رابعها : أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله ؛ فقد علمتَ أن نزوله كان على حسب الأسباب ، أما ترتيبه فكان لِغير ذلك من الإعتبارات .

وأما الثاني ـ أي الجمع في عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ : فكان السبب فيه إستشهاد كثير من القراء ، وخوف ضياع بعض من آيات القرآن الكريم . وفي ذلك يروي البخاري في صحيحه : أن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال : أَرْسَلَ إليَّ أبو بكر مَقْتَلَ أهلِ اليمامة ، أي عَقب إستشهاد القرّاء السبعين في واقعة (اليمامة) فإذا عمر بن الخطاب عنده . قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : إنّ عُمَرَ أتاني فقال إنّ القتل قد استحرّ (أي إشتدّ) يومَ اليمامة بقرّاء القرآنِ ، وإنّي أخشى أَن يستحرَّ القتل في المَواطِنِ فيذهَبَ كثيرٌ من القرآن ، وإنّي أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلتُ لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قال عمر : هذا واللهِ خيرٌ . فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجلٌ شابٌ عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَتَتَبَّع القرآن فَاجْمَعْه ، فوالله لَو كَلّفوني نقلَ جَبَل من الجبال ما كان أَثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قال : هو والله خيرٌ . فلم يزل أبو بكر يُراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر . فتتبعت القرآن أجمَعُه مِن العُسُب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدْها مع أَحَدٍ غيره : « لقد جاءكم رَسُول مِن أَنْفُسِكم عَزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حَرِيصٌ عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تَولّوا فَقُل حَسْبيَ اللهُ لا إلهَ إلاّ هو عليه توكلتُ وهو رَبُ العرشِ العظيم » .

فأَرادَ أنه لم يجد آخر سورة براءة مكتوباً عند أحد إلا عند أبي خزيمة الأنصاري .

وأما حفظاً : فكان محفوظاً عند كثير من الأصحاب ـ رضي الله تعالى عنهم ـ أجمعين . كما هو مذكور ومسطور في النقول المعتمدة .

فكانت الصحف عند أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حتى توفاه الله ، ثم عند عمر في مدة حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ

وهذا الجمع كان بعناية بالغة ويدل عليها ما أخرجه أبو داود انّ أبا بكر قالَ لعُمَر ولزيد : أقعُدا على باب المسجد فمن جاء كُما بشاهدين على شيء من كتاب الله آكتباه . قال السخاوي في جمال القرّاء ما يفيد : أن المراد بهما رجلان عدلان يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يعتمد زيد على الحفظ وحده . ولذلك قال في الحديث الذي رواه البخاري سابقاً : أنه لم يجد آخر سورة براءة إلا مع أبي خزيمة ، أي لم يجدها مكتوبة إلا مع أبي خزيمة الأنصاري مع أنّ زيداً كان يحفظها ، وكان كثير من الصحابة يحفظونها . ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة زيادة في التوثق . ثم جُمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير . وكان ذلك مَنْقَبَةً خالدة لا يزال التأريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف ، ولعُمَر في الإقتراح ، ولزيد في التنفيذ ، وللصحابة في المعاونة والإقرار . قال علي ـ كرم الله وجهه ـ أعظم الناس في المصاحف أجراً : أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله . أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن .

وامتازت هذه الصحيفة أولا بأنها جمعت القرآن على أدق وجوه البحث والتحري وأَسْلَم أصول التثبت العلمي .

ثانياً بأنه إقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته .

ثالثاً انها ظفرت بإجماع الأمة عليها وتواتر ما فيها .

وأما الجمع الثالث أي جمع القرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان ـ رضي الله تعالى عنه ـ فالداعي إليه أنه اتّسعت الفتوحات في زمانه وتفرّق المسلمونَ في الأمصال ، وظهر جيلٌ جديدٌ كان بحاجة إلى دراسة القرآن وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة ؛ فأهل الشام يقرأون بقراءة أُبَيّ بن كعب وأهل الكوفة يقرأون بقراءة عبدالله بن مسعود وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري . فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة بطريقة فتَحَتْ بابَ النزاع في قراءة القرآن .

ومن ذلك ما وقع بين بعض الأصحاب عندما اجتمعوا في غزوة (أَرْمينيّة) فقرأت كل طائفة بما روي لها . فاختلفوا وتنازعوا . فأشفقَ حذيفةُ بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ من ذلك . فلما قَدِمَ المدينةَ دخلَ على عثمان قبل أن يذهب الى بيته . فقال له : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ! قال : في ماذا ؟ قال : في كتابِ اللهِ . إني حضرت هذه الغزوة وجمعت ناساً مِنَ العراق والشام والحجاز . فوصف له ما تقدم . وقال : إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلفت اليهود والنصارى .

وقد روى سويد بن غفلة عن علي بن أبي طالب ان عثمان قال : ماترون في المصاحف فإن الناس قد اختلفوا في القراءة حتى أن الرجل ليقول : قراءتي خير من قراءتك وقراءتي أفضل من قراءتك ! وهذا شبيه بالكفر . قلنا ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين ؟ قال الرأي عندي : أن يجتمع الناس على قراءة . فإنكم إذا اختلفتم اليوم كانَ مَنْ بعدكم أشدّ اختلافاً . قلنا : الرأيُ رأيك .

وشرع عثمان في تنفيذ هذا القرار الحكيم حوالي أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة . فعمد في نسخ المصاحف

الى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ . وهم : زيد بن ثابت ، وعبدالله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث . وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قريش . وأرسل عثمان إلى أمّ المؤمنين حفصة بنت عمر ، فبعثت إليه بالصّحف التي عندها ، وهي الصحف التي جمع القرآن فيها على عهد أبي بكر رضي الله عنه . وقد جعلت إماماً في هذا الجمع الأخير وهذا صحيح .

وجاء في بعض الروايات أن الذين نُدبوا لِنسخ المصاحف كانوا إثني عشر رجلا ، وما كانوا يكتبون شيئاً إلا بعد أن يعرض على الصحابة ويقرّوا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ على هذا النحو الذي نجده الآن في المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين : إذا اختلفتُم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسانِ قريش ؛ فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف الى حفصة ـ رضي الله تعالى عنها ـ .

ومما تواضع عليه هؤلاء الصحابة ، أنهم كانوا لا يكتبون في هذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن وعَلِموا أنه قد استقر في العرضة الأخيرة وما أيقنوا صحته عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما لم ينسخ وتركوا ماسوى ذلك .

وإنما كتبوا مصاحف متعددة لأن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه الى أقطار بلاد المسلمين وهي متعددة . وكتبوها متفاوتة في إثباتٍ وحذفٍ وَبَدَلٍ وغيرها ؛ لأنه ـ رضي الله عنه ـ قَصَدَ اشتمالها على الأحرف السبعة . وجعلوها خالية من النقط والشكل تحقيقاً لهذا الإحتمال أيضاً . فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها

بأكثر من وجه واحد عند تجردها من النقط والشكل نحو (فتبيّنوا) من قوله تعالى : « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا » فإنها تصلح أن تقرأ (فتثبّتوا) عند خلوّها من النقط والشكل . وهي قراءة أخرى وكذلك (نُنْشِرها) مِن قوله تعالى : (وانظر الى العظام كيف ننشزها) فإنّ تجردها عن النقط والشكل يجعلها صالحة عندهم أن يقرءوها بالزاي المعجمة وهي قراءة واردة . أما الكلمات التي لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوّها من النقط والشكل مع أنّها واردة بقراءة أخرى أيضاً فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة . وفي بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية كقراءة (وَصّى) بالتضعيف و (أوْصى) بالهمزة وهما قراءتان في قوله سبحانه : « وَوَصّى بها ابراهيمُ بَنيه ويَعْقوب » وكذلك قراءة (تَحتَها الأنهارُ) وقراءة (مِنْ تحتِها الأنهار) بزيادة لفظ (مِن) في قوله تعالى في سورة التوبة : « لهم جنّات تجري مِن تحتها الأنهار » وهما قراءتان أيضاً .

وصفوة القول : أن اللفظ الذي لا تختلف فيه وجوه القراءات كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة . أما الذي تختلف فيه وجوه القراءات فإن كان لا يمكن رسمه في الخط محتملاً لتلك الوجوه كلها ؛ فإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه في مصحف ، ثم يكتبونه برسم آخر يوافق بعض الوجوه الأخرى في مصحف آخر . وكانوا يتحاشون أن يكتبوه بالرسمين في مصحف واحد خشية أن يتوهم أن اللفظ نزل مكرراً بالوجهين في قراءة واحدة وليس كذلك بل هما قراءتان نزل اللفظ في إحديهما بوجه وفي الثانية بوجه آخر من غير تكرار في واحدة منهما . وكذلك كانوا يتحاشون أن يكتبوا هذا اللفظ في مصحف واحد برسمين أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية لئلا يتوهم أن الثاني تصحيح

للأول . أضف إلى ذلك أن كتابة أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية دون العكس تحكّم أو ترجيح بلا مرجّح . وذلك نحو كلمة (وصّى) بالتضعيف و (أوصى) بالهمزة كما سبَق . أما اللفظ الذي تختلف فيه القراءات ويدل عليه الرسم بصورة واحدة تحتمل هذا الاختلاف ويساعدهم عليه ترك الإعجام والشكل نحو (فتبيّنوا) و (ننشرها) كما سلف بيانه . فتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين شبيهة بدلالة المشترك اللفظي على كلا المَعْنَيَين المعقولين .

والذي دعا الصحابة إلى انتهاج هذه الخطة في رسم المصاحف وكتابتها أنهم تلقّوا القرآن عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بجميع وجوه قراءاته وبكافّة حروفه التي نزل عليها فكانت هذه الطريقة أقرب إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها حتى لا يقال إنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته أو منعوا أحداً من القراءة بأيّ حرف شاء على حين أنها كانت منقولة نقلاً متواتراً عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « أيّ ذلك قرأتم أَصَبْتُم فلا تُمارُوا » .

وكان من الدستور الذي وضعه عثمان ـ رضي الله عنه ـ لهم في هذا الجمع أيضاً أنه قال لهؤلاء الثلاثة القرشيين : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا . حتى اذا نسخوا الصّحف في المصاحف ردّ عثمان الصحفَ إلى حفصة ـ رضي الله تعالى عنها ـ وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرَقَ . وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية ، وليحمل المسلمين على الجادّة في كتاب الله من ناحية أخرى . فلا يأخذوا إلاّ بتلك المصاحف التي تَوافَرَ فيها مِنَ المزايا ما لم يَتَوافر في غيرها . وهذه المزايا هي :

أولاً : الإقتصار على ما ثبت بالتواتر دون ما كانت روايته آحادا .

ثانياً : إهمالُ ما نسخت تلاوته ولم يستقرّ في العرضة الأخيرة .

ثالثاً : ترتيبُ السور والآيات على الوجه المعروف الآن .

رابعاً : كتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءاتِ المختلفةَ والأَحْرُفَ التي نَزَلَ عليها القرآنُ على ما مَرَّ بِكَ من عَدَمِ إعجامها وشَكلها ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحدُ .

خامساً : تجريدها من كل ما ليس قرآناً كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنىً أو بياناً لناسخ ومنسوخ أو نحو ذلك .

وقد استجاب الصحابةُ لعثمان فحرقوا مصاحفهم ، واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية ، حتى عبدالله بن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولاً مصاحف عثمان ، وأنه أبى أن يُحرق مصحفه .. رجع وعاد الى حظيرة الجماعة حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية ، واجتماع الأمة عليها ، وتوحيد الكلمة بها . وبعدئذٍ طَهُرَ الجوّ الإسلاميّ من أَوْبئة الشقاق والنزاع ، وأصبح مصحف ابن مسعود ، ومصحف أبيّ بن كعبٍ ، ومصحف عائشة ، ومصحف عليّ ، ومصحف سالم مَوْلى أبي حذيفة أَصْبَحَتْ كلها وأمثالها في خبرِ كان مَغسولةً بالماء ، أو محروقة بالنيران .

ورضي الله عن عثمان فقد أَرْضى بذلك العمل الجليل ربّه ، وحافَظَ عَلى القرآن ، وجَمع كلمة الأمّة ، وأَغلق باب الفتنة ، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعدَ اليوم .

وفَعَلَ ما فَعل بعد أن استشارَ الصحابة واكتسبَ موافقتهم ، بل وظفر بمعاونتهم وتأييدهم وشكرهم • روى أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال : سمعت علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ يقول : يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلوّ في عثمان ، وقولكم حَرّاقُ مصاحف • فوالله ما حرقها إلا عن مَلأ مِنّا أصحابَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن عمر بن سعيد قال : قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : لو كنتُ الوالِيَ وقتَ عثمان لفَعَلتُ في المصاحِفِ مثلَ الذي فَعَلَ عثمان رضي الله عن الجميع •

الامر السابع ترتيب آيات القرآن وسوره

أما ترتيب آيات القرآن في كلّ سورة منه ، فقد انعقد الإجماع على أنه كان بتوقيف[1] من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأنه لا مجال للرأي والإجتهاد فيه ، بل كان جبريل ينزل بالآيات عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويرشده الى موضع كل آية من سورتها ، ثم يقرؤها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه ، ويأمر كُتّابَ الوحي بكتابتها مُعَيِّناً لهم السورةَ التي تكون فيها الآية وموضعَ الآية من هذه السورة • وكان يتلوها عليهم مراراً وتكراراً في صلاته وعِظاتِه ، وفي حكمه وأحكامه ، وكان يعارض به جبريل في كل عام مرة • وعارضه به في العام الأخير مرتين • كل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا في المصاحف • وكذلك كان كل من حفظ القرآن أو شيئاً منه من الصحابة حفظه مرتّب الآيات على هذا النمط • وشاع ذلك وذاع وملأَ البقاع والأسماع ، يتدارسونه فيما

(١) ولما لم يامر بذلك في اول سورة (براءة) تركت بلا بسملة . هذا اصح ما قيل في ذلك .

بينهم ، ويقرءونه في صلاتهم ، ويأخذه بعضهم عن بعض ، ويَسْـمَعه بعضهم عن بعض بالترتيب القائم الآن • فليس لواحد من الصحابة والخلفاء الراشدين يَدٌ ولا تصريف في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم ، بل الجمع الذي كان على عهد أبي بكر لم يتجاوز نقل القرآن من العسـب واللخاف وغيرها في صحف • والجمع الذي كان على عهد عثمان لم يتجاوز نقله من الصحف في مصاحف • وكلا هذين كان على وفق الترتيب المحفوظ المستفيض عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الله تعالى ، أَجَلْ إنعقد الإجماع على ذلك تاماً لا ريب فيه • وممن حكى هـذا الإجماع جماعة ، منهم : الزركشي في البرهان ، وأبو جعفر في المناسبات إذ يقول ما نصه : ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين •

وأما ترتيب السور ففيه ثلاثة أقوال :

الأول : إن ترتيب السور على ما هو عليه الآن لم يكن بتوقيف من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما كان باجتهاد من الصحابة وينسب هـذا القول إلى جمهور العلماء •

القول الثاني : إن ترتيب السور كلها توقيفي بتعليم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كترتيب الآيات ، وإنه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ • واستدل أصحاب هذا الرأي بأن الصـحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان ولم يخالف منهم أحـد • وإجماعهم لا يتم إلا اذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف ؛ لأنـه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم ، لكنهم لم يتمسكوا بها بل عدلوا عنها وعن ترتيبهم • وعدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها

ورجعوا الى مصحف عثمان وترتيبه جميعاً • ثم ساقوا روايات لمذهبهم كأدلة يستند إليها الإجماع •

منها ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقفي قال : كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف إلى أن جاء في هذه الرواية ما نصه : فقـال لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طَرَأَ علَيَّ حزبٌ من القرآن فأردت أَلاَّ أخرج حتى أقضيَهُ (أي أقرأهُ بتمامه) • فسألنا أصحابَ رسول الله قلنا : كيف تحزبون القرآنَ ؟ قالوا : نُحزِّبه ثلاث سور ، وخَمْسَ سُور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشرة • وحزب المفصّـل من (ق) حتى نختم • قالوا : فهـذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

واحتجوا لمذهبهم أيضاً بأن السور المتجانسة في القرآن لم يُلتزم فيها الترتيب والولاء • ولو كان الأمر بالإجتهاد لَلوحِظَ مكانُ هذا التجانس والتماثل دائماً • لكن ذلك لم يكن بدليل أن سور المسبحات لم ترتب على التوالي بينما هي متماثلة في افتتاح كل منها بتسبيح الله ، بل فصـل بين سورها بسـورة (قد سمع) و (الممتحنة) و (المنافقين) • وبدليل أن طسم الشعراء ، وطسم القصص لم يتعاقبا مع تماثلهما • بل فصـل بينهما بسورة أقصر منهما وهي (طس) •

وقد أيد هذا المذهب أبو جعفر النحاس ، فقـال : المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ ، لحديث واثلة : أُعْطيتُ مَكانَ التوراة السّبعَ الطوال • وكذلك إنتصر أبو بكر الأنباري لهذا المذهب فقال : أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ، ثم فرّقه في بضع وعشرين سنة ، فكانت السـورة تنزل لأمر يحـدث ، والآية جواباً

لمستخبر . ويقف جبريلُ النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ على موضع السورة والآيات . والحروف كله من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن قدّم سورة أو أخّرها أفسد نظم القرآن .

وأخرج إبن أشته في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب ، عن سليمان بن بلال ، قال : سمعت ربيعة يسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران وقد انزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة ، وانما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال : قدّمتا وألّف القرآن على علم ممن ألفه به ، إلى أن قال : فهذا مما ينتهى إليه ولا يسأل عنه .

القول الثالث : إن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبي وترتيب بعضها الآخر كان باجتهاد من الصحابة ، وقد ذهب الى هذا الرأي فطاحلُ من العلماء ، ولعله أمثَلُ الآراء لأنه وردت أحاديث تفيد ترتيب البعض كما مرّ بك من الرأي الثاني القائل بالتوقيف ، وخلا البعض الآخر مما يفيد التوقيف . بل وردت آثار تصرح بأن الترتيب في البعض كان عن اجتهاد . بَيدَ أن المؤيدين لهذا المذهب اختلفوا في السور التي جاء ترتيبها عن توقيف والسور التي جاء ترتيبها عن اجتهاد . فقال القاضي أبو محمد ابن عطية : إن كثيراً من السور قد علم ترتيبها في حياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كالسبع الطوال والحواميم والمفصّل وأما ما سوى ذلك فيمكن أن يكون فرض الأمر فيه إلى الأمة بعده .

وقال أبو جعفر بن الزبير : الآثار تشهد بأكثر مما نصّ عليه ابن عطية ، ويبقى فيها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إقرأوا الزّهراوين : البقرة ، وآلَ عمران ، رواه مسلم .

وكحديث سعيد بن خالد : قرأ رســـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالسبع الطوال في ركعة ، رواه ابن أبي شيبة في مصنفه . وفيه أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ كان يجمع المفصل في ركعة .

وروى البخاري عن ابن مسعود أنه قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال في بني اسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء : إنّهنّ مِنَ العِتاقِ الأُولِ وهُنّ مِن تِلادي (المراد بالتلادِ ما نَزَلَ أوّلاً) . فذكرهـا نسقاً كما استقر ترتيبها وفي صحيح البخاري : أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفّيــه ثم نفث فيهما فقرأ قل هو الله أحَد والمعوّذتين .

وقال السيوطي ما نصه : الذي يشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي ، إلا (براءة) و (الأنفال) . وحينئذ فلا يرد حديث قراءة النساء قبل آل عمران ؛ لأن ترتيب الســور في القراءة ليس بواجب . ولعله فعل ذلك لبيان الجواز .

والأمر على كل حال سهل حتى لقد حاول الزركشــي في البرهان أن يجعل الخلاف من أساسه لفظياً . فقال : والخلاف بين الفريقين أي القائلين بأن الترتيب عن اجتهاد والقائلين بأنه عن توقيف لفظي ؛ لأن القائل بالثاني يقول : إنه رَمَزَ إليهم ذلك لعلمهم أسباب نزوله ومواقع كلماته . ولهـذا قال مالك : إنما ألّفوا القرآن على ما كانوا يســمعونه من النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع قوله بأن ترتيب السور كان باجتهاد منهم . فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولي ، أو بمجرد إسناد فعلي بحيث يبقى لهم مجــال للنظر . وسبقه إلى ذلك جعفر بن الزبير .

وسواء أكان ترتيب السور توقيفياً أم إجتهادياً ، فإنه ينبغي احترامه خصوصاً في كتابة المصاحف لأنه عن إجماع الصحابة والإجماع حجة ولأن خلافه يجرّ إلى الفتنة ودرء الفتنة وسد ذرائع الفساد واجب .

ومما ينبغي أن يعلم أنه قسم العلماء سور القرآن إلى أربعة أقسام ، وخصّوا كلاً منها باسم ، وهي : الطّوال ، والمئون ، والمثاني ، والمُفَصّل . فالطوال سبع سور : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف . فهذه ستة واختلفوا في السابعة : أهي الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة ؟ أم هي سورة يونس ؟

والمِئون : هي السور التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها . والمثاني : هي التي تلي المئين في عدد الآيات . وقال الفرّاء : هي السور التي آيها أقلّ من مائة آية لأنها تثنى (أي تكرر) أكثر مما تكرر الطوال والمئون .

والمفصل : هو أواخر القرآن واختلفوا في تعيين أوله . وصحح النووي أن أوله الحجرات ، وسمي بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة . وقيل : لقلة المنسوخ منه . وقيل : لكثرة الفصل بين آياتها وذلك لقصرها . والمفصل ثلاثة أقسام : طوال ، وأواسط ، وقصار . فطواله : من أول (الحجرات) إلى سورة (البروج) . وأوساطه : من سورة (الطارق) إلى سورة (لم يكن) . وقصاره : من سورة (إذا زلزلت) إلى آخر القرآن . وإنما لم تتميز الأنفال من براءة بالبسملة . قال عثمان ـ رضي الله عنه ـ : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعضَ مَن يكتب ، فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال نزلت بالمدينة. وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت

أنّها منها فقبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يُبيّن لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنتُ بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتهما في السبع الطوال ، أي أن قرن براءة بالأنفال للمناسبة الشديدة في القصة ، وسكوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الأمر بزيادة البسملة جعلني بحيث لم أتجرّأ على زيادتها ،

وقيل : إن سكوته عن ذلك والحكمة في ذلك نزول (براءة) في الغضب الغير المناسب للإفتتاح بشعار الرحمة ،

الامر الثامن اول ما نزل وآخر ما نزل

ورد في أول ما نزل أقوال :

أصحها أنه صدر سورة العلق إلى قوله تعالى : « علّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَمْ » ،

الثاني أنه : (يا أيها المدثر) إلى آيات ، والمحققون على أنه أول ما نزل بعد فترة الوحي وذلك هو الظاهر من رواية رواها الشيخان عن أبي سلمة عن جابر فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري قِبَلَ السماء فإذا المَلك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجئثت حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلي فقلت : زمّلوني زملوني ! فأنزل الله تعالى : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرّجز فاهجر » ، فظاهر هذه الرواية يدل على أن جابراً إستند في كلامه على أن أول ما نزل من القرآن هو المدثر إلى ما سمعه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يحدّث عن فترة الوحي وكأنه لم يسمع بما حدث به رسول الله عن الوحي قبل فترته من نزول المَلَك على الرسول في حراء بصدر سورة (إقرأ) ،

القول الثالث : إن أول ما نزل (سورة الفاتحة) وهذا قول عدد قليل جداً ولا قاطع عليه .

القول الرابع : هو أن أول ما نزل (بسم الله الرحمن الرحيم) واستدل قائلوه بما أخرجه الواحدي عن عكرمة والحسن قالا : أول ما نزل من القرآن (بسم الله الرحمن الرحيم) وأول سورة (إقرأ) . وردّ هذا بأنه مرسل فلا يعارض المسند . والصحيح : أن أول ما نزل صدر سورة العلق وأن البسملة نزلت بعد ذلك والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر بوضعها في أول السورة .

وأما آخر ما نزل من القرآن ففيه أقوال : أصحها أن آخر ما نزل منه على الإطلاق هو قوله تعالى : « واتّقوا يوماً ترْجعونَ فيه إلى الله ثم تُوفّى كلُّ نَفْسٍ ما كسبت ، وهم لا يُظلمون » . أخرجه النسائي وعاش النبي صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك تسع ليالٍ ثم توفى لليلتين خلتا من ربيع الأول ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلّم ـ .

الامر التاسع العلم بالمكي والمدني

وفي هذا إصطلاحات :

الأول : إن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة . والمدني ما نزل بالمدينة . ويدخل في كل من مكة والمدينة ضواحيهما . وهذا لوحِظَ فيه مكان النزول كما ترى ، لكنه غير حاصر لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما .

الثاني : إن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة . والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة . وهذا التقسيم لوحِظَ فيه المخاطبون كما ترى ، لكن يَرِدُ عليه أمران : أحدهما : ما ورد على الأول من أنه غير ضابط فإن فيه

ما ورد غير مصدّر بأحدهما نحو قوله تعالى : « يا أيهـا النبي اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » والثاني : أن هذا التقسـيم غير مطرد في جميع موارد الصيغتين المذكورتين إذ هناك آيات مدنيّة صدرت بصيغة (يا أيهـا الناس) وآيات مكية صـــدرت بصيغة (يا أيها الذين آمنوا » مثال الأولى سورة النساء ؛ فإنها مدنية وأولها (يا أيها الناس اتقوا ربكم » ومثال الثانية سورة الحج ؛ فإنها مكية مع أنّ في أواخرها « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا •••) الآية •

الثالث : وهو المشهور أن المكي ما نزل قبل هجرته ـ صلى الله عليـه وسلم ـ إلى المدينة ـ وإن كان نزوله بغير مكة ـ والمدني ما نزل بعد الهجرة ـ وان كان نزوله بمكة ـ وهذا التقسيم لوحِظَ فيه زمن النزول • وهـــو تقسيم صحيح سليم لأنّه ضابط حاصر ومطـرد لا يختلف • ولذلك إعتمده العلماء واشتهر بينهم ، وعليه فآية (اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتَ لكم الإسلامَ ديناً) مدنية مع أنها نزلت يوم الجمعة بعرفة في حجة الوداع • وكذلك آية (إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانـاتِ إلى أهلها) فإنّها مدنية مع أنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح •

ومن فوائد العلم بالمكي والمدني : تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفاً للحكم في غيرها ، ثم عرف أن بعضها مكي وبعضها مدني ، فإنا نحكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظراً إلى تأخر المدني عن المكي •

ومن فوائده أيضاً معرفة تأريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام ، وذلك يترتب عليه الإيمان بسموّ السياسة الإسلامية في تربية الشـــعوب والأفـراد •

ومن فوائده أيضاً الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف . ويدل على ذلك إهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتى إنهم يعرفون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها ، وما نزل بالحضر ، وما نزل بالسفر ، وما نزل بالنهار وما نزل بالليل ، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف ، إلى غير ذلك ... فلا يتصور عاقل أن القرآن أهمل حتى تمتد إليه أيدي العابثين حيث كان الصحابة الكرام متحمسين لحراسته وحمايته والإحاطة بكل ما يتصل به . وقد ذكروا ضوابط لمعرفة المكي والمدني . أما ضوابط المكي فهي كما يلي :

أولاً : كل سورة فيها لفظ كلا فهي مكية . وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن . وذلك لأن أهل مكة كانوا جبابرة ، فتكررت فيه الكلمة المذكورة على وجه التهديد .

ثانياً : كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية .

ثالثاً : كل سورة في أولها حروف الهجاء ، فهي مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع ، وفي الرعد خلاف .

رابعاً : كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى سورة البقرة .

خامساً : كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة أيضاً .

سادساً : كل سورة من المفصل فهي مكية . أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : نزل المفصل بمكة فمكثنا حججاً نقرؤه ولا ينزل غيره .

ولكن التحقيق يحكم بأن كلام ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يحمل على الكثرة الغالبة من سور المفصل لا على جميعها .

سابعاً : كل سورة فيها يا أيها الناس وليس فيها يا أيها الذين آمنوا فهي مكية إلاّ سورة الحج .

وأما ضوابط المدني فهي كما يلي :

أولاً : كل سورة فيها الحدود والفرائض فهي مدنية .

ثانياً : كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهي مدنية .

ثالثاً : كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت . والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها فإنها مدنية وهي التي ذكر فيها المنافقون .

الامر العاشر آداب التلاوة

يستحب الإكثار من قراءة القرآن وتلاوته ، قال تعالى في الثناء على التالين : « يتلون آيات الله آناءَ الليل » . وفي الصحيحين من حديث ابن عمر : لا حسد إلا في اثنتين : رجلٍ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ... وروى الترمذي من حديث ابن مسعود : من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها . وأخرج مسلم من حديث أبي أمامة : إقرأوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه .. الى غير ذلك من الأحاديث الشريفة .

وأما مقدار التلاوة : فقد كان للسلف فيه عادات . أخرج إبن أبي داود عن مسلم بن عمران قال : قلت لعائشة : إن رجالاً يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثاً . فقالت : قرأوا أو لم يقرأوا كنت أقوم مع رسول الله

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة التمام فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنســاء . فلا يَمُرُّ بآية فيها استبشار إلاّ دَعا ورغب . ولا بآية فيهـا تخويف إلاّ دعا واستعاذ .

وأخرج أحمد وأبو عبيد عن سعيد بن المنذر وليس له غيره . قـال : قلت : يا رسول الله أقرأ القرآن في ثلاث ؟ قال : نعم إن استطعت . ويليه من ختم في أربع ، ثم في خمس ، ثم في ست ، ثم في سبع . وهذا أوسط الأمور وأحسنها . وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم . أخرج الشيخان عن عبدالله بن عمر قال : قال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إقـرأ القرآن في شهر . قلت : إني أَجِدُ قُوَّةً . قال : إقرأه في عشر . قلت : إني أجد قوة . قال إقرأه في سبع ولا تزد على ذلك .

وقد روى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال : من قرأ القرآن في كل سنة مرتين فقد أدى حقّه لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرض على جبريل في السنة التي قبض فيهـا مرتين . وقال غيره : يكره تأخير ختمه أكثر من أربعين يوماً بلا عذر . نص عليـه أحمد . لأن عبدالله بن عمر سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : في كم نختم القرآن ؟ قال : في أربعين يوماً . رواه أبو داود .

وقال النووي في الأذكار المختار : إن ذلك تختلف باختلاف الأشخاص فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائفُ ومعارفُ فليقتصر على قدر يحصـل له معه كمال فهم ما يقرأ . وكذلك من كان مشغولاً بنشر العلم أو فصـل الحكومات وغير ذلك من مهمات الدين والمصالح العامة فليقتصر على قـدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مُرَصَّد له ولا فوات كماله ، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليكثر ما أمكنه من غير خروج إلـى حد الملل أو الهَذْرَمَة في القراءة .

ويستحب الوضوء لقراءة القرآن لأنه أفضل الأذكار وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكره أن يذكر الله إلا على طهر كما ثبت في الحديث ولا تكره القراءة للمحدث • وأما الجنب والحائض فيحرم عليهما القراءة • وأما متنجس الفم فتكره له القراءة • ويستحب أن يجلس مستقبلاً متخشعاً بسكينة ووقار مُطْرِقاً رأسه ، ويسن أن يستاك تعظيماً وتطهيراً • ويسن التعوّذ قبل القراءة • قال تعالى :(فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) فإن كان المتلوّ صدر السورة يعقبه بقراءة بسم الله الرحمن الرحيم متصلة به أو منفصلة عنه • وليحافظ على قراءة البسملة اول كل سورة غير (براءة) لأن أكثر العلماء على أنّها آية ، فإذا أخلّ بها كان تاركاً لبعض الختمة عند الأكثرين • فان قرأ أثناء سورة إستحب له ـ أيضاً ـ نص عليه الشافعي فيما نقله العبادي كما في الإتقان للسيوطي ـ رحمه الله تعالى • ويسن الترتيل في قراءة القرآن قال تعالى : « وَرَتِّلِ القُرآنَ ترتيلاً » • وروى أبو داود وغيره عن أم سلمة أنها نعتت قراءة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قراءة مفسرة حرفاً حرفاً •

وفي البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : كانت مَدّاً ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يَمُدّ (الله) ويمد (الرّحمن) ويمد (الرّحيم) •

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : لا تنثروه نثر الدقل ـ رديء التمر ـ ولا تَهُذّوه هَذّ الشِّعْرِ ، قِفوا عند عجائبه وحَرِّكوا به القلوبَ ، ولا يكون همّ أحدكم آخرَ السورة • واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع • قالوا : وقراءة جزءٍ بترتيل أفضل من قراءة جزئين في قدر ذلك الزمان بلا ترتيل ، ويسن القراءة بالتدبر والتفهم فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم ، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب • قال تعالى :

« كتاب أنزلناه إليك ليدّبّروا آياته » وقال : « أفلا يتدبرون القرآن » وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يتلفظ به فيعرف معنى كل آية ويتأمل الأوامر والنواهي ، ويعتقد قبول ذلك ، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى إعتذر واستغفر . وإذا مرَّ بآية رحمة إستبشر وسأل ، أو عذاب أشفق وتعوّذ أو تنزيه نَزَّهَ وعَظَّمَ ، أو دعاء تَضَرَّعَ وطَلَبَ .

أخرج مسلم عن حذيفة قال : صليتُ مع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذات ليلة فافتتح البقرة فقرأها ، ثم النساء فقرأها ، ثم آل عمران فقرأهـا ، يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح وإذا مرَّ بتعوّذ تعوّذ .

وأخرج أبو داود والترمذي حديث من قرأ (والتين والزيتون) فانتهى الى آخرها فليقل (بلى وأنا على ذلك من الشاهدين) . ومن قرأ (لا أقسم بيوم القيامة) فانتهى إلى آخرها فليقل : (بلى) . ومن قرأ (والمرسلات) فبلغ (فبأيّ حديث بعده يؤمنون) فليقل : آمنا بالله .

وأخرج أحمد وأبو داود عن ابن عباس أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان اذا قرأ (سبح اسم ربك الأعلى) قال : سبحان ربي الأعلى .

وأخرج الترمذي والحاكم عن جابر قال : خرج رسول الله على الصحابة فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال : لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن رُدُوداً منكم كنتُ كلّما أتيتُ على قوله « فَبأي آلاء ربكما تكذبان » قالوا : (ولا بشيء من نِعَمِكَ ربّنا نكذب فلك الحمد) .

وأخرج أبو داود وغيره عن وائل بن حجر سمعت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قرأ : (ولا الضالّين) فقال آمين ثلاث مرات .

وأخرجه البيهقي بلفظ : (قال رب اغفر لي آمين) . وأخرج عن معاذ ابن جبل أنه كان إذا ختم سورة البقرة قال (آمين). قال النووي : ومن الآداب إذا قرأ نحو « وقالت اليهود عزير ابن الله » ، « وقالت اليهود يد الله مغلولة » أن يخفض بها صوته كذا كان النخعي يفعل .

ويستحب البكاء عند قراءة القرآن ، والتباكي لمن لا يقدر عليه ، والحزن والخشوع قال تعالى : « ويخرون للأذقان يبكون » . وفي الصحيحين حديث قراءة ابن مسعود على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيه فإذا عيناه تذرفان . وفي شعب البيهقي عن سعد بن مالك مرفوعاً : أن هذا القرآن نزل بحزن وكآبة فإذا قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا . ويسن تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها لحديث ابن حبان وغيره : (زينوا القرآن بأصواتكم) وفي لفظ عند الدارمي (حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا) . وأخرج البزار وغيره حديث (حسن الصوت زينة القرآن) وفيه أحاديث صحيحة كثيرة فإن لم يكن حسن الصوت حسنه ما استطاع بحيث لا يخرج إلى حد التمطيط . وأما القراءة بالألحان فنص الشافعي في المختصر أنه لا بأس بها . وعن رواية الربيع الجيزي أنها مكروهة . قال الرافعي : فقال الجمهور : ليست على قولين ، بل المكروه أن يفرط في المد وفي إشباع الحركات حتى يتولد من الفتحة ألف ، ومن الضمة واو ، ومن الكسرة ياء ، أو يدغم في غير موضع الإدغام ، فإن لم ينته إلى هذا الحد فلا كراهة . قال : وفي زوائد الروضة : والصحيح أن الإفراط على الوجه المذكور حرام يفسق به القارىء ويأثم المستمع : لأنه عدل به عن نهجه القويم قال : وهذا مراد الشافعي بالكراهة .

ثم إنه وردت أحاديث تقتضي استحباب رفع الصوت بالقراءة ، وأحاديث تقتضي الإسرار وخفض الصوت . قال النووي والجمع بينهما أن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء أو تأذى مصلون أو نيام بجهره . والجهر أفضل في غير ذلك ؛ لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين، ولأنه يوقظ قلب القارئ ، ويجمع همه إلى الفكر ، ويصرف سمعه إليه ، ويطرد النوم ، ويزيد في النشاط ... ويدل لهذا الجمع حديث أبي داود بسند صحيح عن أبي سعيد : إعتكف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر وقال : ألا إن كلكم مناجٍ لربه فلا يؤذينّ بعضكم بعضا ، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة . وقال بعضهم : يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها لأنّ المسِرّ قد يَمَلّ فيأنس بالجهر ، والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار . ويسن السجود عند قراءة آية السجدة ، وهي اربع عشرة في : الأعراف ، والرعد ، والنحل ، والإسراء ، ومريم ، وفي الحج سجدتان ، والفرقان ، والنمل ، وألم تنزيل ، وفصلت ، والنجم ، وإذا السماء انشقت ، وإقرأ باسم ربك .

ويسن الإستماع لقراءة القرآن وترك اللغط والحديث بحضور القراءة قال تعالى : « وإذا قرِئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » والأوقات المختارة لقراءة القرآن أفضلها ما كان في الصلاة ، ثم الليل ، ثم نصفه الأخير . وهي بين المغرب والعشاء محبوبة ، وأفضل النهار بعد الصبح . ونختار من الأيام يوم عرفة ، ثم الجمعة ، ثم الإثنين ، والخميس . ومن الأعشار العشر الآخر من رمضان ، والعشر الأول من ذى الحجة . ومن الشهور رمضان . ونختار لابتدائه يوم الجمعة ونختمه ليلة الخميس .

ويسن صوم يوم الختم ، ويستحب التكبير من الضحى الى آخر القرآن ، وهي قراءة المكيين .

ويسن الدعاء عقب الختم لحديث الطبراني وغيره عن العرباض بن سارية مرفوعاً : (من ختم القرآن فله دعوة مستجابة) وفي الشعب من حديث أنس مرفوعاً : (من قرأ القرآن وحمد الله وصلى على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستغفر ربه فقد طلب الخير مكانه) .

ويسن إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقب الختم لحديث الترمذي وغيره (أحب الأعمال الى الله الحالّ المُرْتَحِلُ ، الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلّما حلّ ارتحل) . وأخرج الدارمي بسند حسن عن ابن عباس عن أُبيّ بن كعب أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قرأ قل أعوذ برب الناس إفتتح من الحمد ثم قرأ من البقرة إلى « وأولئك هم المفلحون » ثم دعا بدعاء الختمة ، ثم قام .

فائدة : واذا أراد شخص أن يقرأ القرآن الكريم كله أو بعضه ويهدي ثوابه أو مثل ثوابه إلى غيره من المسلمين فقد أتى بخير ، ويحصل للشخص المنوي ما أراده القارىء عند الأئمة الثلاثة : أبي حنيفة ، ومالك ، وأحمد بن حنبل . كما هو مسطور في كتب المذاهب . وأما الشافعي فخالف ذلك . ولكن المحققين من أتباعه أي بعض أصحابه وكثير من علماء مذهبه أَقردوا وقرروا وصول الثواب إلى من نواه . ويدل على ذلك أدلّة . منها حديث (إقرأوا يس على موتاكم) فإنه إن أراد بالموتى معناه الظاهر فالأمر واضح ، وإذا أراد به المشرفين على الموت فقد دل على أن لقراءة القرآن بركة وتسبّباً في تخفيف العذاب عند زهوق الروح ، وإذا كانت هذه البركة حاصلة من قراءة يس فأينما قُرِىء القرآن حصلت البركة للقارىء ولغيره من المسلمين ، واذا دعا القارىء بحصول البركة والثواب لهم فالله متفضل

بقبول ذلك لا سيما اذا اختتمت بالدعاء . فإنه تعالى قال : « أدعوني استجب لكم » ومنها ما في مسند الإمام أحمد في حديث عفيف بن الحرث ـ رضي الله عنه ـ ونصه : (حدثنا عبدالله ، حدثني أبي ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، حدثني المشيخة أنهم حضروا عفيف بن الحارث الثمالي حين اشتدّ سوقه ، فقال : هل منكم أحد يقرأ (يس) ؟ قال : فقرأها صالح بن شريح السكوني ، فلما بلغ أربعين منها قبض . وقرأها عيسى بن المعتمر عن ابن معيد) .

وفي الحديث : (من قرأ الإخلاص إحدى عشرة مرة ثم وهب أجرها للأموات أعطي من الأجر بعدد الأموات) . ويصح إهداء نصف الثواب أو ربعه كما نص عليه أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ . ومنها أدلة أخرى من الأئمة الأفاضل يطول الآن سردها . وفي كتاب الروح للحافظ أبي عبدالله الدمشقي الحنبلي الشهير بابن القيّم الجوزية ما حاصله : أنه أختلف في إهداء الثواب الى الحي فقيل : يصحّ لإطلاق قول أحمد يفعل الخير ويجعل نصفه لأبيه أو أمه . وقيل : لا ، لكونه غير محتاج لأنه يمكنه العمل بنفسه. إنتهى باختصار .

وقد تقرّر عند الشافعية ومحققيهم أنه يجوز إعطاء الأجرة على قراءة القرآن للميت . وأنه يصله ثوابه بحضوره عند قبره ، أو بنيته في أول القراءة والدعاء له أخيراً . والله أعلم .

ومما يجب أن يعلم أنه يجب على قراء القرآن الكريم رعاية التجويد وهو إعطاء كل حرفٍ حقه من أدائه من مخرجه الخاص وملاحظة صفاته من الترقيق والتفخيم والإطباق والإنفتاح والجهر والهمس والاظهار والاخفاء والادغام مع غنة وبدونها ، والشدّ والمدّ وغير ذلك على ما بين في

محله . وإلا فالقارىء المتمكن من التعلم المهمل لذلك الواجب المقدس آثم متحمل للأوزار . أعاذنا الله منها .

أما مخارج الحروف فسبعة عشر ولها خمسة مواضع : الحلق ، والجوف ، واللسان ، والشفتان ، والخيشوم . ويعرف مخرج كل حرف بأن تسكنه وتدخل عليه الهمزة المتحركة . فحيث إنقطع الصوت كان مَخْرَجاً له ، كما تقول في حرف الباء اَبْ . وفي حرف الميم اَمْ فحيثما تجد الصوت ينقطع على الشفة فذاك مخرجهما . فلنذكر مواضع الحروف على الترتيب :

المخرج الأول : أقصى الحلق ويخرج منه حرفان : الهمزة والهاءُ .

المخرج الثاني : وسط الحلق ويخرج منه العين والحاء المهملتان .

المخرج الثالث : أدنى الحلق أي أقربه الى اللسان ، ويخرج منه الغين والخاء المعجمتان .

المخرج الرابع : الجوف ويخرج منه ثلاثة أحرف : الألف ، والواو ، والياء الساكنات .

المخرج الخامس : ما بين أقصى اللسان مما يتصل بالحلق وما يحاذيه من الحنك الأعلى ويخرج منه القاف . ويسمّى باللّهاة .

المخرج السادس : أقصى اللسان من أسفل مخرج القاف قليلاً وما يليه من الحنك الأعلى ويخرج منه الكاف .

المخرج السابع وسط اللسان ويخرج منه ثلاثة أحرف الجيم والشين والياء .

المخرج الثامن من أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس الأيسر ، وقيل الأيمن ، ويخرج منه الضاد .

المخرج التاسع : من حافة اللسان من أدناه إلى منتهى طرفه وما بينهما وبين ما يليه من الحنك الأعلى ويخرج منه اللام ٠

المخرج العاشر : من طرف اللسان أسفل اللام قليلا ، ويخـرج منـه النـون ٠

المخرج الحادي عشر : من مخرج النون أيضاً إلا أنه أقرب الى ظهـر اللسان ، ويخرج منه الراء ٠

المخرج الثاني عشر : من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا صاعداً الى جهة الحنك الأعلى ، ويخرج منه الطاء والدال والتاء ٠

المخرج الثالث عشر : من بين طرف اللسان فوق الثنايا العليا والسفلى ، ويخرج منه الصاد والزاء والسين ٠

المخرج الرابع عشر : من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ويخرج منه الظاء والثاء والذال ٠

المخرج الخامس عشر : من باطن الشفة السفلى مع أطراف الثنايا العليا ويخرج منه الفاء فقط ٠

المخرج السادس عشر : ما بين الشفتين ويخرج منه الواو ، واليـاء ، والميم ٠ إلا أن الواو بانفتاحها ، والباء والميم بانطباقهما ٠

المخرج السابع عشر : الخيشوم وهو أقصى الأنف ويخرج منه أحرف الغنة وهي النون الساكنة والتنوين حال إدغامهما بغنة واخفائهما ، والميـم والنون المشددتان ٠

صفات الحـروف

وهي على قسمين : قسم له ضدّ وهو خمســة ، وضدّه كذلك ٠ وقسم لا ضد له وهو سبع ٠ فذوات الأضداد : الجهر وضــدّه الهمس ٠

والشدة وضدها الرخاوة وما بينهما . والاستعلاء وضده الإستفال . والإطباق وضده الإنفتاح . والاذلاق وضده الاصمات .

والتي لا ضد لها هي : الصفير ، والقلقلة ، واللين ، والانحراف ، والتكرير ، والتفشي ، والإستطالة ، فالجملة سبعة . فكل حرف تأخذ من الصفات المتضادة خمساً . وأما الصفات الغير المتضادة فتارة تأخذ منها صفة ، أو صفتين ، وتارة لا تأخذ منها شيئاً . فغاية ما يجتمع في الحرف الواحد سبع صفات . خمس من المتضادة وثنتان من غيرها كالانحراف والتكرير .

ومن أهم ما يجب معرفته منها أمور :

الأول : أحوال التنوين والنون الساكنة وهي أربع : الإظهار ، والإدغام ، والإقلاب ، والاخفاء . أما الاظهار ، وهو إخراج الحرف من مخرجه بدون غنة ، فإذا لقيت حروف الحلق وهي : الهمزة ، والهاء ، والعين ، والحاء ، والغين ، والخاء . نحو رسولٌ أمين ، ونحو مَنْ آمَنَ ، ونحو وَهُم يَنهَوْنَ عنه ، ويَنأوْن عنه . وقس عليه إلتقاءهما بباقي أحرف الحلق .

وأما الإدغام ، وهو اخفاء حرف في حرف ، أي حرف ساكن في حرف متحرك بحيث يصيران حرفاً مشدداً يرتفع اللسان عنه ارتفاعةً واحدةً ، فهو عند التقائهما بحروف (يرملون) لكن الإدغام في الياء والواو والميم والنون يكون مع غنّة ، وفي اللام والواو بدونها . وأمثلتها (إن يقولون إلا كذباً) ونحو (لقوم يؤمنون) . ويشترط أن يكون المدغم والمدغم فيه في كلمتين ، وإلا وجب الإظهار مثل (دُنْيا) و (قِنوان) و (صِنوانٍ) (وبُنْيانٍ) . ونحو (هُدىً مِن ربّهم) و (مِنْ مَلْجأٍ) . ونحو

(هُدىً وَرَحمة) و (من وَرائهم) • ونحو (حِطّة نغفر) و (إنْ نَقول) • وتلك أمثلة الإدغام مع الغنة ، ومثاله بلا غنة نحو (هُدىً للمتقين) • و (يُبيِّن لنا) • ونحو (غفور رحيم) و (مِن ربِّهم) •

وأما الإقلابُ : وهو جعل حرف مكان حرف آخر مع مراعاة الغنّة وذلك عند إلتقائهما بالباء • نحو (سميعٌ بصير) و (مِن بَعْد) •

وأما الإخفاء وهو النطق بهما بين الإظهار والادغام مع بقاء الغنة في الحرف الأول أعني التنوين والنون الساكنة فعند إلتقائهما مع خمسة عشر حرفاً مصدّرة في كلمات البيت الآتي وهو :

صِف ذا ثنا كم جاد شخص قد سما　　دُمْ طيّبا زد في تُقىً ضَعْ ظالما

والمثال نحو : (قوماً صالحين) ، و (عن صلاتهم) • وقِس عليهما باقي الأحرف •

احوال الميم الساكنة

ولها ثلاث حالات : الإدغام ، والإخفاء ، والاظهار • فتدغم في مثلها بغنة كاملة نحو : (لَهُم مثلا) و (لكم ما كسبتم) • وتخفى عند إلتقاء الباء بغنة ويسمى إخفاءً شفَوياً • نحو : (ترميهم بحجارة) و (هم بالآخرة) • وتظهر عند باقي الأحرف لكنها عند الواو والفاء أشد إظهاراً ويسمى إظهاراً شفوياً نحو : (وهم فيها) ونحو (عَلَيهم وَلا الضالّين) •

حال الميم والنون المشددتين

وهو إظهار غنتهما حينئذ نحو : (من الجنة والناس) ونحو (ثمَّ ، وَلَمّا) •

حال ال المعرفة

ولها إذا وقعت قبل حروف الهجاء حالتان : الإظهار على حروف (ابغ حَجّك وَخَف عَقيمَه) وتسمى حينئذ باللام القمرية نحو : (الانعام ، البرّ ، الغمام ، الحميم ، الجنة ، الكوثر ، الولدان ، الخير ، الفتنة ، العافين ، القمر ، اليوم ، المال ، الهدى) • والإدغام مع غير تلك الحروف ويجمعها أوائل كلمات هذا البيت :

طِب ثم صِلْ رَحما تَفُز ضف ذا نِعَم
دَع سُوء ظن زُرْ شريفاً لِلكرم

وتسمى اللام فيها بالشمسية لأنها تدغم وتخفى فيما بعدها كما في لفظ الشمس •

حال اللام الواقع في الفعل ساكنة

وحاله الإظهار مطلقاً ماضياً أو أمراً نحو : جعلنا ، وقلنا ، وضللنا ، والتقى ، وقل نعم •

احكام الادغام

وهو عبارة عن إدخال حرف ساكن في آخر متحرك ، وهما إما متماثلان ، أو متقاربان ، أو متجانسان • أما المتماثلان فهما المتفقتان صفة ومخرجاً • وحكم الإدغام حينئذ الوجوب نحو (اضرب بعصاك) ، و (بل لا يخافون) • وأما المتقاربان فهما حرفان تقاربا مخرجاً وصفة ؛ كالثاء مع الذال ، نحو (يلهث ذلك) • والباء مع الميم ، نحو (إركب معنا) والقاف عند الكاف نحو (ألم نخلقكم) • وأما المتجانسان فهما حرفان إتحدا مخرجاً واختلفا صفة ، كالطاء المطبقة مع التاء المهموسة نحو (لئن بَسَطتَ)

وكالتاء مع الطاء نحو (وقالت طائفة) وكالتاء عند الدال نحو (أجيبت دعوتكما) وكاللام مع الراء نحو (وقل رب) . وكالذال عند الظاء نحو (إذ ظلموا) .

احكام المد

والمد إطالة الصوت بحرف من حروف المدّ وهو على قسمين : المد الأصلي ، والمد الفرعيّ .

فالمد الطبيعي : هو الذي لا تقوم ذات حرف المدّ إلا به وحروفه ثلاثة : الواو الساكنة المضموم ما قبلها ، والياء الساكنة المكسور ما قبلها ، والألف الساكنة المفتوح ما قبلها . ويسمى طبيعياً ؛ لأن صاحب الطبيعة السليمة لا ينقصه عن حدّه ولا يزيده عليه . ومقداره ألف وهو حركتان وصلاً ووقفاً . ونقصه عن ذلك حرام .

وأما المد الفرعي : فهو المدّ الزائد على المدّ الأصلي لسببٍ من همز أو سكون بعده . وهو ينقسم إلى ثلاثة عشر قسماً :

الأول : المدد الواجب المتصل ، وهو أن يكون المد والهمزة في كلمة واحدة . نحو : جاء ، وجيىء ، وسوء . ومقدار مدّه خمس حركات .

الثاني المدد الجائز المنفصل : وهو أن يكون المدد في كلمة والهمزة في كلمة أخرى بعده نحو (يا أيها الناس) ومقدار مده في حال الحدر والإسراع حركتان ، وفي حال التدوير أربع حركات ، وفي حال الترتيل خمس حركات .

الثالث : المد العارض للسكون : وهو المد الطبيعي الذي يوقف على ما بعده نحو : (العقاب) و (خالدون) و (خبير) . ويجوز في مده الطول بست حركات ، والتوسط بأربع ، والقصر بحركتين . والأفضل هو الأول .

الرابع : المدّ البَدَل : وهو ألفٌ ، أو واو ، أو ياء وقع بدلا عن همزة ساكنة سبقها همزة مفتوحة كما في (آدم) وأصله (أأدم) بهمزتين على وزن أحمد و (أومِن) وأصله (أأْمِنُ) بهمزتين على وزن أكرم مضارع باب الإفعال . و (ايمان) وأصله (أأمان) بهمزتين على وزن إكرام مصدر باب الإفعال . وقدره حركتان كالمد الطبيعي .

الخامس : المد العوض عن التنوين المنصوب : كما في (عليما حكيما) وقدره حركتان .

السادس : المدّ اللازم المثقلُ الكَلِمي : وهو مدٌّ يكون بعده حرف مشدّد في كلمة واحدة ، كما في (ولا الضّالّين) و (الصّاخّة) و (الطّامّة) و (الدّابّة) . ومقداره ثلاث ألفات بست حركات .

السابع : المد اللازم المخفف الكلمي : وهو مدّ بعده حرف ساكن نحو (آلآن) . ومقداره ثلاث ألفات بست حركات وحروفه خمسة يجمعها (حَيٌّ طَهُرَ) .

الثامنُ : المدّ اللازم الحرفيّ المُشْبَعُ : وهو الحرف المتوسط الساكن من اسم حرف من حروف الهجاء نحو : (لام) و (صاد) و (قاف) . فإن كان الحرف الذي بعده مدغما في ما بعده ، فهو المد اللازم الحرفي المثقل نحو (المْ) وتعبيره (ألف لام ميم) . وان لم يكن مدغماً في ما بعده فهو المد اللازم الحرفي المخفّف . والحروف التي أسماؤها ثلاثة أحرف ، والثاني منها مدٌّ ثمانية يجمع صدورها جملة (نقص عَسَلكم) أعني : نون ، قاف ، صاد ، عين ، سين ، لام ، كاف ، ميم .

ومقدار مدها ثلاث ألفات بست حركات • وأما العين في فواتح مريم والشورى ، ففيها وجهان : الأول ما تقدم والثاني ألفان •

التاسع : المد اللازم المخفف الحرفي : وهو ما كان الحرف فيه على حرفين وحروفه خمسة يجمعها (حيّ طهر) أعني : حا ، يا ، طا ، ها ، را • نحو (يس) ، (طه) ، (الر) ومقداره ألف فقط • أي حركتان •

العاشر : حروف اللّين : وهي الواو والياء بشرط سكونهما وانفتاح ما قبلهما نحو (بَيْت وخَوْف) •

الحادي عشر : مد الصّلة : وهو حرف مد زائد مقدر بعد هاء الضمير وينقسم الصلة إلى قسمين : قصيرة ، وطويلة • فالقصيرة فيما كان ما قبل الضمير متحركاً • نحو : (إنّهُ ، ولَهُ ، وأمرُهُ ، وبِهِ) ، فإن كان ما قبله ساكناً فلا مدّ فيه إلا في قوله تعالى (ويخلد فيه مُهاناً) على طريقة حفص • ويشترط أن لا يكون ما بعده موصولاً به ، نحو : (إنه الحق) ، (وله الدين) فإنه لا يمدّ إتفاقاً و (أَلقِهْ) في النمل (وأَرْجِهْ) فيسكن • وأما الصلة الطويلة ففيما إذا كان بعد الضمير همزةُ قطعٍ فإنه يجوز مدها مقدار ألفين ونصف ويجوز بمقدار ألف كالمد المنفصل بالحدر • مثاله (منْ ذا الذي يشفعُ عنده إلا بإذنه ؟) وتسمى مد الصلة لأنها تتصل بالضمير •

الثاني عشر : مدّ الفرق : وهو الفارق بين الإستفهام والخبر إذ لولا المدّ لتوهم أن الكلام خبر • وهو في أربعة مواضع في القرآن الكريم : في

سورة الأنعام في موضعين (قل : آالذكرين حرم أم الأنثيين) وفي يونس (قل آالله أذن لكم) وفي سورة النمل (آالله خير أم ما يشركون) .

الثالث عشر : مد التمكين : وهو كل يائين أحدهما ساكن مكسـور ما قبلها مشدّد مثاله (حيّيتم ، والنبيّين) ، وسمي مـد التمكـين لأنّ الشدة مكّنته .

احـوال الـراء

وهي ثلاث : التفخيم ، والترقيق ، وجواز الوجهين :

أما التفخيم ففيما إذا كانت الراء مفتوحة أو مضمومة أو سـاكنة وما قبلها مضموم أو مفتوح . وكذا اذا كان ما قبلها مكسـوراً وكسـرته عارضة نحو (إرجعوا إلى أبيكم) . أو كسرتها أصلية وكان بعدها حرف من حروف الإسـتعلاء نحو (قرطاس) و (مرصـاد) و (فرقـة) ... وما يشابهها .

وأما ترقيقها ففيما اذا كانت الراء مكسورة مطلقاً أو كان الحرف الذي قبل الراء ياء ساكنة (كقدير) ، وكذا إذا كانت ساكنة وقبلها كسرٌ أصـلي بشرط أن لا يكون بعدها حرف إسـتعلاء نحو (أنذرهم) و (فرعـون) و (مريـة) .

وأما جواز الوجهين ففيما اذا كانت ساكنة وكانت قبلها كسرة وبعدها حرف إستعلاء مكسور نحو (فرقٍ) .

حروف القلقلة واقسامها

أما حروف القلقلة فهي خمسة يجمعها قولك (قطب جدٍ) وتنقسم الى صغرى وكبرى • فالصغرى منها ما سكنت سكوناً أصلياً ، كما في (يقطعون) و (يَطْمَعُونَ) و (يَجْعَلُونَ) و (يَدْعُونَ) و (لَتُبْلَوُنّ) • فهذه الأحرف تقلقل أي تظهر وتكشف مطلقاً ، فيظهر منها صَوْتٌ صافٍ كافٍ • وأما الكبرى فهي التي تسكن سكوناً عارضاً للوقف عليها ؛ كما في (خلاّق ، صراط ، عذاب ، بهيج ، شديد) • وهي تقلقل عند الوقف عليها فقط •

اقسام الوقف

وهي أربعة : تامّ ، وكافٍ ، وحَسَنٌ ، وقبيح :

فالتام منها : هو الوقف على كلمة لم يتعلق ما بعدها بما قبلها لا لفظاً ولا معنى ؛ كالوقف على (المفلحون) في قوله تعالى (أولئك هم المفلحون)• فهذه الجملة غير متعلقة بما قبلها لا إعراباً ، ولا معنى بأن تكون خبراً لمبتدأ أو صلة لموصول أو نحوها مما له إرتباط •

والكافي : الوقف على ما لم يتعلق هو به لفظاً بل معنى ، كالوقف على (لا يؤمنون) في قوله تعالى : (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) • فإنه مع ما بعده وهو (ختمَ اللهُ على قلوبهم) الآية متعلق بالكافرين •

والحسن : هو الوقف على ما تعلق ما بعده به وبما قبله لفظاً بشرط تمام الكلام عنده ؛ كالوقف على الحمد لله في الفاتحة لأن رب صفة لله ومتعلّق به ، لكن الكلام قد تم عند الوقف .

والقبيح : هو الوقف على كلمة لا يتم الكلام بها ، وقد تعلق ما بعدها بما قبلها لفظاً ومعنى ؛ كالوقف على (بسم) من (بسم الله) ، وعلى (الحمد) من (الحمد لله) وأشباه ذلك .

وهذه الأمور المهمة نقلتها من الكتب المعتمدة في علوم القرآن كالإتقان ، والقرطبي ، والتبيان للإمام النووي ، ورسالة التجويد ، وكتب أخرى وينبغي الإطلاع عليها والاعتقاد بها والعمل بما تقرر واتفق العلماء عليه أو جنحوا إليه على وجه الأكثرية ، فإن الخير في الإجماع أو ما يقاربه .

وعلى الله التوكل والإعتماد .

الجزء الأول

نزلت بمكة حين فرضت الصّــلاة ، قيل : وبالمدينة مرة أخرى حين حوّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة تطميناً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتأكيداً للإهتمام بالصلوات وقراءتها فيها . وتسمى بالسبع المثاني لأنها سبع آيات تكرر قراءتها في الصلوات . وأمّ القرآن لاشتمالها على جميع ما فيه من الثناء على الله تعالى والتعبد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ، ووعيده . وبالوافية ، والكافية ، والشافية ، وغيرها من الأســامي ... وهي سبع آيات بالإتفاق . فمنهم مَن عَـدّ مِنها آيَةَ البَسْـملة ، فآخرها مِن (صراط الذين) إلى (آمين) . ومنهم من لم يَعُدّها منهـا فجعل الآية الأخيرة (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

وهذه الآية الشريفة آية أولى من سورة الفاتحة ومن غيرها ، إلا سورة البراءة وعليه قرّاء مكة والكوفة وفقهاؤهما ، وابن المبــارك ، والإمــام الشافعي رحمهم الله تعالى . وخالفهم قراء المدينة ، والبصرة ، والشــام ، وفقاؤهما ، والإمام مالك ، والأوزاعي وبعضٌ آخرون .

ومما يجب أن يعلم المسلم أنه لم يرد المخالفون في الموضـــوع أن البسملة ليست آية من الفاتحة أو من سائر السور أو أنها ليست من القرآن

الكريم غير ما نزلت في سورة النمل على وجه القطع والجزم ، وكيف يخالف مسلم عالم عاقل أن البسملة ليست من الآيات النازلة مع كونها مكتوبة بأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أوائل السور غير براءة ؟ ووردت روايات كثيرة بقراءة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لها مع بقية آيات سورة الفاتحة ، وأنها من الآيات النازلة ، وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعل نزولها من علامات انتهاء السورة السابقة وافتتاح سورة أخرى • وثبت أنها كتبت قبل جميع السور ما عدا براءة بخط سائر الآيات بدون فرق ، مع الإجماع على أن ما بين دفتي المصحف قرآن منزل من الله الكريم • وإنما أراد المخالف أنه لم يثبت عنده بدليل قطعي أن البسملة آية من سورة الفاتحة أو من باقي السور التي كتبت في أوائلها ، أو آية مستقلة نازلة بدون دخولها في السورة • وعدم ثبوت ذلك ليس نفياً لثبوته نفياً قطعياً ، بل بينهما فرق فارق • ومن روى الجزم بالنفي فروايته سقيمة لا يعتنى بها قطعاً •

ولم ينص الإمام الأعظم أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ فيها بشيء ، فَظُنَّ أنها ليست من السورة عنده ، وليس لها حكمها حيث عدَّ قراءة الحمد لله إلى آخر السورة من الواجبات على غير المأموم دون البسملة وجعل قراءتها قبل الحمد سُنَّة مع الإسرار بها • وسئل محمد بن الحسن عنها فقال: ما بين الدفتين كلام الله • وقال أحمد : هي آية في أول الفاتحة ، لا في أوائل باقي السور وإنما هي للتمييز بين سورة وأخرى • والكلام في غير البسملة النازلة في أثناء سورة النمل (إنه من سليمانَ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) فهي منها بالإجماع •

وإذا كانت البسملة الشريفة آية من الفاتحة كانت قراءتها مفروضة في الصلاة ولا تصح بدونها قطعاً •

واحتج الشوافع بأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أجمعوا على إثباتها في المصحف في أوائل السور غير براءة بخط المصحف بخلاف الأعشار وتراجم السور ، فإن المعتاد كتابتها بحمرة ونحوها ؛ فلو لم تكن البسملة قرآناً لما استجازوا إثباتها بخط المصحف من غير تمييز • وبأنه روي عن أم سلمة ـ رضي الله تعالى عنها ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ بسم الله الرحمن الرحيم في أول الفاتحة في الصلاة ، وَعَدَّها آيةً ، وبأنه روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى (ولقد آتَيْناكَ سَبْعاً من المثانِي) قال : هي فاتحة الكتاب ، قالوا : فأين السابعة ؟ قال : بسم الله الرحمن الرحيم • وبأنه روي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : بينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم بين أَظْهُرِنا إذْ أُغْفِيَ إغفاءً ثم رفع رأسَه متبسماً فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : أنزلت عليّ سورةٌ فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم • إنا أعطيناك الكوثر • فصلِّ لربك وانحر • إن شانئك هو الأبتر) رواه مسلم • وبأن هذه الرواية تدل على أن البسملة من السورة أو مع السورة ويتحقق بذلك كونه قرآناً منزلاً •

وبأنه سئل عن قراءة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : كانت مَدّاً • ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمدّ (بسم الله) ويمدّ (الرحمن) ويمدّ (الرحيم) • رواه البخاري •

وبأنه روي عن ابن عباس قال : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم • رواه الحاكم في المستدرك وقال : حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم • ورواه أبو داود وغيره • وأخرج الحاكم في المستدرك أيضاً ثلاثة أحاديث كلها عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ •

الأول : أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا جاءه جبريل عليه السلام فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم علم أنها سورة ٠

الثاني : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعلم ختم السورة حتى ينزل بسم الله الرحمن الرحيم ٠

الثالث : كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى ينزل بسم الله الرحمن الرحيم ٠ وفي سنن البيهقي عن علي وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ أن الفاتحة هي السبع من المثاني ، وهي السبع آيات ، وأن البسملة هي الآية السابعة ٠ وفي سنن الدارقطني عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إذا قرأتم الحمد فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني ، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها ٠ قال الدارقطني : رجال إسناده كلهم ثقاة ٠

فهذه الأحاديث متعاضدة محصلة للظن القوي بكونها قرآناً حيث كتبت ، والمطلوب هنا هو الظن لا القطع ٠ هذا ما في المجموع للإمام النووي ـ رحمه الله ـ ٠

واذا ثبت هذا فالإستقراء دل على أن السورة الواحدة إمّا أن تكون بتمامها سرية أو جهرية ، وإمّا أن يكون بعضها سرياً وبعضها جهرياً ، فهذا مفقود في جميع السور ، فثبت أن الجهر بالتسمية مشروع في الصلاة الجهرية ٠ ومما يكون حجة عليه مارواه الامام البيهقي في السنن الكبير عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجهر في الصلاة بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)٠ومما يؤيد كونَ الجهر بها سنةً أن قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم) متعلق بفعل لا بدّ من إضماره والتقدير : بإعانة اسم الله ، أو ببركة اسمِ اللهِ الرحمن الرحيم (قولوا) الحمد لله الآيات ٠٠٠ لأنّها نزلت من الله سبحانه وتعالى حسب علمه بأنها

عبادة هذه الأمة المحمدية ، وداخلة في الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام • ولا شك أن استماع هذه الجملة الشريفة ينبه العقلاء على أنه لا حول عن معصية الله إلاّ بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله • كما أنه ينبههم على أنه لا يتم شيء من الخيرات والبركات إلا إذا وقع الإبتداء فيه بذكر الله • وكل جملة شأنها ذلك ينبغي إعلانها والجهر بها حتى ينتبه بها المسلمون • ومن هنا اندفع ما يتوهم أن سورة الفاتحة اذا نزلت على أنها يقولها الباري سبحانه وتعالى فلا يناسب ذكر جمل ثلاث منها وهي : إيّاك نعبد وإيّاك نستعين • إهدنا الصراط المستقيم وذلك ظاهر ، واذا نزلت على لسان العباد فليس هناك مايدل عليه • ووجه الإندفاع أنه لما تعلق بسم الله بفعل مقدر مثل : قولوا بسم الله يكون الكلام في غاية الإنتظام ، ومناسباً للمقام ، ويدل على أن كل أمر ذي بال ينبغي بدؤه باسم الله سبحانه وتعالى وإظهار توصيفه بالرحمة الشاملة • فالباء في بسم الله للإستعانة أو المصاحبة •

والاسم مأخوذ من الوسم وهو العلامة ، أو السمو وهو العلو • والمراد به نفس الاسم بمعنى اللفظ الدال على المسمى المقدس • ومن قال بزيادته فقد أتى بكلام زائد لأن الإستعانة باسمه المقدس واستصحابه على وجه التبرك به أمر مبارك لا ريب فيه • فالمراد بلفظ الجلالة ذاته الجليل ، والإضافة لامية ، وأصل (الله) إله بمعنى المعبود مطلقاً ، ثم أُدخل عليه حرف التعريف باقياً على معناه المطلق لكنه غلب على المعبود بالحق ، فصار علماً بالغلبة لذاته المخصوصة ينصرف اليه عند الاطلاق • ولما حذفت همزته أكد التغيير اختصاصه به تعالى • أو أنه منكراً كان لكل معبود ، ومعرّفاً اختص بالمعبود الحق بدون أن يصير علماً • ولما حذفت

همزته وغيّر لفظه صار علماً للذات المعين المقدس الجامع للكمالات المنزه عن النقائص .

ونقل الشهاب عن ابن مالك أن لفظة الجلالة (الله) من الأعلام التي قارن وضعها أل ، وليس أصله لفظ (اله) كما زعموا . بل هو علم جامع لمعاني الأسماء الحسنى كلها . وذلك لأن لفظتي : الله ، واله مختلفتان لفظاً ومعنى . أما لفظاً فلأن الأول معتلّ العين والثاني مهموز الفاء صحيح العين واللام ، فهما من مادتين مختلفتين فَردّهما الى أصل واحد تحكم . وأما معنى فلأن لفظة الجلالة مختصة به تعالى جاهلية وإسلاماً . والإله ليس كذلك فإنه اسم لكل معبود . ومن قال : أصله إله لا يخلو حاله من أمرين ؛ لأنه إما أن يقول حذفت الهمزة ابتداء ثم أُدغمت اللام . أو يقول : نقلت حركة الهمزة وحذفت على القياس ، وهو باطل ؛ لأنه إدعاء حذفٍ بلا سبب ولا مشابهة ذي سبب من ثلاثي .

و (الرحمن الرحيم) المشهور أنهما صفتان مشبهتان بنيتا للمبالغة من (رحِم) بكسر العين بعد نقله الى رحُم بضمها ، وجعله لازماً لأن هذا قياس مطرد لإفادة المدح أو الذم . وأصل الرحمة : رقة القلب ، واستعمل المشتقان في الباري تعالى مجازاً ، وقد يقال : إن الرحمة العطف والإحسان سواء كانا بالوجه الغير المادي كما في الباري سبحانه وتعالى . أو المادي الإنفعالي كما في غيره تعالى . والرحمن أبلغ من الرحيم ، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، فالمقصود من الأول المنعم بجلائل النعم في الدارين ، وبالثاني النعم بدقائقها فيهما ، وعليه قيل (يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما) ، وإنما قدم الرحمن والقياس يقتضي الترقي من الأدنى الى الأعلى لأنه صار كالعلم له تعالى من حيث إنه لا يوصف به غيره لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها ، أو لأن الرحمن لما دل على جلائل النعم

وعظامها والرحيم على دقائق النعم وصغارها •• كان الرحيم كالتتمة للرحمن ليتناول ما خرج منها أو لمراعاة رؤس الآيات الكريمة •

(الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ) (١)

والحمد لغة : هو الثناء باللسان على الجميل ، سواء تعلق بالفضائل أو الفواضل • وعرفاً : فعل يشعر بتعظيم المنعم من جهة إنعامه سواء كان باللسان أو بالجنان أو بسائر الأركان•••فالحمد اللغوي خاص موردا وعام متعلقاً ، والعرفي بالعكس • والشكر لغة : هو الحمد عرفاً • وأما عرفاً : فهو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما قرر له • وذلك في غاية القلة ولذلك قال تعالى : « وقليل من عباديَ الشكور » •

واللام في الحمد إما للجنس أي ماهية الحمد وجنسه وحقيقته ، أو للإستغراق أي كل فرد من أفراد الحمد صادر من أيّ حامد متوجه إلى أي محمود في مقابلة أي نعمة كان • أو للعهد العلمي أي الحمد اللائق بذاته تعالى • وهو حمده بنفسه لنفسه ثابت لله سبحانه وتعالى •

والرب : في الأصل مصدر بمعنى التربية أي إيصال الشيء إلى كماله تدريجاً • ثم وصف به الباري تعالى مبالغة ، فإنه مربٍ لمخلوقاته حسب حكمته البالغة ، وموصلها إلى ما أراد أن يوصلها إليه • وتقع صفة للباري معرفاً باللام أو مضافاً كما هنا • ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيّداً بإضافة أو بنحوها ، مما يدل على ربوبية خاصة كربّ المال ورب الدار •

والعالمين : شبه جمع للعالَم وهو اسم لما يُعْلَم به الشيءُ كالخاتَمِ والقالَبِ غَلَبَ في ما يعلم به الصانع وهو كل ما سواه من الأعيان والأعراض فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته تدلّ على وجوده وهو اسم جمع لكونه على زنة المفردات كخاتَم وطابَع وقد حقق النحاة

كما في شرح ألفية ابن مالك أن الاسم الدال على اثنين إن كان موضوعاً للآحاد المجتمعة دالاً عليها دلالة تكرار الواحد بالعطف ، فهو الجمع . وإن كان موضوعاً للحقيقة مُلغىً فيه إعتبارُ الفردية فهو اسم الجنس الجمعي كتمر وتمرة . وان كان موضوعاً لمجموع الآحاد فهو اسم جمع سواء كان له واحد كركب ، أو لا كرهط . ومنه لفظ العالَم . وإنما جمع ليشمل ماتحته من الأجناس المختلفة ، ولم يُسْمَعْ جمعُ فاعَلٍ بفتح العين على صيغة جمع المذكر السالم غيرهُ وغيرُ (ياسَمٍ) يعني أنه لو بقي على إفراده لربما توهم أن المراد به هذا العالم المشاهد بشهادة العرف ، أو أن المراد هو الجنس والحقيقة فجُمِعَ ليشملَ كل جنس سمي بالعالم ؛ لأنه لا عهد يشارُ به إليه ، وغلّب العقلاء منهم فجمع بالواو والنون .

(الرَّحمنِ الرَّحيمِ) (٢)

أعادهما لكون الأولين تعليلاً للابتداء باسمه تعالى والتبرك به والأخيرين تعليلاً لاستحقاقه الحمدَ وأنه لا تصافه بهما .

(مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (٣)

والمالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة له ، كما أن الملك المتصرف بالأمر والنهي في الناس . والمفعول به محذوف وهو الجزاء ، وأُضيف الى اليوم إجراء له مجرى المفعول به على التوسع . وبذلك صارت الإضافة معنوية مفيدةً لتعريف المضاف مجوزةً لوقوعه صفة للمعرفة .

والدين : الجزاء ، وفرقوا بينهما بأن الدين جزاء بقدر العمل والجزاء أعم . واختار يوم الدين على باقي الأسماء رعاية للفاصلة ، وإفادة للعموم ، فإن الجزاء يتناول جميع أحوال الآخرة إلى الأبد . وفي الحديث الشريف :

« البِرّ لا يَبْلى والإثمُ لا يُنسى ، والديّان لا يَموت ، فكنْ كما شئتَ كما تَدينُ تُدان » .

ثم لما ابتدا التالي باسم ذاته الجليل وتبرّك به ونَعَتَه بعموم رحمته وعقبه بحمده على ما لا يذكر ولا يحصى من نعمه الجسام ومنها أنه رَبّي الخلايقَ وسوّاها وعَدّلَها ، وبالصور المناسبة جَمّلَها ، وأكّد على شمول رحمته الواسعة في الآخرة والأولى ، وأنه مالك الجزاء في يومه يوم الكتاب والحساب .. أشرق في قلبه أنوار مناجاة رب العالمين ، وتصور حضوره لخطاب ذاته الواسع المبين . فقال :

« إيّاكَ نَعبُدُ وإيّاكَ نَستَعينُ »(٤) أي يا من شأنه العالي ذلك الفضل المتوالي نخصّك بالعبادة وغاية التذلل والخضوع بانقياد القلب لوجودك ووحدتك وربوبيّتك ، وتسخير القالَب في إطاعتك بالشهادة على استحقاقك وجوب الوجود والخلق لما سواك وإنك أنت المعبود وأداء واجبات عظمتك بالركوع والسجود وسائر أنواع الطاعات ، ونستعينك ونطلبُ منك العونَ في أداء ما التزمناه على وجه مرضيّ وفي اجتناب كل منهي على الوجه المرعيّ ، وفي سائر شئوننا الحَيَويّة السلبية والإيجابية ، فإنّ كل عون ومددٍ يأتينا من الأسباب الظاهرة حسب السنن الكونية ، أو من الأمور المعنوية الغيبية التي لا يحيط بها إلا ذاتك العليّة منك وإليك ، وإذا أردتَ شيئاً هيّأتَ أسبابَه فنأتي بالأسباب ونعتمد على القادر الوهّاب وأنت على كل شيء قدير ، وباجابة المضطرين حقيق جدير .

والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ولا شك في أنه لا يجوز إلاّ لِمَنْ له أقصى غاية السلطنة بالقدرة الشاملة على جميع الممكنات ، والعلم المحيط بالكليات والجزئيات وسائر أوصاف الكمال وذلك واجب الوجود .

فالعبادة مختصة به وليس لغيره حظ فيها ، ورياء المرائين ينقصها ، ونفاق المنافقين نافيها ، فحق عقلاء العباد أن يخصّوا العبادة به تعالى .

والإستعانة : طلب العون والمدد في دفع المكروه وجلب المرغوب وذلك حقيقة في تصرف من بيده مقاليد السماوات والأرض ، فكل طلب عون يتوجه الى غيره ؛ كما من المعلم للتعليم ، أو من المرشد للتزكية والتسليم ، أو من الطبيب للسقيم ، أو من أولي النفوذ لدفع الملال أو تحصيل الجاه والمال أو غيرها مما لا يحصى ... فهو عائد إلى الله تعالى ، كما أن كل حمد من أيّ حامد لأيّ محمود على أيّ إنعام يعود إليه تعالى ؛ لأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن فيجب أن تكون عيون قلوب الطالبين ناظرة إليه ونظرها إلى غيرها نظرة عادية كسبب من الأسباب ، وعلى ذلك ورد قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (وإذا استعنت فاستعن بالله) ، وإلا فهو تعالى أَمَرنا بإعانة بعضنا لبعض فقال : « وتعاونوا على البر والتقوى » وبالإستعانة بالأخلاق والأعمال فقال : « واستعينوا بالصبر والصلاة » وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صلاة الإستسقاء « اللهم اسقنا غيثاً مُغيثاً » وقد روى البيهقي ، وابن أبي شيبة بإسناد صحيح أن الناس أصابهم قحط في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ فجاء بلالُ ابنُ الحارث ـ رضي الله عنه ـ وكان من أصحابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى قبره وقال : يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم هلكوا . فأتاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المنام وأَخبَره بأنهم يُسْقَوْنَ . وليس الإستدلال بالرؤيا فإنها ـ وان كانت حقاً ـ لا يُثبت حكماً ، وإنما الإستدلال بفعل الصحابي وهو بلال بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ فإتيانه لقبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونداؤه له وطلبه السقيا منه دليل" على أن ذلك جائز . وهو من باب الإستغاثة والتوسل والتشفع ، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة .

وروى ابن ماجه ، وابن السني بإسناد صحيح عن بلال قال : قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك » وعن أبي سعيد الخدري أسألك بحق ممشاي هذا إني لم أخرج أشراً ولا بَطَراً ولا رياءً ولا سمعة ، وخرجتُ إتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .. إستغفرَ له سبعون ألف ملك . ولم يزل السلف الصالح ومن بعدهم يستعملون هذا الدعاء عند خروجهم الى الصلاة من غير نكير .

ومما ورد عنه عليه الصلاة والسلام من التوسل قوله : « أللهم اغفر لأمّي فاطمةَ بنتَ أسدٍ ووَسّعْ عليها مَدْخَلَها بحق نبيك والأنبياء الذين مِن قبلي » . وهذا اللفظ قِطعَةٌ من حديث طويل رواه الطبراني في الأوسط وابنُ حبان والحاكم وصححوه .

وروينا في كتاب ابن السني عن عبدالله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إذا انفلتت دابّةُ أحدِكم بأرضٍ فلاة فليُنادِ يا عبادَ اللهِ احبَسُوا فإنّ للهِ ـ عز وجل ـ في الأرض عبداً حاضراً سَيَحْبِسُه .

وأخرج البخاري في تأريخه والبيهقي في الدلائل والدعوات ، وصححه أبو نعيم في المعرفة عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ادع الله تعالى لي أن يعافيني . قال : إن شئتَ أخّرتُ لك ذلك وهو خيرٌ لك ، وإن شئتَ دعوت الله تعالى قال : فادعه ، فأمَرَه أن يتوضأ فيُحسِنَ الوضوءَ ، ويصلّي ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء : أللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه ليقضيها ،

اللهم شفّعه فيّ ، فَفَعَلَ الرجلُ ، فقام وقدْ أَبْصَرَ هذا . ومن أسند أمثال هذا الى حال الحياة بشبهة أن للشخص تأثيراً في حال الحياة دون الممات ، فقد أشرك من حيث لم يعلم ، لأنه أسند التأثير الى غيره تعالى من الأحياء مع أنه لا تأثير لأحدٍ في أيّ شيء لا في الحياة ولا في الممات ، إذ التأثير منحصر في الله تعالى . على أنه يردّ شبهته ما ذكر قبل هذا توسله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأنبياء من قبله .

ومن نظر الى هذه الأدلة علم أنه كما في الماديات سنة ثابتة له تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب كذلك له في المعنويات سنة كذلك كالدعاء من نفس الداعي أو من غيره لدفع الشر أو جلب الخير والصدقات لدفع البلايا والتوسل بجاه أصحاب التقوى . وإن قوله تعالى « وابتغوا إليهِ الوَسيلةَ » يشمل كل ذلك . فيجوز للمسلم أن يتشفع بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو بجاهه ، أو بجاه غيره من عباده الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وشفاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثابتة يوم القيامة لتعجيل الحساب وغفران الذنوب ، ورفع الدرجات . والحاصل : أن التوسل بالأسباب المادية أو المعنوية من سنة الله تعالى التي لا تبديل لها إلا إذا كان بصورة غير مشروعة ، وتخصيصه بالأمور المادية إنما هو من أهل الأفكار العادية . بل منع التوسل والتسبب في الغيبيات وعدم الإعتناء بالروحانيات تأخر عن الرشاد وتقدم الى الإلحاد . فإن الإسلام جاء لتنوير عقل البشر ، وإبعاده عن الخطر ، وتنويره ليعترف بالغيبيات ، ووجود الملائكة الموكلين على الماديات والمعنويات ، وبذلك يسترشد إلى الإيمان بأحوال الموتى في عالم البرزخ ، وبالسعادة والشقاء هناك ، وبثبوت الساعة وبعثِ الأموات ، وحشرهم ومحاسبتهم ، وإيصال كل عاملٍ إلى مَقرّه الأخير . وإلا فلو كان

الأمر منحصراً في الماديات لاستغنى البشر عن الرسالات الإلهية الداعية الى الإيمان بالغيب وبجزاء الأعمال بلا ريب • فإن في الآخرة مراتب مرتبة على أسبابها ، وهي الدرجات أو الدركات • فكما ان الأسباب محققة في الماديات علماً وعملاً وصناعةً على المستويات كذلك في المعنويات كالدعاء لشفاء المرضى ، والصّدقات لردّ البلوى • ألا ترى إلى سجود الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعائه لانتصار المسلمين يوم بـدر الكبرى ؟ وكذلك صرف الهمة الى تنوير القلب بالأنوار وتزكية النفس عن الأقـذار بالذكر والفكر وصحبة الأولياء الأبرار والصلحاء الأخيار ، كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وسر تأثير صحبتهم أن قلوبهم منورة بالذكر ، وبالذكر تطمئن القلوب ، ذلك الإطمئنان الذي طلبه سيدنا إبراهيم الخليل وقال : « ولكن ليطمئن قلبي » هذا الإطمئنان الذي ناله أصـحاب القوى القدسية ويَتخلّصون به من الخوف والحزن كما قال تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون » • أي اتقوا عن الكفر والشرك الأكبر والأصغر وسائر وجوه الرياء والنفاق • واتقوا عن المحارم والمحرمات فلازموا المندوبات المؤكدة وفرائض الطاعات ، واتقوا عن الإلتفات الى ما سوى الله ، فخلصوا عن أقذار مطامع الدنيا الدنيه وسائر الشهوات فهم الأولياء المتقون ، وهم الذين تشـتعل أنوار قلوبهم فينورون قلوب من صادقهم ووافقهم في طاعة الله تعالى • وليس المتقون من يلبسون المظاهر للخير بدون تطهير البواطن عن الرذائل « ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمرُه فرُطا » وهم الذين يتبرك بلبس عمامتهم لإزالة الغمامة كقميص سيدنا يوسف لما ألقوه على وجه أبيه سـيدنا يعقوب ـ عليهما السلام ـ صار من العمى بصيراً ، وصار على رائحة روح يوسـف خبيراً ، وتحصل تلك الدرجات بتزكية النفس • وقد قال تعالى : « قد أفلح

من زكيها وقد خاب من دسيها » وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وهذه الكينونة كينونة روحية وافية ومحبة خالصة صافية واتباع في الأذكار والاوراد ، وكل ذلك من أسباب اطمئنان القلوب ، وقد مضت العصور على المسلمين في مباشرة الأسباب لإصلاح النفوس وتهذيبها بالفضائل ، وكل هذه الأمور جارية على نظام هو اتباع الكتاب والسنة النبوية بالإستقامة بدون انحراف •

والحاصل : إن مباشرة الأسباب المادية لتحصيل السعادة المادية ، ومباشرة الأسباب المعنوية لتحصيل السعادة الروحية • وبذينك تتكامل الرجولة في الانسان ، فليس الرجل رجل الدنيا ، ولا الرجل رجل الأخرى ، بل الرجل رجلهما • وبالاكتساب المشروع ومباشرة الأسباب ينال الإنسان سعادة الدارين •

وأما الزائرون لقبور عباد الله الصالحين من الأنبياء والمرسلين ، ومن دونهم فإن كانوا من المسلمين الفاهمين للدين فيقول داعيهم أللهم أعل مقام عبدك هذا وارحمني بجاهه عندك • أو يقول : أيها العبد الصالح أُدع لي وتوجّه بهمتك العالية وبروحك المنورة الخالدة لدفع الشرّ عني وجلب الخيرات لي ولا مانع عقلاً وشرعاً أن تكون لروح هذا الولي الصالح نوع من الإدراك لفهم طلب الزائر الدعاء منه وتوجيه همته إلى الله في كشف مهمته • فإن ذلك الإدراك علم جزئي حصل من أعلام الله تعالى ، ومعرفة جزئية حصلت من تجليات أنوار الحق جل شأنه عليه فإن أهل البرزخ على الإطلاق لهم إدراك روحي مسلمين أو كافرين • قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « القبر إما روضة من رياض الجنان ، أو حفرة من حفر النيران » أو كما قال • وليس ذلك من علم الغيب لأن علم الغيب علم ذاتي لا يزول ولا يزال • وعلم كلي شامل لأمور الحال والإستقبال ، بل ذلك علم جزئي كعلم الملائكة

المقربين بما أسند إليهم من الواجبات والمهمات ، وعلم الحفظة الكرام الكاتبين ، وكعلم يوسف بأحوال المخازن التي أسندت إليه . وكعلم أبيه حيث قال : « إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » وكعلم رسول الله بفتن آخر الزمان . وكفى في ذلك الموضوع ما كان عند حذيفة اليماني لمن له معرفة بصحيح البخاري وغيره من الصحاح .

ونظير ذلك في الماديات علمك بأحوال البلاد البعيدة بوسائل المخابرة والإعلام ، وعلمك بما في الأرحام بوسيلة الأجهزة المستعملة في هذه الأيام . وقد أسند الله تلك العلوم إليه ذاتاً بالذات ، ولم يمنع إطلاع عبد من عباده بالأجهزة . والحاصل أن طلب الزائر من الولي الصالح المرشد ، الولي الموفق في طاعة الله تعالى من هذا الباب ومن هذا القبيل . ولا يطلب من نفسه شيئاً إلا من لم يفهم الدين ، ووزر هذا الجاهل على المربّي الغافل من العلماء الفاسدين والمتشيخين المفسدين وأوزارهم ترجع إلى إهمال الأنظمة الشرعية في حقهم فإنه لا يتطور البشر إلا بالتربية النظامية ، ولا نظام عند الإهمال ، ولا ينحصر الدجل في أهل العلم والمشيخة الجامدة ، بل يسري في كل طبقة وصنفٍ من الكسبة والعمّال والتجّار وأمثالهم .

لا يَصْلُحُ الناسُ فَوْضى لا سَراةَ لهم

أعاذنا الله من الفساد والإفساد ، وآتانا خير الرشد والإرشاد بمنّه .

ولما كانت الهداية الى الخير أهم معونة منه تعالى لعباده عقبه بقوله : « إهدِنا الصِّراطَ المُستَقيمَ »(٥) فينادي ويناجي ويدعو ويرتجي فيقول : يا ربنا نسترحم منك الهداية لنا إلى الصراط المستقيم ، صراط الله العزيز الحميد ، والسلوك فيه ، والإستقامة عليه ، بلا انحراف واعتساف .

والهداية مشترك بين معنيين : الأول : الدلالة باللطف والرفق ، سواء كان موصلة الى المطلوب أم لا • ويتأتى من الله ورسوله والكتاب المنزل عليه ، ومن كل مرشد يهدي الناس إليه والثانية : الدلالة الموصلة إلى المقصود ولا يتأتى إلاّ من واجب الوجود • ولها مراتب •

الاولى : جعل القلوب صافية منورة ، والحواس والمشاعر غير مكدرة ، والأعضاء صحيحة قوية على العمل •

والثانية : نصب الدلائل الموصلة إلى الحق المبعّدة عن الباطل •

والثالثة : تأييد العقول بإرسال الرسل وإنزال الكتب •

والرابعة : الوحي والإلهام والرؤى الصادقة • والأول للأنبياء • والأخيران لهم ولسائر العالمين •

والصراط لغة الطريق • والمستقيم : المستوى • وفي الهندسة : أقرب خط واصل بين نقطتين •

وأما المراد بالصراط المستقيم : فقد قال الأمام الرازي في تفسيره : قال بعضهم : الصراط المستقيم الإسلام ، وقال بعضهم : القرآن وهذا لا يصح لأن قوله : صراط الذين أنعمت عليهم بدل للصراط المستقيم ، وإذا كان كذلك كان التقدير : إهدنا صراط الذين أنعمت عليهم من المتقدمين ، أي الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين) الى أن قال وإذا كان كذلك فالمراد : إهدنا صراط المحقين المستحقين للجنة • إنتهى •

ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة الانعام : « أولئك الذين هَدَى اللهُ فبِهداهم اقْتدِهْ » وإذا كان قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) وارداً على لسان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسائر أمته وكان

الرسول يطلب من الله الهداية الى الصراط المستقيم .. فلا شك أنه يُريدُ التوفيق على إكمال دينه وتبليغ كتابه وسلوك سبيل أخلاق الرسل السابقين حيث أمَرهُ تعالى بالإقتداء بهم في الآية الشريفة المذكورة فيكون الصراط المستقيم شاملاً لما في دينه من الإعتقادات والأحكام العملية ، وما سبق في الأديان السابقة من الفضائل المتناسبة لهذا الدين ، لأن شريعة من قبلنا شريعة لنا فيما لم يُتَعرض لنَسخه . وما جرى على أهله من تحمل الأتعاب والمشاكل الواردة كما ورد على أصحاب الأخدود ، وما جاء على سيدنا إبراهيم من جانب نمرود وعلى سيدنا موسى وعيسى إلى أقصى الحدود .

وفي تفسير المنار : وقد قالوا : إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل أو الحدود ، ونحن نقول : إنه جملة ما يوصلنا الى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم .

وفي تفسير البيضاوي : والمراد به طريق الحق وقيل ملة الإسلام .

قال الشهاب : وعلى مافهم المصنف هما متغايران لأن ملة الإسلام تختص بالأصول والإعتقاد ، وطريق الحق أعم لشموله الفروع والأصول .

وقيل : طريق الحق مطلقا يتناول ملة الإسلام وما فيها من العبادة كما هو المناسب لتنوع الهداية . وقيل : طريق الحق أخص لشمول ملة الإسلام للفرق الضالّة كالقدرية . وقيل : الحق أعمية الحق لشموله السير في الله وما يترتب على الهداية من المراتب كما مر .

والتحقيق : إن الإسلام يشمل الإعتقاد والأحكام التي عليها جمهرة الأمة المحمدية والحق يشملهما ويشمل سائر الأمور النافعة الواقعية التي هي على جانب الدين من الإعتقاد والأحكام وذلك كالتوفيق لإصابة

الرأي في الأمور الإجتهادية ، والبعد عن الخطأ فيها وسلامة الأخلاق في مداراة العباد والتوفيق لكسب الطيب من الزاد والإهتداء إلى صحبة الصالحين للجوار في دار الإقامة ، وشراكة رجال أمناءَ في التجارة والأسفار ، والأهتداء الى معرفة أمور إقتصادية في بذل النفقات ، وإلى أهل صالح وأولاد ونسل أصيل يتعاونون مع الإنسان في الحياة الدنيا ، وهذه كلها مواهب ليست من أصول الإسلام ولا فروعها وليس عدمها منافيا لها • فكم من ُاناس مسلمين صالحين محترمين وهم محرومون من هذه المواهب ويقبلون الأذى الى أن يتوفاهم الله ؟ فيكون الحاصلُ طلبَ الهداية إلى الإعتقاد بدين الإسلام والعمل بأحكامه والتخلق بالأخلاق العالية وهي من متممات المكارم ، وإلى مواهب شريفة تعين الإنسان في أيام الحياة الدنيوية إلى أن يلقى ربه الرءوف الرحيم •

هدانا الله إلى ذلك بمنه وفضله العميم •

فإن قلت : لاشك أن المؤمن مهتدٍ فما وجه طلب الهداية بالنسبة إليه ؟ فالجواب من وجوه :

الأول : إن المطلوب الإهتداء إلى طريق السابقين الصادقين من تحمل الأذى في الدين •

الثاني إن المقصود الإهتداء إلى المرتبة المتوسطة بين طرفي الافراط والتفريط في الإعتقاد والأعمال والأخلاق على وزان قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » •

الثالث الإهتداء إلى الزائد من العلوم النافعة والأدلة القاطعة على وجود الباري وحقية ما أنزله من الإعتقاد والأحكام •

الرابع : الإهتداء إلى الإستغراق في العبودية والاعراض عما يشغله عنها •

الخامس : الإهتداء إلى أقرب طريق من الطرق الموصلة إلى رضاء الباري •

السادس : الإهتداء إلى الثبات والإستقامة فإن أهل الاستقامة هم أهل السلامة في الدنيا والدين • فإن قيل كيف يصح طلب الهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم مع أن دين الإسلام متبوع غير تابع ، وناسخ غير منسوخ ، وحاكم غير محكوم ؟ قلنا : فالجواب إن الدين بالإجمال قسمان : أصول إعتقادية ، وفروع عملية • فأما الأصول الإعتقادية فهي مشتركة بين جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام بلا فرق ولا تبعية فيها لأي رسول للآخرين • وعليه قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاءُ ويهدي إليه من ينيب • »

وأما الفروع العملية : فلاشك في مخالفة ما عندنا لما عندهم إلا ماشذَّ مما قرره الإسلام • فظهر أنه لا تبعية لنا في أي شيء من الدين لا أصولها ولا فروعها قطعاً •

فالمطلوب بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم الإهتداء إلى تلك الاصول والفروع بالوحي الخاص وتوفيقه لتطبيقها وتبليغها وتنوير العالمين بها ، أو أحد الأوجه السابقة المذكورة وبالنسبة إلى أمته الإهتداء إليها من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وبذل التوفيق للسلوك على منهجها ، أو بعض الأوجه السابقة ايضا • وإلا فالأصول هي الأصول

بالنسبة إلى كل رسول ، والفروع مختلفة لا تبعية فيها . فطلب الهداية إلى صراطهم الهداية إلى كيفية سلوكهم وإرتباطهم وذلك واضح .

ثم اوضح الباري تعالى معنى الصراط المستقيم ببدل إيجابي وهو قوله تعالى :

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) (٦)

وبسلبي بعده وهو قوله تعالى :

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) (٧)

حتى يتميّز الصراط المستقيم واهله .

ومما ينبغي علمه أن النعمة الواصلة قسمان : دنيوية ، وأخروية : أما الدنيوية فمنها ماهو وهبي لا علاقة للإنسان فيه كخلقه ، وتعريضه للنعيم ، وتزويده بالحواس الكافية والمشاعر الصافية والعقل السليم ... ومنها ما هو كسبي ككسب العلوم والمعارف ، وتزكية النفس عن الرذائل ، وتحليتها بالفضائل ، وتحصيل الجاه المشروع والمال الحلال النافع . وأما الأخروية فمنها غفران الذنوب ، والوفاة مع الأبرار ، والسكون في الجنة دار القرار ، وشرف لقاء وجهه مع الإبصار ... فأصحاب هذه النعم الجسام هم المقصودون . ويجوز ان يراد بهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

واما السلبيّ الموصولْ بالموصول أعني غير المغضوب عليهم ولا الضالين . فمدلولها بالإجمال المستفاد من المضاف إليه قسمان : الأول عبارة عن الذين خرجوا عن الدين بعد علمهم به أي كفروا به ، وتمردوا عن العمل به ، واستمروا في تمردهم وعنادهم ، وأثاروا نار الفتنة العمياء إزاء الحنيفية البيضاء ، وتهالكوا وتظاهروا في إيذاء صاحب الإسلام وأهله ، ودبروا تخطيطات جهنمية لإمحائه واستئصاله كالمعاندين له من عصر

الرسول إلى يومنا هذا ولا يزالون يسعون لتمزين أمة الإسلام وتفريقها وتبعيدها عن المثل العليا ، وعن عزة الدنيا . فلاشك أن غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا . ويلتحق بهم المسلمون المنحرفون عن الحق والصواب ، المحرّفون لنصوص السنة والكتاب ، والمأوّلون لها بغير صواب ، مع علمهم بعنادهم وفسادهم . وإذا نصحتهم أخذتهم العزة بالاثم علاوة على أعمالهم السيئة . أو الطغاة البغاة على الأنفس والأعراض والأموال كيف يتمكنون ويتسع لهم المجال ولا شبهة أنهم في ركاب المغضوبين الأولين .

والقسم الثاني الضالّون عن طريق الرّشاد ممن وصلتهم رسالة الحق الإسلام ولكنهم لم يعملوا بها وسلكوا مسالك أرباب الهوى من أحبارهم وكبرائهم الضالّين فأضلّوهم . أو المسلمون الضعاف النفوس الذين استمروا على أعمال فاسدة حسب التقاليد والأوهام الباطلة ، وهم عليها مرحون وبها فرحون .

وتفسير الاول باليهود ، والثاني بالنصارى وارد . ولكن المفهوم أعم ، والكفر ملة واحدة . وماذا بعد الحق الا الضلال ؟ اعاذنا الله بفضله ورحمته عن موجبات عذابه وسخطه برحمته إنه ارحم الراحمين .

ولما كان السلوك على الصراط المستقيم للوصول والدعاء للقبول .. ورد بعد طلب الهداية واستدعاء العناية للوصول إلى النهاية (آمين) على لسان الرسول الأمين . فعن أبي هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إذا امّن الإمام فأمّنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » . وعن وائل بن حجر قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال (آمين) يمد بها صوته . رواه أحمد وأبو داود والترمذي . وهذا الأمر للندب عند الجمهور . والمشهور عن أبي حنيفة إخفاؤه مطلقا . وكذلك

عند مالك في إحدى الروايتين ومذهب الشافعي وأحمد الجهر به في الجهرية ، والإسرار في السّرية . ولكن حد الجهر أن يسمعه من يليك لا رفع الصوت به حتى تؤذيه أو يؤذيك . وما روي من أنه كان للمسجد في عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجّة من التأمين فمن تظاهر الأصوات لا من رفعها كما هو معمول عند بعض الناس .

وفي آمين لغتان : مد الألف ، وقصرها . وهو اسم فعل بمعنى إستجب . أي اللهم استجب لنا دُعاءنا !

خلاصة معنى سورة الفاتحة

نبدأ بالطاعة بعون اسم الله الجامع للكمال ، المنزه عن النقص ، المنعم بجلائل النعم ودقائقها في الدنيا والآخرة حسب علمه المبين .

وكل حمد وثناء ملك لله الذي ربّى العالمين ؛ خلقهم وسوّاهم وأوصلهم إلى منتهم مراده في الكائنات بصنعه الدقيق الرّصين .

الرب المنعم بالنّعم كلها حسب ماشاء على من شاء من العالمين .

المالك للجزاء في يوم الجزاء ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء من الجنّة والناس أجمعين .

فلك وحدك نخضع ونذل ، ومنك وحدك نطلب العون للدنيا والدين فياربنا دلّنا بلطفك إلى الصراط المستقيم دين الإسلام من العقائد والأحكام ، وسائر مواهبك على الأنبياء والرسل الكرام وعبادك الصالحين . صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، من عبادك المؤمنين .

المغايرين إعتقاداً وعملا لمن غضبت عليهم من الكفار المعاندين والمسلمين المتمردين ، والضالّين عن طريق الحق في الدين . اللهم استجب لنا دعاءنا يارب العالمين !

هذه السورة مدنية بالإجماع بناء على أن المدني مانزل بعد الهجرة . وفيها آية هي آخر آية نزلت من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون »

والسورة تقرأ مهموزاً وغير مهموز فعلى الأول من السؤر ، وهـو ما بقي من الطعام في الإناء ؛ لأنها قطعة من القرآن . وعلى الثاني إما مخفف المهموز ، أو هو أصل برأسه بمعنى المنزلة ، لأن القرآن منازل من أوله إلى آخره ، أو هي من سور المدينة ؛ لإحاطتها بمقدار من الأحكام . والآي بمد الهمزة جمع آية . أصلها أوية بمعنـى العلامة ، وأصله : أأْوي كأفلس ، خففت الهمزة الثانية بإبدالها ألفاً ، وحذفت ضمة الواو لثقلها ، ثم حذفت نفسها لإلتقاء الساكنين . وكل آية علامة على بعض من المقاصد الدينية .

(بِسْمِ الله الرحْمنِ الرَّحِيمِ الم) (١)

هذه الأحرف وأشباهها من فواتح السور فيها آراء .

منها أنها أسماء للسور واختيرت لإشارتها إلى إعجاز القرآن ؛ فإنـه آيات حاصلة من كلمات مركبة من الحروف الهجائية المبذولة لكل متكلم ، فلو كان من عند غيرالله لقدر الناس على تركيب كلمات متماثلة مع القرآن

الكريم في مزاياها الإنفرادية والإجتماعية • والرأي الراجح أنها من المتشابهات ، إستأثر الله بعلمها أو علّم الراسخين في العلم مرادَهُ منها •

(ذلِكَ الكتابُ) إشارة إلى القرآن الكريم • وفي البخاري : وقال مَعمر ذلك الكتاب القرآن •

(لا رَيْبَ فيهِ) أي لا شك ولا شبهة في أنه كلام الله سبحانه وتعالى عند من وفقه الله وصفا قلبه عن الكدر • أو لا ينبغي ولا يليق أن يشك فيه أحد ؛ لأن من تفكر في وجوه بلاغته ، والأخبار الغيبية الواردة فيه ، وتعرّضه للأمور العلمية الّتي لايفهمها إلا أولو الألباب العليم • إلى أسلوبه المغاير لأساليب كلام البشر علم أنه من الله العزيز العليم •

(هُدىً) مصدر حُمِل على وجه المبالغة •

(للمتّقِين)(٢) أي العباد الصائرين إلى التقوى • وهو لفيف مفروق من وقى • ودرجاتها ثلاث : الأولى : التقوى عن الكفر ويحصل بها الإسلام • الثانية : التقوى عن كبائر المعاصي والصغائر بالإستمرار ، ويحصل بها العدالة • والثالثة : التقوى عما سوى الله تعالى • أي لا يتوجه إلى شيىء إلا من حيث إرتضاء الشرع • ويحصل بها الولاية والإختصاص بالله سبحانه وتعالى •

(الذينَ يُؤْمِنونَ بِالغَيبِ) الموصول صفة للمتقين ، أو خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين يؤمنون • الإيمان إفعال من الأمن للصّيرورة أو التعدية • والغالب تعديته بالباء إذا تعلق بالله ويعتبر فيه معنى الإذعان ، وبالّلام إذا تعلق بغيره ويعتبر فيه معنى التصديق كقوله تعالى : « وما أنت بمؤمنٍ لنا ولوكنّا صادقين » وهو في أصل اللغة معناه جعل الغير آمنا مطلقاً ، ثم نقل إلى معنى جعلِهِ آمِناً من التكذيب •

ويجتمع بهذا المعنى مع مخالفاته نحو « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » فالمشرك المصدق بوجود الصانع وصفاته لايكون إلا مؤمنا بحسب اللغة دون الشرع ، كما صرح به السعد في شرح العقائد • وفي حقيقته الشرعية أقوال أقربها ثلاثة :

الأول : إنه تصديق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما جاء به من عنده تعالى مع الاقرار بكلمتي الشهادة • ويروى هذا عن الإمام ابي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ •

الثاني : قول السلف من التابعين وجمهرة المحدثين أنه التصديق بالجنان ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان • أي ترك المحرمات وفعل الواجبات فإذا أرادوا بهذا الإيمان المستوعب لجميع ماهو موجب للكمال فلا نزاع ، بل وينبغي أن يدخل فيه ترك المكروهات وفعل المندوبات ، إذ بها يتكامل على ماينبغي • وإن أرادوا أنها معتبرة في حقيقة الإيمان بحيث إذا انتفى شيء منها إنتفى الإيمان ، فلا شبهة فيأن رأيهم غير سليم،إذ ورد النص بخلاف ذلك فقد قال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ••• » الآية • فإنه أسند الإيمان إلى المقاتلين ولاشك أن فيهم العصاة إلا إذا كانوا على الإجتهاد في الدّين وهم أهل له وأنى ذلك ؟ ولزم منه نسبة الكفر إلى من ترك واجبا أو فعل محرما • وجمهرة المسلمين على خلاف ذلك • وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ •• في جملة حديث « وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذرّ » •

والقول الثالث : هو التصديق للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما جاء به من عند الله إجمالا فيما علم إجمالا ، وتفصيلا فيما علم تفصيلا • وهذا القول هو الراجح • ويدل عليه الآيات الدالة على أن محل الإيمان هو القلب كقوله تعالى : « اولئك كتب في قلوبهم الإيمان »

وكقوله : « وقلبه مطمئن بالإيمان » وقوله « ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم » وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « اللهم ثبت قلبي على دينك » • لكنه لاشك في أن ذلك التصديق مشروط بالإقرار بالشهادتين لإجراء أحكام الإيمان على صاحبه وإلاّ فالإيمان مستور لا يعلم به إلا الله ، كما أنه مشروط بالإذعان الفعلي وهو التسليم لما جاء به الرسول ، وبعدم ملابسته لما يدل على السّخط والإنكار كشد الزّنّار ، ولبس الغيار ، وتحقير شعار من شعائر الدين • والدليل على اشتراط التسليم قوله تعالى : « وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » • فإن العطف يدل على المغايرة مع العلم أن الإيمان علم وكيفية نفسانية ، والتسليم فعل من أفعالها ، والكيف والفعل متغايران بلا شبهة ، كما أنه يدل على وجوب تجرده من السخط والجحود قوله تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا » وقوله : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » •

وإنما إكتفى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنطق الناس بكلمتي الشهادة في الإسلام ؛ لأن الظاهر من حال العاقل المختار أن لاينافق ولاينطق إلا بما في قلبه ، ولأنه شعار الرضا والإستحسان • كما أن العلماء سلفاً وخلفاً عرفوا الإيمان بالتصديق بما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدون التعرض لاشتراط التسليم ؛ لأن الغالب الراجح من حال الإنسان الذي عنده اذعان وتصديق بشيء أن لاينكره ولا يعانده ويسلّم نفسه له •

فعلم مما ذكرنا أن الإيمان في اللغة ، وفي العرف المنطقي ، وفي عرف الشرع : هو الاذعان العلمي والتصديق القلبي على حد سواء ، غير أن الإيمان في اللغة وفي المنطق لم يشترطا بالتسليم الفعلي ولا بمباينة

السخط ، فإن المصدق لقول شخص يعتبر مؤمناً بكلامه ، وإن عاداه نفساً وأنكره قلباً ، فالإيمان اللغوي والمنطقي يجتمع مع الشرك وعليه قوله تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ولكن الإيمان في عرف الشرع لما كان هو التصديق بجميع ما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند الله ومن جملة ما جاء به التوحيد لله ؛ فلا يجتمع الإيمان مع الشرك ، ومع الكراهية للدين وأهله ، ومع الإستحقار لشعار الإسلام ، حيث ان الغاية من الإسلام والايمان الدخول في ساحة سعادة الدين ، والتعاون مع المسلمين ، والنصح لهم ، والإهتمام بشؤونهم الدينية والدنيوية المرضية . ولايتناسب ذلك مع مايخالفه قطعاً . ولذلك قال المحققون : إن الإيمان بالله وبالرسول وبما جاء به هو المحبة والرضا .

وعليه قوله تعالى : « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالديه والناس أجمعين » . أو كما قال .

وخلاصة الكلام : أن الإيمان في الشرع إذعان علمي وتصديق ، وهو كيف نفساني كالإيمان لغة ومنطقاً ، إلا أنه فيهما يجوز مقارنته للإستنكار النفساني . وأما الإيمان الشرعي فيجب مقارنته للتسليم الفعلي ومفارقته لكل سخط وإنكار .

ومما يجب أن يعلم أن التصديق المعتبر في الإيمان هو التصديق الجازم . أي أنه ليس التردد والشك ولا الظّن . فإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، وأن التصديق الجازم يجب أن يسعى صاحبه في وصوله إلى

درجة لا يقبل الزوال بتشكيك المشكك • أي يكون تصديقاً جازماً ثابتاً • ومن هذه الدرجة إلى أعلى درجات اليقين مراتب كثيرة يعلو بعضها بعضاً • ولاشك في ذلك لمن أنصف ونظر إلى أحوال نفسه وأحوال المسلمين • فإن قلت : يلزم من بيانك أن لايعتبر إيمان المقلد ! قلت : ذلك صحيح وأساسه أنه عبارة عن إيمان لم يُبْنَ على تصديق صاحبه من ذاته ، وإنما بُنِيَ عَلَى التبعية للغير وتقليده فيه • حتى إذا سُئل عن أساس إيمانه أجاب بأن إيمانه ناشيء عن قول فلان وعن التبعية له • ولا شبهة في أن هذا الإيمان ليس بمعتبر عند أيّ شخص صاحب تمكين في الدين •

وأما المقلدون الموجودون بيننا فلكل منهم حالة نفسية قدسية ، واستدلال بالإجمال حتى إذا سألته : ما دليلك على وجود الباري تعالى ؟ يستدل لك بشيء يعجبك متانة ورزانةً • وقد سمعنا انه سُئل شخص عن الدليل على وحدة الباري سبحانه فقال : دليلي طاحونة قرية (بيستان سور) ، فانها عندما كان صاحبها واحداً كانت تطحن في كل يوم وليلة عشر تغارات ، والآن وقد مات المالك وانتقلت إلى أولاده الأربع لاتطحن إلا أربع تغارات !

والغيب كل ما غاب عن الحس ، فلا يدركه ولا تقتضيه بداهة العقل مما يجب الإذعان والتصديق به كوجود الباري تعالى ، وصفاته ووجود الملائكة ، والكتب المنزلة على الرسل الكرام ، وما أخبر به الرسول من : أحوال البرزخ ، ونعيم الإنسان فيه ، وعذابه ، ويوم القيامة ، واحياء الموتى فيه ، والبعث ، والحشر في المحشر ، والحساب للأعمال ، والسؤال والجواب ، وما بعدها من الدخول في النار ، أو في جنة الأبرار ، ولقاء الباري تعالى فيه ••• وغير ذلك مما أخبر به الصادق • وذلك مبني على

أن المتقين هم الذين يؤمنون به عند الإخبار به من طرف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند تبليغ أحكام الإسلام ثم جاء بما يشهد على وجود ذلك الإيمان من الفقرات الآتية فقال :

(وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ) :

أي يؤدون الصلاة المقررة في الذمة على الوجه المشروع ، أو يعدلون أركانها ويحفظونها من أن يقع خلل في مقدماتها ، أو نقص في أركانها ، أو فتور في كيفية أدائها بترك الخشوع وسائر سننها ، أو المراد الذين يروجون الصلاة ، ويسعون في إعلاء شأنها ، وتعمير مكانها ، ورعاية زمانها ، وكيفية أدائها عند الإنفراد أو الإجتماع . أو المراد الذين يداومون عليها في أوقاتها ولا يتركونها .

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (٣) والرزق : ما ساقه الله تعالى إلى المرزوق من : الطعام ، والشراب ، والملبس ، والمسكن ... وسائر مايتنعم به في حياته . فمنها ماهو وهبي ، ومنها ماهو كسبي . وهذا قد يكون طريقُ اكتسابه مشروعاً فيكون حلالاً ، وقد يكون غير مشروع فيكون حراماً . وكل ذلك رزق ، والله معطيه على سنته الكونية لقوله تعالى : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » فالحلال والحرام كله رزق .

ثم الإنفاق منه يشمل الإنفاق الواجب كالإنفاق على الممون شرعاً من نفسه وغيره ، وكصرف الزكاة والكفارات والنذور . والمندوب كالهدايا ، والهبات ، والصدقات . ووقوع الفقرة في سياق المتقين يؤيد الإستيعاب .

(والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وبِالآخِرَةِ هُمْ يوقنون) (٤) عطف على ما تقدمه ، والمراد بالموصول كل من حاز الفضائل الثلاث من : الإيمان بالكتب السابقة ، والإيمان بالقرآن ، والآخرة حق الإيمان .

والمراد بالآخرة الدار الآخرة من الجنة والجحيم ، أو الحياة فيها ، أو جزاء الأعمال . والإيقان من اليقين ، وهو الإعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع . وفي تخصيصه بالذكر إشارة إلى عدم الإعتبار بالظن والتقليد في الإيمان . ولكن ذلك مبني على كون المقلد معتمدا على تقليده للغير فقط . وأما إذا نشأ بين أظهر قوم مؤمنين اولي مقام وتبعهم في الإيمان ، وكان مع ذلك عنده دليل على ما اعتقده فلا شبهة في إعتباره وقبوله . وروي عن ابن عباس وابن مسعود ــ رضي الله عنهم ــ أن المراد بالموصول هم مؤمنو أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأشباهه . ويحتمل أن يراد به الموصول الأول الذي هو أعمّ . ووجود العاطف للتغاير الإعتباري المأخوذ من الصلتين وإنما ذكر الإيمان بالآخرة مع اندراجه في الإيمان بالغيب للإهتمام بالإيمان بها .

والإنزال : نقل الشيء من أعلى إلى أسفل ؛ فإن كان النازل عينا فذاك . وإن كان معنى فإنزاله عبارة عن إنزال الملك الموكل به كجبريل عليه السلام . بأن يتلقفه الملك من الله تعالى تلقفا روحيا أو يأخذه من اللوح المحفوظ ، فينزل به إلى الرسول . والقرآن ، وإن لم يكن كله منزلاً عند نزول هذه الآية، لكن غلب المنزل على غير المنزل لترقب نزوله تنزيلاً للمنتظر منزلة الواقع .

(أولَئِكَ على هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وأولَئِكَ هُمُ المُفْلِحونَ)(٥)

خبران للموصولين السابقين ، إن وقف على المتقين ، وقطع ما بعده عنه . وإلا فمبتدآن وما بعدهما خبر . وفي بناء الخبر على اسم الإشارة إشعار بكون الأوصاف الواردة بعد الموصولين علة لتمكن الجمع من الهدى والفلاح . ولا شبهة أن من حاز فضيلة الإيمان على وجه الإيقان ومباشرة الأعمال الصالحة المرضية إستحق فضلا من الله أن يستقر على مراقي الهدى والفلاح .

وعن مجاهد ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : أربع آيات من أول سورة البقرة نزلت في نعت المؤمنين ، وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاث عشرة في المنافقين . أخرجه الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري .

ولما تم بيان أحوال المؤمنين في الآيات الأربع أخذ في بيان أحوال الكافرين المعلنين للكفر المصرين عليه فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) (٦)

فأفاد أن اولئك الناس الذين بلغتهم الكتابَ وأرشدتهم إلى الصواب وعاملتهم معاملة الرجل مع الاحباب فلم يزيدوا إلا عناداً واستكباراً .. لاينفعهم الإنذار والتبشير فيستويان بالنسبة إليهم لا إليك ؛ فإنك مأجور وأجرك موفور فلا تتعب نفسك بعد اليوم على إرشادهم فهم لا يؤمنون .

وهنا فوائد : الأولى : أن الموصول وصلته إما للعهد والإشارة إلى أفراد معينين كأبي جهل ، وأبي لهب ، والوليد بن المغيرة ، أو للإشارة إلى الجنس المحتمل لهم ولغيرهم ممن سلك مسلكهم .

الثانية : أن الكفر في عرف الشرع إنكار لشيىء مما جاء من ديـن سيدنا ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ وعلم بداهة . فمن أنكر وجود الله ، أو صفة من صفاته ، أو اعترف بذلك ، ولكنه اعتقد وجود واجب ، أو خالق ، أو معبود ثان فأشركه به ، أو أنكر وجود الملائكة ، أو أحدا مـن المرسلين ، أو كتاباً من الكتب المنزلة عليهم ، أو أنكر تأثير الله تعالى فـي موجود من الممكنات ، وقال إنه مخلوق غيره تعالى ! أو أنكر القيامة وبعث الموتى وحشرهم وحسابهم ، أو أنكر وجوب أحد الأركان الخمسة مـن الصلاة والصيام والزكاة وحج البيت ، أو ظهر منه قول أو فعل يدل على شيىء من ذلك كشد الزنار ولبس الغيار فهو كافر . وكذا من حـرم حلالا أو أحل حراما بالإجماع أو بالنصوص كقتل النفوس البريئة وهتك الأعراض، ونهب الأموال فهو كافر . وعليه فالإيمان والكفر وصفان وجوديان متضادان لايجتمعان في ذات واحدة أبدا . وقيل : الكفر مفهوم عدمي كالظلمـة مقابل النور ، فهو عدم الإيمان عمن شأنه الإيمانُ حتى يشـمل الإنسـان الذي خلا قلبه عن التصديق والتكذيب ، والشاكَ المتردد في الأمـر . فالوجه الأول مبني على التغليب .

ولما أفاد الباري تعالى أن أولئك الناس لا يؤمنون علـى ذلك بقوله :

(خَتَمَ اللهُ على قلوبهم ، وعَلَى سَمْعِهِمْ ، وعلى أبْصارِهِمْ غشاوةٌ وَلهُمْ عذابٌ عظِيمٌ) (٧) يعني أن أولئك الناس لَمّا لم ينتفعوا بإدراك القلوب وبإحساس الحواس والمشاعر ، ولم يهتموا قطعاً بتبليغـات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يستمعوا لمـا ألقاه إليهم ، ولم يروا بأبصارهم العلامات الدالّة على صدقه شبهت قلوبهـم بصناديـق نقـود سُدَّت أبوابُها وَاسماعُهم بجهاز منع عن أخذ الأصـوات ، وأبصارُهم بعيون غطيت بما يمنعها عن إبصار الألوان والأضواء .

وبما أنهم هم الذين أضرّوا بأنفسهم حيث وجّهوا قواهم إلى الجمود والجحود ، ولم يسترشدوا بإرشاد الرسول ، بل عاندوه واستكبروا وامتنعوا من القبول ومنعوا الناس من إطاعة أمر الله قرّر الله تعالى لهم عذاباً عظيماً لكفرهم وتسبّبهم في كفر غيرهم . وكذلك حكم أشباههم من الفاسدين المفسدين .

ومما يجب أن يعلم أن ليس المراد بالختم والغشاوة في هذه الآية والإضلال ونحوه في الآيات الأخرى إن الله تعالى تعمّد بقهر العباد على هذه الامور بل معناه أنه تعالى خلقهم وسوّاهم وأعانهم بالعقول والحواس والمشاعر ، ثم أيد عقولهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وتبليغ كل حكم من الأحكام فلم يسمعوا ولم يطيعوا ، وقابلوا تلك النعم العظيمة بالكفران والإستكبار ، ومعاندة الرسول بكل مالديهم من القوة والطاقة .. تعلقت قدرته تعالى بصب الجزاء عليهم فخلق الضلال والغواية فيهم ، وجعل حواسهم ومشاعرهم معلولة مؤفة ترتيباً للجزاء على الأعمال ، وإلا فلو قهرهم الله تعالى على ذلك ما ارسل الرسل ، وما بين السبل . نعم إنه سبحانه وتعالى يعلم أزلاً وأبداً أحوال كل عبد وأعماله وصرف إرادته إلى ما يختار من آماله ، فإنه علام الغيوب . ولكن العبد أيضا بدوره عالم عامل عاقل مختار في أحواله ومسؤول عن أعماله فإذا أهمل عقله ونوره ، ولم يستعمل بحق حواسه وشعوره فالموافق لعدل الباري أن يقابلهم بسلب سلب الفضائل وجلب الرذائل إلى نفوسهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ولما بيّن الباري سبحانه وتعالى القسم الأول من الناس وهم المخلصون في الإيمان وثناهم بالخالصين في الكفر والعدوان تلّثهم بالمنافقين اللاعبين على الحبال والميول ، والجارفين الصائلين كالسّيول . فقال :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَشْعُرُونَ) (٩) يعني سبحانه وتعالى أن من جنس الناس أُناساً ناسين لحقوق المَلكِ العادلِ ،لابسينَ الحق بالباطلِ ،ينافقون الرسول والمؤمنينَ فيقولون باللسان آمنّا بالله المسيطر على العباد المثيبِ المعاقِب في المعاد ، وباليوم الآخر يوم الميعاد ، وماهم بمؤمنين ، فليس عندهم التصديق والإستقرار ، بل عندهم الجحود والإستكبار والإستنكار، وغرضهم من قولهم ذلك أَنَّهم يخادعون الله أي رسوله ، ويخادعون الذين آمنوا فإنهم من البشر ويمكن التأثير في قلوبهم بإظهار ما في جيوبهم وإخفاء ما في غيوبهم وفي الواقع ما يخدعون إلا أنفسهم ؛ لأن الله يصون الرسول والذين آمنوا من آثار مقالتهم ومكائدهم التي سمعوها وعاينوا • ويصب عليهم عذاب مقالهم وأعمالهم في حالهم ومآلهم وما يشعرون بذلك •

ثم أراد الله بيانَ سرّ ذلك النفاق فيهم فقال : : (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ، وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)(١٠) يعني أن أساس ذلك القول والخداع هو أن في قلوبهم مَرَضَ العداء والعنادِ والحسد في الرسول والمؤمنين من إختصاصهم بنور الإيمان وتلقي أنوار الوحي من الملك الدّيان الذي يتزلزل به عرش كل من يخالفهم ، ونشأ من ذلك مرض النفاق في إظهارهم خلاف ما أضمروا حتى يصونوا أرواحهم وأموالهم ويفوزوا بما يريدون من الغنائم والمنافع ويقرروا بين الناس عزتهم وكمالهم فزادهم الله تعالى باستمرارهم على ذلك مرضاً من عروض وجوه أخرى من العداء والأحقاد ، وإظهار نوع آخر من النفاق في غير أصول الدين ، وهذا كله في الدنيا ولهم في دار الآخرة

عذاب أليم مؤلم مقيم بسبب كذبهم مع الرسول والمؤمنين في إسناد الإيمان إلى أنفسهم بدون أن يكون في الواقع كذلك .

(وإذا قيل لهم) : من جانب المؤمنين بعد أن تبين أنهم من المنافقين المفسدين (لا تفسدوا في الأرض) ولا تستمروا على هذه الحالة الخارجة عن الإعتدال الموجبة لفساد قلوب الذين يريدون الإسلام أو قلوب المؤمنين الضعاف (قالوا) : مستنكرين لوجود الفساد والإفساد فيهم : (إنما نحن مصلحون) (١١) أي ليس شأننا إلا الإصلاح . وقالوا ذلك أيضا إما : على وجه النفاق لأنهم يعلمون قلبا أنهم مفسدون لعالم الإسلام مع أنه يعلنون أنهم مصلحون ، أو على حقيقة ما اعتقدوه فإنهم كانوا يزعمون أن الرسول ومن معه أفسدوا الأرض ، وأنه يجب عليهم معارضتهم حتى لا تبقى آثار فسادهم فيها ويصلحونها بأهوائهم الباطلة .

ولما ادعوا بكل قوة أن الإصلاح منحصر فيهم وليس شأنهم إلا ذلك رد الله تعالى عليهم بكمال القوة وقال (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) (١٢) أي إن أقوالهم وأعمالهم في مقابلة الأمة المسلمة الإفساد للقلوب وجلب الكروب واختلاق العيوب والخيانة في الغيوب . ولكن لا يشعرون بأنهم المفسدون فضلا عن العلم بانحصار الإفساد فيهم . وذلك لاعتقادهم خلود دين موسى عليه السلام ، وتعاميهم عن الأدلة القاطعة والبراهين اللامعة على أن دينه قد مضى وأنه قد ظهرت أشعة أنوار النبي الهادي المبعوث رحمة للعالمين محمد الخاتم للأنبياء والمرسلين .

(وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ، ولكن لا يعلمون)(١٣)

وقوله تعالى : (واذا قيل لهم) معطوف على الجملة السابقة ، والمقصود أن الإنسان يحصل له الكمال الإنساني بالتخلية عن الرذائل والتحلية بالفضائل ، وارذل الرذائل إفساد المجتمع وأكمل الكمالات والفضائل التحلي بالإيمان ، فإذا نهوا عن إرتكاب القسم الأول أجابوا بأنهم براء منها ومتصفون بأضدادها ولكن الله رد عليهم أنه ليس الأمر كذلك ، وإذا أمروا بالقسم الثاني وقيل لهم آمنوا كما آمن الناس أي الناس المعهودون المعروفون بالصدق والإخلاص كالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه، أو جنس الناس لكن الثابتون منهم قالوا في الجواب : أنؤمن كما آمن السفهاء أي الناس الخفاف العقول فرد الله عليهم وقال : ألا تنبهوا لمعرفة الواقع إنهم هم السفهاء لا المؤمنون ولكن لا يعلمون ما هو الإيمان ومن هم المؤمنون ، أو لا يعلمون أنهم هم السفهاء ولا الذين آمنوا • أي فهم في جهل مركب •

ثم فصّل الباري أحوالهم ، وبيّن أنهم يتحببون إلى أهل ملتهم لكسب المزيد من عزتهم ، كما ينافقون المؤمنين لحفظ أموالهم وأنفسهم وصيانة حريتهم فقال : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنّا ، وإذا خلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قالوا : إنَّا مَعَكُمْ ،إنمَّا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ) (١٤)

أي أنّهم مُصِرّون ودائبون على شيمة الكذب والنفاق مع المؤمنين فاذا لقوا الذين آمنوا من كبار الناس قالوا آمنا بما جاء به سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من زمان سابق ونحن مستمرون عليه كما أنهم تَحَبَّبوا إلى كُبَرائهم في الشيطنة والملعنة الذين يُرجى منهم شيىء من المطامع الدنيئة وقالوا : إنا معكم في العقيدة

والدين ، وفي معاندة المؤمنين • وإنما نحن في مجاراتنا لهم مستهزؤن بهم لا معظمون ولا معتقدون فجازاهم الله بقوله :

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)(١٥) يعني إعلموا أن الله يستمر في الاستهزاء بهم ويزيدهم الآمال الباطلة ، والأهواء الفاسدة ، فتعمى بصيرتهم ، وتظلم سريرتهم وفي طغيانهم يبقون متحيرين حتى يَلْقوا مَوتهم متحسرين • والمدُّ : الزيادة في القوة كالإمداد • والطغيان : تجاوز الحد في العصيان والعَمهُ في البصيرة كالعَمى في البصر • أعاذنا الله منهما بفضله ورحمته •

ثم إستأنف الباري سبحانه وتعالى لبيان أحوالهم فقال :(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)(١٦) يعني إن أولئك المنافقين كانت لهم فطرة سليمة مناسبة للهدى ، وكانوا مستعدين لتوجيهها إليه ، ولكنهم أساؤا معاملة النفس ، وأهملوا تلك الفطرة وما تؤل إليه ، واختاروا مقابلها الزائف الفاسد المفسد وهو الضلال ، فما ربحت تجارتهم ومبادلتهم ، نقدَ الذهب ببالي الخشب • وما كانوا مهتدين لطريق التجارة الرابحة بل ضلوا فيها حيث ضيعوا رؤس الأموال والأرباح الواصلة في المآل •

وفي الآية الكريمة إستعارة مكنية ؛ حيث شبّه الضلال بالأموال الفاسدة الكاسدة ، والهدى بالذهب والأحجار الكريمة الواردة ، وذكر إشترى قرينة وفيه إستعارة تخيلية • وذكر الربح والتجارة التي وسيلة التبادل ، والمعاملة إستعارة" تخييلية" وترشيح لها •

وخلاصة المقام : أنه كان في المدينة المنورة أناس منافقون كعبدالله بن أبي بن سلول وأعوانه • كانوا يدعون الإيمان ويقولون : آمنا بما جاء به

محمد من عند الله من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره • وهم ماكانوا مؤمنين واقعا ، وغرضهم من ذلك القول أن يخدعوا رسول الله والمؤمنين ولم يشعروا أن وبال خدعهم يعود عليهم ؛ فإنّ الرسول الكريم قد زاده مقاماً وشأناً ، ونشر دينه في العالم وأبقاه مخلّدا ، والمؤمنون قد نالوا بالرشاد والجهاد أعلى مقام الكرامة اللائقة بالأمة • وإذا نصحهم ناصح على أحوالهم وقال لهم : لاتفسدوا في الأرض بالشقاق والنفاق وسوء الأعمال والأخلاق • قالوا في جوابه على التورية : إنما نحن مصلحون الأرضَ ، أي ناشرونَ الإسلام • والمعنى المكنون في قلوبهم : أنا إذا سعينا في توقيف مساعيكم فنحن مصلحون لها بإزالتكم عنها وتنويرها بما عندنا • والله سبحانه ردّ الجواب عليهم وقال ألا إنهم هم الذين إنحصر الفساد فيهم ولكن لايشعرون بما هو الفساد في الواقع ، فكانت أحوالهم هكذا : إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا مضوا إلى شياطينهم الإنس الطواغيت قالوا : إنا معكم إعتقادا وعملا ، وإنا مستهزؤن باتباع محمد وبه وبأتباعه ؛ لأنهم حقَراء عندنا ورد الله عليهم بقوله : (الله يستهزىء بهم) وهناك فرق فارق بين من يستهزىء بالله وبين من يستهزىء اللهُ به ، ويزيدهم قوة على الجهالة حتى يمشوا ويمسوا عمهين في مقاصدهم وعمين في مسالكهم • فأولئك الناس حالهم الجسارة ، ومآلهم الخسارة ، وليسوا مهتدين •

ومما يظهر من المقام أنه قد يدعي الإنسان الإيمانَ ولا يكون مؤمناً واقعاً لعدم وجود التصديق في قلبه ، ولكنه يقر بالشهادتين لأغراض له كالمنافقين وكما في الأعراب الذين جاؤا إلى الرسول وقالوا آمنّا ، فردّ الله تعالى عليهم بقوله : (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، ولَكِنْ قُولوا : أَسلمنا

ولمّا يَدْخُل الإيمانُ في قلوبكمْ) أي قولوا أسلمنا في ظاهر الحال وإلاّ فالإسلام والإنقياد النفسي لم يتحقق فيهم أيضاً .

ومما تبين عند المحققين أن الإيمان صفة من صفات النفس وكيفية من الكيفيات النفسانية ، وهو العلم التصديقي أي الإعتقاد الجازم المطابق للواقع . والإسلام فعل من أفعال النفس ، وهو الإنقياد والإذعان الفعلي وما دام الإيمان كيفا والإسلام فعلا فهما أمران متغايران مفهوماً وذاتاً . ولكن لمّا كان الإيمان أي التصديق الجازم للمؤمن مشروطاً بالتسليم والإنقياد لِما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان الإسلام في الشرع هو التسليم لما جاء به ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان الإسلام والإيمان متساويين صدقاً وتحققاً ، فكلما وجد الإيمان والمؤمن وجد الإسلام والمسلم، وكلما وجد الإسلام والمسلم شرعاً وجد الإيمان والمؤمن . فنسبة الكفر والجحود والظلم إلى اليهودِ كانت لعدم مقارنة تصديقهم واستيقانهم بالتسليم ، بل كان مع الإباء والعداء النفسي له ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فالإستيقان المنسوب إلى أنفسهم في قوله تعالى (واسْتَيْقَنَتْها أنفُسُهم) وكذلك المعرفة المنسوبة إليهم في قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) عبارة عن التصديق الجازم المطابق للواقع ، ولكنْ لمّا لم يقارِنْ التسليمَ النفسي لم يعتبر إيماناً في الشرع فهم كافرون . فخُذْ ما آتيتك وكن من الشاكرين .

فإن قيل : لما كان الإيمان الشرعي مشروطاً بالتسليم والإنقياد فلِمَ لَمْ يعتبر العصاة من الناس كافرين ؟ قلنا : ذلك التسليم المفسر للإسلام تسليم لأصل الرسالة ، فمخالفه منكر لها . وأما المخالفة من العصاة فمخالفة مع التصديق بالأصل ، أي مخالفة في الفروع وبينهما ما بين الثرى والثريا . أو مابين الكفر والإيمان هنا .

ومما ينبغي معرفته أنه ثبت بالدليل القاطع أن الإنسان كائناً من كان مستعد بالطبع للخير والشر ، وتوجيهه إلى أحدهما مبني على التدريب والتعويد ، ويشير إليه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فمن تعودَ شيئاً شبَّ عليه ، ومن شبَّ على شيء شاب عليه . ولا علاقة في ذلك للذكاء وتعلم العلوم وأخذ الفلسفة وغير ذلك . فكم من فيلسوف معتقد للخرافات ؟ وكم من جاهل معروفٍ له إعتقاد سليم برب البريّات ؟ فالدور الاساسي للتربية والتعليم والتدريب والتهذيب ولها طرق كثيرة لاتحصى ، ومن أوضحها أن يكون المربّي المهذّب مهذّب الأخلاق صالح الأعمال حسن الإعتقاد . وقد يؤثر في طبع النشء الجديد الكلام اللّين ، والطعامُ اللذيذ،والإحترام، وحسنُ الإدارة معهم . وبذلك ينشأ الجيل الجليل .

فان قلت : اذا تشعب الإنسان إلى شعوب ، وكان لكلٍّ نحلةٌ ومذهب وكلٌّ إعتقد حسن مذهبه فما المميز للحق من الباطل منها ؟ قلنا : العقل السليم مجبور على إسناد الآثار إلى الفاعل العليم المختار ، وبعد الإعتراف به يهتدي العقل إلى الصواب ، فإنه لا يجوز أن تكون هذه النحل المتناقضة كلها حقّاً ، ولا كلها باطلاً ؛ لأن النقائض لا تجتمع ولا ترتفع ، فيجب أن يكون الحق واحداً ، وطريق الوصول إليه عبارة عن البراهين القاطعة المؤلفة من المقدمات البديهية . كأن يقال : كلما كان العالم متحركا إحتاج إلى محرك قادر عالم دائم ، لكن المقدم حق فثبت التالي . أو تقول : كلما ثبت تواترا أنّ سيدنا محمداً إدّعى الرسالة من الله واظهر المعجزة كانت رسالته حقّةً ، لكن المقدم حق فثبت التالي .

ولايخفى تأثير المغريات والمخوفات في القلوب ، وهذه هي التي يعبر عنها بالظروف والمحيط • وهي أقوى عامل في تحويل الإنسان • ومن الله العون وهو المستعان •

ثم ضرب الله سبحانه وتعالى لأولئك المنافقين مثلين : الأول باعتبار أول أحوالهم من الإستبشار بقدوم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والإستفتاح به على المشركين في الديار ، ثم التحول إلى الجهود في الجحود والإستنكار • فقال : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذي استَوْقَدَ ناراً ، فَلَمَّا أَضاءَتْ ماحوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنورِهِمْ وتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لايُبْصِرونَ) (١٧) المثل في الأصل بمعنى الشبيه والنظير ، ثم نقل إلى الكلام المشهور السائد بين الناس المشبه مضربه بمورده ، ثم استعير لكل حال أو قصة لها شأن واعتبار • والباء في قوله تعالى (بنورهم) للتعدية • ولما كان فيها معنى الإلصاق والمصاحبة كان أبلغ من الهمزة وفي المثل : كل من ذهب بشيىء فقد أذهبه ، وليس كل من أذهب شيئاً ذهب به • وترك بمعنى صيّر •

يعني أن قصة المنافقين باعتبار أول أمرهم من الإستبشار ببعث الرسول الأمي العربي وأنه هو الرسول الذي بشر به الأسفار القديمة ، والإستفتاح بظهوره على مشركي العرب بأنه لما جاء الرسول واستقرت له الدولة لايبقى للمشركين أية صولة وجولة ، ثم التحول عن هذه الحال إلى العداء والعناد والإستكبار والإستنكار كمثل القوم الواقع في مكان طامسٍ وليل داج دامس ؛ فاستوقدوا نارا للإستفادة من نورها فلما اشتعلت وأضاءت تلك النار بنورها ما حولهم ومحلهم •• كفروا بنعمة ذلك النور بسوء

العقيدة والشعور ، والعمل الفاسد والقصور ، فعاقبهم الله تعالى ، وذهب بنورهم مع بقاء النار ، وضرب بينهم وبينها بستار ، وصيّرهم في ظلمات لايبصرون فيها ، أي لايبصر بعضهم بعضا . والظلمات بالنسبة إلى القوم ظلمة الدهشة والحيرة ، وظلمة فقد البصيرة ، وظلمة فقد الإبصار للإستراحة في المقام ، أو لإتمام المسيرة . وبالنسبة إلى المنافقين ظلمة الكفر ظلمة النفاق اللتين جعلتاهم صمّاً عن استماع الحق . وبُكْما عن القول به ، وعمْياً عن إبصار ما أمامَهم حتى يَتَخَطّوْا خُطُواتٍ لايقةً بالعقلاء .

والظلمة الثالثة : ظلمة يوم القيامة ولذا قال تعالى (صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ) (١٨) والكلمات الثلاث على وزن فُعْلٍ بضم الفاء وسكون العين جموع : للأصم ، والأبكم والأعمى.أي لما أيِفَتْ عُقُولُهم أيِفَتْ حَواسُّهُم ، فكأنّهم لا يسمَعون ، ولا ينطقون ، ولا يُبصرون . ما ينفعهم فهمٌ بعدَ هذه الحالة لا يَرجعونَ إلى الهدى .

والمثل الثاني : باعتبار ما استمرّوا فيه من العتوّ والعناد والفساد والإفساد . فقال : (أو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ ورَعدٌ وبَرْقٌ ، يَجْعَلونَ أَصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوْتِ واللهُ مُحِيطٌ بالكافِرين (١٩) . يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ ، كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوا فيه وإذا أَظْلَمَ عَلَيْهم قامُوا ولَو شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصارِهِم إن اللهَ عَلى كُلِّ شيىءٍ قَدير) (٢٠)

والصَّيِّب : فيعلٌ من الصوب ، وأصله صَوِيب ، فقلبنا امكان الواو والياء فصار صَيْوب ، وقلبنا الواو ياء وأدغمنا الياء في الياء فصار صيّب كسيّد . والصّيِّب هو النازل من فوق ويقال للمطر باعتبار ذاته ، وللسحاب باعتبار ما فيه من الماء . والمضاف محذوف ، أي كذوي صيِّب . والظلمات بالنسبة للمطر ظلمة تكاثفه ، وظلمة غمامه ، وظلمة الليل . وبالنسبة إلى السحاب فهي سواد الغيم ، وتراكم بعضه على بعض ، وظلمة الليل . والرعد : صوت يُسمَع من السحاب . والبرق : ما يلمع من السحاب . ولا شك أن الأجرام العلوية وما في الجوِّ بل كل كائن من الكائنات عليها ملائكة تتصرف فيها بإذن الله ، فإذا ساق الملك السحاَب وقطعها حَدَثَ من تفريقها "أصواتٌ" ولَمعَاتٌ" نورية مختلطة فتسبّح ملائكتها ، وأهل الله يسمعون تسبيحها معرضين عما سواه . والناظر إلى المواد يسمع حركاتها ويَرى ما يَحدث من اصطكاكها ، والصاعقة : قصيفة رعد هائل معها نار لا تمرّ على شيء إلا أَهلَكته وأفنته . والخطف : الأخذ بسرعة ، ومعنى الآيتين : أو أنّ قصّة المُنافقين كقوم تحت مطر شديد نازل ، أو تحت سحاب فيه مطر هاطل من جانب الفوق في هذا أو ذاك ظلمات بعضها فوق بعض ، ورعد وبرق هائلان مخيفان ، ويجعلون أصابعهم في آذانهم من أجل الإحتراز عن أضرارهما بخرق ستار السمع ، أو بأخذ نور البصر ، حذر الموت أو ما يقرب منه الله محيط بالكافرين ، لا يفوتونه فلا يفيدهم الحذر إذا أتى عليهم القدر . وعند لمعان البرق على الإستقامة والإنحراف واستيلائه على العيون تكاد قوة البرق تأخذ بسرعة نور أبصارهم ، وكلما أضاء لهم البرق حواليهم مشَوا فيه بمقدار ما استفادوا من نوره ، وإذا أظلم الله عليهم بمنع البرق أو أظلم عليهم البرق باختفائه قاموا هائمين مترقبين برقاً ثانياً

وثالثا . ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصيف الرعد وبأبصارهم بوميض البرق لفعل ولذهب بهما ، ولكنه لم يشأ ذلك رحمة بهم ، إن الله على كل شيىء قدير ، أي أنه قادر على ابداع كلّ أمر ممكن يتعلق به ارادته .

والقدرة : صفة تقتضي التمكن من الإيجاد والاعدام والإبقاء . ومعنى كونه قادرا على الموجود حين وجوده أنه إن شاء عدمه أعدمه ، وإن لم يشأ لم يَعْدمه ، وعلى المعدوم حين عدمه أنه إن شاء وجوده أوجده وإن لم يشأ وجوده لم يوجده .

والغرض من الآيتين تمثيل حال المنافقين من الحيرة والشدة بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة . أو بحال من أخذَتْه السماء في ليلة مظلمة مع رعد قاصف ، وبرق خاطف ، وخوف من الصواعق .

قال الشهاب : والمشبه في الأول مجموع أحوال المنافقين في تحيرهم واضطرابهم مع إظهارهم الإيمان حفظا لدمائهم وأموالهم وذراريهم واهلهم وزوال ذلك عنهم سريعاً بإفشاء أسرارهم وافتضاحهم المؤدّي إلى خسارة الدارين . والمشبه به حال المستوقِد ناراً مضيئة له فانطفأت ، ووجه الشبهِ صلاح ظاهر الحال الذي يؤل لخلافه . وفي الثاني حالهم في الشدة ولباس إيمانهم المبطن بالكفر المطرز بالخداع حذر القتل بحال ذوي مطَرٍ شديد ببرق ورعد ، يرفعون خروق آذانهم بأناملهم حَذَرَ الهلاكِ ، ووجه الشَّبه وجدان ماينفع ظاهره ، وفي باطنه بلاء عظيم . ويمكن جعلهما من قبيل التمثيل المفرد وهو : أن تأخذ أشياء فرادى فتشبهها بأمثالها . وملاحظتها يسيرة" .

ولما ذكر الله تعالى فِرق المكلفين من المؤمنين المخلصين ، ومن الكافرين المعاندين المفلسين من الرحمة والنجاح ، ومن المنافقين الذين ليس

لهم شرف التقوى وكرامتها ولا شخصية العدوّ وشدتها •• نادى عباده المكلفين نداء مؤكداً ، وأمرهم بعبادة الرب الواحد الأحد التي هي أساس السعادة ولها خلق الجن والإنس ، وأتى في سرد ندائه بصفات للمعبود يصح أن يكون كل منها علة لاستحقاقه العبادة فضلاً عن مجموعها •

وقال : (يا أيُّها النَّاسُ اعبُدوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ والَّذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكم تَتَّقونَ (٢١) الَّذي جَعَلَ لكُمُ الأَرْضَ فِراشاً ، والسَّماءَ بِناءً ، وَأنزَلَ مِن السَّماءِ ماءً فأَخْرَجَ بِهِ مِن الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ ، فَلا تَجعَلُوا للهِ أنْدَاداً وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (٢٢)

قالوا : إن النداء بصيغة (يا أيها) فيه وجوه من التأكيد وفسّرت بتكرر ذكر المنادي لأنه متبوع بِوَصْفٍ هو المقصود بالنّداء فأيٌ منادى صورةً ، والناس منادى قصدا • وفيه الإيضاح بعد الإبهام ، واختيار أداة نداء البعيد وتأكيد معناه بحرف التنبيه واجتماع التعريفين في النداء وأل ، ويستعمل في مقام الإهتمام بالمنادى له وهو العبادة هنا فإنها من شأنها أن يتفطن الناس لها ، ويقبلوا إليها بقلوبهم ويستعدوا لأدائها • والناس اسم جنس معرف باللام ، وحيث لا عهد فهو للعموم،وهذا النوع من العموم ، يسمى بالعموم الشفاهي في الأصول ؛ لأن بعض الأفراد موجودون ومخاطبون شفاها ، والحق أنه يشمل أفراده جميعاً سواء الموجودون منهم والمعدومون • أمّا وضعا فلأن لفظ ناس بدون اللام كلي يصدق على أفراد كثيرين ذهنا ، وتعريفه باللام يفيد عمومه وإحاطته بجميع أفراده مرة واحدة ، ويكفي في صحّة الخطاب وجود بعضهم ؛ لأن المعدومين ملحوظون بالتبع كما في قول الواقف : وقفت هذه البساتين على العلماء المدرسين في المدرسة الفلانية • وعلى ذلك فَهْم أهل اللغةِ

والعرف . وأما شرعاً : فلأن عموم الخطابات علم بالضرورة من دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا ما خصّ منها حيث قال : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . وقال : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) . على أن المنادِي هو الله وهو عالم بجميع أفراد المنادى ، وهم موجودون حاضرون في علمه تعالى ، والمأمور به من المخاطبين المسلمين إدامة العبادة ، والإستقامة عليها ، ومزيد الإخلاص فيها . ومن الكافرين العبادة وإبداؤها بإبداء الإيمان ؛ لأن التكليف يستلزم التكليف بشرطه كما في الأصول .

وذكر المعبود بعنوان الرب إشعاراً بأن تربيته لكم توجب عبادتكم له وتوصيفه بالموصول للتوضيح أو لإخراج الرب المزعوم للكافر البعيد عن قدرة الخلق ، والتوصيف به وعطف عليه بقوله : (والذين من قبلكم) إشعارا بعلة أخرى لاستحقاق العبادة ؛ لأن خلق من قبلنا من مقدمات خلقنا في سلسلة التناسل فخلقهم نعمة لهم بالذات ، ولنا بالواسطة . وقوله : (لعلكم تتقون) إما حال عن فاعل (اعبدوا) يعني أعبدوه راجين الإندراج في سلك أهل التقوى الذين عبروا عقبة الكفر والكبائر والركون إلى الدنيا الدنية التي هي أساس كل فساد .

ثم إستأنف بذكر نعم أخرى من مقتضيات خلق البشر وبقائه في الارض فقال : (الذي جعل لكم الارض فراشاً) أي بساطاً تبقون عليها قعوداً وقياماً ، ومستريحين نياماً ، وساعين للرزق ساعات وأياماً . والارض كيفما كانت كروية أو بيضية أو غيرهما ، فكل قطعة منها تظهر كفراش مبسوط (والسماء بناء) أي وجعل السماء قبة مضروبة عليكم . والبناء مصدر أطلق على المبني بيتا ، أو قبة ، أو خباء ، أو غيرها . (وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم) ولما جرت عادة الله تعالى

بجعل الماء الممزوج بالتراب سببا لإخراج الناميات التي لها منافع في معاش الإنسان ومعاده ، وللماء دور هام فيها .. عقب النعم السابقة بإنزال الماء من السماء الذي يستعقب إخراج الثمرات مرزوقة للإنسان للإقتيات أو التفكه أو التداوي أو للبس أو غير ذلك .

ولمّا عدد تلك النعم المقتضية لعبادة المنعم أكّد ذلك بعطف جملة النهي على الأمر وقال : (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) أي بعدما علمتم من إفاضة النعم المتلاحقة التي لايمكن صدورها بدون إله واجب خالق قادر فاعبُدُوه وحده ، ولا تجعلوا له أمثالاً مزعومة مع أنه لا مثل له بالبداهة ، وحالكم أنكم من أصحاب العلم والنظر ، وإذا نظرتم بفكر صاف خال عن العناد والخلاف تبيّن لكم أنكم عاجزون عن إيجاد أيّ موجود ، وعن دفع الموت والفناء عنكم ، وعن جلب أسباب المعاش وإخراجها من العدم إلى الوجود . فاكتفوا بعبادته وحده ، وكونوا له من الشاكرين .

وهاتان الآيتان نزلتا بالمدينة المنورة ، فما اشتهر من أن كل سورة نزلت فيها (يا أيها الناس) فهي مكية لايُوافِقُ الواقع ، فالحق ما قاله الإمام الجعبري كما نقله الشهاب : أن كل سورة فيها (يا أيّها الناس فقط) أو أوّلها حرفُ تَهجٍ سِوى الزّهراوين ـ وهما : البقرة ، وآل عمران ـ والرعد في وجه ، أو فيها قصة آدم وإبليس سوى الطولى فهي مكية . وكل سورة فيها (يا أيها الذين آمنوا) أو ذكر المنافقين فهي مدنية .

وفي الحقيقة إن الله سبحانه وتعالى خلق الجن والإنس لعبادته حتى ينالوا السعادة الأبدية ، وما خلقهم لمعصيته حتى ينالوا الشقاوة السرمدية ،

والإنسان إذا تفكر بعقله السليم علم أنه ما من خير في الوجود إلاّ من حضرة واجب الوجود ، وأن الأسباب على الإطلاق أسباب وعلامات ومعرفات ، وأن المسببات إذا وجدت عندها (لا) بها • الله خالق كل شيىء ، وهو على كل شيىء وكيل • فمن كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، ومن كان يريد الرزق فإن الله هو الرزاق ذو القوه المتين •

وعلى هذا الأساس يقول الباري سبحانه يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي ربّاكم وسائر البريات ، وخلقكم وجميع الكائنات • ولا تعبدوا الكواكب والهياكل والأصنام والأوثان وسائر الجمادات ، ولا تتذللوا للأعاظم كالأعاجم ، ولا تتزلفوا إلى أولى القوة والمناصب لنيل الجاه والمراتب ، واعلموا أن المنافع من أي المنابع فهي في قبضة قدرة المبدع الصانع ، فإذا كانت عقيدة المكلف هذه عاش سعيدا ، ومات سعيدا ، ولا يغش الناس في المعاملة ولا ينافق بصورة المجاملة ، ولا يعتبر نفسه إلا فردا من أفراد الأمة العظيمة الإسلامية ؛ نقصه في نقصها ، وكماله في كمالها •

وليس هناك تطرق إلى أن لا يتذلل الإنسان لوالديه جزاء لإحسانهما إليه ، وقد قال تعالى : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) • ولايخضع لأستاذه حتى يدر عليه بعلمه وإسناده ، ولا يطلب من أي شخص دعاء وقد سأل سيد الرسل من صاحبه أن يدعو له وقال : (لا تنسنا من دعائك يا اُخي) وأن لايطلب من الرسول شفاعة أو لايستشفع بجاه أحد وقد استثنى الباري شفاعة من أذِن له ، وأن لا يحترم شخصا ممتازا بالعمل الصالح ، وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى اُحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره

الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه) . رواه البخاري . ولا ندري ماذا يريد بعض المفسرين المقصرين من عباراتهم العارية عن الحقيقة باسم التبصير والتنوير ؟ وما هي إلا تعمية وتكدير ! فسبحانك ربنا أنت تحكم بين عبادك وأنت أحكم الحاكمين .

ولما أمر الباري سبحانه وتعالى عباده بعبادته التي هي السعادة ، وأرشدهم إلى استحقاقه لها بسرد الجمل الجميلة الواضحة عند من نظر في نفسه وفي تلك الأمور الآفاقية أرشدهم إلى الإيمان برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الإعتراف بالله وبرسوله هما النقطتان الجوهريتان في باب الإيمان وذلك بإرشادهم إلى الإعتراف بأن الكتاب المنزل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتاب الله ، ومن زوده ربه بكتابه ، وشرفه بخطابه فهو الرسول القائم بامره على بابه ، والإعتراف يحصل بأن يسعوا ويتهالكوا في الإتيان بمثل ذلك الكتاب حتى إذا تبين عجزهم عنه علموا أنه كتاب الله المنزل على رسول الله . فقال مخاطباً إيّاهم :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ، وَلَنْ تَفْعَلُوا ، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .(٢٤)

الريب : في الأصل قلق النفس ، والمراد الشك . وهو هنا نكرة واقعة في سياق الشرط فتعم كل فرد من أفراده من أي صنف كان . وقوله : (مما نَزَّلْنا) مِن بابِ التَّفْعِيلِ للتكثير في مرات النزول ، ويشمل كل نجم من نجومه قصيرة أو طويلة . وربط الفعل بذاته والإتيان بضمير الجمع

للدلالة على أنا إذا فعلنا شيئاً اتقنّاه . ولايصدر منا عمل غير متقن لاسيما إذا كان العمل تنزيلاً لكتاب يكون أفضل الكتب .

وذكر الرسول بعنوان العبد وإضافته إلى نفسه إشارة إلى أن الذات الذي نزل عليه الكتاب لما كان متصفا بالعبودية الخالصة لله وهي أرقى مراقي الإنسان ، وعبوديته له عبارة عن إختصاصه به وانقطاعه عما سواه ، وحاصله : أنه اختارني للربوبية فاخترته للعبودية . وقوله (فأتوا) أي كلكم وكل من له قابلية الإتيان كائنا من كان وقوله (بسورة) أي أية سورة كانت . وقوله : (من مثله) صفة لها ، والضمير راجع إلى ما . أي فأتوا بسورة كائنة مِن مثل مانزلنا على عبدنا . وقوله : (شهداءكم) أي الحاضرون ، أو المعينون لكم . وقوله (من دون الله) متعلق بادعوا أي (أدعوا غير الله تعالى من حضركم للمعارضة) وقوله (إن كنتم صادقين) أي في أنه من كلام البشر .

وحاصل المعنى يا أيها الناس اعترفوا برسالة رسولنا محمد ، واجعلوا الكلام الذي أنزلنا عليه دليلا على صدقه في دعواه ، لأنه كلام لايعارَض ، ولا يؤتى بمثله ، وإن كنتم في شك مما نزلناه عليه وتظنون أنه كلامه أو كلام غيره كجن ألهمَهُ أو إنسان علّمه فأتوا بسورة كائنة من مثل ذلك الكتاب في حيازته الفصاحة والبلاغة ، وكشفه ما في الأرض والسماوات وإخباره عن المغيبات ، واعتداله ، وصدقه ، ومغايرة أسلوبه ، ودعوة العالم إلى صلاح المعاش والمعاد ، والتخلق بالهدى والرشاد . وعارضوه إن كنتم تقدرون على المعارضة وادعوا شهداءكم غير الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ذلك ولم تأتوا بمثله ولاشك أنكم لن تفعلوه انتم وشهداؤكم إلى الأبد فاعلموا أنه منزل من الله على رسوله الأمين المبعوث رحمة

للعالمين . ولاتكفروا به واتقوا النار التي وقودها الناس المعذبون والحجارة من الأصنام التي كانوا يعبدونها ، أو حجارة الكبريت لقوة اشتعالها وشدة لهيبها ، أو مطلق الحجارة لصلابتها ، لأن قوة الوقود على حسب شدة الوقود ، وأعدت وهيئت ، وخلقت تلك النار لتعذيب الكافرين المتمردين الخاسرين . أعاذنا الله من أحوالهما .

ثم إعلم أنه قد ثبت عند المنصفين من أهل البلاغة والأدب الرائع أن القرآن الكريم معجزة ببنائه وبيانه ، ولم يعارضه أحد منذ نزوله إلى الآن ، ولو عارضه أحد لنقل تواترا لتوفر الدواعي على نقله ، وقد ذكر العلماء في سرّ إعجازه أموراً كثيرة . واقواها هي الوجوه التي ذكرها الإمام الرازي في تفسيره الكبير فقال :

أحدها أن فصاحة العرب أكثرها في وصف المشاهدات ، مثل وصف بعير ، أو فرس ، أو جارية ، أو ملكٍ ، أو ضربة أو طعنة ، أو وصف حرب، أو وصف غارة ... وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء . فكان يجب أن لاتحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها في كلامهم .

وثانيها : أنه تعالى راعى فيه طريقة الصدق وتنزه عن الكذب في جميعه ، وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق تنزل شعره ولم يكن جيّدا ، ألا ترى أن لبيد بن ربيعة ، وحسان ابن ثابت لما أسلما نزل شعرهما ، ولم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي ، وإن الله تعالى مع ما تنزه عن الكذب والمجازفة جاء في القرآن فصيحا كما ترى .

وثالثها : أن الكلام الفصيح والشعر الفصيح إنما يتفق في القصيدة في البيت والبيتين والباقي لايكون كذلك . وليس كذلك القرآن ؛ لأنه كله فصيح بحيث يعجز عنه الخلق ، كما عجزوا عن جملته .

ورابعها : أن كل من قال شعرا فصيحا في وصف شيىء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيىء بمنزلة كلامه الأول ، وفي القرآن التكرار الكثير ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ، ولم يظهر التفاوت أصلا .

وخامسها : أنه إقتصر على إيجاب العبادات وتحريم القبائح ، والحث على مكارم الأخلاق ، وترك الدنيا .. واختيار الآخرة ، وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة .

وسادسها : أنهم قالوا : إن شعر إمرىء القيس يحسن عند الطرب ، وذكر النساء وصفة الخيل . وشعر النابغة عند الخوف ، وشعر الأعشى عند الطلب ، ووصف الخمر ، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء ... وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه في فنّ فإنه يضعف كلامه في غير ذلك . أمّا القرآن فإنه جاء فصيحا في كل الفنون على غاية الفصاحة ، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى قال في الترغيب : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعيُن) وقال تعالى : (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) وقال في الترهيب : (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر) الآيات ، وقال : (أأمنتم من في السماء أن يَخسفَ بكُمُ الأرضَ فإذا هي تمور ؟ أم أمنتم الآية) وقال في الزجر : (وَكُلاً أخذنا بذنبِه) الى قوله : (ومنهم مَن أغرقنا) وقالَ في الوَعظ ما لا مزيد عليه : (أفرأيت إن متعناهم سنين) ؟ وقال في الإلهيات : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد) الآية .

وسابعها : أن القرآن أصل العلوم كلها ، فعلم الكلام كله في القرآن ، وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن ، وكذا علم أصول الفقه ، وعلم النحو ، واللغة ، وعلم الزهد في الدنيا وإخبار الآخرة ، واستعمال مكارم

الأخلاق ... ومن تأمل كتابنا في دلائل الإعجاز علم أن القرآن قد بلغ في جميع وجوه الفصاحة إلى النهاية القصوى . إنتهى كلامه .

قلت : وكل من هذه الوجوه التي ذكرها الإمام الرازي رحمه الله تعالى حق حقيق بالقبول ، وحقيقة سرّ تلك الوجوه أن الكلام صفة المتكلم ، وكل متكلم فله طاقات محدودة والقرآن الكريم كلام الباري تعالى، وللباري تعالى قدرة شاملة لا نهاية لها ، فأي موضوع يتصور ويذكر فالباري تعالى عالم به وبملابساته ، وله الكلام النفسي الذي يتحمل التعبيرات اللا متناهية بالوجوه اللامتناهية . فكيف تصل الطاقات المحدودة إلى درجة الطاقات اللامحدودة ؛ فإذا فرضنا رجلين يتسابقان في الوصول إلى غاية ، وفي أثناء المسافة طار أحدهما إليها ووصلها بقي منافسه في دهش وحيرة ، وإذا تناظر عالمان في موضوع علمي يختص أحدهما به وللآخر يد طولى في سائر العلوم ايضا فكيف يقابل هذا العالم المختص ذلك العالم المتبحر ؟ فسر أوجه إعجاز القرآن أن ألفاظه من أي باب كان فللباري سبحانه علم وقدرة في التصوير والذكر والتعبير بحيث تتجاوز عن إمكان غيره ، وفي واقع الحال يعجز غيره عن الإتيان بمثل ما أتى به . يرشدك إلى صدق ذلك مغايرة أسلوب القرآن الكريم لأساليب التركيبات العربية نظماً ونثراً بحيث إذا تفكر العاقل فيه علم أن أسلوبه لايناسب أساليب الكلام المعتاد ، ويعلم أنه مختص برب العباد وكذلك بلاغته المتجاوزة عن طاقة البشر ، وذلك لأن بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال ، ورعايتها تحتاج إلى العلم الوافي بالأحوال والمقتضيات ، والقدرة على التعبير على ذلك . وليس عند أحدٍ العلم بها غير الله سبحانه وتعالى إلا بمقدار محدود وربما يرى المتكلم مخاطبه عاقلاً أو عالماً أو جاهلاً ويتصور له أحوالا ويلقى كلامه حسب مرامه مع أنه يخالف واقع الحال ومقتضاه .

ثم إنا إذا نظرنا إلى أحوال الناس وعلومهم وأفكارهم علمنا أن الأفراد منهم قليلا ماله العلم بأحوال الدنيا ومتطلباتها فإذا تكلم بشيء من ذلك فلا يأتي إلا بناحية من نواحيها وشيء قليل ، حتى لو قررت جماعات ، وشكلت لجان لتأليف كتاب حول ذلك وجدناه ناقصا بعد مدة وجيزة ، ومحتاجاً إلى التغيير والتكميل . وأما القرآن الكريم فبما أنه كلام علام الغيوب عالج النظر إلى الصانع ووحدته وصفاته ، ورسالة رسله ، والكتب المنزلة عليهم .وعالج عالم الغيب،والبرزخ،والآخرة، وجزاء الاعمال،ومايستحقه العمال بالمآل . وعالج أمور الدنيا براً وبحراً وجواً ، وأمور السموات ومافيها من الكواكب . وعالج الأمارة ، والإدارة ، والعدالة ، والمشاورة ، ورعاية الأمانات ، والإجتماعات ، وأسباب المعاش ، وصيانة البلاد والعباد بإعداد القوة ، والنظر في المستقبل والحال ، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي يحتاج إليه البشر . وقد جمع القرآن الكريم كل ذلك إجمالاً أو تفصيلاً . فالإنصاف أن هذا الكلام لايمكن صدوره على وجه الكفاية إلا من علام الغيوب العالم بالبداية والنهاية . فسبحانه من إله عليم علام المنزلِ على حبيبه كلاماً مرشداً إلى السعادة بالدّوام .

ولما ذكر الكافرين وعقابهم ، جاء بذكر المؤمنين على صورة الأمر برسوله الأمين أن يبشر عباده المؤمنين تبجيلا وتشريفا لهم . فقال : (وبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا : هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً . وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(٢٥)

جملة (وبشر الذين) عطف على الجملة السابقة ، كل جملة لطائفة وبيان عاقبة أمرهم جَرْيا على عادة الباري سبحانه وتعالى في تشفيع

الترهيب بالترغيب . والبشارة : الخبر السارّ ، ولذلك خص شرعاً بأول الأخبار السارّة فإن مابعد الأول لا يفيد ما يُفيده الأول ، وقالوا : مَن بَكّر به فهو المبشّر ، ومن أتى بعدُ فهو مخبر . وعطف العمل على الإيمان دليل على تغايرهما . وهو يدل على أن السبب لدخول الجنة ونيل الجزاء الموفور هو مجموع الأمرين . فإن قلت : قد عُرف من الدين أن الإيمان وحده سبب لدخولها . فكيف تجعل الأمرين معاً سببا له ؟ قلت : قد يكون لشيء واحد أسباب متعددة ، فجعل شيء سبباً لاينفي وجود أسباب أخرى ، كما تقول : متى طلعت الشمس أضاءت الغرفة . ويجوز أن تكون مضيئة في الليل بالمصباح . وقد يجاب بأن الإيمان الثابت في الواقع لاينفك عن الأعمال الصالحة فتَعُودُ سببيةُ الإيمانِ لدخولها إلى سببيته مع الأعمال ، والتصريح بالإيمان فقط في بعض ماورد لكونه اساس السعادة ومنبعها . وأجاب آخرون بأن الأيمان وحده سبب لدخول الجنة مع قلة الدرجات ، ومع الأعمال سبب له مع كثرة الدرجات على مستوى الأعمال الصالحات، فإنه لا يستوي من المسلمين من آمن وعمل كثيرا من الأعمال الصالحة المهمة مع من يؤمن ويعمل بعضاً منها ، فالجنة من الإيمان والدرجات بحسب الأعمال . وقد يقال : إن الإيمان لايثبت شرعاً إلا بالإقرار ، وهو من جنس الأعمال الصالحة .

وقوله (تجري من تحتها) صفة أولى للجنات . وقوله : (كلما رزقوا) صفة ثانية . وكلما ظرف والعامل فيه جوابه وهو لتكرار ترتب الجواب على مدخوله . وقوله (متشابها) أي متماثلاً في الصورة . وقوله (مطهرة) أي من أدناس الصورة والسيرة ، والدماء والأمراض ، مما ينغص

العيش على الصاحب • وقوله (وهم فيها خالدون) من تتمة النعم وجزؤها الأعلى في الاعتبار • إذ

لاطيب للعيش ما دامت منغصة
لذاته بادّكار الموت والهرم

يقول الباري سبحانه آمراً حبيبه لتشريف المؤمنين وإفادة أن الرسول هو الوسيلة لوصول الإيمان إلى العباد فيكون مبدأ لبشارتهم بالثواب ، بشر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصّالحة المـُستساغة المحسّنة في الدين كأداء الأركان ، والوفاء بحقوق الإنسان ، ورعاية الأمانة والعدل في الاحكام ،والعفو والإحسان ، وصلة الأرحام ، ومساعدة الضعاف والأرامل والأيتام ، والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام ، والجهد في نشر العلم والعمل الطيب ودفع المفاسد والأوهام ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والمجاملة في المعاملة والكلام ، والإنصاف وحفظ الغيب للأنام ومنع الجوارح عن الآثام ، والقلب عن كل مايضرّ الخواص والعوام •• أن لكل منهم جنات بحسب مستوى أعماله على العدل ، أو فوق ذلك بالفضل ، وتلك الجنات تجري من جانب أسافل أشجارها الأنهارُ في سواقٍ وخدود ، أو على سطح الأرض بإرادة الملك المعبود ، ويتمتعون بثمارها التي لاتحيط بها إلا علم الله ، فلا تعلم نفس ما ُاخفي لهم من قرة أعينٍ ، وكلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا : هذا الثمر هو الذي رزقنا من قبل في الدنيا ويفرحون به ؛ لأنهم مألوفون به ، أو هذا الثمر هو الذي رزقنا من قبل في الجنة ، وأتُوا بذلك الثمر متشابها بعضه مع بعض في الصورة ، ومتخالفاً في الطعم واللـّذة ، وهناك ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، ولهم فيها للإبتهاج والأنس والألفة أزواج لطيفة المزاج ، مطهرة

من كل ما يكدر صفو العيش من الأقذار والأوزار وسوء المقال والطيش ، وهم فيها خالدون دائمون ، وعن كل أذىً سالمون • رزقنا الله الدخول والخلود ببركة صاحب المقام المحمود سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

ومما ينبغي أن يتنبه له أن من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بأنه كما كان الباري تعالى قادرا على خلق الأرض والسماوات ومافيهما من الشمس والقمر وسائر الكواكب اللماعة الثابتة الدائمة منذ خلقت ، والمواد العنصرية الجامدة والنامية والحيوانات والإنسان المتصف بالاستعداد للتطورات •• فهو قادر على خلق الجنة التي عرضها السماوات والأرض في العالم الذي هو أوسع منهما بما لايعلمه إلا خالق الكائنات ، وعلى خلق جهنم مأوى لأهل السيئات ، وعلى خلق إستعدادات بلا نهاية وقابليات بلا غاية في أجزاء الجنة والجحيم وأبدان أهلهما للبقاء في العذاب الأليم أو في النعيم المقيم • فإن القادر على الإبداء قادر على الإعادة ، والقادر على الإعادة قادر على الإخلاد َابدَ الآبدين •

والإيمان بعالم الغيب إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسالات رسله وبالقضاء والقدر ويوم الدين ، فإن الإيمان بقدرة إخراج الشيىء من العدم إلى الوجود هو إيمان بالذات الواجب الوجود • والواجب متصف بالكمالات اللا متناهية والتصرف في الممكنات من خصائص رب العالمين •

ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض التمثيلات إدعى بعضُ المعاندين أنها لاتناسب عظمة الباري سبحانه رد عليهم ذلك وأنزل قوله (إنَّ اللهَ لا يَسْتحي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعوضةً فَما فَوْقَها ، فأَمَّا الَّذِينَ آمَنوا فيَعْلَمون أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وأَمَّا الَّذِينَ

كَفَرُوا فَيَقُولُونَ : ماذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً ؟ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ، أُولئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ)(٢٧)

الحياء : إنقباض النفس عن القبيح مخافة الذم ، وهو الوسط بين الوقاحة والخجل . وإذا وُصِف الباري تعالى به فالمراد الترك اللازم للإنقباض . وضربُ المثل : ذكر مثال لإيضاح أمرٍ مُبهم مهم . والبعوضة : الخموش . والحق : الأمر الثابت ، أو الحكم المطابق للواقع ، والفسق لغة : خروج مادة من محل إلى آخر ، وشرعاً : خروج المكلف عن أمر الله بارتكاب الكبيرة أو الإصرار على الصغيرة . ولها ثلاث درجات : الأولى التغابي وهو أن يرتكبها مستقبحاً لها . والثانية : الإنهماك وهو أن يعتاد إرتكابها غيرَ مبالٍ بها . والثالثة : الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إياها فيخلع ربقة الإيمان عن عنقه ، ويلابس الكفر والعياذ بالله . والنسبة بينه وبين الكفر العموم والخصوص المطلق ؛ فكل كفر فسق وليس كل فسق كفرا .

والنقض : تفريق طاقات الحبل وربط بالعهد لتشبيهه به في الربط بين الطرفين ، واستعير له الحبل في النفس إستعارة مكنية ، وذكر النقض قرينة .

والعهد : الموثق . والوثاق والميثاق : عقد يؤكد بيمين . والموثق : الاسم منه . قالوا : عهود الله تعالى ثلاثة : عهدٌ أخذه على جميع ذرية آدم بأن يقرّوا بربوبيته . وعهدٌ أخذه على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه . وعهدٌ أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه .

والمراد بالعهد هنا الحجة القائمة على عباد الله عقلا الدالة لهم على توحيده وصدق رسوله ، فعلى هذا يلزم الذم لأنهم لما نقضوا ما أبرمه الله من الأدلة العقلية التي كررها عليهم في الأنفس والآفاق ، وأكدها وأوثقها بإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ، وإظهار المعجزة .. فقد نقضوا عهده من بعد ميثاقه . والناقضون على هذا جميع الكفار . أو العهد المأخوذ بالرسل على الأمم بأنهم إذا بعث إليهم رسول مصدّق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ، ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه . والناقضون على هذا علماء أهل الكتاب ، والمنافقون السائرون في فلكهم .

وقوله : (أن يوصل) في محل الخفض بدل من ضمير به . وهذا القطع يشمل قطع الصّلة المشروعة أيّا كان ؛ كقطع الصلة بين الله وبين الرسل بإنكار رسالتهم ، وبين الرسول والأمة بمنع إيمانها به ، وبين العلماء وأفراد المسلمين بمنع إرشادهم لهم وقطع الأرحام وأواصر المحبة بين العوائل ، وقطع علاقة النفس بالجمعة والجماعات وغيرها من الأمور الإجتماعية الإسلامية .

والفساد : الخروج عن الإعتدال . والإفسادُ إخراج الشيىء عنه ، ويشمل السعي في إنشاء كل عمل غير مشروع كالمنع من الإيمان والإستهزاء بشعاره ، وبث النفاق والشقاق والتفرقة بين المسلمين . والخسران : يكون بإضاعة رأس المال كله أو بعضه وبعدم الفائدة . وإهمالُ العقل رأسُ كلِّ خسارة أعاذنا الله منه .

وحاصل تفسير الآيتين : أن الله سبحانه لما أرسل الرسول وأنزل الكتاب أراد إتمام نعمته على عباده بإرشادهم إلى سبل السعادة . والناس

على اختلاف الطبيعة في فهم المعتقدات والأحكام ، فإذا بين لهم مبهما بمثال مفسر عظيماً كان كالجبال والجمال ، أو صغيراً كالبعوضة ، أو متوسطاً كما بينهما .. فقد أكمل نعمته وأوسع رحمته فلا يترك هذا الخير أبدا والناس عند ذلك صنفان : مؤمن ، وكافر . فأما الذين آمنوا بالله وسعة رحمته ومقارنة أعماله لحكمته فيعلمون أن ذكر المثال عمل جليل ومتقن من ربهم . وأما الذين كفروا بالله وآياته فاستمرّوا في معارضة بيناته ويَستفهِمون إستنكاراً : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ وهم وإن أنكروا وأبَوا عن قبول الحكمة ـ نقول لهم : أراد الله بذلك المثال وأشباهه أن يُضل كثيرا من الناس الناسين لحقوق النعمة ، ويهدي به إلى فهم المقصود كثيرا من الناس الشاكرين لها . وما يُضِلّ به إلا الفاسقين الخارجين عن الطاعة ، الذين ينقضون عهد الله معهم في إلتزام الحقوق بعد ميثاقه وتوكيده بإرسال الرسول وإنزال الكتاب ويقطعون ما أمر الله بوصله من الإيمان والإسلام وملابساتهما ، وينشرون الفساد في الأرض وأولئك هم الخاسرون في الحال والمآل بإضاعة العقل والكمال كالتجار المضيعين للأرباح ورؤوس الأموال .

ولما ذكر أحوال المؤمنين الراشدين والكافرين المعاندين والمنافقين وضرب لهم الأمثال وأجاب عن توهماتهم توجه إلى الكافرين على الإطلاق ، واستخبرهم عن الحال التي يقع عليها كفرهم مستنكراً فقال : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٢٨)

كيف : أداة إستفهام ، وقد تستعمل للإستخبار إستعمالَ أرأيتَ بمعنى أخبِرني ، والفرق بينه وبين الإستفهام أن الإستفهام يقتضي جهل المستفهم بالجواب بخلاف الإستخبار ، فقد يستخبر العالم بالجواب للتوبيخ

والتعجيب ، فإذا كان الإستخبار معنى حقيقياً يكون التوبيخ والتعجيب معنى لازماً مجازياً ، أو معنى مجازياً كما هو المشهور كان التوبيخ والتعجيب من المستتبعات حسب عرف المستعملين .

والحياة والموت : أمران متقابلان تقابل العدم والملكة ، فالحياة : حقيقة كيفية من الكيفيات النفسانية وصفة تقتضي الحس والحركة الإرادية . والموت : عدم الحياة عما من شأنه ذلك كما في العناصر الموجودة في الوالدين القابلة للإتصاف بها .

وقد تستعمل الحياة مجازاً في القوة النامية ؛ لأنها من مقدماتها كما في قوله تعالى : (إعلموا أن اللهَ يُحي الأرضَ بعد موتها) وفي مايخص الإنسان من الفضائل كالعقل ، والعلم ، والإيمان . كما في قوله تعالى : (أوَمَنْ كان ميتاً فأحْيَيْناه) ويستعمل الموت في كل مقام مقابلاً لها كما عرفت . وأما في الباري تعالى فهي صفة قائمة بذاته مبدأ لاتصافه بالعلم والإرادة والقدرة وغيرها .

فإذا كان الإستخبار والتوبيخ على كفرهم بوجود الباري تعالى كما هو الظاهر فمعنى الآية : أخبروني على أيّ حالٍ يصدر منكم الكفر والإنكار لوجود الله وكنتم أمواتا وعناصر ومَوادَّ لا حياةَ فيها فعلاً على الوجه المعتاد ، وإن كانت فيها قابليتها ، فأحياكم بخلق الأرواح ، ونفخها فيها ، ودخلتم في عالم الإنسانية والإتصاف بالفضائل وبقائكم عائشين متنعمين ، ثم يُميتكم بعدها ثم يُحييكم الحياة البرزخية في القبور كروضة من رياض الجنان ، أو حفرة من حفر النيران . أو الحياة الإعتيادية بل أقوى وأولى في يوم النشور بنفخ الصور للحشر والحساب والميزان بامر الملك الديان . ثم إليه تُرجَعون فيجازيكم على أعمالكم .

فأخبروني ما هي الحال التي تقع الكفر فيها فإذا لم تجدوا حالاً مناسباً له فلابد أن لا تكفروا ، وأن ترجعوا إلى الإيمان بالله ذي العدل والإحسان .

وتلك الأحوال لما كانت بعضها الأكثر يقينية ، والبعض الآخر عليه البرهان فكأنها كلها معلوم عندهم . ويصح التوبيخ على كفرهم مع علمهم بتلك الأعمال . وإذا كان الخطاب للمسلمين كان الإستخبار بكيف لتقرير المنّة عليهم وتبعيد الكفر عنهم . ويحمل الموت والحياة على المعنيين المجازيين ؛ إذ لم يكفروا حتى يحتج عليهم بهما . والمعنى كيف يتصور منكم الإنحراف عن الإيمان والتلبس بالكفر مع أنكم جاءتكم النعم الجسام من الله إذ كنتم جهالاً لا علم لكم ، وأفاض الله عليكم نعمة العقل والعلم والإيمان والفضائل ، ثم يميتكم للتنعم البرزخي في القبور ، ثم يحييكم حياة سرمدية للجنان والرضوان .

ثم ذكر الباري سبحانه وتعالى أموراً أخرى هامة مما تقتضيه الحياة حتى تكون حجة على من كفر بالله العلام ، أو أشرك معه الأصنام ، وتذكيراً بالنعمة لمن آمن به وأخذ يسلك مسلك الإسلام . فقال : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (٢٩)

ومعنى خلق لكم : خلق لأجل إنتفاعكم في دنياكم ودينكم على أساس أنها حِكَمٌ ومصالح وغاية مترتبة على أفعاله تعالى ؛ لا على أنها أغراض للباري تعالى يستكمل بها ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً . والمراد بالأرض : جهة السفل من نفس الأرض وما معها وفيها وما عليها من المعادن والأنهار للمزارع،والبساتين ،والجبال،والصحارى ،والبحار ، للسير عليها والغوص في أعماقها والإستفادة مما فيها . وجميعاً حال من الموصول الثاني . ولما كان

الخلق للإنتفاع خُصّ من العموم ما لانفع فيه من أي جهة . وهذه الجملة الشريفة تقتضي إباحة جميع الأشياء النافعة بعد الشرع بالطريق المشروع ؛ فلا يستلزم إباحة كل واحد لكل واحد بل إباحة الكل للكل أي المجموع للمجموع . وهو ظاهر وأما قبل الشرع فلا حكم ، لأن الحكم لله وحكم الله يبينه الرسول وإذ لا رسول فلا حكم قطعاً . وأما حكم المعتزلة بإباحتها قبله فمبني على تحكيم العقل ، وإذ لا تحكيم عندنا فلا حكم . وأما مانسب إلى بعض أهل السنة من القول به فإن كان على معنى الترجيح بالعقل فلا مانع منه ، وإن كان على تحكيم العقل وتحسين الفعل أو تقبيحه فليس ذلك من شعارنا .

وثم : للتراخي الزماني واستوى أي قصد وتوجه . والسماء إن اُريد بها الأجرام فضمير الجمع المؤنث عائد إليها ، وإلا فهو ضمير مبهم يفسره سبع سماوات . وفي خلق السماوات والأرض آيات ظاهر بعضها تقدم الأرض على السماوات ، وظاهر بعضها العكس وفي ذلك إضطراب . ودُفع بأن خلق نفس الأرض كان قبل خلق السماوات ، وأما دحوها أي بسْطها ، وخلق الجبال والتلال والأنهار وما شاكلها فكان بعد خلق السماوات كما يظهر من صريح جواب ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ للسائل عن الموضوع وأمّا قوله (وهو بكل شيىء عليم) فهو تعليل لما سبق من خلق ما ذكره على الكميات والكيفيات والغايات التي معها أي ولكونه تعالى عالماً بكل شيىء أزلا وأبدا خلق ما خلقه كذلك . فعلمه تعالى بها للقضاء وإرادته للتخصيص وقدرته للتطبيق بتأثيره . وبعد صدور ماصدر يتفكر من تفكر ويتبصر من تبصر إن الله تعالى حي عليم ومريد وقادر وحكيم .

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى في سرد قصة عجيبة نعمة أخرى مما أنعم بها على عباده بقوله الكريم : (وإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلئِكَةِ إنّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَليفَةً • قالُوا : أتَجعَلُ فيها مَنْ يُفسِدُ فيها ويسفِكُ الدِّماءَ ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ ؟ قال إنّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ(٣٠) وعَلَّمَ آدَمَ الأَسماءَ كُلَّها ثُمّ عَرَضَهُمْ على الملئكة ، فقال : أَنْبِئُوني بأَسْماءِ هؤلاءِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ)(٣١) قالُوا : سُبْحانَكَ لاعِلْمَ لَنا إلاّما عَلَّمْتَنا إنّكَ أَنْتَ العَليمُ الحكيمُ (٣٢) قال : يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بأَسْمائِهِمْ ، فَلَمّا أَنْبأَهُمْ بأَسْمائِهِمْ قال : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إنّي أعْلَمُ غَيْبَ السَّمواتِ والأَرْضِ وأَعْلَمُ ما تُبْدونَ وَماكُنْتُمْ تكتُمونَ؟ (٣٣) وإذْ قُلْنا لِلملئِكةِ : اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إلاّ إبليسَ أَبى وَاستَكْبرَ وَكانَ مِنَ الكافِرينَ)(٣٤)

وهنا فوائد مهمة ينكشف بها المقام :

الأولى : أن الملائكة والجن نوعان ممتازان موجودان خلقهما الله تعالى قبل خلق البشر •

أما الملائكة فجمهور العلماء على أنها أجسام لطيفة نورية أو هوائية شأنهم الخير والطاعة • وأما الجن فأجسام لطيفة نارية متمكنة من الطاعة والعصيان • فتميز كل عن الآخر في الخلق • وكل منهما قادر بأمر الله على التشكل بأشكال مختلفة ، لكن الملائكة لا تتشكل في غير شكلها الأصلي إلا بشكل نظيف مرغوب • وأما الجن فقد تتشكل بالمرغوب أو بالمكروه • وسرّ الإقدار على ذلك التشكل التمكنُ من الوفاء بما أُسند

إليهما من الاعمال . ولذلك تمثل جبريل عليه السلام عند سيدتنا مريم بشرا سويّاً وكان يتمثل عند الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرات في صورة دِحية وهو شاب من شباب العرب المسلمين .

ولكل منهما أصناف كثيرة حسبما وردت بها الآيات والأخبار والآثار فمن الملائكة : المقربون وهم : جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل . ومنها حملة العرش . ومنها أهل الملأ الأعلى . ومنها : الكروبيّون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون . ومنها : المدبرات لأمور الكائنات ومنها : زوار البيت المعمور المقابل لبيت الله الحرام فوق . ومنها : من غشي سدرة المنتهى .

ومنها : الحفظة والكرام الكاتبون وملائكة السؤال في القبور . ومنها : خزنة الجنة ورئيسهم رضوان . ومنها : خَزنة النار ورئيسها مالك . وتفصيل أصنافها وترتيب درجاتها مذكور في الكتب التفسيرية وغيرها ، كتفسير الإمام الرازي ، وفتاوى الخاتمة للشيخ ابن حجر الهيثمي وغيرهما . وخلقهم بأمر الباري كن فيكون .

ولهم حياة أقوى من حياتنا وعلم أوسع من علومنا ، وأولهم خلقا حملة العرش ثم الملائكة الأربع المقربون ، وآخرهم موتا أولئك الأربعة . وفي الآخرة منهم من هو في الجنة لكن لا للتنعيم ؛ لأنهم خلقوا على الطاعة وما كانوا مكلفين . ومنهم على باب الجنة . ومنهم حملة العرش . ويزدادون على ما في الدنيا . (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) .

وأما الجن : فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله خلق أبا الجن من مارج من نار ، ودلّ القرآن والسنة على أن أصل الجن النارُ ، ولكنها مخلوطة بمواد أخرى ، ولذا تحرقه الشهب السماوية . وورد أنهم

يتناكحون ويتناسلون ، وهم مكلفون . وقد أرسل الله رسولنا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم ، وذكرهم في كثير من الآيات والسور ، كسورة الأحقاف ، وسورة الجن ، وسورة الناس . وإن منهم المؤمنون ومنهم الكافرون ، وإبليس عليه اللعنة هو واحد منهم . وله ذريات لايحصَوْن كثرة.قال تعالى في سورة الكهف :(أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذريَّتَهُ أولياءَ من دوني وهُمْ لَكُم عدُوٌّ ؟ بئس للظالمين بدلا !) ونحن لا نراهم في الدنيا ، وهم يروننا . وأما في الآخرة فبالعكس . ويموتون ويُحاسَبُون كالبشر . فمنهم من في الجنة ومنهم من في النار . فالمعاد شامل للفريقين كما ثبت في الكتاب وسنة النبي المختار ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فتبين من هذا التقرير : أن الملائكة والجن نوعان متباينان ويختص كل منهما بجنس وفصل جوهري للتميز والفرق بينهما من وجوه كثيرة عديدة :

الاول : أن الملائكة خلقوا من النور أي مادة مضيئة غير النار ، وخلقهم بالأمر التكويني لا بطريق التناسل . والجن خلق أصله من النار قال تعالى : (والجانَّ خلقناه من قبلُ من نار السموم) ويقول ابليس : (خلقتني من نار وخلقته من طين) وانتشارهم بطريق التناكح والتناسل . ومعناه أن فيهم الذكور والإناث . واما الملائكة فلا يوصفون بهما . ورد الله تعالى على الزاعمين لذلك بقوله الكريم (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) .

الثاني : أن الملائكة معصومون لايتأتى منهم العصيان إذ ليس فيهم قوة النفس من : الغضب ، والشهوة ، وما يترتب عليهما قال تعالى : (لايَعْصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) إلى غير ذلك من الآيات المبينة لصفاتهم الحميدة .

وأتعجب من قول بعض المفسرين الذين أعجب بهم العالم حيث قال : ولا نرى فصلاً جوهرياً يميز بين الجن والملائكة مع الفرق بينهما بأخص الصفات ! فإن أراد أنه لا يعلم كنه ذلك الفصل فله الحق ؛ لأن كشف سر الحقائق متعذر أو متعسر . وإن أراد أنه لاعلم له بأدلة ترشده إلى تميز جوهري بينهما فأظن بعد هذه الآيات والأخبار الحاكية عن اختلاف اللوازم أن عدم التميز بينهما من عدم التميز !

الفائدة الثانية : أن ظاهر الآية الشريفة أن الحِوار كان مع جميع الملائكة ، والذي يقرب إلى العقل أنه كان مع أهل الملأ الأعلى منهم . فإن من الملائكة جمعاً مختارون بمزيد عناية يقول سبحانه وتعالى : (الله يصطفي من الملائكة رسلاً) وقال : (جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد في الخلق ما يشاء) وعلى أي حال فظاهر الحوار : أنه كان كلام الباري تعالى معهم إلقاءً ربّانيّاً وسماعهم منه تلقيّاً روحانياً على مثال الأوامر الأخرى الصادرة منه تعالى إلى المأمورين منهم . وهذا المقدار كاف في المقام لأهل الاعتبار .

ثم الخطاب لم يكن على وجه الإستشارة بهم لأن الله تعالى جرى علمه الأزلي بكل شيىء يجري في الكون ، وإنما كان على وجه الإخبار لهم ليذكروا ما ذكروا حتى يبين لهم بعضا مما أراد إظهاره من شرف سيدنا آدم عليه السلام ، وتعليمه الأسماء كلها ، ثم عجز الملائكة عن إظهار ما علمه وأمره تعالى بسجودهم له سجودَ تشريف وتكريم على العادة لا سجود تعظيم وتقديس وعبادة . وليتَسلّى الرسولُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحكاية الواقعة عليه وانّ الملائكة المعصومين لما كانوا مع الله على سؤال واستفسار فكيف لا يكون الكفار المعاندون له على عناد معه واستكبار ؟ وليبين للملأ الأعلى أنه كما كان قادراً على خلق العالم وخلق قوم لايعصون

الله ما أمرهم فهو قادر على خلق قوم شأنهم المعصية والبغي والعناد كالشيطان وذريته ، وخلقِ قومٍ فيهم الأنبياء والأصفياء ، والصالحون الأتقياء والعلماء الأعلام ، والمجتهدون الكرام كما أن فيهم قوماً تمردوا عن الطاعة ورضوا ببخس البضاعة ، وسلكوا مسالك الإجرام والآثام . وإلاّ فَسِرُ الإبداعِ والقدر لا يُكْتَنَه للملك ولا للبشر ؛ لأن سرّ خلق الكائنات أجسامها وأرواحها ، وشقائها وسعادتها المحدودة واللامحدودة ، وأسرار كيفية تصريفه للعالم وأوضاعه وأحواله من جهل إلى علم ومن علم إلى جهل من سيّىء إلى حسن ومن حسن إلى سيّىء .. مما استأثر الله بعلمه وهو من الغيب ، وبعض الغيب يبقى غيباً ، وبعضه مما يكشفه لأنبيائه ورسله كما قال : (ولا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) أو لبعض المخلصين السالكين في سبيل الحق وعَبَدوا الله كما قال : (واتقوا الله ويعلمكم الله) أو لمَنْ اختاره لتدبير أمور أجرى بها قلَماً كما قال : (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً) .

الثالثة : الظاهر من الأدلة : أن المراد بالخليفة خليفة الله تعالى فإن إطلاق الخليفة بذلك المعنى هو المتبادر كما في قوله تعالى : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) وليس المراد بالخليفة من يخلف الجن عليها ؛ لأنهم لم يكن لهم مقام كريم ولا جاه عظيم حتى يأتي الله بقوم يكونون خلفاء عنهم . ثم خلافتهم عنهم لا تحتوي شيئاً مهماً ، وإنما المهم في أن يكون البشر الشريف كآدم وسائر الأنبياء والرسل من نسله مظاهر تجليات الرحمة في التعليم والتربية الصالحة وبث الأعمال العالية ، والأخلاق الراقية ، وتعمير الأرض بالتنوير ، وبثّ روح الإعتصام وصلة الأرحام ، وتقوية أواصر الوئام بين الأنام . حتى يعيشوا سعداء ويموتوا سعداء وتتحقق

الغاية في خلق البشر من العرفان والعبادة • وبذلك كانوا خلفاء في خدمة الحق وإعانة الحقيقة وإلا فسائر الأشياء هباء •

ولما استفادت الملائكة الكرام من كشف معنى الخلافة لهم إحتواء الخلفاء مظاهر القوة ، وإيداع الطاقات الإيجابية والسلبية فيهم استفسروا واستكشفوا ما أبهم عليهم من الحكمة حيث أن قوماً كذلك يكونون على إستعداد التعليم والتعمير والإدارة والتمصير ، وبطبيعة الحال يقع فيها الخلاف والعداء والعناد ، فيضطر الناس إلى الفساد والإفساد وسفك الدماء • فرد الله تعالى عليهم بأنه يعلم مالا يعلمون • وينطوي تحته أن فائدة الوجود الجود للأنام والسجود للملك العلام،ومن إفاضة الخير والجود علم نافع منشور ودستور كالقرآن الكريم مسطور وتهيئة أمة قائمة على ساق لتطبيقه وإبلاغه بين الناس ، ومن فوائد الوجود بذل المجهود في إضاءة الأرض بمصابيح الهدى ، ورجم شياطين الإنس الداعين إلى العناد والعداء ، حتى تصبح الأرض مخضرة بالبهجة ، واهلها منوراً بالضمير ومراقباً لربه الخبير البصير ، فإنّ شخصاً واحداً إذا تحلى بالفضائل يفوق مليوناً من الناس الناسين للحقوق المتوسخين بالرذائل ، فإذا ظهر فرد أو أفراد من العباد سالكين مسلك الرشاد ظهرت فيهم حكمة الخلق والإيجاد وهذه الحكمة منسجمة مع قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) والعبادة لله والإلتزام بأوامره ونواهيه لايكون إلاّ بالعلم والمعرفة فظهر أن الحكمة في خلق العالم بث العلم والعمل الصالح وإلى الله ترجع الأمور •

الرابعة : إن سؤال الملائكة كان إستكشافاً للحكمة بعد فهم معنى الخليفة من الله سبحانه وتعالى ، ولم يكن تكبراً واستعظاماً لأنفسهم ولا غيبة لسيدنا آدم وأولاده لأن النص أرشدنا إلى أن الملائكة لايعصون

الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون على أن الغيبة إنما تكون للموجود وعند شخص غير عالم بالأحوال ولم يكن سيدنا آدم إذ ذاك موجوداً فضلاً عن نسله ، وكان الله تعالى عالماً بآدم وأصله وفصله . فلا تنظر إلى ما قاله الجاهلون .

الخامسة : إن المراد بالأسماء الألفاظ الدالّة على المعاني سواء كانت أسماءً أو أفعالاً أو حروفاً ، وإلا لم يكن آدم عالماً بفعل الأمر ولا بحرف النداء والجر ، فما كان يفهم معنى قوله تعالى : (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) وخلْقُ العلم بالأسماء بالنسبة إلى الباري تعالى كان خلقاً ضرورياً آنياً لايحتاج إلى زمان ، وكذلك تعلم سيدنا آدم ؛ لأن الفاعل مختار والقابل مستعد لأخذ الأسرار ، وهذا فيض مطلق ومدد روحي من الله تعالى.وخلقُ العلم الضروري معلوم لكل إنسان منصف فإنا نرى الأطفال في البيت في السنة الثالثة من عمره أو أقل يتكلم بكلمات لم يسمعها من الأبوين ولا من العابرين هناك ، وقد يأتي بمفاهيم يعجز عنها الوالدان وغيرهما ، وتعد من أبكار الأفكار . وقد تنظر إلى شخص وترى على وجهه بشرا وعلى شفتيه إبتسامة فتدرك من وضعه الآني حكايات ووقائع ، وأمثال ذلك أكثر من أن يحصى . والحقيقة أن التجلي بخلق العلوم الضرورية كإضاءة الشمس للكائنات ، ففي لمحة من اللمحات تنور مسافات واسعة شاسعة ، وكذلك تجلي الرحمة على قلوب عباده المؤمنين ، لاسيما الأنبياء والمرسلين ، وقد قالوا في تفسير قوله تعالى : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) إبهام كلمة ما يدل على أن الوحي كان لما لا يتحمله غير قلب الرسول الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ثم إن الله تعالى ، وإن أراد إظهار فضل سيدنا آدم على الملائكة لم يكن هو المقصود إلا لإلزامهم واعترافهم بفضله ، وإلا فآدم لم يكن

يعلمها من نفسه ، وإنما علمه الباري سبحانه ولو كان يُعَلّم أحداً من الملائكة لتعلمها مثل آدم • وحقيقة العلم ، وإن كانت فضيلة ، فالفضل في العمل بها فالحق أن الله تعالى أراد وجود آدم ليكون مظهر الفضل والسعادة ووالداً ماجداً للأنبياء والمرسلين ، وصدفاً لدرة وجود الرسول الأمين محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وأصلَ سلسلة الأصفياء الكرام والعلماء الأعلام ، وقادة الأمة إلى الخير والرشاد على مر الأيام ••• وهذا ظاهر لمن تفكر بعين البصيرة في فضل الأنام •

واختلاف العلماء في أن الأسماء هل هي عين المسمى أو غيره ليس مرتبطاً بالألفاظ لمغايرتها للذات بداهة ، ولا في الوجود الذهني الذي هو أحد الوجودات الأربعة لكل شيىء من الخط ، واللفظ ، والصورة الذهنية ، والحقيقة العينية ، وإنما كان ذلك ؛ لانّ من الأسماء ما يدل على نفس المسمى فقط كزيد ، ومنها ما يدل على الذات وأوصافها الذاتية كالعالم والقادر • ومنها ما يدل على الذات والاوصاف الفعلية كالكاتب والماشي • فمن قال بعينيتها أراد بها القسم الأول مطلقاً ، والثاني والثالثَ باعتبار أنّ المقصود هو نفس الذات ، والأوصافُ قيود خارجة عنها ، ومن قال بغيريتها نظر إلى أن كل اسم ، ولو كان اسم الذات ، يدل على الذات وعلى مشخصات خارجة من الحقيقة النوعية فيكون مدلولها بهذا الاعتبار غير الذات المحض •

الفائدة السادسة : إن الضمير في قوله تعالى (ثم عرضهم) راجع إلى الله تعالى والضمير البارز راجع إلى الحقائق التي كانت مدلولات الأسماء التي علّمها آدم عليه السلام ؛ لأن الله تعالى لما علمه الأسماء أفهمه أن هذا الاسم موضوع للمسمى الفلاني ، وأن هذا الفعل دال على العمل

الفلاني ، وأن هذه الحرف مدلولها ذلك الشيء • ثم عرَض الله تعالى أولئك الأشخاص المدلولة للأسماء على الملائكة في صورة اختبار ، وسألهم عن أسمائها ، فلما عجزوا عن معرفتها أمر آدم ان ينبئهم بها ، فأنبأهم بها • فظهر فضله وعلمه وكماله عليهم • وهنا ظهر أن آدم مراد للميزات المختصة هو ونسله في العالمين بها •

الفائدة السابعة : إن السجود الذي أمر به لآدم كان سجود التشريف والإحترام ، وكان لائقاً لكل محترم ، ولم يكن سجود تقديس وعبادة ؛ لأن الله تعالى لا يأمر أحداً بالعبادة لغيره ، بل خَلَقَ الجنَّ والإنس للإيمان بذاته وصفاته وتوحيده وعبادته وحده لاشريك له • وإبليس أبى ذلك السجود قياساً للفرع على الأصل فقال : أصلي نار وأصلُ آدمَ تراب وغبار ، ولما كان اصلي خيراً من أصله لزم أن يكون شخصي خيراً من شخصه ؛ لأن شرف الأصل دليل لشرف النسل • ولم يعلم أن أصل النار ليس خيراً من أصل التراب ؛ لأنه إذا كان في النار بعض الفوائد ففي التراب أكثر من ذلك ، ثم لم يَدْرِ أن الأصل ولو كان خيراً كان إتباع أمر الخالق أوجب من رعاية ذلك •

وعلى كل حال أبى عن إطاعة الأمر واستكبر وكان من الكافرين • فطرده الله عن ساحة السعادة أعاذنا الله من شر الغرور بفضله ورحمته آمين •

فإن قيل : إذا كان إبليس من الملائكة فكيف عصى ربه مع أن الله أخبر بأنهم لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولامجال لنسخ الخبر كما هو مقرر ، وإن كان من الجن فكيف شمله الأمر بالسجود للملائكة وكيف صح استثناؤه منهم ؟ قلنا : لاشبهة في أن إبليس لم يكن من الملائكة ، وكان من الجن لأدلة •

الاول : نص قوله تعالى (كان من الجن ففسق عن أمر ربّه) •

الثاني : لو كان من الملائكة ما كان يعصي ربه للآيات الكثيرة الدالة على نزاهة الملائكة من العصيان •

الثالث : أن إبليس خلق من النار بنص قوله تعالى حاكياً عنه (خلقتني من نار وخلقته من طين) •

الرابع : أن الملائكة لايوصفون بذكورة ولا أنوثة ، لقوله تعالى في مقام الإستنكار والتوبيخ : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) •

والخامس : أن إبليس له ذرية كثيرة كما نص عليها بقوله تعالى : (افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ؟) •

السادس : أن الملائكة نورية لايمكن العصيان منهم إلى غير ذلك • وإذا كان من الجن لا من الملائكة فوجْهُ صحة الإستثناء دخوله فيهم صورة أو على التغليب • كما تدخل مريم في القانتين وتدخل الأم في الأبوين وغير ذلك • وما قيل : إن هذا لايخرج الكلام حقيقة عن الإستثناء المنقطع ولا استثناء منقطعاً فيه مردود" بأن هذا خلاف الواقع • فإن فيه استثناءات منقطعة ، كقوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني) وقوله تعالى : (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً) وقوله تعالى : (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ) • فإن سلّمت ذلك فبها ، وإلا فهناك دليل قاطع على أن الله أمره بالسجود بنص" : (يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟) فإن لم يكن عاصياً بخروجه عن أمره تعالى للملائكة فقد عصى بخروجه عن إطاعة ذلك الأمر • وبعد ثبوت أمره

بالنص لا يهمنا أن يكون الأمر مأخوذا من أمره تعالى للملائكة أو من أمر آخر • هذا والله ولي التوفيق •

وحاصل تفسير الآيات : واذكر يا حبيبي نعمةً أخرى مِنَ النِّعم الهامّة العامة التي تشمل المكلفين بل كل العالمين : إذ قال ربك للملائكة إني جاعل وخالق خليفة لي في الأرض يكون مظهراً لتجلّياتي في الإيجابيات والسلبيات ، فقالوا : ربنا إن الخليفة بهذه السيماء قد يغلبها العداء والبغضاء ، ويظهر منها الأعمال المخالفة لعظمة صاحب الكبرياء أفتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح وتنزه ذاتك مع حمدك على نعمائك ونقدسك ونبرئك عن كل مالا يليق بجنابك ؟ قال الله في جوابهم : إني أعلم ما لا تعلمون من سرّ الخلائق وآثار الحقائق • فخلق الله آدم كما أراد ، وعلمه الاسماء لما ادخل في عالم الإبداع والإيجاد • ثم أظهر صور تلك الحقائق على الملائكة فقال : أنبئوني وأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين في أن فيكم الكفاية عن آدم ونسله • قالوا معترفين بالعجز : سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم بالأشياء • وتخص برحمتك من تشاء • فقال : يا آدم انبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأ آدم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض من سر القدر في خلق البشر وغيره من كل أثر وأعلم ما تبدون من الإستفسار وما تكتمون من الأسرار • فلما أظهر الله تعالى فضل الخليفة بين الخليقة أمرهم بالسجود الإحترامي له كما قال وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم حيث يجب إحترام الجاهل للعالم والعالم للأعلم فسجدوا كلهم إطاعة لأمر مولاهم إلا إبليس منبع التدليس والتلبيس أبى عن السجود ، لشبهٍ واهية لاقيمةً لها في الوجود ، واستكبر على آدم وزعم أنه أعلى منه في العالم وعصى ربّه بالإِباء عن الطاعة إنكاراً لائقاً بأهل الجحود ، وصار من جملة الكافرين أو

لأنه كان في علم الله الأزلي من الكافرين حيث علم أنه يصرف طاقته وقواه في تطبيق هواه ، فعاد من الخاسرين أعاذنا الله من كل كفران وخسران ، وعافانا من كل بلاء يكون الحليم فيه حيران آمين .

ولما انكشف الأمر بلا إلتباس وتميز المطيع من العاصي أمر الباري تعالى خليفته بالسكون في جنته تحت ظلال رحمته كما قال :

وقلنا يا آدم اسكن أَنتَ وزوجك الجَنَّةَ وَكُلا مِنها رَغَداً حَيثُ شِئْتُما ، ولاتَقرَبا هذهِ الشَّجَرَةَ فتَكونا مِنَ الظّالِمِينَ .(٣٥) فأَزَلَّهُما الشَّيْطانُ عَنها فأَخرَجَهُما مِمّا كانا فيه ، وَقُلْنا : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُستَقَرٌّ ومَتاعٌ إلى حين) (٣٦) .

واعلم أن في الآية الشريفة إيجاز الحذف حيث طوى خلق أمّنا حواء عليها السلام مِن سيدنا آدم الذي دلّت عليه آياتٌ منها : قوله تعالى : (هو الذي خلَقَكُم مِنْ نفس واحدة ، وخلق منها زوجها) وتقدير الكلام : ثم خلَقْنا منه زوجه ، وقلنا : (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) .

وورد في خلق آدم ــ عليه السلام ــ ثم خلقها منه ماحاصله أن الله تعالى لما أراد خلق آدم ــ عليه السلام ــ أمر بعضاً من الملائكة فنزلت إلى الأرض وأخذت من أقاليمها مقداراً من التربة وصعدت بها إلى السماء ، ثم إلى الجنة وعجنتها بماء من عين التسنيم وهو نهر فيها ، فصورها الباري بقدرته على هيكل آدم ، ونفخ فيه الروح فصار ذلك الإنسان الشريف . كما قال تعالى : (إن مثلَ عيسى عند الله كمثلِ آدَمَ خلقه مِن تراب ثم قال له كن فيكون) وبعد زمان غلبه النوم فنام وأثناء نومه خلق الله سبحانه

أمّنا حواء من أحد أضلاعه من الجانب الأيسر فلما انتبه رآها عنده فألِف بها ، وألهمه الباري أنها زوجتك وقرينتك • وهذه الأمور من الغيبيات التي أخذناها وتحول تفصيلها إلى علم رب العالمين • وقد قال تعالى : (إنا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدر) ، وقال: (الله خالق كلِّ شيءٍ وهو على كل شيءٍ وكيل) •

ومما يجب أن يعلم أن الله خلق في العالم الجنة والنار دارين لأهل الثواب والعقاب ، وهما وإن لم ينزل نص في تعيين موضعهما إلا أن وصف الجنة بأن عرضها السموات والأرضُ يدل دلالةً واضحة أنها فوق السماوات السبع ، وظاهر الحديث الوارد (سقف الجنة عرش الرحمن) يدل على أنها بين الكرسي والعرش وقد قال سبحانه وتعالى : (وَسِعَ كُرسيه السموات والأرض) وبما أنه لم يذكر بنص صريح محلهما المعين ذهب كثير من العلماء إلى التوقف في محل الجنة والنار ، وإلا فالظاهر مما ذكرنا أن محل الجنة هناك ومحل النار في محل آخر حسب علم الباري وقدرته ، مع العلم أن هناك آيةً تدل على أن أهل الجنة وأهل النار يترائيان ويتناديان وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله • وكذلك ينادي أصحاب الجنة : أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا إلى آخر الآيات • وعلى كلٍّ فالجنة دار الثواب ، والجحيم دار العقاب • ومذهب جمهور المسلمين أنهما مخلوقتان وموجودتان في العالم ، ويدل على ذلك ما رواه البخاري : أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : (أُريتُ الجنة في عرض الحائط الفلاني) إلى آخر ما هو مذكور هناك • والمقصود أن الجنة في عرف الشرع إذا أُطلقت فالمراد بها الجنة المعهودة التي هي دار الثواب • فالمراد من لفظ الجنة في قوله تعالى : (قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) الجنةُ المعهودة

العلوية التي تعتبر المقرّ الأخير لأهل الطاعة ، وهي دار الثواب الأبـدي ، أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار • وهذا مما أجمع عليه قبل ظهور أهل البدع والأهواء الذين لا وزن لكلامهم إلاّ كوزن الهباء ، فما ينقل ويلاك بين الصحيين أنّ المراد بالجنة جنة في الأرض في جبال هند ، أو بين بلاد فارس وكرمان ، ممـا لا يليـق أن يتكلم به الإنسان الذي له حظ من الإيمان • فاحذروا من أغاليط الناس ، أهل الأوهام والوسواس ، فإن القرآن الكريم دستور عباد الله المؤمنين ، وكل مؤمن معترف بأن عجائب صنع الله وآثار قدرته مما لا يحيط به فكر المتفكرين ، وأن الله تعالى كما خلق السماوات السبع وزيّنها بالمصابيح ، وخلق الشمس على حجم يساوي حجم الأرض بمليـون مـرة • وخلق كوكب الشّعرى وأن حجمه يساوي حجمَ الشمس مليوناً مـن المرات ، وأنهما يظهران في العالم الواسع كشيىء صغير بسيط فهو قـادر على أن يخلق الجنة وعرضها السماوات والأرض ، وأن يخلق جهنم ومسافتها على ما قدره الرب الأكرم ، وأن إصعاد البشر إلى السماوات وإنزاله منها إلـى الأرض لا يماثل إلا حركة طير خفيف الجثة يطير في الفضاء وإذا آمنا بالله الحي القيوم فكلما أبلغنا شيئاً أخذ مقام البديهي المسلّم المعلوم •

وقوله تعالى : رغداً بمعنى واسعاً رافهاً • وهو صفة لمصدر محذوف أي أكلاً واسعاً مترفهاً به • والشجرة هي شجرة الحنطة • وقوله : (من الظالمين) أي من المتعدين على حقكم في التمتع كيف تشاؤون ، وليس الظلم هناك بمعنى التعدي على الحق المشروع إذ لم يكن إذ ذاك شرع كما يأتي قريباً • وقوله (فأزلهما الشيطان) أي فأزلفهما وأبعدهما الشيـطان بإلقاء الوسوسة في قلوب آدم وحواء حتى أكلا منها • والجارّ في عنهـا للتعليل أي إذلالاً مسبباً عن الشجرة وقربانها • وقوله : (فأخرجهما مما

كانا فيه) يعني أخرجهما الشيطان عن السكون في الجنة والستر والإستراحة التي كانا فيه ، وضمير الجمع في (إهبطوا) إما لآدم وحواء ونسلهما الذي سيوجد منهما تنزيلاً للمعدوم منزلة الموجود ، أولهما فقط على سبيل الإحترام ، فإن الكرام يعاتبون بلطيف الكلام لا بالخشونة والتحقير كاللئام • وقوله (مستقر ومتاع إلى حين) بتنكير الكلمات إشارة إلى أن زمان الإستقرار والتمتع في الأرض قليل لايذكر بالنسبة إلى زمان الآخرة وسكنى الجنة التي أعدت للمتقين •

وليعلم أنه كما لايعلم أحد إلا الله تعالى مبدأ خلق السماوات والأرض كذلك لايعلم مبدأ خلق البشر فيها ، وأن تحديد مبدأ إستقرار سيدنا آدم فيه وحسابه إلى عصرنا هذا بعشرة آلاف سنة لا إعتبار بها مطلقاً ، والإنسان المتفكر إذا تأمل في سرد الآيات الحاكية عن الكفرة المتمردين ، وأهل البغي والطغيان الهالكين فهي مما تدهش العقول والألباب ، وكلام القصاصين الحكاة بملء الأفواه ليس إلا لغواً من الخطاب ، وعلمُ ذلك عند الله فلا تحديد له في علمنا لا بمليون ولا بملايين ، وإنما علمه عند رب العالمين •

وحاصل تفسير المقام : أنه يقول الباري تعالى بعد إباء إبليس من السجود وظهور عدائه لآدم في الوجود خلقنا لآدمَ قرينته ، وقلنا : يا آدمُ اسكنْ انت وزوجك الجنة الواسعة العالية ، وكُلا مِنَ الثمرات الطيبة وتمتعا حيث شئتما ، ولكن لا تقربا شجرة الحنطة فضلاً عن أن تأكلا منها ؛ فإنه ممنوع منكما ، وإذا أكلتما منها تكونان من المتعدّين ، على أحوالكما • فاغتنمَ الشيطانُ العدو اللدود الفرصةَ فوسوس إليهما من خارج الجنة ؛ لأنه كان من المنظَرين ، وأغراهما على الأكل منها ، فصار الأكل منها سبباً لإخراجهما من الأحوال التي كانا فيها

ومن الإستقرار في الجنة . وقلنا لهما : اهبطوا منها إلى الأرض حالكون النسل المولود منكما متعاركين على المشتهيات ومتنازعين بعضكم مع بعض في الملذات ، ولكم في الأرض بهذه الحالة إستقرار وتمتع بما تتمكنون منها إلى حين ، وقارن أمره تعالى هذا قوة هادئة تنزيلية فنزلتهما إلى حيث شاء الله من الأرض ، وتم أمر رب العالمين .

ولما هبط سيدنا آدم إلى الأرض إستوحش لفراق الجنة وما فيها من الطيبات ، ولكنه لما كان الإهباط لشد الإرتباط بينه وبين الله لنفسه ولنسله سارع الباري سبحانه برحمته فألهمه كلمات لائقة للدعاء في حضرته كما قال تعالى :

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا : اهْبِطُوا مِنها جَمِيعاً ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً ، فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحزَنُون (٣٨) والَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بآياتنا أولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ) (٣٩)

التلقي : هنا مستعار من التَّلَقي بمعنى إستقبال الناس مَن يعزه عليهم إذا قدم بعد غيبة ، وهو يكون بأنواع الإكرام ، وإكرام الكلمات الواردةمن الحضرة الإلهية العمل بها ، وتلك الكلمات المباركة على ما قاله ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، ومجاهد هي قوله (رَبَّنا ظَلَمْنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وعن مجاهد أيضاً (سُبْحانَكَ اللّهم لا إله ألا أنت ربي ظلمت نفسي فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم) وقالت طائفة : إنه كشف الله تعالى عن العرش فرأى مكتوباً على ساق العرش محمد رسول الله فتشفع بذلك .

وقالت طائفة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء • وقيل : الندم والإستغفار والحزن •

ومما يستحسن بمناسبة المقام أن نذكر لطيفة عصمة الأنبياء والرسل الكرام عن الذنوب • فاعلم أو"لا" أن العصمة عند الجمهور أن لا يخلق الله فيهم ذنبا مع وجود الدواعي النفسية عندهم ، فإنهم بشر والبشر كما ينام ويقوم ويأكل ويشرب ويأتي ويذهب كذلك توجد عنده شهوة اللذائذ وما تريده النفس الإنسانية ولكن لا يخلق في قلوبهم ، ولا في قوالبهم منها كل ما لايرضى به الله تعالى • ومعنى ذلك أنه توجد عندهم ملكة" تملك حواسهم ومشاعرهم وأركانهم من فعل ذنب وارتكاب جريمة على ما يأتي إن شاء الله وليس معناها أنه يمتنع عنهم صدورها ، وإلا كانت من مقتضيات الخلقة كالملائكة ، فما كانوا مثابين على الترك ، ولا ممدوحين على الفعل • وفيها آراء وخلاصة القول المختار : أنهم معصومون عن الكفر بأنواعه وعن تعمد ارتكاب الكبائر قبل النبوة وبعدها ، وعن تعمد الكذب لاسيما في الأحكام التبليغية ، وعن الصغائر الدالة على خسة مرتكبها ، وعن تعمد الصّغائر غيرِها بعد النّبوة عند كثيرين • والدليل عليها من وجوه •

الأول : أنه لو صدر عنهم الذنب لحرم إتباعهم فيما صدر عنهم ضرورة أنه يحرم إرتكاب الذنب مع أن إتباعهم واجب بالإجماع ولقوله تعالى : (قل ان كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله) •

الثاني : أنهم لو أذنبوا لردّت شهادتهم ، ومن لا تقبل شهادته في الدنيا كيف تسمع شهادته في الدين ؟

الثالث : أنه لو صدر عنهم الذّنب لوجب زجرهم لأن النهي عن المنكر واجب ، وزجرهم إيذاء لهم ، وايذاؤهم حرام •

الرابع : أنه لو صدر عنهم الذنب لكانوا أسوأ حالاً من عصاة الناس ؛ إذ يضاعف لهم العذاب بسبب علوّ مقامهم .

الخامس : أنه لو صدر عنهم لم ينالوا عهد النبوة والرسالة . قال تعالى : (لاينال عهدي الظالمين) .

السادس : أنه لو صدر عنهم لكانوا غير مخلصين ؛ لأنه بإغواء الشيطان ، والشيطان لايغوي المخلصين .

السابع : أنه لو صدر عنهم لكانوا من الذين صدّق عليهم إبليس ظنّه واتبعوه ، وحاشاهم وهو أعْدى أعدائهم أن يتبعوه .

الثامن : أن المذنبين من حزب الشيطان فكيف يصدر الذنب منهم وهم قادة حزب الله في طريق الحق والدين ؟

التاسع : أن الله تعالى مدحهم بفضائل ومناقب مهمة لا تليق بأهل الذنوب فقال في جمع منهم : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) . وقال (وإنهم عندنا لمن المصطفَيْنَ الأخيار) . وسلم على كثير منهم فرداً فرداً ، وعلى الجمع في قوله : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين) . فما نسب إلى حضراتهم مما يوهم خلاف العصمة على ما ذكرنا إن كان من أخبار الآحاد فمردود ، وإن كان من غيرها فمؤول بصدورها بطريق الخطأ الإجتهادي ، أو السهو ، أو النسيان ، أو أنها كانت خلاف الأولى وجرى عليها عتاب . كما بين الأحباب . أو أنها كانت قبل النبوة بناء على أن العصمة قبل النبوة غير لازمة كما ينسب إلى سيدنا آدم عليه السلام ؛ لأن الراجح أنه لم يكن نبياً قبل الهبوط إلى الأرض والأمر والنهي المتوجهان إليه كانا على العادة كما تكلم الباري مع الملائكة في تطبيق الأمور وإنزال الأوامر ...

على أنه إذا لم يكن شرع ودستور" فلا مخالفة فلا ذنب فكيف يعد ذنباً قضاءُ سيدنا موسى على الرجل القبطي الصائل على مسكين من المساكين ؟ وإن كان دفع الصائل واجباً لكنه بحسب الشرع ولم يكن إذ ذاك شرع كما هو معلوم !

والتوبة في اللغة : الرجوع ، وفي الشرع : الندم على ما فعله من حيث أنه ذنب ، والعزم على أن لا يعود إليه ، وإذا كان هناك حقوق ردّها إلى أصحابها المستحقين . هذا والله اعلم .

وظاهر معاني الآيات : أن آدم عليه السلام إستقبل الكلمات الملهمة فدعا بها تضرعاً وابتهالاً إلى مولاه العظيم فتاب عليه ، ورجع إليه بالعفو والسماح عن المخالفة ، فإنه هو التوّاب بكثرة ، والرحيم على وفرة ، ثم أفاده الباري أن العفو عن المخالفة لا للرجوع في الدنيا إلى الجنة فإنه يخالف سر القدر المحتوم ، فأكد الأمر بهبوط له ولنسله جميعاً ، وأخبره أنكم ما دمتم على الأرض إذا جاءكم مني هدى وإرشاد للدين على لسان أحد المرسلين سواء كنتَ أنتَ الرسول أو غيرك منهم ، فمن تبع إرشادي وديني علماً وعملاً فلا خوف عليهم من المآل ، ولاهم يحزنون على الواقع في الحال . إذ لا عذاب ولا عقاب . والّذينَ كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون لأنّ مَنْ جاءه الهدى وتبين له الرشد من الغي ومع ذلك تهالك على إختيار المهالك فقد ظلم نفسه ، وخالف قدسه ، ومن أنذر أعذر ، وكذلك سنة الله في العالمين .

ولما ذكر الباري سبحانه وتعالى عباده بأنه جعل آدم ونسله الصالح خليفته في الأرض لغاية نيل السعادة بعبوديتهم الخالصة المبنية على العلم والعمل الصالح والأخلاق الحسنة من الإيمان والصدق والإنصاف وما شاكلها من الأوصاف ، وكان الإسرائيليون الموجودون في المدينة المنورة

على جانب من العلم وتمكن من الامور بحيث كان صلاحهم سبباً لصلاح كثير من الناس ، وفسادهم سبباً لفساد كثير منهم .. ناداهم وذكّرهم بالنعم الجِسام التي أفاضها على أسلافهم كي يتعظوا ويتنبهوا ويتوجهوا إلى طريق الإنصاف ، ويؤمنوا بالرسول الكريم المعروف بفضائل الأقوال والأخلاق . (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ .(٤١) وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .(٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)(٤٣)

وقبل أن نذكر تفسير الآيات الكريمة نرى من المناسب أن نذكر أدوار الإسرائيليين لكثرة ذكرهم في القرآن الكريم لأسباب داعية إليه ، حتى يكون القارىء عند كل مبحث على علم من الدور الذي وقع فيه الحادث الواقع المذكور . ورأيت نقل ما نقله العالم المصري المشهور السيد محمد فريد وجدي في كتابه : (دائرة معارف القرن الرابع عشر) في المجلد الأول منه فقال مانصه :

« إسرائيل هو يعقوب عليه السلام ابن إسحق ، ابن إبراهيم أبو الأسباط الإثني عشر الذين منهم يوسف ــ عليه السلام . وكان عائشاً في القرن التاسع عشر قبل المسيح عليه السلام ــ وقيل : إسرائيل معناه عبدالله وصفوته من خلقه ، و(إيل) هو الله و (إسرى) هو العبد .

وبنو إسرائيل هم اليهود قوم موسى ـ عليه السلام ـ وقد لعبوا في تأريخ العالم دوراً عظيماً يجب علينا تتبع أسبابه ونتائجه على ما تعطيه المقررات العلمية الصحيحة •

إذا اعتبرنا في تأريخ اليهود مالديهم من الكتب القديمة والآثار الباقية حكمنا بأنه لا توجد أمة من أمم الأرض تملك على تأريخها مثل ما يملكه بنوا إسرائيل من الأسانيد والأعلام • ولكن إذا تصفحنا تلك الكتب وجدنا فيها التأريخ مبعثراً في المعجزات وخوارق العادات ، ولذلك صار إستخلاص تأريخهم من مجموع هذه الأمور من أصعب المباحث •

ينقسم تأريخ الإسرائيليين إلى خمسة أدوار :

الأول من عهد إبراهيم عليه السلام إلى خروجهم من مصر •

الثاني من خروجهم من مصر إلى تأسيسهم الملكيّة •

الثالث من تأسيسهم الملكية الى اسر (بابل) •

الرابع من أسر (بابل) إلى خراب بيت المقدس بيد الملِك (أدريان)•

الخامس من عهد تفرقهم في الأرض إلى اليوم •

ونحن ناقلون ملخص هذا التأريخ من دائرة معارف القرن التاسع عشر •

الدور الاول : كان من سنة ألف وتسعمائة وست وتسعين إلى ألف وستمائة وخمس وأربعين قبل الميلاد •

ففي سنة ألف وتسعمائة وتسع وستين قبل الميلاد غادر إبراهيم عليه السلام ـ كما يقول اليهود ـ مدينة (خالد) في (جزيرة بن عمرو) ونزل بكنعان بوحي من الله ناقلاً معه عبيده ومواشيه ، فولِد له (إسحق) ولإسحق

يعقوب الملقب بإسرائيل فرزق الله يعقوب هذا أثني عشر ولداً ، توصل أحدهم وهو يوسف عليه السلام إلى مكانة عالية في خاصة فرعون مصر فاضطرت المجاعة أباه يعقوب وأولاده إلى الرحيل إلى مصر فنزل في الوجه البحري منها ، وكان عددهم إذ ذاك سبعين ، فنموا نمواً عظيماً ، فاضطهدهم الفراعنة وسخروهم في أشق الأعمال ، ثم قتلوا الذكور منهم واستحيوا الأناث حتى ظهر موسى عليه السلام ، فأخرجهم من مصر ، وكان عدد من يستطيع حمل السلاح منهم ، وهم خارجون ، ستمائة ألف نسمة .

الدور الثاني : من سنة ألف وستمائة وخمس واربعين ، إلى ألف وثمانين قبل الميلاد . إتجه الإسرائيليون تحت قيادة موسى عليه السلام إلى أرض كنعان التي سموها بالأرض الموعود بها . فاجتازوا في طريقهم الخليج العربي من البحر الأحمر ثم تاهوا في الصحراء أربعين عاماً فلقوا في التيه كل ما يصادف الأمم البدوية من شدة الحال وخشونة العيش ، فتلقى موسى عليه السلام شريعة الألواح في سفح جبل طور سيناء .

فلما مات موسى سنة ألف وستمائة وخمس قبل الميلاد تولى قيادة الإسرائيليين يوشع فاجتاز نهر (الاردن) وأباد الأعداء الذين أرادوا صرفه عن طريقه . ثم إحتل بقومه الأرض الموعود بها وهي أرض كنعان . فقسم يوشع تلك الأرض بين الأثني عشر سبطاً ، فكانت قبيلة (ليفي) التي خصت برياسة الدين لا أرض لها ، فأعطيت ثمان وأربعين مدينة مبعثرة في أرض الأثنتى عشرة قبيلة . وكانت على الشاطىء الأيمن والأيسر من نهر الأردن ست مدائن جعلت ملجأ للملتجئين من بني إسرائيل وغيرهم من الأجانب المتهمين بالقتل خطأ .

فخلفت يوشع حكومة القضاة فدامت أربعة قرون فكانوا يقيمون العدل بين الرعية ويقودون الجيش فدوّخ القضاة مالم يستطع تدويخهم يوشعُ وَشنّوا غاراتٍ شعواءَ على الشّعوب المجاورة لهم مثل (الأَمُونيتيّين) وغيرها .

الدور الثالث : من سنة ألف وثمانين الى خمسمائة وست وثلاثين قبل الميلاد في هذا الدور أظهر بنوا إسرائيل تعبهم من حكم القضاة ، فطلبوا إلى النبي صموائيل (إشماويل) أن يقيم لها ملكاً ، فعارضهم في ذلك قائلاً ما ملخصه :

الملك يعلق ابناءكم في مَركباته ، ويجعل منهم من يَجرُونَ أَمامَها ، ويأخذ بناتكم فيجعل منهم طباخات وخبازات ، ويسلب حقولكم وكرومكم يُعطيها لخدمه المحتفّين به .

فلم يسمع الإسرائيليون لقوله فاضطر (صموائيل) لأن يقيم (شاول) (طالوت) ملكاً عليهم ، فلما لم يسر على تعاليم (صموائيل) عزله وأقام بدله (داود) عليه السلام ، فَمَدَّ في ملك الإسرائيليين ، ومات بَعدَ أن حكم أربعين سنة ، وكان إذ ذاك عدد اليهود (١٫٥٠٠٫٠٠٠) مليوناً ونصفاً . فتولى بعده سليمان عليه السلام فبنى مدينة (أورشليم) ، واشتهر في العالم كله شهرة فائقة .

ولما مات إنقسم ملكه إلى قسمين : قسم بقي تحت حكم إبنه (رَحَبعام) وهذا القسم كان يتألف من قبيلتي : يَهُودا ، وبنيامين .

والقسم الآخر المكوّن من عشر قبائل إختار (جَبْرَ حَبعام) ابن ناباد فسمي القسمان بمملكتي : يهودا ، وإسرائيل . فكان هذا الإنقسام شراً عليهم ، إذ وقعت المملكتان في حرب دَمَوية مستمرة ، وزادوا بأن

صار بعضهم يستنجد بالأجانب لقتال بعض . وفي السنة الخامسة من حكم رحبعام بن سليمان عليه السلام ، شن ملك مصر (سيزاك) الغارة على أورشليم ، فنهب معبدها . ولما تولّى ابنه (آبياس) غزا (جبر جبعام) واخرب له عدة مدائن ، فلما وصل الملك إلى (جيهو) كانت الحروب بين مملكة إسرائيل ويهوذا والآشوريين ، بالغة أقصى درجات الشدّة وزادتها شدة الحروب الأهلية ، فلما تولّى الآشوريين (سالمانازار) إستولى على مدينة السامرة . وقاد أهل مملكة إسرائيل إلى بلاده أسرى وبذلك إنتهت مملكة إسرائيل وبقيت مملكة يهودا هدفاً لسهام المطامع الآشورية . فلما تولّى ملكها (مناسيس) قهره ملك آشور ، وقاده أسيراً إلى بلاده ، فلما وصل الملك إلى (يواقيم) حاربه بختنصر وقاده أسيراً إلى بلاده ، فلما عاد الى بلاده ثار على بختنصر ، فكان ذلك سبباً لعودة هذه الطاغية عليه ودخوله إلى أورشليم وتخريبها ، وقاد أكثر أهلها أسرى وكان ذلك سنة خمسمائة وسبع وثمانين قبل الميلاد . فلما استولى الملك قيروش (كورش) الفارسي على بابل تخلّص الإسرائيليون من أسر البابليين ، وعادوا إلى فلسطين سنة خمسمائة وست وثلاثين قبل الميلاد .

الدور الرابع من سنة خمسمائة وست وثلاثين قبل الميلاد إلى سنة مائة وخمس وثلاثين بعد الميلاد . إستقبل الإسرائيليون غارة قيروش على بابل بالترحاب فعادوا إلى فلسطين تحت قيادة (روزا بابل) وسمّوا الجهة التي عادوا إليها (يهوذا) وسموا أنفسهم اليهود لتميزهم عن سواهم من الإسرائيليين ، ووعدهم (دارا) بإعادة بناء أورشليم ، فبناها لهم ، وأحاطها بسور . فقسموا بلادهم أربعة أقاليم وصارت حكومتهم أشبه بجمهورية (تيوكراطية) يرأسها حاخام كبير مِن دونِه مجلس مُكَوَّن من إثنين وسبعين شخصاً . فعاش أهل فلسطين في خفض تحت هذه الحكومة

وسيادة الفارسيين حتى أغار عليهم الأسكندر المقدوني مضوا لهم شراً بسبب إنحيازهم إلى الفرس وعدم تمكينه من أخذ الميرة من (صور) .

فلما اقترب من أورشليم خرج إليه الحاخام الكبير في موكب رهيب واستقبله إستقبالاً كريماً وأدخله إلى المدينة بسلام ، وأطلعه على نبوءة (دانيال) القائلة بأن الأسكندر سيغلب الفارسيين فسُرّ الأسكندر سروراً عظيماً ، وعامل اليهود بالحسنى ، وأعفاهم من الضرائب سبع سنين .

فلما مات الأسكندر وقعت فلسطين في قسم (لاوريون) أحد قواد الأسكندر ، فلما استلبها منه (بطليموس لاغوس) أخذ قسما من اليهود وأسكنهم في مصر سنة ثلاثمائة وعشرين قبل الميلاد ، وفي سنة ثلاثمائة استولى على مملكة يهودا ملك سوريا المدعو (سيلوكس تيكارنو) ثم ردت إلى ملك مصر بعد ذلك بقليل ، وفي سنة مائتين وثلاث قبل الميلاد وقعت يهودا ثانية تحت حكم ملوك (سورية) (السلوسيديين) فأثقلوا كاهل اليهود بالضرائب ، واضطهدوهم من أجل دينهم أكبر إضطهاد . فلما تولى سوريا (أنتيخوس أبيفان) أمر بنصب تمثال (جوبيتر) إله اليونانيين في وسط معبدهم ، ومنعهم عن الختان ، وأمرهم بتضحية الخنازير وقتل جمهوراً منهم لتمسكهم بالدين .

ولكن القس اليهودي (ماثانياس) رفض أن يقرب الخنازير قرباناً للأصنام ، وقتل رسول ملك سوريا إليه فاضطر للهرب هو وأولاده وتبعه جماعة من أهل الجرأة إلى الجبال ، فلما كثر عدد الملتجئين إليه قام ابنه المدعو (يهوذا ماكابيه) وشهر القتال على (أنتيخوس) فهزمه سنة مائة وخمس وستين قبل الميلاد ، ودخل أورشليم منصوراً ، فهدم الأصنام . وشهر عبادة الله المنزه عن الأنداد .

وبعد سنة مائة واحدى وستين قبل الميلاد قام أخـواه جوناثوس وسيمون ، وتمما انقاذ وطنهم من أيدي ملوك سورية ، ولكن لم يأت حكم (هيركان) و (أريستوبول) إبنا سيمون حتى فقدت البلاد إستقلالهـا ثانية .

والسبب في ذلك أن الأخوين إشتجرا على الملك فجاء (بومبيـه) الروماني ليحكم بينهما ، فحكم لنفسه ، واستولى على بلادهما سنة ثلاث وستين قبل الميلاد ، وجعل مملكة يهودا إقليماً رومانياً . فلما كانت سنة اثنتين وأربعين قبل الميـلاد . رَدَّ (أَنْتيفُون) ابنُ أرَسْتُوبُولُ للبلاد حرّيتها واستقلالَها ولكن لم تأت سنة سبع وثلاثين قبل الميلاد حتى ساعد الرومانيين الملك هيرود على تدويخ مملكة يهودا ، فاستولى عليها ، وقتل (انتيفون) و (هيركان) وهو آخر ولد من ذرية (ماكابية) تحت حكم (هيرود انتياس) الذي حَكَمَ على عيسى عليه السلام بالإعدام ، فلما عَسِفَ الرّومانيون باليهود ، وساموهم سُوءَ العـذاب ثاروا فاضطرّ الرومانيّون لأخذ أورشليم سنة سبعين بعد الميلاد ، وأمر ملكهم (نيتوس) بإحراق معبدهم ، وذبح معظم أهلها وبيع من بقي منهم . فلم يمض غير قليل حتى عمرت أورشليم بالسكان ثانية ، ولكن ثورة أخـرى جعلت الأمبراطور الروماني (ادريان) سنة مائة وخمس وثلاثين ميلاديـة يأمر بهدم المدينة من أساسها وذبح نصف مليون منهم وبيـع الباقيـن وتشريدهم في جميع أرجاء المملكة ، ولكن هـذا التشريد الهائـل لم يزد اليهود إلا تمسكاً بدينهم وتقاليدهم .

الدور الخامس : من سنة مائة وخمس وثلاثين ميلادية إلى يومنـا هذا . لما تمزق شمل اليهود كل ممزق ، وانشقت عصىّ وحدتهم الإجتماعية هاجرت طائفة منهم إلى آسيا ، ونزلت بشواطىء نهر الفرات ، وقصـدت

أخرى بلاد الأفغان وهبطت بعضهم الهند والصين . وبقي بعضهم في أوروبا موضع الإهانة والسخرية والعذاب ، حتى بعد سنة مائة وخمسين حيث تولّى الملك (كونستان) الروماني حين أبهض عواتقهم بالتكاليف ، ولكن عهده كان أخف من عهدي الإمبراطورين (جونستيان) و (هبراقليوس) إذ أمر باضطهاد اليهود بأشدّ أنواع الإضطهادات وسَوْمِهِم سوء العذاب .

قالت دائرة معارف القرن العشرين التي تنقل عنها هذا التاريخ : ولكن لما فتح المسلمون بلاد الرومان حَسُنَ حال اليهود فاشتغلوا بالتجارة فارغي البالِ في بغداد والقاهرة وقرطبة باختلاطهم بالعرب ودرسوا العلوم والصنائع بنجاح . ومن أول القرن التاسع صارت لهم مراكز يهودية في القاهرة ، وفارس ، ومراكش ، وفي ذلك العهد قلّ عددهم في بابل ، وكثر في فلسطين وحَظُوا بالتقرب من خانات المغول المسلمين .

قالت الدائرة : لاتوجد بلد في الأرض الآن تضطهد اليهود إلاّ أواسط (آسيا) فإن هنالك نحو أربعة آلاف نسمة منهم محكوم عليهم بلبس ألبسة خاصة ، وعدم وضع العمائم ، ولا الركوبِ على الخيول .

أما بلاد العرب فقد لقي اليهود من الصّليبيين عهداً جديداً من الإضطهاد والآلام ؛ فقد اعتبروا أنهم لشؤم طالعهم سببُ كل المصائب النّازلة والحروب الهائلة ، ولكل فتنةٍ تصيبُ رجالَ المسيح . فإذا إرتكب أحدهم أقلّ هفوة انتقم من سائر اليهود أشَدّ انتقام ، وكانوا يبتكرون الأسباب للإنتقام من اليهود ، ومصادرة أموالهم . وناهيك عما كانوا يتقوّلون عليهم من تسميم ينابيع المياه ، وقتل الأولاد الصغار ، وتخريقهم الخبز المقدس بالسكاكين . فكانوا يعتبرون طرد اليهود ونهب أموالهم وقتلهم .. من أعمال البر والتقوى ، فإذا أذنت الحكومة لبعضهم

بالتعامل بالنقد وهي الوظيفة التي يفوقون سواهم فيها ، فما ذلك إلا الوجدان السبيل لمصادرة أموالهم وابتزاز خيراتهم . ولم يكن لدى هؤلاء الغربيين من التسامح ما يسمح لليهود بالتمتع براحة الحياة في حوزتهم .

قال المسيو (داتتيه) كما نقلته دائرة معارف القرن التاسع عشر : كانت اليهود معتبرين خارج دائرة الحقوق العامة في كل مكان محبوسين في أقسام منعزلة من المدينة ، ومحكوماً عليهم بوضع علامات مُهينة على ملابسهم ؛ لتميزهم من غيرهم . وكانوا لأقل هفوة يحكم عليهم بالغرامات الباهظة أو بالطرد . ففي سنة ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين ميلادية حكم عليهم في (انجلتره) بدفع خمسة آلاف مارك من الفضة ، وفي سنة ألف وثلاثمائة وتسعين صدر أمر الملك (ادوار) الأول بطردهم من المملكة مافي المانيا فكان اليهود ملكاً للإمبراطورة أو للأمراء ، فحدث أنهم بيعوا أكثر من مرة ، وطردهم من فينا (ماتياس كورفان) ولم يدخلوها إلا في عهد (فرديناند الاول) .

ثم عادت دائرة المعارف فقالت : أما في (أسبانيا) حيث عاش اليهود تحت حكم المسلمين زماناً طويلاً في هدوء كامل فانه بمجرد أنْ امتلك بلادَ الأندلس (فرديناند) الكاثوليكي طارَدَهم كما تُطَارِدُ الضَواري ! وجاءت محكمة التفتيش فأمرت بطردهم ، فطردوا فذهب بعضهم لهولاندا ، والبعض الآخر إلى سواحل إيطاليا .

أما في فرنسا فكانوا أسعَدَ حالاً مما كانوا في غيرها في القرن الثامن والتاسع وبخاصة المدائن الكبيرة مثل [باريس وليون ومرسيليا] إذ كان لهم حق امتلاك الأراضي ، وكانوا محكومين (بمجستر جودوروم) أي بقاض منهم ، ولكن ما تولت أسرة (كارلوفنجيين) الملك في فرنسا

حتى تناولهم الطرد والتغريم • وفي سنة ألف ومائتين وخمس وعشرين طردوا من جنوب فرنسا كله • وفي سنة ألف وخمسمائة وخمسين سمحت لهم فرنسا بسكنى (بورد) و (بابون) •

أما في (بولونيا وليتوانيا) فكان حظهم مُرضياً في القرن الحادي عشر بفضل (استر) مَحظيّة الملك (كامير) فإنها كانت من ملّتهم فتحصلوا هناك على امتيازات جمة ، فآلت إليهم ملكية قرى ومدائن ، وكوّنوا بين الخاصّة والعامة طبقة إحتَكَرت التجارةَ والصناعةَ لنفسها • وكان حظهم في (بولونيا) وما يجدونه من الإضطهاد في سواها يضطرهم إلى الهجرة إليها أفواجاً أفواجاً •

فلما تولى الملك (جان البيرو) ووجد أن الهجرة مستمرة إلى بلاده منهم ، وإن هذه الطائفة إحتكرت التجارة والصناعة والثروة •• وضع حداً لهذه الهجرة ، وقلل من إمتيازاتهم • فلما جاء خلفاؤه عملوا على سنته حتى إستحال أمر اليهود إلى مثل حالهم في سائر ممالك أوروبا من المَهانة والصغار والإضطهاد •

ولما تولى الروسيا بطرس الأكبر فتح لليهود بابَ الروسيا ، ولكن لما تولت الملكة (أليزابت) أمرت بطردهم ، وكان عددهم ثلاثمائة وخمسين ألفاً • فلما تولت الملكة (كاترين الثانية) سَمَحَت لهم بالعودة ، وجاء القيصر المسمى بالأسكندر الأول فأعطاهم إمتيازاتٍ ، فلمّا تولى (نيقولا) أمر بطردهم ، وهم الآن من بلاد الروسيا في (كولاند) والقَرْم (وبلاد القوقاز وجيورجيا) وحدث في شأنهم شيىء من التسامح من سنة ألف وثمانمائة وخمس وثلاثين ميلادية • ولكنهم مع ذلك يعتبرون خارج القانون ، ويعاملون باستبداد كأنهم في قرن سابق على عهد التأريخ •

فقد حدث أن مدير بوليس مدينة (فرزوفيا) سنة ألف وثمانمائة واربع وستين أصدر أمره بمنع اليهود من لبس بعض الألبسة الوطنية ، ومن حمل القبعات السوداء ، ومن إلقاء ضفائر شعورهم على صدورهم .

كان اليهود لا يقبلون في الجندية في أوروبا ، فلمّا تولى الرّوسيا قيصر يوسف الثاني سنة ألف وسبعمائة وثمان وثمانين م إستخدمهم في حربه مع تركيا ، وقدر عدد اليهود الذين كانوا في جيوش (أوروبا) بنحو ستمائة ألف يخص جيش النمسا وحده منهم نحو ثلاثمائة ألف جندي . نقول : لا شبهة في أن هذا العدد قد تضاعف إبّانَ الحرب العامّة : فإن هذا الاحصاء عمِلَ قبلَ سنينَ كثيرة .

وقد أُضطهد اليهود في ألمانيا طوال القرون الوسطى ، ولا تزال بعض الصنائع ممنوعة إلى اليوم هنالك عن اليهود . أما أسبانيا والبرتغال فقد أوصدت أبوابها في وجوههم ، حتى إلى هذه السنين الأخيرة . ولم تفتح لهم السويد أبوابها إلا منذ سنة ألف وثمانمائة وأربع وخمسين . وقد سمحت لهم إنجلترة بدخول البرلمان منذ نحو خمسين سنة . أما فرنسا فقد إعترفت لهم بالمساواة منذ سنة ألف وسبعمائة وإحدى وتسعين م . وقد وصل فيها اليهود إلى درجات نوّاب عن الأمة ووزراء ايضا . أما في (روما) فإن اليهود كانوا قبل دخول هذه المدينة في حوزة سلطة الملك سنة ألف وثمانمائة وسبعين مضطرين بحكم القوة لسكنى قسم قذر من المدينة يقال له : (الجيتو) . وكانوا يقفلون ابوابه عليهم في الليل ، ويشدون الأبواب بسلاسلَ من الحديد . وحدث أن السلطة الدينية اختطفت ولداً يهودياً في العهد الأخير وربّته على الدّيانة المسيحية رغماً عن أهله وعلى مَرأىً ومَسمعٍ مِن العالَمِ المتمدن الذي اَظهر لذلك غايةَ الدهش .

وكان على اليهودي إن أراد الإنتقال إلى بعض الجهات الرومانية ليمكث بها عشرة أيام أن يأخذ رخصة بذلك من السلطة الكهنوتية ، وكان مُحَرَّماً عليهم هنالك أن يتخذوا كنائس أو أدْيرة ، وأن يتحدثوا مع المسيحيين ، أو يُصاحبوهم ، ومَن خالف كان يحبس مدة لاحد لها . ويغرم خمس ريالات . صدر هذا الأمر سنة ألف وسبعمائة وخمس وستين . أي منذ ثلاث وسبعين سنة فقط .

إنتهى الآن هذا العهد ، ولم يبق من أمم أوروبا على شيء من الكراهة لليهود إلا رومانيا وألمانيا ، فإن لديهما نحو مليون يهودي ، مُكوّنين حقيقة للطبقة النشيطة المتنوّرة من أهلها ، ولكنّها رغماً عن ذلك مُهانة ، ومُضطَهدَة . ومُنِحوا سنةَ ألف وثمانمائة وثمان وخمسين المساواةَ المدنيةَ ، ولكنهم حُرِموا المساواةَ السياسية ، ولكن في سنة ألف وثمانمائة وست وستين ثار الشعب على اليهود حتى اضطرّت فرنسا وإنجلتره إلى التدخل لتسكين الثائرة من طريق السياسة .

هذا ما نقلناه ملخصاً عن دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية ، وهو تأريخ ، كما يراه القارىء ، مُحزِنٌ يُمثلُ القسوةَ الإنسانية والأحقاد الدينية في أفظع صورها . ومما يجبُ أن نلفت إليه نظر القارىء أن المسلمين بين جميع الأمم أعطَوُا اليهودَ الحقوق الإنسانية والحرية الإجتماعية في العهد الذي كانت أرقى دول أوروبا تعامل اليهود معاملة الأفاعي السامّة ، أو الوحوش الضارية . فهل لا يصح هذا المثال الباهر وهو مثال من ألف غيره دليلا على أن المسلمين بطبيعة دينهم وبتعاليم كتابهم أمة منزهة عن الأحقاد الدينية والتعصبات المذهبية ؟ أليس بمثال مدهش أن نجد في تأريخ الأديان أمة شديدة البطش قوية السلطان متماسكة القوى

مغرمة بعقيدتها تعامل الأمم التي تخالفها في الدين معاملة قصرت عنها ورثة الكتب السماوية القديمة وحفظة المدنية الإنسانية العتيقة ؟

أمة بدوية لم يكن لها عهد بنظام ولا تسامح تقوم فتعلم غطارفة الشرائع والحقوق كيف يجب التسامح للأجنبي عن الدين والتوادّ مع المعاشر في الوطن مهما خالفها في العقيدة والنظر . هذا مثال من أبهر الأمثلة على سمو التعاليم الإسلامية وبعدها عن السفاسف والصغريات .

أليس من المدهش أن يرى الناس أوائل المسلمين على هذا الصدر الرحب ، والذرع الواسع ، والكرم الجم ، في معاملة الأجانب عن الدين فينعق في القرن العشرين ناعق بأن الإسلام دين التعصّب الذميم ، وأنّ المسلمين يَحفظونَ بين جوانحهم أشَدَّ درجات الحقد على سواهم من أهل النِّحل الأخرى ؟ هل تَبَدَّلَ الدينُ وكتابُهُ محفوظ الى اليوم ؟ أم المدنية والعلمُ يسممان الفِطرة ويحولان الأخلاق الى الفساد فأصبح المسلمون بعد العبّ مِن مَواردهما إلى الشر أميَلَ منهم الى الخير ؟

يبلغ عدد اليهود في العالم كله نحو عشرة ملايين نسمة أكثرهم في بولونيا ، والنمسا ، وتركيا ، ومراكش .

ولنرجع إلى تفسير الآيات الكريمة أما أجزاؤها فهي أنّ المرادَ بالنعمة ما ذكره الله تعالى في آيات كقوله تعالى : (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يَسُومُونكم سُوءَ العذاب) الآية وقوله تعالى : (ونُريد أن نَمُنّ على الذينَ استُضعِفوا في الأرض فنجعلهم أئِمّةً ونَجعلَهُمُ الوارثين ونُمَكّن لَهم في الأرض ، ونُريَ فِرعونَ وهامانَ وَجُنودَهما منهم ما كانوا يحذرون) وقوله تعالى (وظَلّلنا

عَلَيكم الغمام وَأنزلنا عليكم المن والسّلوى) وقوله تعالى : (وقلنا اضرب بعصاك الحَجَر فانفَجَرَت منه اثنتا عشْرة عَيناً ، قد علم كلُّ أُناس مَشربَهم) وَأهمُّ النعم إنزال الألواح على سيدنا موسى المحتوية على العقائد والأحكام .

والمراد بالعهدين ما في قوله تعالى (لئن أقمتم الصّلوة ، وآتيتم الزكوة ، وَآمنتم برُسُلي وعزرتموهم واقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفّرن عنكم سيّآتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار) فعهد الله تعالى معهم على لسان موسى عليه السلام مِن اوّل القَسَم إلى صدر الجواب ، وعهدهم معه ما في الجواب . ويدخل في قوله تعالى وآمنتم برسلي أنه إذا جاءهم رسولٌ مُصَدِّق لما معهم يؤمنون به وينصرونه . وقوله : فأياي ضمير منصوب منفصل مفعول لفعل مقدر يفسره ما بعده على ما نذكره بعده . وقوله : فارهبون فعل أمر وفاعله ومفعوله ، اعني ضمير المتكلم . والرهبة خوف مع تحرز .

وفي البيضاوي : وهو آكد في إفادة التخصيص من إياك نعبد ، لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط ، كأنه قيل إن كنتم راهبين شيئا فارهبون .

قال الشهاب : قوله : وهو آكدُ في إفادة التخصيص هذا من مسائل الكتاب ، وهو مما اختلفوا فيه واضطربت أقوالهم وها أنا ذاكر لك زبدة ماقالوه : قال سيبويه : الأمر والنهي يختار فيهما النصب في الاسم الذي يُبنى عليه ، كما اختير في باب الإستفهام . ثم قال : وذلك قولك زيداً إضربه ، وزيداً أمرر به . ومثل ذلك أما زيداً فاقتله . فإنك إذا قلت زيد فأضربه لم يستقم أن تحمله على الإبتداء ، ألا ترى أنك لو قلت :

زيد فمنطلق لم يستقم ؟ فإن شئت نصبت على شيء . هذا تفسيره . وإن شئت على تقدير عليك زيداً .

ثم نقل الشهاب من السيرافي شارح الكتاب ما نصه : إذا قدمت الأسمَ وأخرتَ الفعل كنتَ في إدخال الفاء بالخيار ؛ إن شئت اَدْخلتها وهي بمنزلتها في جواب اَمّا ، وإن شئت اَخرجتها وذلك قولك زيداً إضرِبْ وزيداً فاضرب . فإذا قلت : زيداً اضرب فتقديره : اضرب زيداً . وإذا أدخلت الفاء فلأن حكم الأمر أن يكون الفعل فيه مقدّماً ، فلمّا قدّمتَ الإسم أضمرتَ فعلاً وجَعَلتَ الفاءَ جواباً له ، واَعملتَ ما بعدَ الفاء في الإسم عوضاً من الفعل المحذوف . وتقديره : تَأَهّبْ فاضرب زيداً وما اشبه . فلمّا حذفته قدمتَ زيداً ليكون عوضاً عن المحذوف واَعملتَ فيه ما بعد الفاء كما أعملت ما بَعدَ الفاءِ في جواب أَمّا فيما قبلها . فإذا قلت زيداً فاضربه فهو على تقديرين : أحدهما إضرب زيداً فاضربه ، والثاني عليك زيداً فاضربه انتهى .

ثم قال الشهاب : وههنا مباحث : الاول أن (إياي فارهَبونِ) ليس على شريطة التفسير لامتناع توسط الفاء بين الفعل والمفعول ، وما لايعمل لا يفسر عاملاً . ودفعه أن أصله (فايّاي ارهَبونِ) زُحلِقَت الفاء لشغل حيّز الشرط .

الثاني : أنه لا حاجة إلى جعلها جزائية مع ظهور العطف الذي إختاره في المفتاح ، ولا يقدح فيه إجتماعها مع واو العطف ونحوها لأنها لعطف المحذوف على ما قبله ، وهذه الفاء لعطف المذكور على المحذوف . إنتهى أي فيجوز أن يعمل ما بعدها فيما قبلها[1]

(١) ومجمل ما قالوا : ان الفاء زائدة وانه اذا ذكر الضمير فهو من باب الاشتغال ، أو أنها عاطفة على فعل طلبي مقدر متضمن لمعنى الشرط ، كما في اسلم تدخل الجنة .

بقي أنه إذا كان تركيب قوله تعالى (واياي فارهبون) هكذا • فما وجه وجوب الرفع في الإسم السابق في قوله تعالى (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) وامثاله ؟ والجواب من وجهين :

الاول : أن الفاء مرتبطة بشرط مقدر تقديره : إن زنت المرأة وزنى الرجل فالحكم أن يقال لكم فاجلدوهما ، مائة جلدة • وما بعد فاء الجزاء لا يعمل في ما قبله •

والثاني أن الآية في حكم جملتين مستقلتين ولايعمل عامل في جملة مستقلة في اسم في جملة مستقلة أخرى •

وأما قوله تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر ، واما السائل فلا تنهر) فالاسم واقع في حيز الشرط ومنصوب بفعل شرط مقدر تقديره : متى لقيت يتيما فلا تقهره • ومتى وجدت سائلاً فلا تنهره • فليس الإسم فيهما معمولاً لما بعدهما • وأما نحو (وربّك فكبرو ثيابك فطهر) فالجواب أن الفاء دخلت في الكلام على توهم شرط او تقديره فيه • وهو قريب من قول النحاة : (زيداً فاضرب) قالوا تقديره : تنبّه فاضرب زيداً ، فالفاء في جواب الأمر المضمّن معنى الشرط أو في جواب شرط محذوف ، أي فليس معمولاً لما بعدها • ويجوز القول بأن نصب اليتيم والسائل بما بعدهما لأن موقع الفاء قبلهما لكنها أخرت لئلا يجتمع كلمة أما الشرطية مع فاء الجزاء • افاده المحقق السيالكوتي في حاشيته على الحواشي الغفورية •

وقوله (ولا تكونوا اول كافر به) نوقش أن بني إسرائيل لم يكونوا أول كافر بالقرآن فما وجه هذا النهي ؟ وأجيب بأن المراد به وكونوا أول المؤمنين به لأنكم علمتم من كتابكم انّ هذا الرسول هوَ الرسول الموعود

به • أو المراد : لا تكونوا أول كافر به بَين َ اهلِ الكتاب • وقوله (ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) أي لا تستبدلوا الإيمان والعلم الموجود عندكم برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالكفر به والمعاندة معه لأجل ثمن بخس من الهدايا والرّشايا وسائر الدنايا من حظوظ الدنيا •

وفي الآيات إستعارة بالكناية والإشتراء قرينة ، وقوله (وإياي فاتقون) مثل نظيره تركيباً (والتقوى) الإحتراز من كل أمر غير مشروع • والباء في قوله تعالى بالباطل إما للصلة أي لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل الذي تخترعونه حتى لايتميّز بينهما أو للإستعانة أي لا تجعلوا الحق ملتبساً ومختفياً على الناس بسبب خلط الباطل الذي تذكرونه في تأويله • والحق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو القرآن أو دين الإسلام والباطل معلوم تقابلا • وأنتم تعلمون أي بالحق الأبلج مع انكم تكتمونه ، او بكتمانكم لذلك الحق ، أو أنتم من أهل العلم ولا يناسبه نكران الحق وكتمانه•والمراد بالصلاةالصلاة المشروعةفي دينالإسلام•والمراد بالزكوةذلك الركن النافع للأنام • وبالركوع الخضوع للحق مع الخاضعين المسلمين ، او الركوع في الصلوة مع سائر آدابها أي لا تصلّوا كاليهود بلا ركوع • أو المراد صلّوا بالجماعة لا منفردين •

وحاصل تفسير الآيات : يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعَمت بها عليكم خلفاً عن سلف بالعلم والمال والجاه والشرف ، جعلنا أباكم إسرائيل رسولاً من رسول من رسول • ونجيناكم من فرعون وأعوانه وظلمه وعدوانه ، فأغرقناهم وعبّرناكم من النيل ، وشرّفناكم بمصابيح النور بالتوراة والزبور • وظلّلنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المَن والسلوى ، وفجرنا لكم من الصّخرة الصماء إثنتي عشرة عيناً بعدد الأسباط ، قد علم كل أناس مشربهم للإمتياز بلا إختلاط ، وأخرجناكم من

مصاعب التّيهِ ، ومكّنّاكم من الأرض المقدسة والمسجد الأقصى وفيها نِعَم" لاتُعد ولا تحصى ، وعاهدناكم على لسانِ رسولي وكليمي موسى المسعود بالإيمان بحبيبي محمد صاحب المقام المحمود ، فها قد أتاكم وبَلَغتم مُناكم ، فأوفوا بعهدي وأشرف العهود ، أوفِ بعهدكم مِن النّيل بالسعادة الى أقصى الحدود ، وإياي فارهبون ، وكونوا أوّل المؤمنين به ولا تكونوا من الكافرين ، ولا تستبدلوا بآياتي البينات ثمناً قليلاً من دنايا الدنيا فتكونوا من الخاسرين • وإياي فاتقون ، ولا تخلطوا الحق المنزل في التوراة من أوصاف حبيبي محمد الجليل بالباطل من الكلام المزيف وفاسد التأويل ، ولاتكتموا الحق باللف والدوران والتهويل ، وأقيموا الصّلاة مع المسلمين ، وآتوا الزكاة للمستحقين ، وأطيعوا الله مع المطيعين •

وفي تفسير القرطبي : وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول من فَعل فِعلهم ؛ فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله أو امتنع من تعليم ما وجب عليه ، أو أداء ما علمه وقد تعين عليه حق حتى يأخذ عليه أجراً فقد دخل في مقتضى الآية والله أعلم •

وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعِلم لهذه الآية وما كان في معناها : فمنع ذلك الزهريّ وأصحاب الرأي ، وقالوا : لايجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ؛ لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نية التقرب والاخلاص ، فلا تؤخذ عليه أجرة كالصلاة والصيام • وقد قال تعالى : (ولاتشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) • ثم روى في الموضوع أحاديث شريفة عن جمع من الأصحاب ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين •

وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك ، والشافعي ، وأحمد وابو ثور ، وأكثر العلماء لقوله عليه السلام : في حديث ابن عباس حديث الرّقية (إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله) أخرجه البخاري • وهو نصّ يرفع الخلاف فينبغي أن يعوّل عليه •

وأما ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد ؛ لأنه في مقابلة النص ، ثم إن بينهما فرقاناً • وهو أن الصوم والصلوة عبادات مختصة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدّية لغير المعلّم فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن • وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة •

وأما الجواب عن الآية فالمراد بها بنو إسرائيل ، وشرع مَن قبلنا هل هو شرع لنا ؟ فيه خلاف • ولنا جواب ثان وهو أن تكون الآية في من تعين عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجراً ، فأما إذا لم يتعين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة في ذلك • وقد يتعين عليه وليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم • وله أن يقبل على صنعته وحرفته • وأما الأحاديث فليس شيىء منها يقوم على ساق ، ولايصح منها شيىء عند أهل العلم بالنقل •

واختلف العلماء في حكم المصلّي بأجرة : فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من استؤجر في رمضان يقوم للناس فقال أرجو أن لايكون به بأس ، وهو أشد كراهة له في الفرض •

وقال الشافعي وأصحابه ، وأبو ثور : لا بأس بذلك ، ولا بالصلاة خلفه •

وقال الأوزاعي : لا صلاة له • وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ، على ما تقدم •

قلت : وجوّز الشافعية أخذ الأجرة على قراءة القرآن الكريم ، وإهداء مثل ثوابها إلى من يقرأ له بشرط النية له أوّل القراءة وإهداء الثواب له أخيراً • وإن شئت فراجع تحفة الشيخ ابن حجر الهيثمي في كتاب الإجارة • والله اعلم •

(أتَأمرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وَأنْتم تَتْلُونَ الكِتَابَ أفَلا تَعْقِلونَ ؟ (٤٤) وَاسْتَعِينوا بالصَّبْرِ وَالصَّلوةِ وإنَّها لَكَبِيرَةٌ إلاّ عَلَى الخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظنُّونَ أنَّهُمْ ملاقُوا رَبِّهِمْ وَأنَّهُمْ إليه رَاجِعُونَ)(٤٦)

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها نزلت في أحبار المدينة ؛ كانوا يأمرون سِرّاً مَن نَصَحُوه باتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يتبعونه بأنفسهم •

والإستفهام في أتامرون للتقرير مع توبيخ وتعجيب ، يعني أنّ شأنكم ذلك ، ولكنه شين وفيه تعجّب ؛ لأن العاقل إذا أمَر ببرٍّ فالأولى له أن يعمل به بنفسه أوّلاً • والبر : التوسّع في الخير ويتناول كل خير • البر بالنفس بعبادة الله تعالى وحده ، والبر مع الأقارب بصلتهم ، والبر بالأجانب بقدر الإمكان • ومعنى نسيان النفس جعلها منسية غير مَرعيّة فكأنّها لا توجد •

وقوله وأنتم تتلون الكتاب جملة حالية جيء بها للتقريع لا للتقييد ؛ لأن أمر الناس بالبر ونسيان النفس قبيح مطلقاً في حال تلاوة الكتاب وغيرها • ولكنه في تلك الحال أفظع ، لأنّ شأن التالين أن يكونوا عالين

عالمين عاملين . والمراد بالكتاب التوراة وفيها وعيد الوعاظ اللامتعظين .

والعقل : صفة غريزية للإنسان يتبعها العلم بالبديهيات بلا دليل وبالنظريات به . والآية الكريمة تعلن سوء صنيع من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه ؛ لأنه يخسر نفسه حيث أهمل حظه ويخسر الناس بتوجيه التهمة إليه . وفي الواقع إن عدم تأثير النصائح يعود إلى سوء القدوة أي إلى إهمال القادة أنفسهم في تطبيق ما يأمرون به وترك ماينهون عنه ، ولذلك عدّ من مفسدات العوائل إهمال عمدائها لواجب التطبيق ؛ فإن الوالدين الصادقين قلّ مايكذب أولادهما . والقادة الأوفياء بالوعود والعهود يتربى على أيديهم جيل جليل من الناس الأفاضل أولي الطباع المرضية والأخلاق الزكية .

وليس في الآية الكريمة منع الفساق من الوعظ والإرشاد ؛ لأن الإرشاد واجب وعمل الإنسان بما يرشد إليه واجب آخر ، وترك أحد الواجبين لايقتضي ترك الآخر . وقوله واستعينوا مربوط بسابقه ، ومعناه أنكم أذا شقّ عليكم تطبيق الواجبات فاستعينوا على ذلك التطبيق بالصبر وحبس النفس على التعب في ما تطيقونه فإن الصبر تدريب والتدريب تهذيب للنفس بحيث تتحول إلى أن تعدّ مارأته محنة كمنحة ، والصلاة معراج النفس إلى القدس وتنوير للقلب وتقوية للقالب ، وبذلك يقدر انسان على السلوك في المسالك وصيانة نفسه عن المهالك ، والضمير في قوله (وإنها) راجع إلى الإستعانة المأخوذة يعني أن الإستعانة بالصبر والصلاة كما مرّ كبيرة شاقة إلاّ على المسلمين الذين يظنون أي يتوقعون أو يتيقنون أنهم سوف يلقون ربهم للحساب والميزان ، وأنهم إليه تعالى

راجعون للأمر بدخول النار أو جنة الأبرار . جعلنا الله تعالى من المرشدين المسترشدين وثبّتنا على الاستقامة في الدين .

(يا بَني إسرائيلَ اذْكُروا نِعْمَتيَ الّتي أنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأنّي فَضَّلْتُكُمْ عَلى العالَمينَ (٤٧) واتَّقوا يَوْماً لاتَجْزي نَفْسٌ عَنْ نفسٍ شَيْئاً ، ولا يُقْبَلُ مِنْها شفاعَةٌ ، ولايُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ ولا هُمْ يُنْصَرونَ (٤٨) وإذْ نَجَّيْناكُمْ مِن آلِ فِرْعَوْنَ يَسومونَكُمْ سوءَ العَذابِ يُذَبِّحونَ أبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيونَ نِساءَكُمْ وَفي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظيمٌ . وإذْ فَرَقْنا بكُمُ البحرَ فأنْجَيْناكُمْ وَأغْرَقْنا آلَ فِرعَوْنَ وَأنْتُمْ تَنظُرونَ) (٥٠)

قوله تعالى : يا بني إسرائيل : كرر لهم النداء للتأكيد ولزيادة نعمة التفضيل الذي هو أجَلّ النعم لدلالته على اختصاصهم بمزيد قرب من الله بسبب الإيمان والأعمال الصالحة .

وقوله تعالى فضلتكم المراد بالمفضلين الموجودون في عصر موسى وقبله وبعده ممن لم ينحرفوا . وقوله على العالمين : المراد أهل زمانهم لا مطلقاً حتى لا يتعارض مع قوله تعالى إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين فإنه لو أُريد الإطلاق لزم أن تكون أهل تلك الطبقات فاضلين ومفضولين . وقوله تعالى واتقوا يوماً : أي مايجري فيه من الحساب والعذاب وقوله تجزي صفة لليوم والعائد محذوف ، أي فيه . ثم إن كان تجزى معتل اللام كان بمعنى يقضي ومتعديا بنفسه ،

فيكون شيئا مفعولاً به • أي لاتقضي شيئاً من حقوقها • أو مفعولاً مطلقاً قائماً مقام المصدر • أي لا تقضي قضاءً أي شيء كان من الجزاء •

وإن كان مهموزاً كان من باب الإفعال ، وبمعنى يُغني • وشيئا مفعولاً مطلقاً • أي لاتغني عن نفس شيئاً من الإغناء •

وقوله تعالى : ولايقبل منها أي من النفس الأولى التي ذهبت لتعمل نافعا للثانية ، أو من النفس الثانية التي حاولت بالتشبث لاستفادة شيء • ونفع النفس عن النفس إما بالقوّة وهي النصر ، أو بالمروة ، فإن كانت بصرف المال فهو العدل أي معادل ما على النفس من الحقوق • وإن كان بالتضرع والإبتهال فهو الشفاعة • يعني بذلك نفي كل ما يتصور منه نفع لها • ثم المراد بالنفس هي الكافرة لقوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين ، وقوله حكاية عنها : ما لنا من شافعين لا يراد به النفوس المؤمنة لأن الله تعالى أخبر بنفع الشفاعة لهم بإذنه في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه • وقوله تعالى لاتغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى • وقوله تعالى: يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولاً • وثبت في أخبار كثيرة ثبوت الشفاعة ونفعها يوم القيامة •

وقوله (آل فرعون) أصل آل أهل بدليل تصغيره على أُهَيل • ويختص بالإضافة إلى أولى الأخطار من أهل الدنيا والدين •

وفرعون لقب به ملوك الأقباط كقيصر للروم وكسرى للفرس • ولما اشتهر بالظلم والعتو أشتق منه تفرعن ، يقال : تفرعن الرجل إذا طغى وتكبر على الناس ، والفراعنة قيل : إنهم من بقايا قوم عاد ومن نسل عمليق بن سام بن نوح عليه السلام • وفرعون زمان موسى عليه السلام مصعب او

وليد بن مصعب ، وفرعون عصر يوسف عليه السلام ريان ، وبينهما أكثر من أربعمائة سنة والله أعلم •

(يسومونكم سوء العذاب) أي يعذّبونكم أشدّ العذاب والجملة حال من مفعول نجّيناكم ، ومن آل فرعون إذ فيها ضمير كل منهما (يذبّحون أبناءَكم ويَستحيون نساءكم) بيان لما قبله • والسبب أن الكهنة قالوا لفرعون : سيولد من بني إسرائيل من يذهب بملككم فأمر بذبح أبنائهم واستحياء بناتهم قطعاً للنسل الذكور ، ولم ينفعه لأنه لا مرد لقضائه تعالى • (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) محنة لدنياكم ومنحة لآخرتكم فوق العادة في الناس • (وإذ فرقنا بكم البحر) فَصَلنا بعضَه عَن بعض حتى يمكن العبور بين القسمين للأسباط الأثني عشر فأنجيناكم من فرعونَ وجيشه والغرقِ في النيل وأغرقنا فيه آل فرعون ونفسه أمامَهم (وأنتم تنظرون) إلى غرقهم بإطباق البحر عليهم • بين الباري تعالى ذلك في آياتٍ أخرى فقال : فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلَق فكان كلّ فِرق كالطَّود العظيم • وقال : ولقد أوحينا الى موسى أن اَسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يَبَساً • وقال : فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال : كلاّ إنّ معي ربّي سَيَهدين • فأوحينا إلى موسى أنِ اضرب بعَصاك البَحرَ فانْفلَق فكانَ كلّ فِرْقٍ كالطَّود العظيم ، ثم أَزْلَفْنا الأخرين وَأنجينا موْسى وَمَن مَعه أجمَعين ، ثم اَغْرَقْنا الآخرين • وقال واترك البحر رَهْوا إنهم جند مغرقون ، وقوله : رَهوا أي ساكناً ثابتاً على حال إنفلاقه حتى يدخل فيه فرعون وأتباعه •

وهذه الآيات تبين الحادثة وحاصلها : أنه لما ظهر أمر موسى وخاف فرعون من مستقبل الأمر عزم على أن يسطو على بني إسرائيل بجنوده فيبيدهم مِن بَكرةِ أبيهم ، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن أسرِ بعبادي لَيلاً واعبُر من النيل حتى تخلَصوا من شر فرعون وجنوده ، فأمرَهُم موسى بالإستعداد للخروج فخرجُوا باللّيل حتى وَصَلوا إلى حافة نيل ، فعلم فرعونُ بخروجهم فتبعهم بجنوده لإبادتهم ، فلما اقتربوا من النيل وتراءى الجمعان تخوّف الإسرائيليون وقالوا لموسى : إنا لمدركون ونهلك ، فهدّأ عليه السلام قلوبَهم ، وقال : كلاّ إن معيَ ربي سيهدينِ طريقَ الخلاص . فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بِعصاك البَحْر فَضَربهُ بها فصارَ فِرقين كل فرق كجبل عال عظيم ، وصار بينهما طريقٌ إعتياديّ للعبور فسلكه موسى ومن معه وخلصوا . ولما وصل فرعون وأتباعه النيلَ وكان باقياً على حاله دخلوا النيل كذلك ليَصلوا بني إسرائيل ويستأصلوهم . لكنه إنطبق عليهم النيل وهلكوا بالموت الوبيل ، ولله الأمر من قبل ومن بعد وعند ذلك إستبشر المؤمنون . وهذه الحادثة كانت معجزة عالمية إندهشت منها قلوبُ العالِمين في العالَمين . وشبهة الجزر والمد تجري على ألسنة الجاهلين لأنهما إنخفاض وإرتفاع وقتي مع بقاء الماء الكثير في البحر كما كان . فأين ذلك مما حدث هنالك ؟

(وإذ وَاعَدْنا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) أي : واذكروا نعمة مواعدتنا لموسى بتَفرّغه لعبادتي ومناجاتي مدةَ أربعين ليلة أوّلاً ذا القعدة وثانيا عشراً اوّلَ مِن ذى الحجة . فالمواعدة على بابه قرر الله عليه بقاءه المدةَ المذكورة وتقبّل موسى ذلك . فهي من طرف الباري تعالى فِعْلٌ وهو فَرضُ البقاء عليه ، ومن طَرَف سيدنا موسى إلتزامٌ . وقَولٌ بالقبول على غِرار قول الطبيب : عالجت المريض أي : أعطيته الدواء ، والتزم

الإستعمال . وأربعين مفعول به على تقدير المضاف أي : تفرّغ أربعين ليلة في الطور ، وجعل الباري سبحانه وتعالى ذلك التفرغ شرطاً لإنزال الكتاب عليه ، وتلك المواعَدة كانت بعد خروجه مع بني إسرائيل من مصر وعبوره من النيل . وقول البيضاوي : لما عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وعد الله موسى أن يعطيه التوراة .. غير منقول نقلاً صحيحاً . ويعارضه أنّه بقي من الأقباط في مصر عدد هائل من أعداء بني إسرائيل فما كانوا متمكنين من العودة إليه والبقاء فيه ولم يذكر أحد من المؤرخين أنهم دخلوا مصر بعد خروجهم منها كما أفاده الشهاب[1] . وذلك أنه لما جاوز ببني إسرائيل البحر مرّوا على قوم يعبدون الأصنام فقال بنوا إسرائيل لموسى : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ! قال : إنكم قوم تجهلون . وقولهم ذلك كان عن بعض من الشباب المنطبعين بأحوال الأقباط وغفلتهم عن الباري تعالى ، وكذلك شأن كل جيل جديد من الأمة فإنهم لايعرفون إلا البيئة التي عاشوا فيها ، وليس عندهم تمكّن من معرفة الدين لاسيما إذا نشأوا في إضطهاد واضطرّوا لمداراة القوة الموجودة . وعند ذلك سأل أهل المعرفة منهم موسى عليه السلام : أن يأتيهم بكتاب من الله يحتوي على العقائد والأحكام حتى يتربى الجيل عليه ، فطلب موسى ذلك من الله تعالى فقال له : إصعد إلى الطور مع أناس مختارين من قومك وتفرغ هناك ثلاثين يوما للصيام والعبادة . فالتزمه ، واختار من قومه سبعين رجلاً ، ولما وصل المقام زاد الله تعالى عشرة ليال اخر فصارت المدة أربعين ليلة .

---

(١) وقال ابن جرير : ان الله أورثهم أرضهم ولم يردهم اليها ، وانما جعل مسكنهم الشام .

وعند ذهابه إلى الطور استخلف أخاهُ هارون على قومه ، ولما كان الميقات أولاً ثلاثين يوماً وزاد الله تعالى عليه عشرة أيام ، ولم يعرف القوم بها إستطالوا بقاء موسى في الطور حتى توهموا وفاته ، فاستغل موسى السامري الإسرائيلي الصائغُ هذه الفرصةَ ، وكان منافقاً في الدين فخدع الإسرائيليين والإسرائيليات ، وأخذ منهم مقداراً من حلي الأقباط الموجودة عندهم عارية ، فأذابها وسبكها في قالب على هيئة العجل فحصل عجل صناعي عجيب ، وقال للإسرائيليين من النشوء الجديد : هذا إلهكم وإله موسى ! فقبلوا منه الأمر وعكفوا عليه وعبدوه . حتى يقال : إنه لم يبق من الإسرائيليين على الدين الصحيح إلا هارون وإثنا عشر ألفاً منهم ، وصاروا من المشركين كما قال تعالى :

(ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِن بَعْدِهِ) أي من بعد موسى .

(وأنْتُمْ ظَالِمُونَ)(٥١) أي على أنفسكم بهذا الإشراك .

وكان لذلك العجل خوار وحركات . فمن العلماء من يقول : إنه كان عجلاً له حياة حقيقية لأن السامري ذرَّ عليه عند الصياغة مقداراً من التراب الذي أخذه من موطيء حوافر فرس جبريل ، فخلق الله فيه الحياة ولا إستحالة في ذلك ويكون بالنسبة إلى السامري فتنة واستدراجاً . وهذا رأي الحسن .

وأما الجمهور فقالوا : لم تكن فيه الحياة وإنما كان على شكل العجل ، وكان خواره من دقة صناعة السامري حيث جَعَل في رأسه منافذ تفتح وتصوّت كأصوات السّاعات الصناعية .

وأما ما حكاه الباري سبحانه من كلام السامري في معذرته لموسى عليه السلام : (فَقبضتُ قبضةً من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت

لي نفسي) •• يعني أنه لما خرج الإسرائيليون من مصر رأى السامري على دعواه خيّالاً على فرس كلّما وَضَعَ الحوافرَ على محلّ ورفعها أخضرّ وظهر فيه نبات ، فتفرس السامري أن الخيال جبريل ، وأنّ هذا الأثر من قدسيته ، فقَبَض قَبضَةً مِن التراب الواقع تحت حوافر فرسه ، ولما صاغ العجل ذَرّ من ذلك التراب مقداراً على فم العجل فظهرت فيه الحياة بأمر الله تعالى • فلم يذكره الباري سبحانه وتعالى على سبيل التقدير ، وإنما حكاه عن السامري في الإعتذار لموسى عليه السلام ، والإعتبار بالتقدير والعناية لا بالنقل والحكاية • فإن الله تعالى حكى عن الشيطان قوله : (انا خير منه) أي من آدم مع أن الشيطان شقي مطرود وَآدم نبيّ مسعود •وفي الواقع إن السامري لم ير الخيّال ولا الفرس، ولا أخذ التراب تحت قدميه وكان كلامه كلّه كذباً ، وأراد به التلبيس على موسى عليه السلام ، فلم يذكر أن الصوت كان من أثر أعمالي الصناعية بَل ذكر ما حكاه الله تعالى عنه حتى يشتبه موسى ويقبل منه عذره وأنّى له ذلك ؟ فإنّ أصحاب الإنتباه بعيدون من الإشتباه •

قلت : ويؤيّد رأي الجمهور ماذكره الباري تعالى من قوله (جسداً له خوار) بدلاً عن العجل والبدل هو المقصود بالنسبة ، وذلك شاهد صدق على أن العجل المصنوع لم يكن عجلاً ، وإنما كان شيئا على صورته •

فائدة : الإتخاذ يجيء بمعنى إبتداء صنعة فيتعدى إلي مفعول واحد نحو : إتخذت سيفاً أي صَنعته ، وبمعنى إتخاذ وصف فيجري مجرى الجعل ، ويتعدى لاثنين نحو : إتخذت زيداً صديقاً • والظاهر هنا المعنى الثاني ؛ لأن السامري خدعهم ليعبدوه ولاسيما لما مَرّوا على قوم يعبدون الأصنام وكان صنمهم على شكل البقرة ظن أن فيهم محبة عبادتها فأراد

السامري أن يعبدوه ، فالمفعول الثاني محذوف لبشاعة ذكر الإله مع العجل . وتقدير الآية ثم اتخذتم العجل إلهاً . ويدل عليه قوله تعالى في سورة طه فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ، فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسي .

(ثم عَفَوْنا عَنكم مِنْ بَعْدِ ذلك لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) يعني ثم . عفونا عنكم برحمتنا إرتكابَ ذلك الظلم بعد توبتكم عنه رجاء أن تشكروا نعمةَ عفوه بتوحيده . وعفا بمعنى درس ، يأتي لازماً نحو عَفَتِ الدارُ ، ومتعدياً نحو عفاها الرّيح .

قال ذو النون : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان .

(وَإِذ آتَيْنَا مُوسى الْكِتابَ وَالفُرقانَ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ) (٥٣) أي واذكروا نعمتنا عليكم إذ آتينا موسى كتاب التوراة الجامع للأحكام والفارق بين الحق والباطل ، أو المعجزات الفارقة بين أهل الرسالة وأصحاب السحر والضلالة ، كالعصا واليد البيضاء لعلكم تهتدون بتدبر الكتاب الحاوي للآيات والإتعاظ بالمعجزات .

(واذ قال مُوسى لِقَوْمِهِ : ياقَومِ إنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ باتِّخاذِكُمُ العِجْلَ ، فَتُوبُوا إلى بارِئِكُمْ فاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِندَ بارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ)(٥٤)

يعني واذكروا نعمة إرشاد الباري لكم إلى طريق العفو إذ رجع موسى من الطور غضبان ، واطّلعَ على ما اقترفتموه ، فرجع إلى الحالة المناسبة لجلالة الرسالة ، وقال : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم

باتخاذكم العجلَ إلهاً بعدما أدركتموه من آثار عظمة الباري الموجبة لعبادته وتوحيده ، فاعزموا على التوبة والرجوع إليه بقتل أنفسكم ، ذلكم القتل خير لكم عند باريكم لأنه يعلم مراتب التائبين وعواقب الخائبين ، فتبتم وتاب الله عليكم ، لأنه هو التواب للمذنبين والرحيم للمسترحمين .

روي أنه لما أخذ موسى الألواح في الطور وأخبره تعالى بأن السامري أضلَّ قومَه رجع إليهم غضبان وأخذ يعاتب أخاه هارون ويأخذ لحيته ويَجُرُّ رأسَه إليه ، فاعتذر إليه أخوه هارون وتبين أنه لا عتب عليه ، وإنما الفساد والإفساد من السامري الضال ، ومن القوم الجهال . وحرَّقَ العجل وذرَّه في اليمِّ ، ودعا على السامري وابتلى بما ابتلي به ، عاد إلى حالته الطبيعية فنصح قومه حسب إيحاء الباري تعالى اليه .

وقال : ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتباع النفس وهواها ، واتخاذكم العجل إلهاً ووجبت عليكم التوبة ، وهي بقتلكم أنفسكم حداً لها على تلك الجريمة النكراء ، فدخلوا ساحة فأتت عليهم ضبابة سوداء فقتل بعضهم بعضا ، وبذلك برأوا من الذنب ، فإنّ الحد يدفع الذنبَ ، وماتوا شهداء .

وقيل : إن المراد بالقتل رياضة النفس وإتعابها بالدوام على الصيام وتقليل الطعام إلى أن تتزكى وتتوب إلى ربّها ، فأطاعوه فيما أمرهم به ، وخلصوا عن عقوبة ما أقدموا عليه . والله أعلم بحقيقة الحال .

فائدتان : الأولى : في الكشاف في تفسير البارىء : هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت ، (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) ومتميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة . وفي البيضاوي : وأصل التركيب لخلوص الشيىء عن غيره إما على سبيل التقصي كقولهم :

بريء المريض من مرضه ، والمديون من دينه • أو الإنشاء كقولهم : برأ الله آدم من الطين •

الثانية : الظاهر أن تعيين الحد للمرتد بقتل النفس من الآصار والأثقال التي كانت في دين التوراة ، ولو كان المرتد يتوب • وأما شريعة القرآن أنه لا حدّ عليه إذا تاب ويقتله الحاكم إذا أصرّ • فلله الحمد والمنة •

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ : يا موسى لَنْ نُؤْمِنَ لك حَتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ • ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تشْكُرُونَ ﴾(٥٦) والقائلون هم الجمع الذي إختارهم موسى عليه السلام ليذهب بهم إلى الطور للإعتذار عن سوء أعمال عُبّادِ العجل وبيان أنهم قَتَلوا أنفُسَهُم إمتثالاً لأمر الله تعالى والمعنى واذكروا نِعمةَ البَعْث بعد الإماتة إذ ذهبتم مع موسى إلى الطور للإعتذار ، وسمعتم كلامه تعالى معه آمراً وناهياً ، فظننتم أن موسى رأى ربه في ذلك اللقاء واغتررتم بأنفسكم ، وطَلَبْتم رؤيتَه تعالى كما رآه موسى ، فقلتم : لن نؤمن لك أن المتكلم معك هو الله تعالى حتى نرى الله جهرة وعياناً ، فعاقبكم ربكم على ما صدر منكم ، فأخَذَتْكُمُ الصاعقة بأمره لقهره عليكم لما فرّطتم وأنتم تنظرون بَريقَ الصاعقة عند نزولها • فأماتكم الله بها وَبقيتم مدّةً ، ثم بعثناكم بعد موتكم بدعاء موسى لعلكم تشكرون •

روي أن سيدنا موسى ، بعد قتل الإسرائيليين المشركين أنفسهم ، ذهب إلى الطور واختار من القوم سبعين رجلاً لتقديم الإعتذار وشكر الباري تعالى على نزول التوبة والإستيناس بمناجاة موسى وكلامه تعالى معه ، فلمّا وَصَلوا إلى الطور غَشِيت موسى ضبابة وَسمِعوا كلام موسى مع ذات الحق سبحانه وكلامَه

معه . فقالوا ما قالوه . وذلك إما لاعتقادهم أن موسى رآه واغترارهم بأنفسهم وأنهم مثله ولابد من رؤية الباري كما رآه موسى ، أو جهالة وغباوة حيث وقعوا في الشك وزعموا أن المتكلم مع موسى غيره تعالى وعلى كلا الأمرين عاقبهم الله بصاعقة نزلت عليهم وأماتتهم ، وبعد يومين من الحادثة بعثهم الله كما كانوا على تضرّع موسى وابتهاله إلى الله ، وقيل : القائلون هم السبعون الذين ذهبوا مع موسى إلى الطور لأخذ الكتاب ، وقيل : غيرهم من بني إسرائيل . وقالوا ذلك لما نزل موسى بالألواح وذكر لهم أن هذه الألواح نزلت من الله شرعة ومنهاجا لكم . فقالوا : لن نؤمن بأن هذا كتاب الله حتى نراه جهرة ، فأخذتهم الصاعقة وماتوا ثم بعثهم الله بفضله ورحمته .

وكلا القولين غير موجه لقوله تعالى في سورة الأعراف :

(واخْتَارَ موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رجلاً لميقاتنا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ : رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وإيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بما فَعَلَ السُّفهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ تضل بها مَنْ تشاء وتَهدي من تشاء أنتَ وليُّنَا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خيرُ الغافِرِينَ) .

فإنّ الآية الكريمة تنادي بأنّ القائلين هُمُ السّبعونَ المختارون للذهاب إلى الطور في الميعاد للإعتذار عما جرَى من الفساد ، وتقديم الشكر على نعمة عفوه عن العباد . وأن موسى تخوّف إستحياءً من قول الناس أنه بعد قتل الناس توبة قتل الناس المختارين توبةً اخرى ، فتقبّل الله تعالى دُعاءَه ، ولبّى نداءَه برحمته فإنّه أرحم الراحمين . فالميقات أول الآية هنا ليست ميقات أخذ الألواح بل ميقات الميعاد للإعتذار إلى خالق الاشباح والأرواح .

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ مارَزَقْناكُمْ ، وما ظَلَمُونَا وَلكِنْ كانُوا أَنفُسَهُمْ يَظلِمُونَ)(٥٧)

هنا نعمتان أُخريان من نعم الله تعالى على بني إسرائيل في التّيه بين مصر والشام وهما : تظليل الغمام عليهم لتبريد الهواء ، وإنزال المنّ والسلوى عليهم من السّماء للتنعم بهما • وذلك أنه لما خرجت بنو إسرائيل من مصر وعبروا النيل أمرهم موسى عليهم بدخول الأرض المقدسة عندهم ، أعنى بلاد أردن وفلسطين وما والاهما التي سكن فيها العمالقة الجبارون ، وأن يحاربوهم ويخرجوهم وَيَسكنوا أماكنهم ويتنعموا فيها كما يشاؤن ، فقالوا : لا علم لنا بتلك الديار ، فبعث موسى بأمر الله تعالى إثني عشر نقيباً مِن كل سبطٍ رَجُلٌ شريف يتحسسون الأخبار ، فذهبوا إليها ورأوا سكّانها الجبّارين من العمالقة فرجعوا وقرّروا بينهم : أن لا يُخبروا بني إسرائيل بشوكة العمالقة حتى لا تنفسخ عزائمهم على الجهاد ، ويتوكلوا على الله لعلّهم يُنصرون • فسار جيش بني إسرائيل حتى اقترب الديار ، وعِند ذلك أفشى إخبار قوتهم النقباء ما عدا رجلين منهم هما : (يوشع ، وكالب) فتندّم الإسرائيليون من الجهاد ، ورجعوا إلى محلّهم ، ولم ينفع إلحاح موسى على الجهاد ، فعاقبهم الله تعالى بأن يبقوا في التيه ، وهي صحراء بين مصر والبلاد[1] المقدسة مدة أربعين سنة ، ثم مات هارون وموسى (عليهما السلام) في التيه • وبعد ذلك بمدة قليلة فتح يوشع إبن

---

(١) وهي الارض الممتدة على ساحل البحر الاحمر من بيداء فلسطين مما يلي حدود مصر ، وفيها كان الاستسقاء •

نون وهو إبن أخت موسى وأحد أنبياء بني إسرائيل بلدة أريحاء ، ثم بيت المقدس ، وسكن الإسرائيليون هناك .

ولما عاقبهم الله تعالى بالبقاء في التيه من حرارة الشمس وقلة النفقة شكوا ذلك الى موسى عليه السلام ، فدعا ربه بإغاثة قومه فاستجاب دعاءه ، فكان تظللهم بعد ذلك غمامة في اليوم الحار بحيث لا يتأذون ، وأنزل عليهم المن أي الترنجبين (معرب ترانگبين) أي العسل الرطب المائي . وينزل عليهم كل يوم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فيأخذ كل بيت كفاية يوم ، إلا يوم الجمعة فيأخذ كفاية يومين لتفرغهم يوم السبت للعبادة ، وأنزل عليهم السلوى وهو طير أصغر من الحمامة وأكبر من العصفور لاتقدر على طيران زائد ، كانت تأتي به الريح الجنوبي فيأخذون منه مايكفيهم ، ولكنهم خالفوا الحدود المقررة في المقدار فرفعها الله بعد ذلك .

وحاصل معنى الآية : أذكروا أنا ظلّلنا الغمام على رؤوس أسلافكم بالتّيه لدفع الحرارة عنهم في اليوم الحارّ ، وأنزلنا عليهم مِنَ السماءِ مَنَّ السماء كالعسل المائي لشربها وَحدْها ، أو لتحلية الأطعمة بها ، وانزلنا عليهم السلوى لحما طريّا شهيّا . وقررنا لكم حدودا في مقدار المأخوذ فخالفوا أمرنا وما ظلمونا بتلك المخالفة لأن ساحة الكبرياء ساحة الإستغناء ، ولكن كانوا سابقاً هم يظلمون أنفسهم بحرمانها من مزيد الثواب وحسن المآب .

(وَإِذْ قُلْنَا : ادخُلُوا هذهِ القَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً ، وقُولُوا : حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ المحْسنين)(٥٨)

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)(٥٩)

والمعنى أذكروا لبني إسرائيل على لسان يوشع بعد وفاة موسى في التّيه أدخلوا مدينة القدس فاتحين مستولين ، واسكنوا بها وكلوا من أرزاقها حيث شئتم أكلاً واسعاً مترفهاً ، وإذا فتحتموها فادخلوا الباب أي باب بيت المقدس أيّا كان ، أو أحد الأبواب المعهود عندكم ، وهو المسمى الآن (باب حطة) ساجدين لله شاكرين له على نعمة الفتح .

وقولوا : يا ربنا مقصودنا حطّة وسقوط لذنوبنا . وإذا قلتم ذلك نغفر للمخطئين منكم خطاياهم ، وسَنَزِيدُ المحسنين منكم بالإبتعاد عن عبادة العجل ثواباً وأجراً .

فبدّل الذين ظلموا أنفسهم من بني إسرائيل بالقول الذي أُمِروا به غيره عناداً وتمرّدا ، وقالوا : حنطة ، حنطة ، وطلبوا ما يغترّون به من عيش الدنيا ولم يكن طلبهم على إضافة الحسنة إلى الحسنة بل على سبيل الإقتصار بالدنيا والإستهتار بالدين فأنزلنا على أولئك الذين ظلموا رجزاً وعذاباً من السماء بسبب فسقهم وخروجهم عن طريق الصّالحين .

روي أنه أنزل الله عليهم طاعوناً أهلَكَ به كثيراً وكثيراً . فهذه القصة قصة وقعت بعد التيه في زمان يوشع النبي عليه السلام ، وكان سيدنا موسى قد حوّل إليه قيادةَ بني إسرائيل ، ووصّى له بالجهاد وفتح بيت المقدس . ففتح بعد ثلاثة أشهر من وفاة موسى القدس والمسجد الأقصى وكان هذا الفتح بعد فتح بَلدة أريحا . والقائل ذلك القول لبني إسرائيل هو يوشع بوحي من الله تعالى أو بوصية من موسى عليه السّلام .

وأما قصة أمر سيدنا موسى وقوله لبني إسرائيل بفتح الأرض المقدسة فقد

كانت قبل الدخول في التيه ، فإنه بعد الخروج من مصر لما رأى الإسرائيليين متعبين من عيش الصحارى ، وما كانوا متعودين عليه سابقاً أمرهم أن يحاربوا العمالقة الجبارين ويستولوا على بلادهم التي هي من الأرض المقدسة وهي الشام كلها ، أو الطور وما حوله ، أو أريحا مقرّ الجبارين أو دمشق وفلسطين وبعض من الأردنّ كما ذكره بعض المفسرين .

وامتثلوا أولاً وبعد انتشار أخبار قوتهم من جانب بعض النقباء تندموا وخالفوه ولم يجاهدوا فعاقبهم الله وابتلاهم بالبقاء في التيه بمسافة نحو أثني عشر فرسخاً أربعين سنة .

وليست هذه القصة قصة يوشع عليه السلام ، والعجب من الشهاب كيف ادعى إتحاد القصتين مع ظهور تعدّدهما ؟!

(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)(٦٠) لما دخل بنو إسرائيل في التيه وكان صحراء قاحلة قليلة الماء إشتكوا إلى موسى عليه السلام العطش ، فاستقى عليه السلام ربّه ، فأجابه وأمره أن يضرب بعصاه الحجر لينفجر منه الماء ، أما عصاه فهي العصا المعهودة أمّ المعجزات ، وأما الحجر فللمفسرين فيه أقوال فمنهم من يقول : إنه كان حجراً معهوداً بينه وبين موسى ، وهو الذي فرّ بثوبه حين وضعه عليه ليغتسل ، فركض وراءه موسى عارياً ، ويقول : ثوبي حجر ثوبي حَجَرُ . وكان الإسرائيليون يرونه ، وعلموا أنه بريء من عيب الأدرة التي رموه بها . فأشار إليه جبريل أن إرفعه وخذه معك ، فإن لله فيه إظهارَ قدرة .

وفي تفسير روح البيان : أنه كان ذراعاً في ذراع • وفي تفسير المنار يبين معهوديته بكونه حجراً صلباً أو عظيماً تتّسع مساحته لتلك العيون ويصلح أن يكون منه موارد لتلك الأمم •

وفي غيره أنه كان مربعاً له أربعة أوجه ، فضربه موسى عليه السلام فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد الأسباط • وعلى كل عين علامة صاحبها •

ومنهم من يقول : إن المراد به جنس الحجر أيّاً كان • وهذا أبلغ في القدرة ، وأوفى بالمعجزة ، وأبعد من الشبهة كخاصية في ذلك الحجر لانفجار الماء • وكان سيدنا موسى يأمر بوضعه في محل عند الحاجة فيتفجر منه الماء بالمقدار الكافي ثم ينقطع • وقال سيدنا موسى لهم : كلوا واشربوا من رزق الله من المن والسلوى والماء الزلال ، ولا تعثوا في الارض مفسدين لقلوب الناس •

ولفظ عثا ناقص ، وعاث أجوف وهما في المعنى واحد إلا أن الثاني غالب إستعماله في المحسوسات عاث السوس الخشب أي أفسده •

فهذه النعمة نعمة جليلة وحقها أن تذكر وتؤخذ بعين الإعتبار ، فإنّ القوم الذين خالفوا الأوامر وعوقبوا بالإلقاء في التّيه لاتحصل لهم هذه النعمة العظيمة إلا بفضل الله ورحمته من أثر دعاء رسوله وإجابته •

وَإِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ : بَقْلِهَا ، وَقِثَّائِهَا ، وَفُومِهَا ، وَعَدَسِهَا ، وَبَصَلِهَا • قَالَ : أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ؟ اِهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ

ما سَأَلْتُم ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والمسكَنَةُ ، وباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرونَ بِآياتِ اللهِ ويَقْتُلونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوا وكانُوا يَعْتَدُونَ) (٦١)

كان الإسرائيليون في التيه على طعام لا يختلف وهو المن والسلوى، فتنفر عنه طباعهم • فطلبوا من سيدنا موسى أن يدعو الله تعالى ليخرج لهم في الأرض من أنواع المخضرات ليتمتعوا ويتنوعوا منها • وذلك الطلب لعوامل : الأول ما قلنا من إباء الطبع عن الإستمرار على طعام واحد ولوكان لذيذاً • الثاني : تعودهم بإجابة الله تعالى لكل ما طلبه موسى ولو كان خارقاً للعادة ، فصار ذلك عندهم كالأمور الإعتيادية • الثالث : أنه كان عند عامتهم تعنّت تعجيزي كالأطفال عندما هاجوا ، فكانوا يطلبون الشيىء وإذا حصل لهم لم يقتنعوا به ، وطلبوا شيئاً آخر • وهذه الطبيعة توجد بكثرة عند المدللين لاسيما صنف الروحانيين لأن الأمراء يخدمهم من يطمع فيهم أو يخاف منهم ، وأما الروحانيون فيخدمهم أتباعهم على غرام لنيل المرام ، أو على تقليد رائج بين العوام • فقلما تكون في أولادهم طبيعة معتدلة سالمة ولذلك صار كالمثل الجاري (إخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم) •

فعلى ذلك طلبوا من موسى عليه السلام البقل وهو كل نبات لا ساق له ، والقثاء ، والفوم وهو الحنطة ، أو الباقلاء ، أو الثوم • والعدس ، والبصل • فقال عليه السلام مستنكرا : أتستبدلون الذي هو أدنى كهذه المخضرات بالذي هو خير لذة وحلاوة وإفادة للبدن وحصولاً بلا تعب ؟! فإن كنتم تريدونها فلا توجد في التّيه وإنما هي في البلاد الخصبة الزراعية إذا تحصلونها بالفلح والزرع ، أو في المدن ففيها يؤخذ مالذ وطاب فعليكم بالسعي والجهاد وانزلوا إلى مصر من الأمصار الواقعة في الأرض المقدسة

واستولوا عليها حتى يحصل لكم ما تريدون وتشتهون ، أو اهبطوا إلى مصرَ موطنكم قبل الخروج ، وعودوا إلى عبوديتكم النكراء واتفقوا مع الأقباط فإن لكم عند ذلك ما سألتم ، فإن للهِ سنة جارية في العالم جواباً ولن تجدوا لسنته تبديلاً .

وقوله تعالى : وضربت عليهم الذلة والمسكنة جملة مستأنفة جواباً لسؤال تقريره : فلم لم تأخذهم الغيرة من كلام موسى عليه السلام حتى يحاولوا الفتح والجهاد ؟ فأجاب بقوله : ضربت عليهم الذلة النفسية وعدم الإعتماد على الشخص وأتتهم المسكنة والخشوع الفارغ بحسب طبيعتهم ونشوئهم الفاسد وإبائهم عن قبول تربية المربّين . وباؤا بغضب من الله لأن الله تعالى يبغض الرجلَ البطّال ، وذلك الغضب حل فيهم وعليهم بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله وخوارقه الظاهرة على أيدي المرسلين . وإلا لو كانوا مؤمنين بها حق الإيمان وشاكرين لنعمة المنان أطاعوا موسى في محاربة الجبارين وفتحوا أريحا مقرهم أو بلدة أخرى وعاشوا فيها عيشة الأحرار ، وغرز في طبيعتهم الفاسدة إنهم يقتلون النبيين الأبرياء لو أمكنهم لأنهم عزموا على قتل يوسف المعصوم ونجى منهم بفضل الله ورحمته ، وَعَدمُ الإهتمامِ بقتل المعصوم عينُ عدم الاهتمام بقتل النبيين بغير الحق ، وقد ظهر منهم بعد مدة قتلُ يحى وزكريا والإقدام على قتل عيسى ، وتلك الملكة الفاسدة والرذيلة الكاسدة حصلت فيهم بما عصوا تعليمات الرسل ، وكانوا يعتدون على الحقوق ، ومن باشر الإعتداء والعصيان تنمو فيه ملكة الطغيان . والطاغي يبغي على الحقوق ولا يبقى عنده فرق بين قتل الأشقياء والأبرياء ، فالشرّ يأتي بالشرور ، ولاسيما الطغيان والغرور كما أن الخير يأتي بالخير بل بالخيور .

فإن قيل : قتل النبيين لا يكون حقاً ابــداً فما فائدة التقييد بغير الحق ؟ اجيب بأنّه قيد" واقعي وبيان للواقع • أو أنــه لتأكيــد العــدوان المستفاد من قتل النبيين • أو أن الكلام جار على مذاق القاتلين فإنهم إذا رأوا ما لا يعجبهم من أي شخص يعاديهم قتلوه ورأوا أن قتله بالحق لمخالفته لهم ، والطّغاة لم يروا في النبيين أمراً داعياً إلى القتل مع أنهم قتلوهم حتى لايبقى لهم أثر ، فكان قتلهم بغير حق حتى عندهم •

فإن قيل : فما معنى قوله تعالى : كتب الله لأغلبــن أنــا ورســـلي ؟ فالجواب : إن المراد الغلبة بالحجة والبينات ، أو الغلبة فـــي المناجـذة والمحاربات • أو الغلبة يوم القيامة أو أنّ القضية أغلبية لا كلية ، لأن سنة الله لا تقبل التبديل •

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، والَّذِين هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئين مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيهِمْ ولاَ هُمْ يَحزَنُون)(٦٢)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : التقى ناس مـــن المسلمين واليهود والنصارى • فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم ، وديننا قبل دينكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن علــى دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً • وقالت النصارى : مثــل ذلك فقال المسلمون : كتابنا بعد كتابكم ، ونبينا ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد نبيكم ، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم فنحن خير منكم ، نحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولن يدخل الجنة إلا من كــان علــى ديننا • فأنزل الله تعالى : ليس بأمانيكم وَلا أَمانيِّ أَهلِ الكتاب مَــن يَعْمل سُوءً يُجزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ومن يعمل

من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا .

وقوله تعالى إن الذين آمنوا والذين هادوا ... الآية على منهاج هذه الآية ، والمقصود : إن الله سبحانه وتعالى كلما أرسل رسولاً في أي عهد من العهود إلى أي امة من الأمم فمن كان مؤمناً بالله ورسوله وأخلص دينه لله في ذلك العهد فقد فاز بالسعادة ، وكذلك الأمر في هذا العهد الذي أرسل فيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ برسالة عامة وبعث رحمة للعالمين فمن كان مؤمنا بهذا الدين بادىء بدء ، ومن كان مِنَ اليهود ، أو من النصارى ، أو من الصابئين الذين كان لهم دين قبل هذا الدين إذا أتى إلى هذا الرسول في عهده وقبل دينه بإيمانٍ وإخلاصٍ ، وآمن باللهِ واليومِ الآخر وسائر ما اعتبر الإيمان به من أركانه وأثبت إيمانه بالعمل الصالح حسب منهاج دينه العام القويم فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم من مكروه منتظر يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على ما أصابهم . أي ليس أمامهم إلا الرحمة والرضوان والفوزُ بالجنان ، فالأديان السابقة كانت كلها نافعة لأهل الإيمان بذلك العهد ، وأما اليوم فلا ينفع فيه إلا الإيمانُ بخاتم الأنبياء .

فقوله تعالى : إن الذين آمنوا : المراد به آمنوا بدين الإسلام في ظاهر الحال فهو وسائر أهل الأديان السابقة كلهم سواء في هذا العهد فمن آمن بالرسول المبعوث فيه ، وقارن إيمانه العمل الصالح فهو السعيد بحق ، وغيرهم يعتبر من الكافرين ويدل دلالة قطعية على هذا قوله تعالى في سورة الأعراف : الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهيهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ،

فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون • قل : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون• فلا خلاف في سعادة كل من آمن بالرسول المبعوث إليه في عهده من لدن عهد سيدنا آدم إلى عهد الخاتم كما لا خلاف في أن من عاصر عهده عهد سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو جاء بعده يجب عليه أن يؤمن به ويتبع تعاليمه في العقائد والأحكام ؛ لأن دينه ناسخ لسائر الأديان ورسالته شاملة لجميع الأمم • وأما من لم يصل إلى عهد الرسول محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولم تصل إليه دعوة رسول سابق عليه فهو من أهل الفترة وأهل النجاة ؛ كمن ولد بعد عهد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولم تصله الدعوة الإسلامية الشريفة ممن عاشوا في جزر البحار ، وقلل الجبال ، وأعماق الوديان • لقوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) • نعم إن الدعوة اليوم وفي عهد الإذاعات العالمية العامة قد وصلت إلى كافة الناس من العقلاء والمثقفين ، فمن لم يهتم بها ولم يؤمن ، واتبع هواه فهو أيضاً يعد من الكافرين • بيد أنّ من لم يؤمن بسبب إستيلاء رئيس ديني عليه وتشويه الحقائق يدخل في زمرة الكافرين الذين يقولون : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا فآتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً •

ومعنى قوله تعالى : والذين هادوا ، والذين تهوّدوا أي دخلوا في دين اليهود • وهو إن كان عربياً في الأصل فمأخوذ من هاد بمعنى تاب أو سكن • وإن كان معرّبا فهو معرّب يهوذا بذال معجمة وألف مقصورة فعرّب وغيّر •

والنصارى : إما جمع نَصران بمعنى نصراني ، فهو على القياس كندامي ونَدمان . والياء في نصراني حينئذ للمبالغة كما يقال للأحمر : أحمري إشارة إلى أنه عريق في وصفه . وقيل : إنها للفرق بين الواحد والجمع كزنج وزنجيّ ، وروم وروميّ . ونصران بمعنى نصراني وارد في كلام العرب ، وإما جمعُ نَصْرِيّ كمهارى ومَهْرِيّ وألفه للتأنيث ، ولذا لم يُنَوّن .

ثم إن نصران بمعنى ناصر ، كما قلنا ، سمي به لأنهم نصروا المسيح عليه السلام ، أو لنصر بعضهم بعضا . فلا يرد عليه أن فاعلاً لايجمع على فَعالى لأنه جمع نصران بمعنى ناصر لا جمع ناصر .

وقيل : إن عيسى عليه السلام ولد في (بيت لحم) بالقدس ، ثم سارت به أمه إلى مِصرَ ، ولما بلغ اثنتي عشرة سنة عادت به إلى الشام ، وأقامت بقرية يقال لها (ناصرة) فسمّي من معه باسمها .

والصابئون : قوم بين النصارى والمجوس ، وقيل : بين النصارى واليهود ؛ لأن دينهم يشبه دين الفريقين . واللفظ إن كان عربيا فهو من صبأ مهموز اللام أي خرج ، أو من صبا معتل اللام بمعنى مالَ . وفيهم إعتقاد بتأثير النجوم على معنى التسبب كالنار للإحراق .

(فائدة) : معنى مَنْ آمَنَ في اوّل الآية الشريفة مَنْ آمن ظاهراً كائناً ما كان . ومعنى مَن آمَنَ في آخرها آمن بصدق وأخلص في إيمانه ، فلا تكرار فيها .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ : خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ

تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، فَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الخاسِرِينَ) (٦٤)

روي ان بني إسرائيل طلبوا الكتاب من موسى وعاهدوه على العمل به ، فذهب موسى إلى الطور وأخذ الألواح من الله سبحانه وتعالى منهاجاً للدين ، ولمّا عرضها على بني إسرائيل واطّلعوا على مافيها من التكاليف تمردوا وأبوا عن قبولها ، فأمر الله سبحانه وتعالى جبريل فقلع جبل الطور ورفعه فوقهم ، فخافوا من إطباقه عليهم فقبلوها . ولمّا أخذ الله تعالى الميثاق من بني إسرائيل على لسان موسى بقبول الكتاب إذا أنزله عليهم والعمل به ، وقد اعطوا موسى عليه السلام عهداً بذلك ثم نقضوه .. هدّدهم الله تعالى بإطباق الجبل عند التمرد ، فليس ذلك الأمر إكراهاً لهم على قبول الدين ، بل عقاباً لهم وتخويفاً على نقض ذلك الميثاق . ومع هذا لما قبلوا التوراة خوفاً من العذاب خالفوه مرة أخرى .

وحاصل تفسير الآيتين : واذكروا إذ أخذنا العهد والميثاق منكم باتباع موسى والعمل بما في التوراة ، ثم لما جاءكم موسى بالكتاب وعرضه عليكم تولّيتم ، وأبيتم عن قبوله ، فخوّفناكم عقاباً على ما جرى منكم ، وأمرنا جبريل بقلع الطور ورفعه عليكم كالمظلة فوق المخيّم ، وقلنا لكم : خذوا ما أنزلنا إليكم وتلونا عليكم من التعاليم القدسية المباركة بقوة القلب للإعتقاد ، والبدنِ للعمل به ، واذكروا ما فيه وادرسوه وعلّموه الأولاد والأتباع ، ولا تنسوه ، وفعلنا ذلك رجاء أن تكونوا أناساً صادقين متقين . ولمّا علمتم أن لا مخلص عن قبوله قبلتم وأقبلتم على الإطاعة ، ثم بعد ذلك كله أعرضتم عن الوفاءِ بما التزمتموه . فصارت أحوالكم مضطربة متزلزلة من العهد إلى المخالفة ، ومن التوبة إلى نقضها. فلولا فضل

الله تعالى عليكم ورحمته الشاملة إكراماً لموسى وإنعاماً عليكم وتوفيقاً على التوبة لكنتم من الخاسرين الذين خسروا أولاً وأخيرا .

فعلى ما ذكرنا من التفسير صار الميثاق ميثاقين ، والمخالفة مرتين . الميثاق الأول : عندما طلبوا من موسى عليه السلام الكتاب بعد الخروج من مصر . والمخالفة الأولى : إباؤهم عن العمل به في التيه . والميثاق الثاني : عند رفع الطور على رؤوسهم وقبولهم للكتاب . والمخالفة الثانية : ما ارتكبوه بعد ذلك في التيه وبعده .

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ : كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) (٦٦)

قوله ولقد : اللام هي اللام الواقعة في جواب قسم مقدر ، وتسمى اللام الممهدة للقسم ، لأنه لولاها لم يعلم أن في الكلام قسماً مقدراً . فقد مَهَّدَت له الجوابَ . وأما اللام الموطئة فهي لام تدخل على شرط نازَعَه القسم في جزائها نحو والله لئن أكرمتني أكرمتك وقد تسمى الأولى باسم الثانية . وقيل إنها لام إبتدائية . وعلمتم : هنا بمعنى عرفتم يتعدى لواحد . أي ولقد عرفتم أصحابَ السبت وما أحللنا بهم من النكال .

وقوله تعالى في السبت : أي في حكم يوم السبت . وهو وجوب التفرغ للطاعة ؛ لأن الإصطياد كان في الأحد . وقيل : بل في نفس السبت لأنه لما صار الإحتيال فيه كان كأنَّ الإصطياد فيه والسبت : إسم لليوم المعلوم . قيل إن موسى عليه السلام أراد أن يجعل يوم الجمعة خالصاً لطاعة بني إسرائيل فلم يقبلوه وطلبوا منه يوم السبت لأن الله تعالى لم يخلق فيه شيئاً فلما اختاروا ذلك نهاهم الله عن الإصطياد فيه ، فخالفوه

فعاقبهم الله تعالى • وقيل : إن السبت مأخوذ من السّبوت بمعنى الرّاحة • والذين اعتدوا في السبت هم أهل قرية على ساحل البحر الأحمر اسمها (ايلة) ولما نُهُوا عن الإصطياد يوم السبت كانت الحيتان تجتمع فيه ، فحفروا يوم السبت حياضاً وشرعوا فيها الجداول فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت ، فيصطادونها يوم الأحد كما قال تعالى في سورة الأعراف : (واسألهم عَنِ القَرية التي كانت حاضرةَ البحرِ إذ يَعْدونَ في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يومَ سَبتِهِم شرّعاً ، ويوم لايسبتون لاتأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) •

وقوله تعالى كونوا قردة : ليس المراد بالأمر معناه الحقيقي أي طلب الفعل من المأمور إذ ليس في طاقة المخاطبين تحويل صورهم ، وإنما المراد به التسخير وسرعة التكوين أي أنهم صاروا كذلك • قال مجاهد : مامسخت صورهم إنما مسخت قلوبهم • وقال ابن جرير وغيره : إن قول مجاهد رحمه الله خلاف الصحيح المشهور عند المفسرين وهو أن المراد بالمسخ المسخ الحقيقي ، وأنه غيرت صورهم إلى صور القردة وليس تحويل الصورة بأعظم من إنشائها ، وهو النكال صورة وسيرة وتُجعَلُ عبرةً للمعتبرين وإلاّ فاختلاف القلوب ثابت في كثير من الناس والعياذ بالله تعالى • والنكال العقوبة من النكل بمعنى القطع لأن تلك العقوبة تقطع المعذب وتمنعه عن العود إلى ما ارتكبه غالباً •

والمراد بما بين يديها : الناس المعاصرون لأهل القرية ، وبما خلفها من بعدهم إلى يومنا هذا • والممسوخ من أهل القرية هم المباشرون للإحتيال •

قال ابن عطية : وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الممسوخ لاينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام •

وحاصل المعنى : والله لقد علمتم أيها الإسرائيليون أحوال الذين اعتدوا في السبت واحتالوا في هدم حكم الله فعاقبناهم وقلنا لهم كونوا قردة خاسئين محقّرين ، وجعلنا مسخهم عبرة للمعاصرين الناظرين ، ومن بعدَهم من المتفكرين ، وموعظةً للمتقين الراغبين في خير الدنيا والدين •

(وإذْ قالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ :إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ اَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً • قالوا : أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ؟ قال : اَعُوذُ باللهِ أنْ أكُونَ مِنَ الجاهِلِينَ (٦٧) قالُوا : ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ ، قال : إنّهُ يَقُولُ إنّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلكَ، فَافْعَلُوا ماتُؤْمَرُونَ (٦٨) قالُوا: ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مالَوْنُها ، قالَ إنّهُ يَقُولَ إنّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النّاظِرِينَ (٦٩) قالُوا : ادْعُ لَنا ربَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ماهِيَ إنَّ البَقَرَ تَشابَهَ عَلَينا ، وإنّا اِنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُون (٧٠) قالَ : إنّهُ يَقولُ إنّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ ولا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاشِيَةَ فيها• قالُوا : الآنَ جِئْتَ بالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَمَاكادُوا يَفْعَلُونَ) (٧١)

قوله تعالى : واذ قال موسى لقومه : قال بعض المفسّرين : إن أوّل هذه القصة قوله تعالى : (واذ قتلتم نفساً) الآية ولكن قدّم هذه الفقرة لأن مساوىء كثيرة لهم من الإستهزاء بأمر الله ومزيد الإلحاح في السؤال واستبطائهم في الإمتثال كاد أن تزيد سوءً على جريمة القتل ، فاهتم بها وقدمها •

والقصة : إنه كان في بني إسرائيل رجل شائب له ثروة طائلة وابن واحد ، وعدد من أبناء أخيه ، فقالوا : إن عمنا شائب مشرف على الموت ،

والمانع لنا من نيل ماله هو إبنه الوحيد ، فلنقتله ، فقتلوه غيلة ، وطرحوه على باب البلد مع أنهم ثاروا وجاءوا يطالبون بدمه ! فوقعت في الناس فتنة كاد أن يقتل بعضهم بعضا بسببها . فطلب سيدنا موسى من الله سبحانه كشف السّتار عن الحادثة . فقال له : مُرهُم أَن يذبَحوا بقرةً ويضربوا المقتول ببعض لحمه فيحيا ، ويخبر الناس عن قاتله . فأَمَرَهم موسى بذلك ، ولكنّهم تَباطَئوا بشبهة انبهام البقرة ، وجاءوا بأسئلة عديدة حول الموضوع ، ولو كانوا يسارعون في الإمتثال لكفاهم ذبح أيّ بقرة كانت .

وقوله : أتتخذنا هزوا : الهزء السخرية ، وحمله على المفعول الأول مبالغة ، لأَنهم تعجبوا مِن أمر سيدنا موسى بذلك . فقالوا هكذا . ويجوز تقدير مضاف أي : محل هزء . وقوله : ما هي ظاهره سؤال عن حقيقة البقر ، وليس بمراد وإنما المراد السؤال عن عمرها . أي ماسِنّها بقرينة قوله تعالى إنها بقرة لا فارض ولا بكر . والفارض : المسنةَ . والبكر : الفتية . والعوان : المتوسط بينهما . وقوله بين ذلك أي بين ذلك المذكور بالفارض والبكر . لأن بين لايضاف إلا إلى متعدد . والفاقعُ : الخالصُ الصفرةِ . وقوله أخيراً : (ماهي) كررها لزيادة الإستكشاف . وقوله : إن البقر تشابَهَ علينا : إعتذار عن تكرار السؤال مع إضطرارهم إليه ؛ لأن البقر الموصوف بالعوان كثير . وقوله لمهتدون : أي إلى الإمتثال .

وقوله لا ذلول : الذلول المرتاض المدرب بكرب الأرض ، وسقي الحرث . أي لم تدرب لكرب الأرض ولا لسقي الحرث . ولا في قوله ولا تسقي صلة للتأكيد ، أي لا ذلول تثير الأرض وتسقي الحرث . وقوله : مُسَلَّمة:أي من العيب.وقوله لا شيةفيها أي ليس فيها لون يخالف لون جلدها.

وقوله :جئت بالحق : أي بحقيقة وصفها • وقوله : فذبحوها : أي باشروا بالذبح المأمور به لقطع تعللاتهم ، فصاروا كالمضطرين إليه • وقوله : وماكادوا يفعلون : أي أنه ماقاربوا أن يذبحوها فضلاً عن مباشرة الذبح ، لتطويلهم في الكلام ، وكثرة مراجعاتهم ، ولظهور الفضيحة في ظهور القاتل ولإنطباعهم على مخالفة الأوامر والنواهي •

وحاصل المعنى : واذكر إذ قُتِل شخص من بني إسرائيل فوقع التنازع في قاتله ، وراجع موسى ربه في تعيينه • فقال تعالى له : مرهم أن يذبحوا بقرة فيضربوا ذلك القتيل ببعض لحمها حتى يحيا ويخبرهم بالقاتل • فأمرهم موسى بذلك ، فتعجبوا من كلامه ، وعدوه إستهزاء بهم • فقالوا : اتستهزىء بنا في الأمر بهذا الشيىء الغير المناسب • فأجاب بالإستعاذة عن الجهل والسخرية ، وأنه أتى بما أمر الله تعالى ، فسألوه عن سن البقرة ، فراجع ربه فقال تعالى : إنها ليست مُسِنّة ولا فتيّة ، بل متوسطة فاذبحوا ما أمرتم به ، فلما أخبرهم بسنها ، قالوا البقرة المتوسطة كثيرة تشتبه علينا ، فمالونها ؟ فراجع موسى ربّه وسأله عنه فقال : إنها بقرة متوسطة العمر ، صفراء اللون ، خالصة الصفرة ، تسر الناظرين بحسنها • ثم قالوا أيضا : إن بقرة كذلك كثيرة ، واشتبهت علينا ، فزدنا مِن بَيانِ المشخصات ، وإنا إن شاء الله لمهتدون إلى البقرة المقصودة للذبح • فراجع موسى ربه أيضاً للوصف الزائد فقال : إنها بقرة متوسطة العمر ، صفراء اللون ، الخالصة الصفرة ، ولم تدرب في كرب الأرض ولا في سقي الحرث ، وسالمة من العيوب في أعضائها ، وليس في جلدها لون يخالف الصفرة • فقالوا : ياموسى الآن جئت بحقيقة وصفها ، فطلبوا بقرة كذلك واشتروها وذبحوها وضربوا ببعض من لحمها على القتيل فاحياه

الله تعالى وأخبرهم قائلاً : إن قاتلي فلان من أبناء عمي ، وبذلك ظهر الحق وبطلت أقاويل الفاسدين .

وفي ماذكرناه يظهر تفسير قوله تعالى :

(وإذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فادّارَأْتُمْ فيها واللهُ مُخْرِجٌ ماكُنْتُمْ تَكْتُمونَ (٧٢) فَقُلْنا : اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلك يُحْيِي اللهُ المَوْتى ويُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلونَ) (٧٣) .

وهو : واذكر إذ قتلتم نفساً ، ونسب ذلك إلى الجميع باعتبار أن الحادث وقع فيكم فاختصمتم في تعيين قاتلها والله لاشك يظهر ما اخفيتموه بعد مراجعة الرسول ، فقلنا : إذبحوا بقرة ، واضربوا القتيل ببعضها ففعلتم بعدَ اللّتيا والتي ما أمرتم به ، فأحيا اللهُ القتيل ، وأخبر بقاتليه ، وانتهت القضية . وكما علمتم بأنفسكم إحياءَ هذا القتيل بلا شبهة كذلك يحي الله الموتى يوم البعث ، ويريكم دلائل كمالِ قدرته لعلكم تعقلون .

إن ما أخبر به الصادق من الأمور الممكنة حق بلا ريب ويصدر من ربّ العالمين وههنا أمور :

الأول : إن أول هذه القصة قوله سبحانه وتعالى : وإذ قتلتم نفساً فاداراتم فيها الآية فلماذا فكت عنه ؟ والجواب : أن المقصود هنا بيان نعم الله تعالى على بني إسرائيل وكفرانهم لنعمه العظيمة وذكر مساوئهم الجسيمة . وفي قوله تعالى وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم ... الآيات وجوه عديدة منها ، فقدم ذلك وأخر هذا للإهتمام بفضح بني إسرائيل وسوء أحوالهم أمامَ رسولهم المؤيد بالمعجزات وإفهام خلفهم وجوه مخالفات سلفهم وانتقام الله منهم حتى يعتبروا بها فإنها عبرة للمعتبرين .

وقال الشهاب : والحق أن قصة البقرة لما كانت متضمنة لأمور عجيبة وآيات باهرة ، ولذا سُمّيت السورةُ بها .. ذكرَهَا مرتين على وَجه يتضمن كل من الذكرين فوائدَ ومقاصدَ تخرجها عن التكرار . وزاد ذلك بأن حُذِفَ مِن كل ذكرٍ وطوي ما يدل عليه الآخر على طريقة الإحتباك حتى يتأسّس الكلام ويرتبط النظام ، ويأخذَ بعضُه بحجز بعض . فطَوَى من الأولى بعضَها إذ التقدير : قال موسى ، وقد قتل قتيل وقع فيه التنازع : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة تضربوه ببعضها فيحيا ويخبر بقاتله قالوا : أتتخذنا هزوا الآية ... إذ مجرد الأمر بذبح بقرة وتقريب قربان لا إستهزاء فيه . فذكر الإستهزاء ناشر لما طوى . وأضمر في قوله فقلنا اضربوه ببعضها حين ثنيت القضية فقلنا اذبحوا بقرة موصوفة بما عرفتم فاضربوه ببعضها يحيا القتيل انتهى .

أقول : والحق إن من تدبر القرآن الكريم ، وحكاية الحوادث الماضية فيها ، أو ذكر الأحكام الجديدة المقررة في دين الرسول الذي انزل إليه عَلِمَ أن الغاية القصوى هي الإرشاد والعظة والإعتبار ، ولم يهتم فيه بالتنسيق والترتيب والتقديم والتأخير ، كما اهتم بالغاية الأولى وإلا فقد حكى الله تعالى حوادث بني إسرائيل في كثير من السور ، وكان يمكن جمعها في سورة واحدة ، مع أنا إذا نظرنا إلى حقيقة بلاغة القرآن المفسرة بمطابقة الكلام لمقتضى الحال وجدنا أن في كل إجمال وتفصيل ، وإبهام وتفسير ، وتقديم وتأخير ، واختصار وتطويل ... مبرّرات واقعية ودواعي حقيقية لايعلمها إلا من ألهمه الله الحقائق . فإن مجالس الإرشاد بالقرآن ومواقع السؤال والجواب كانت تختلف جدا بحسب طبقات الناس في العلم والحكمة وتنزل الطبع وعلو الهمّة ، والتعمق في العداوة ، أو التوسط أو خلو الذهن عنها ، أو إستكبار الناس واستنكارهم . وكذلك في

حضور الناس الآخرين مع السائلين . فلا يمكن أن ترى آيات من القرآن إلا وفيها رعاية المطابقة لمقتضى الحال وإذا كان الأمر كذلك فلا نظر إلى تكرار بعض الموضوعات ولا في الترتيب بين الحكايات، إذ ما نراه مهما يوجد معه أهم من ذلك ، وفي هذا بلاغ ، ومع ذلك فقد أتى المفسرون بتوجيهات قيمة بحسب المقام تشفي الاذهان وغليل الاوهام .

والأمر الثاني : إن هناك أسئلة مترابطة هي ما سر إختيار عملية ذبح البقرة لكشف القاتل مع أن الله عالم بكل شيء ويوحي الى رسوله بكل مايشاء ؟ وما مناسبة إختيار ذبح البقرة في الموضوع ؟ وما وجه زيادة تلك الصفات على التراخي ولم تذكر "أو" "لا" ؟ ثم القتل لا يثبت إلا ببينة شرعية فكيف يثبت بخبر القتيل وحده ؟ والجواب عن الأول هو : أن فساد أخلاق بني إسرائيل إذ ذاك وصل إلى درجة ما كانوا يصدقون موسى فيما يخبر به عن تعيين القاتل ، كما أنهم ماصدقوه في إخباره بأنهم لا يرون الله تعالى . والمؤمنون المخلصون منهم كانوا قليلين جداً . وعن الثاني أن البقرة الموجودة عندهم كان أقرب حيوان من حيث الجثة إلى الإبل التي إعتادوا صرف الدية منها . فصار ذبح البقرة كأنّها دية للقتيل ، لأنه ظهر به القاتل فأخذوا الدية منه . وعن الثالث أن الزيادة في الصفات حصلت من زيادتهم في السؤال ، وإلا فلوكانوا يكتفون بقول موسى عليه السلام وذبحوها أولاً لكفاهم ذلك . وعن الرابع أنّ إخبار القتيل لم يكن من باب الشهادة على جناية القاتل وإثبات الدعوى في المحكمة الشرعية ، بل من الخوارق الإلهية فإذا أحيا الله تعالى القتيل وأخبر بالقاتل لم يبق شك في جنايته إلا عند من أعمى الله بصيرته ، على أنّ القتيل عندما أخبر بالقاتل من بني أعمامه إنهاروا وتغيرت وجوههم خجلا بحيث لم تبق شبهة عند الناس بجنايتهم ، وكان الوضع كإعترافهم

بها • (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)(٧٤)

قوله تعالى : (ثم قست) مشتق من القسوة ، وهي الصلابة والشدة • وقوله : (قلوبكم) الخطاب لعصبة القتيل أو لبني إسرائيل قوله : (من بعد ذلك) إشارة الى إحياء القتيل ، أو وإليه وإلى ما قبله من الخوارق التي ظهرت على أيدي موسى عليه السلام • وقوله (وإنَّ من الحجارة) جملة حالية مشعرة بالتعليل لكون تلك القلوب أقسى من الحجارة • وذكر الأقسام على الشكل المذكور لاستيعاب جميع الإنفعالات التي تجري على خلاف طبيعته • يعني أن قلوب أولئك الناس أشدّ وأقسى من الحجارة ؛ فإن منها ما يصير ينبوعاً لنهرٍ جارٍ بالإستمرار ، ومنها مايشقّ فيخرج منها الماء القليل ، ومنها مالايحصل منها ذلك ، ولكن يهبط من مستقره وينحدر إلى حيث شاء الله • وقوله (من خشية) أي من إنقياده لأمر الله ، فهو مجاز • ومنهم من قال إنها حقيقة ، وللحجارة كسائر الممكنات قوة ذاتية تربطها بربّها • وعلى ذلك قال تعالى (وانْ من شيىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) (اسراء) وقال : (يا جبال أوّبي معه والطير) (سبأ) وقال : (يسبح لله مافي السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيىء قدير) (تغابن)

وفي الصحيح (إني لأعرف حجراً كان يسلّم عَلَيَّ قبلَ أَنْ أُبْعثَ) وأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد مبعثه ما مرّ بحجر ومدر إلا سلّم عليه • وورد في الحجر الأسود أنه يَشهد لمن إستلمه • وقوله : (وما الله

بغافل عما تعملون) وعيدٌ وتهديد للعصاة القساة وأن الله تعالى لهم بالمرصاد .

وحاصل التفسير : ثم صارت قلوبكم أيّتها العصبة ، أو يا بني إسرائيل مِن بعد ذلك الخارق العظيم ، وهو إحياء القتيل أو بعد تلك المعجزات التي ظهرت من موسى عليه السلام قاسيةً صلبة الحال لا تقبل الوعظ والإرشاد ، ولا تتفكر في آثار قدرة رب العباد ، فهي كالحجارة بل أشد منها ؛ لأن منها ما يصدر منه المنفعة العظيمة كالنهر الجاري ، أو مادون ذلك من المياه القليلة أو لاينبع منه الماء ، ولكن ينقاد للأمر ويتحول من المقر الى حيث شاء . وكل ذلك إطاعة لله وخشية منه ، فعيشوا أيها الإسرائيليون كما تشاؤون ، وما الله بغافل عما تعملون .

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنهُمْ يَسْمَعُونَ كلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ماعَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)(٧٥)

الخطاب في قوله تعالى : (أفتطمعون) للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والجمع للتشريف أو له وللمؤمنين وقوله (أن يؤمنوا لكم) أي بنوا إسرائيل الموجودون في عهده ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقوله : (وقد كان فريق) جملة حالية . وقوله (منهم) أي من بني إسرائيل السابقين . وقوله : (يسمعون كلام الله) أي الكتاب الجامع لأسفار الأنبياء من بني إسرائيل المشهور بالتوراة . وفيه الأحكام الدينية أصولاً وفروعاً . وقوله : (ثم يحرّفونه) أي يبدّلونه بعبارات أخرى أو يؤّولونها على معاني أخرى توافق هواهم . وقوله : (من بعدما عقلوه) أي بعدما افتهموه . وقوله تعالى : (من بعد ما عقلوه) فيه توبيخ آخر من أنه يخالفونه مع العلم به ، ولو كانوا يخالفونه للجهل به كان لهم معذرة مّا ، ولكن لا عذر مع

العلم قطعاً • ويظهر هنا أن التحريف قد يكون مع العلم وقد يكون مع الجهل ، وأن هذه الفظيعة ليست منحصرة في علماء بني إسرائيل فحسب بل تجري على مرّ الأيام • وفي عالم الإسلام الجليل أناس ينحرفون عن الحق بتأويلات زائفة ، ويلقون الشبه إلى الناس شبهاً أشد وأفظع من شبهات الوسواس الخناس • وذلك إما لطمع في المال أو الجاه أو لإعتبارات كاسدة •

ومنهم من يدعي معرفة الفقه في الأحكام ، ولم يدرسه ولم يتبصر فيه ، ولا يطالعه ، ولا يستفسر من العلماء الذين فوق درجته وذلك للإستكبار • ومنهم من يدعي أنه يعمل بالكتاب والسنة وهو بعيد من معرفتهما ، وبالخاصة من معرفة الأحاديث الشريفة ؛ لأن كتاب الله متواتر المتن فلا يحتاج الى جهد في الاسناد ، وأما الأحاديث الشريفة فعلمها يحتاج إلى معرفة اللغة والعرف لمعرفة معانيها اللغوية والعرفية ، وإلى علم النحو للإعراب وتصحيح التركيب ، وإلى الصرف لمعرفة الإشتقاق ، وإلى البلاغة لمعرفة النكات البلاغية واستفادة المعاني الحصرية ، كما في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (إنما الأعمال بالنيات) الحديث هل الحصر فيه حقيقي أو إضافي ؟ وهل من قصر الموصوف على الصفة أو بالعكس ؟ وهل هو قصر الإفراد أو القلب أو التعيين ؟ ويحتاج إلى علم الرواية ومعرفة رجال الإسناد من الصحة والحسن والضعف ، وإلى علم الدراية بمدلولها هل هو خاص أو عام مخصوص أو لا ؟ أو مطلق أو مقيد ، أو مجمل أو مبين ، ومحكم أو منسوخ وله معارض آخر أو لا ؟ ومع الجهل بكل ذلك يتجاسر على الأئمة الفقهاء ، ويدعي أنه مثلهم أو أمثل منهم !! وكل البيانات في هذه الأحوال يدخل في التحريفات للدين لأنه إذا لم يمش على

الحق فماذا بعده إلا الضلال ؟ أعاذنا الله من الأحوال الفاسدة التي تبعث الإنسان على الأعمال الفاسدة بمنه ورحمته .

والمقصود من الآية الكريمة : قطع أمل الرسول صلى الله عليه وسلم ـ في إيمان بني إسرائيل به وبدين الإسلام . وخلاصته : أن قوماً في وقاحة الطبع كبني إسرائيل يسمعون كلام الله تعالى النازل على موسى وغيره ، ثم يحرّفونه ويبدّلونه أو يؤوّلونه على ما تهوى أنفسهم ويسمعون في أصحاح ذلك الكتاب نعوتَ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلاماتِ رسالتِه ، ونعوتَ أصحابه ثم يؤوّلونها بما لا يوافق الواقع ولا يستحيون من الله تعالى في هذه التصرفات الفاسدة وهم يعلمون أنّ ذلك خلاف الحق ! كيف تطمع في إيمانهم والإنقياد لك ولدينك ؟ فاعلم أنهم براء منك وأنت براء منهم الى يوم الدين .

وفي الحقيقة إن في القرآن الكريم آيات صريحة في أن بني إسرائيل كانوا يعرفون محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأنه رسول الله في آخر الزمان إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً ، وأنهم كانوا يستفتحون بمبعثه على مشركي العرب ، وأنه إذا جاء يدمغهم فيندحرون ، وفي الأصحاح بشارات الأنبياء بقدوم سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ومع ذلك كلّه لما جاء عهده ، وبعثه الله تعالى شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً عاندوا وخالفوا وتحالفوا بينهم في أن يطفؤا نورَ الله بأفواههم ، وعملوا ما كان في طاقاتهم في المعارضة والمقابلة ، ومع ذلك ردّهم الله على أعقابهم خائبين ، ونصر عبده محمداً ـ صلى الله عليه وسلمَ ـ ونشر كتابه ودينه في ربوع العالم كما قال تعالى : (يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) وكما قال :

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا) •

ومن جملة ما نزل في كتاب العهد السابق وترجم إلى العربية ما نقل من مزمور داود عليه السلام في زبوره : (وليفرح بالخالق مَن اصطفى الله له أمّته وأعطاه النصرَ ، وسدّد الصالحين منهم بالكرامة يسبّحونه على مضاجعهم ، ويكبّرون الله بأصوات مرتفعة ••• بأيديهم سيوف ذاتُ شفرتين لينتقم بهم من الأمم الذين لايعبدونه) انتهى •

ولاشك أن هذه الصفات إنما تنطبق على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته ؛ فهم الذين يكبّرون الله بأصوات مرتفعة في آذانهم للصّلوات الخمس ، وَعَلى الأماكن العالية كما قال جابر بن عبدالله : (كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا عَلَونا كَبَّرنا ، وإذا هَبَطْنا سَبَّحْنا فوضعت الصلاة على ذلك) رواه البخاري •

وما نقل منه عليه السلام أيضاً : (من أجل هذا بارك الله عليكَ إلى الأبد فتقلّدْ أيها الجبارُ بالسيف ؛ لأن البهاء لوجهك ، والحمد الغالب عليك ، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك ، وسهامك مسنونة والأمم يخرّون تحتك) إنتهى •

وما نقل منه عليه السلام ايضاً : (إلهنا قدوسٌ ، ومحمد قد عَمَّ الأَرض كلها فَرَحاً •

ونقل منه في مزمور آخر : (لترتاح البوادي وقواها ، ولتَصِر أرضُ قيدارٍ مُروجاً ، وليسبح سكان الكهوف ، ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الرّب ، ويذيعوا تسابيحه في الجزائر) • وفي مزمور آخر : (ويجوز من البحر إلى البحر ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض ،

ويَحنُو اهل الجزائر بين يديه ، ويلحس اعداؤه التراب ، ويسجد له ملوك الفرس ، وتدين له الأمم بالطاعة والإنقياد ، ويخلص البائس المضطهد ممّن هو أقوى منه ، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له ، ويرأف بالمساكين والضعفاء ، ويصلي عليه ويبارك في كل حين .

وفي سفر شمعون : (جاء الله بالبينات من جبال (فاران) وامتلأ السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته) . إنتهى . وجبال فاران جبال مكة المكرمة .

وقال شعيا : (يا محمد يا قدوس الرب ، اسمك موجود إلى الأبد ، وقال أيضاً في مقام الشهادة لأمة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصلاح والديانة :

سأرفع علماً لأهل الأرض فيصغر لهم من أقصى الارض فيأتون سراعاً . وقال شعيا في وصف أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ستمتلىء البادية والمدن من أولاد قيدار يسبحون ، ومن رؤوس الجبال ينادون هم الذين يجعلون لله الكرامة ، ويسبحونه في البر والبحر) . إنتهى . وقيدار هو ابن اسماعيل بالإتفاق .

ومن طالع كتب الأسفار القديمة وجد من هذه البشارات مالا يدع مجالاً للشك في أن الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام أخذ منهم العهد من الله تعالى لتوصية قومهم بالرسول محمد وأنه إذا جاء في زمان أي طبقة منهم يؤمنون به وينصرونه ، وكلهم قد وفّى بذلك الميثاق ووصّى لأمته بما عاهده الله تعالى عليه ، ولكن الله تعالى أعلن أنهم قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة . ومن كان بتلك الصفة لا يرجى منه الصفاء والوفاء بالعهود ، فقد جفّت الصحف ورفعت الأقلام .

(وإذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا : آمنّا ، وإذَا خَلا بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ قالُوا : أتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أفَلا تَعْقِلُون ؟ (٧٦) أوَلا يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ ؟) (٧٧)

(وإذا لقوا) أي المنافقون من بني إسرائيل (الذين آمنوا) ولهم مقام ومنزلة في الدين (قالوا آمنّا) : بأن دينكم حق ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الموصوف في التوراة ، (وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا) : أي المتصلبون على دينهم ممن لاينافقون مستنكرين على المنافقين : (أتحدّثونهم) أي المؤمنين (بما فتح الله عليكم) وبين لكم في التوراة من نعوت محمد وأمته (ليحاجّوكم به) أي بما حدّثتم به معهم (عند ربكم) أي عند ذكر دين ربكم وبيان رسالة الرسول فيقولون : أنتم أقررتم عندنا أن دين الإسلام حق ومحمّد هو المنعوت في الكتاب (أفلا تعقلون) غلبة المؤمنين عليكم بما حدثتم به معهم ؟

(أولا يعلمون أن الله يَعْلَم) ما يُسِرّونَ بينهم من المعاداة والمعاندة للمؤمنين واستنكار بعضهم لبعض على ما حدّثوا به (وما يعلنون) من كلامهم مع المؤمنين نفاقاً فيعاقبهم على نفاقهم وشقاقهم ؟

(ومِنْهُمْ أمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتابَ إلاّ أمانِيَّ وإنْ هُمْ إلا يَظُنُّونَ • (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتابَ بِأيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقولُونَ : هذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قليلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا يَكْسِبُونَ) (٧٩)

والأمّيّ : منسوب إلى الأمّ لأنه كما خرج من بطنها . وفي العرف : مَن لَم يتعلّم الكتابة . وَالأمانيّ جمع اُمْنِيّة وأصلها اُمنُويَة بضم الهمزة والنون على وزن اُضْحُوكَة ، قلبت الواو ياء وأدغمت فيها وكُسِرَ ما قبلها للمناسبة . وهي في الأصل ما يقدره الإنسان في نفسه . ولها تفاسير منها : الأكاذيب ، ومنها الشهوات ، ومنها القراءة . وقوله تعالى : (إلاّ يظنّون) أي إلاّ انهم يظنون ظنّا ، وَلَيْسَ لهم علم بالحقائق .

يعني : ومِن بني إسرائيلَ جمع هم أمّيون لم يتعلّموا الكتابة وليسوا من أهل الدراسة ولا يعلمون الكتاب المعهود بينهم وهو التوراة إلا قراءة عارية عن العلم والفهم ، وما هم إلا يظنون أنهم على النجاح من أمرهم، ولا علم لهم به ، ولا يعلمون أنهم على الرّسوب .

ثم ذكر سيئة أخرى من سيآتهم ، وأظهر أن من دأب بعض منهم أنهم يحرفون التوراة فيؤّولونها حَسَبَ أهوائِهم ، وينشرونها بينَ الناس للإضلال وإبعادهم عن الإيمان بدين الإسلام ، ويأخذون في مقابل ذلك مالاً من الذين يوجهونهم إلى ذلك ، أو من عامتهم الجَهَلة الذين يُحبّون اَن يَبْقوا على ما كانوا عليه ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم وبإختراعهم وإبتداعهم مايشتهون ويقولون للعامة : هذا المكتوب من عند الله وبَيان لمعنى التوراة فاعملوا به وذلك لا لمصلحة الناس وإرشادهم لأنه لا إرشاد بالباطل ، بل ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل وويل لهم مما يكسبون من هذا الحطام الزائل .

(وَقَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً ! قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ؟ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مالا تَعْلَمُونَ) (٨٠)

(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُونَ(٨١)• وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فيها خَالِدُونَ) (٨٢)

قوله تعالى (وقالوا) أي بنو إسرائيل • وقوله : (لنْ تمسنا النار) أي نار جهنم • وقوله (إلاّ أياماً معدودة) روي أنهم قالوا : لا نعذب إلا بعدد أيام عبادة العجل وهي أربعون يوماً باعتبار غياب موسى عليه السلام عنهم إلى رجوعه إليهم• وإن لم يعبدوها في جميعها بل في أقل من ذلك• ورُوي غيرُ ذلك من أهوائهم• وقوله : (فلن يخلف الله عهده) جزاء شرط مقدر، أي : إن كنتم إتخذتم عهداً من عنده فلكم ذلك إذ لن يخلف الله وعده • ومن الناس مَنْ لايقدّر محذوفاً ويجعل الفاء سببية ليكون إتخاذ العهد مترتبا عليه عدم إخلاف الله تعالى عهده ويكون المُنكَر حينئذ المجموع من ماقبل الفاء وما بعده ، والإستفهامَ إنكاريةٌ • وقوله : (أم تقولون) كلمة أم إما متصلة للمعادلة بين شيئين بمعنى أيُ واحدٍ من هذين الشيئين واقع : إتخاذكم العهد من الله تعالى ؟ أم قولكم عليه مالا تعلمون ؟ وخرّج ذلك مخرج المتردد في تعيينه على سبيل التقرير لأولئك المخاطبين لِعلم المستفهِم وهو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوقوع أحدهما • وهو قولهم بما لايعلمون على التعيين • فلا يكون الإستفهام على حقيقته • وهذا بناء على أنه تقع الجملة بعد أم المتصلة لأن التسوية قد تكون بين جملتين فيكون طرفاها حكمين ، كما صرّح به ابن الحاجب • وإما منقطعة بمعنى بل ، والتقدير : بل أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ ومعنى بل فيها

الإضراب والإنتقال من التوبيخ بالإنكار على الإتخاذ إلى التوبيخ على القول على الله مالا يعلمون .

وقوله : (بلى) إثبات لما نفوه من مساس النار يعني : ليس الأمر كما تزعمون ، بل تمسكم وغيركم من أمثالكم بلا حدود لأن من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته من كل جانب كلباس مستوعب للبدن من الرأس إلى القدم . وهذا لا يكون إلا لمن لم يبق عنده الإيمان فاستحب العصيان فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . وأنتم أيها الإسرائيليون الموجودون في المدينة ، علاوة على معاصيكم ، فقد كفرتم بالرسول محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلا تخرجكم الشبه الواهية عن إستحقاق الدخول في الهاوية .

وقوله تعالى : (والذين آمنو) الآية جار على سنة الباري في إرشاده الجاري من شفع آيات الوعيد بآيات الوعد المجيد . وأصحاب جنة النعيم مع أصحاب عذاب الجحيم ، وذكر العمل الصالح بعد الإيمان دليل على أن العمل ليس داخلاً في حقيقته . وذكرهم بعنوان أصحاب الجنة وتأكيده بتأكيد الخلود دليل على نفاذ حكم القادر العليم على خلودهم في جنة النعيم . رزقنا الله ذلك بفضله العظيم .

وحاصل التفسير : أنه قال الإسرائيليون في مقام الغرور وعدم الإعتناء بآيات العذاب : لن تمسنا النار إلا اياماً قلائل معدودات لاتتجاوز عن أربعين يوماً ! فرد الله تعالى عليهم بأمره بحبيبه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ قل ياحبيبي لأولئك المغرورين : أكان بينكم وبين الله عهد على ذلك حتى تزعموا بأن الله لن يخلف وعده وعهده ؟ أم تقولون على الله مالا علم لكم به ؟ كلا ثم كلا ! ليس الأمر كذلك ، بل أنتم أهل العذاب الخالد ما دمتم على هذه الحالة ، لأن من كسب سيئة واستمر على اكتسابها

حتى أحاطت به خطيئاته من كل جانب فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، وأنتم فضلا عن الخطايا كفرتم بسيد البرايا فلم يبق لكم مجال إلا جهنم والخلود فيها ، وكل من كان على هذا الحال فله هذا المآل . والذين آمنوا بالله وبرسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ منكم أو من غيركم وعملوا الصالحات بأداء الواجبات وترك المحرّمات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ : لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ، وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) (٨٣)

قوله تعالى : (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل) شروع في ذكر بعض من سيئات أعمال اليهود ، وهذا الميثاق هو الذي أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم . عليهم السلام .

وقوله : (لاتعبدون) إخبار في معنى الإنشاء أي نفي في معنى النهي ويؤيده قراءة لا تعبدوا بحذف النون ، وذلك أقوى في الإفادة البلاغية من صريح الإنشاء ؛ لأن معنى الإخبار أن المخبر به وقع ، وما دام المتكلم أخبر بذلك فالمخاطب لايحب أن يكذب المخبر ويأتي بما أخبر به .

وقوله : (وبالوالدين إحسانا) متعلق بعامل مقدر فإذا إتنهجت صورة الخبر السابق فقدر وتحسنون أو معنى الإنشاء فقدر وَاحْسِنوا . وقوله : (اليتامى) جمع يتيم كندامى ونديم ، وقوله : (مسكين) صيغة مبالغة كالمعطير بمعنى كثير السكون ؛ فالمسكين ساكن من قلة المال وضعف الحال .

وقوله : (حُسْناً) مصدر بمعنى الصفة • أو يبقى على المصدرية للمبالغة •
وقوله : (وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة) المراد بهما ماكانا في شريعتهم •
وقوله : (ثم توليتم) فيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب لتوجيه العتاب •
أي أعرضتم عن الميثاق • وقوله : (إلا قليلا) وهو السابق المستقيم أو اللاحق الآتي بقلب سليم • وقوله : (وأنتم معرضون) أي وأنتم من عادتكم الإعراض •

وحاصل التفسير : واذكر أخذنا الميثاق من بني إسرائيل وقولنا لهم : لاتعبدوا إلا الله وأحسنوا بالوالدين إحسانا يليق بكرامة الإنسان •
وأحسنوا بأصحاب القرابة معكم صلة للأرحام • وأحسنوا باليتامى والمساكين وقولوا للناس في الأمر والنهي والقبول والرد كلاماً حكيماً حسناً وأقيموا صلاتكم كما أُمر بها وأعطوا زكاة أموالكم للمستحقين فإنهم كعيالكم ، ثم بعد هذه النصائح المفيدة أعرضتم عن قبولها والعمل بها ، ولابدع لأنكم قوم شأنكم الإعراض عمّا لا يوافق الأغراض •

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ : لاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاتُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ ، تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ والعُدْوانِ ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ في الحَياةِ الدُّنْيا ؟ وَيَوْمَ القِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ العَذابِ ، وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا

الحَياةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذابُ وَلاهُمْ يُنْصَرونَ) (٨٦) •

قوله تعالى : (لاتسفكون) مربوط بالميثاق أي أخذنا منكم الميثاق على أن لا يتعرض بعضهم لبعض بالقتل والإخراج عن الوطن والمستقر • وعبر عن ذلك بالأنفس مع أن المقتول غير القاتل ، والمخرَجَ (بالفتح) غير المخرِجِ لأن أهل دين واحد في الأحكام كالنفس الواحدة ، أو لأنه لما كان قتل الإنسان لغيره ينجر إلى القصاص وقتل هذا القاتل فهو إذا قتل غيره فكأنه قتل نفسه وكذلك الإخراج • وقوله ثم أقْرَرْتُمْ أي بالميثاق خلفاً عن سَلَفٍ من جهة الرسل المرسلين إليكم • وقوله : (وأنتم) خطاب للسلف على الحكاية • أو للخلف على الواقع وشهادتهم على إقرار والدهم ، وشهادته على والده وهكذا • وقوله : (ثم أنتم هؤلاء) الناقضون للميثاق • وقوله : (تقتلون أنفسكم) خبر لقوله أنتم • وهؤلاء بدل عنه • والمعنى : وتنقضون الميثاق فتقتلون أنسابكم وأقرانكم الذين هم مثل أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منهم من ديارهم ، وقوله : (تظاهرون) محذوف التاء ، أي تتظاهرون عليهم ، وتتعاونون بينكم على قتلهم وإخراجهم بدونِ حقٍّ على الأعيان • بل بمحض الإثم والعدوان • وقوله : (وإن يأتوكم أسارى) أي أسارى من أهل دينكم تعطون الفدية لأجل إستخلاصهم من الأسر • وقوله : (وهو محرم عليكم إخراجهم) مربوط بقوله : (وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) وما بينهما جملة معترضة ، وهو ضمير الشأن ، والجملة التي بعده خبر له • ولا تحتاج إلى رابط لأنها تفسيره • وقوله : (أفتؤمنون ببعض) أي ببعض من المقررات في الميثاق • وهو العون بإعطاء الفدية • وقوله : (ويكفرون ببعض) وهو عدم إخراج بعضٍ من الوطن •

روي أن بني قريظة كانوا حلفاء للأوس ، وبني النضير حلفاء للخزرج، فإذا اقتتل الأوس والخزرج عاون كل فريق من اليهود حلفاءهم في القتل وتخريب الديار ، وإخراجِ أهلها منها وإذا أُسِرَ شخص من أيّ الفريقين جمعوا له حتى يفدوه ، وقوله : (خزي) كقتل بني قريظة وسبيهم وإجلاء بني النضير ، أو ضرب الجزية عليهم .

وحاصل التفسير : واذكروا إذ أخذنا الميثاق منكم على أن لا يقتل بعضكم بعضا ولا يخرج بعضكم بعضا من دياره، وأقررتم عليه، وأنتم حاضرون على الميثاق وإقراره بحضورهم مع الرسل عليهم السلام . ثم أنتم أنفسكم تنقضون الميثاق بقتل بعضكم بعضا ، ويخرج بعضكم بعضا من الديار ، وتتعاونون وتتظاهرون على قتلهم وإخراجهم بدون حق مشروع ، بل بمحض الإثم والعدوان ، وكان ذلك القتلُ وَالإخراجُ حراماً عليكم ، مع أنه إذا أُسِر بعضٌ مِن أَهل دينكم أيّاً كان تُعطُونَ الفديةَ عنه ، وتستخلصونه ، فتفرقون بين بنود الميثاق وتؤمنون ببعض منها كإعطاء الفدية واستخلاص الأسرى ، وتكفرون ببعض منها ويقتل بعضكم بعضا ، فما جزاء من يفعل ذلك إلا الخزي في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يُرَدونَ إلى أشَدِّ العذاب وليس ربكم بغافل عن أعمالكم وأولئك الناس النّاقِضُونَ للعُهود والمواثيق اشتروا واستحصلوا عيشَ الحياة الدنيا واتباع الهوى فيها بثواب دار الآخرة ، فلا يخفّف عنهم العذاب يوم القيامة ، ولا يقبل شفاعة من أحد لهؤلاء الكافرين ولا فدية ولا بَدَلَ عما استحقوه من العذاب ، فلا يأتيهم نصرٌ من أيّ جانب إلى يوم الدين .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ

اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ؟ (٨٧) وقالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِم فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ)(٨٨)

قوله تعالى : (وقفينا من بعده بالرسل) يقال : قفّى بتشديد الموحدة من باب التفعيل ، ومعنى قفاه به : أتبعه به . ومعنى الجملة جئنا من بعد موسى بالرسل مقتفين أثره ومتبعين شريعته وُحْدانا وجَماعات .

قالوا : كان بين موسى وعيسى عليهما السلام أربعة آلاف نبيّ .

وقوله : (البينات) أي المعجزات الواضحات أو المعجزات التي تشهد كل منها على صدقه في دعوى رسالته من الله تعالى كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار بالمغيبات بإعلام الله تعالى له بها ، إلى غير ذلك . وقوله : (بروح القدس) الروح : جبريل عليه السلام ، والقدس : بمعنى المقدسة ، وإضافة الروح إليه من إضافة الموصوف الى الصفة لمزيد الإختصاص . لأن من شأن الصفة النسبة إلى الموصوف كقولك جودُ حاتم ، فإذا عكس ، وأضيف الموصوف إلى الصفة أفاد قوة الصفة فيه . فكأنها أصل والموصوف فرع . وقوله : (ففريقاً كذبتم) كموسى وعيسى . وقوله : (وفريقاً تقتلون) كزكريا ويحيى . وقوله : (غلف) بضم الغين وسكون اللام جمع أغلف بمعنى المستور بالغلاف . أي لايدخلها ما يلقى إليها . والمقصود إنا لا نفقه ولا نفتهم ما تقرأونه علينا ، ولا نستمع لكتابك وخطابك . وقوله : (بل لعنهم الله) رد لمقالهم ومرادهم أي ليس الأمر كذلك بل شَيْطَنَةٌ هنالك . فإنَّ قلوبكم مكشوفة وهي باقية على الفطرة . ومتمكّنة من سماع الكتاب والخطاب وفهمهما . ولكن لما أُصَرَرْتم على مُعاندة الرسل ، وقطعتم عليهم السبلَ خَذَلَكم الله وانتقم منكم وطَرَدَكم من باب رحمته . فلم تَبق لكم إلا ألسنة حِدادٌ ،

وكلمات شداد ، فدخلتم في القوم الخاسرين والله بصير بالعباد والمتجاسرين •

(ولَمّا جاءَهُم كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وكانوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحونَ عَلَى الَّذينَ كَفَروا ، فَلَمّا جاءَهُم ماعَرَفوا كَفَروا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافِرينَ)(٨٩)

بِئْسَما اشْتَرَوا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يكفُروا بِما أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، فَباءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ولِلكافِرينَ عَذابٌ مُهين) (٩٠)

قوله تعالى : (كتاب من عند الله) أي القرآن الكريم • قوله (لما معهم) أي من التوراة وسائر الكتب السماوية • وقوله : (وكانوا يستفتحون) يعني وكانوا على ما أخذوه من كتبهم يستنصرون بقدوم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الذين كفروا من المشركين • ويقولون : اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان المنعوت في التوراة ، أو يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث إليهم وهو منهم وزمانه قريب • فلما جاءهم ماعرفوه كفروا به فلعنة الله على الكافرين •

وقوله : (بئسما اشتروا به) بئس فعل من أفعال الذم ، فاعله مستتر فيه ، وكلمة مانكرة بمعنى شيىء مميز له ، واشتروا به صفة لها ، والمخصوص بالذم أن يكفروا ، وهو في تأويل المصدر • أي بئس هو شيئاً اشتروا به أنفسهم كفرُهم بما أنزل الله تعالى • فإذا كان إشترى على معناه المتعارف فمعنى الآية أنهم على زعمهم إشتروا أنفسَهم وخلّصوها من عذاب الآخرة بكفرهم بما أنزل الله ، فكفرهم هو النقد الذي اشتروا

به أنفسهم . وإن كان بمعنى باعوا فمعناها : أنهم باعوا أنفسهم بمتاع نفيس عندهم ، وهو بقاؤهم على دينهم التقليدي وكفرهم بما أنزل الله على محمد وهو القرآن الكريم .

وقوله : (بغياً) مفعول له حصولي يعني أن علة إشترائهم أنفسهم حصول البغي والحسد بالرسول على أن نزل الله عليه من فضله كتابه الكريم . وذلك من جهلهم بالحقائق ، فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته . وقوله تعالى : (فباءوا بغضب على غضب) الغضب الأول بكفرهم بما أنزل الله ، والثاني بحسدهم على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وحاصل التفسير : ولما جاءهم ، أي بني إسرائيل ، كتاب منزل من عند الله مصدق لما معهم من الكتاب والأسفار السابقة كالتوراة وما معها ، والحال أنهم كانوا على علم بنزوله وقدوم الرسول الذي أُنزل عليه ، وكانوا من قبل قدوم الرسول يستفتحون بقدومه على المشركين فبدلاً عن أن يصدقوه وينشروه كفروا به فلعنة الله على الكافرين . . فبئس شيئاً إشتروا به أنفسهم كفرُهم بما أنزل الله تعالى على حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عدواناً وحسداً منهم أن يُنزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، وهو هنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحصلوا على عاقبة سيئة وخيمة ، وهي غضب نزل من الله تعالى عليهم بكفرهم بما أنزل الله على محمد وذلك الغضب مترتب على غضب أساسي نازل بسبب شيءٍ فاسدٍ وهو حَسَدهم على الرسول من جهة نزول القرآن الكريم عليه ، فدخلوا في سجل الكافرين ، وللكافرين في الآخرة عذاب شديد مهين لهم ومحقّر وذلك أفظع العذاب . أعاذنا الله تعالى منه .

(وإذا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا بما أنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا : نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنَا ويَكْفُرُونَ بما وَرَاءَهُ وهو الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا

مَعَهُمْ ، قُلْ : فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ؟ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قَالُوا : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ : بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (٩٣)

(واذا قيل لهم) أي لبني إسرائيل (آمِنوا بما أنـزل الله) على الرسل لإرشاد الأنام إلى أقوم السبل سواء الكتب السابقة واللاحقة حتى تأخذوا ثواب الإيمان بالكل (قالوا : نؤمن بما أُنزِل علينا) سابقاً وهو التوراة فهو كتابنا إلى الأبد ولا نعرف كتاب عيسى ولا محمد • ويكفرُونَ بما وراءه أي ما عدا ذلك الكتاب أيّاً كان ، وهو الحقّ ، والضميرُ لما وراءَهُ والمراد به القرآن ، (مُصدّقاً لما مَعَهم) حال مؤكدة لجملة وهو الحق لأن كتب الله تعالى يصدق بعضها بعضاً ، فالتصديق لازم لا ينتقل • (قل : فلم تقتلون انبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين ؟) الفاء جواب شرط مقدر أي إن كنتم آمنتم بالتوراة فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل هذا العصر مع أن التوراة لا تسوّغه ، وما في قوله فلم إستفهامية ، حذف أَلِفها على ما تقرر في محلّه • والقتل ، وإن كان صفة أسلافهم لكن الجناية الواقعة في القوم تنسب الى الكل بالتغليب ، لاسيما إذا رضي الخلف بما فعله السلف • وكانوا في صدد الإقتداء بهم في ذلك لو تيسّر لهم • وذلك إعتراض عليهم في دعوى الإيمان بالتوراة بصورة المعارضة ، وتقريرها ظاهر •

(ولقد جاءكم موسى بالبينات) يعني الآيات التسع وهي : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد البيضاء ، وفلق البحر ، وتفجير الماء من الحجر . أو المراد بها الدلائل الدالة على الوحدانية لله تعالى . ثم اتخذتم العجل إلهاً لكم من بعده أي بعد ذهابه إلى الميقات وأنتم ظالمون في اتخاذه إلهاً ، أو أنتم قوم شيمتكم الظلم لو لم يمنعكم مانع قوي . وهذه الآية إعتراض ثان على دعوى إيمانهم بالتوراة فإنها جاءت لتقرير التوحيد فلو كنتم مؤمنين بها ما اتخذتموه إلهاً .

(وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) لإظهار القدرة ، وقلنا لكم : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، أي خذوا ما آتيناكم من التوراة بجدٍّ واسمعوا سماع طاعة على العمل بها وجدٍّ ونشاط . قالوا في جوابنا : (سمعنا وعصينا) أي أخذناه أخذ سماع في الصورة ، ولكن عصيناك في العمل بها وليس فينا رغبة ونشاط فيه . وأُشرِبُوا في قلوبهم العجلَ بكفرهم وذلك لأنه أُشرِبَ قلوبَهم حبُّ عبادة العجل بسبب كفرهم الراسخ بالإلهيات ورغبتهم الثابتة في الماديات . قل يا محمد : بئسما يأمركم به إيمانكم بالتوراة من سماعكم لها صورة وانزجاركم عنها طبعاً وسيرة إن كنتم مؤمنين . تقرير للقدح والمعنى إن كنتم مؤمنين بالتوراة ما كانت تأمركم بهذه القبائح .

(قُلْ : إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ

وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعذابِ اَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلونَ) (٩٦)

والآية نزلت فيما حكاه إبن الجوزي عندما قالت اليهود إن الله تعالى لم يخلق الجنة إلاّ لإسرائيل وبنيه ، فردّ الله سبحانه وتعالى دعواهم بقوله قل يامحمد إن كانت لكم الدار الآخرة أي الجنة عند الله خالصة كما تقولون لن يدخل الجنة إلاّ من كان هُوداً مِن دونِ الناس الآخرين مِن النصارى والمسلمين فتمنوا الموت ان كنتم صادقين في أن الجنة خالصة لكم ،لأنّ مَنْ اَيقَنَ أنه من أهل الجنة عَرف ما فيها ممّا تشتهيه الأنفس وتَلَذ الأعيُن فاختار سرعةَ الإنتقال إليها ، وَلَن يَتمنّوه أبَداً بما قَدّمَتْ أيديهم من المعاصي الموجبة لاستحقاق النار وقد سَمِعُوا وعَلموا أنّ العاصي يستحقها فكانت دعواهم خلوصَ الجنة لهم كذباً وغروراً ، واللهُ عليم بالظالمين بارتكاب المعاصي المدّعين ما ليس لهم بحقٍّ •

ولتجدنّهم يا حبيبي أحْرَصَ النّاسِ أي جنسه أو المراد جمع معهود بمزيد الحرص عَلى حياةٍ وَأحْرَصَ مِنَ الذين أشْركوا من العرب المتهالكين على البقاء أو من المجوس القائلين بإلهين : النّور ، والظّلمة • يَوَدّ اَحَدُهم أي الإسرائيليين لَو يُعَمّرُ ألفَ سَنَةٍ وجوابُ لو محذوف على قواعد البصريين • وأما الكوفيون فيقولون :إن لو مصدرية بمعنى أنْ فلا يحتاج إلى الجواب وتقديره : لسرّ قلبه بذلك • وما هو أي كونه معمراً الفَ سنة بمزحزِحه أي بمُبَعّدِه من العذاب • أن يعمّر بدل من إسم ما • والله بصيرٌ بما يَعملون فهو مجازيهم لا محالة •

(قُلْ : مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ)(٩٨)

العدو للشخص ضد الصديق ، يستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع ، وقد يؤنث ويثنى ويجمع ، وهو الذي يريد إنزال المضارّ به ، وهذا المعنى لايصح إلاّ فينا دونه تعالى ؛ فعداوة الله هنا مجاز إمّا عن مخالفته تعالى وعدمِ القيام بطاعته ، وإما عن عداوة أوليائه ، وقوله : جبريل على وزن قنديل ، وفيه ثلاث عشرة لغة ، وميكال على وزن ميعاد ، وفيه لغات أخرى أشهرها ميكائيل بالهمزة والياء بعدها ، وجبريل علمُ مَلك كان ينزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقرآن ، وهو اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعجمة والعلمية ، وميكائيل علم ملك مأمور بالخصب والأرزاق ، كما أن عزرائيل علم ملك مأمور بقبض الأرواح ، وإسرافيل علم ملك مأمور بالنفخ في الصور مرتين : الأولى لموت ذوي الأرواح ونسف الجبال ، والثانية للبعث وإعادة الأرواح إلى أصحابها ، وهم من الملائكة المقرّبين ، وتلك الأسامي ممنوعة من الصرف لما قلنا ،

وقوله : (فإنه نزله على قلبك) في مقام جواب الشرط ، ومعناه من كان عدوّاً لجبريل فقد خرج عن الإنصاف ولا وجه لعداوته له ، بل الواجب عليه محبته لأنّه ، قد نزّلَ القرآن على قلبك بإذن الله ، والقرآن منبع البركة والرحمة للعالمين ، وقوله : مصدقاً ، وهدى ، وبشرى ، أحوال من مفعول نزله العائد إلى القرآن ، وقوله وجبريل وميكال ذكرهما للتخصيص بعد التعميم إظهاراً لكرامتهما وفضلهما ، وكأنهما من جنس آخر ،

ذكرنا ان عداوة الله بمخالفته أو مخالفة أوليائه ، ونذكر أن عداوة الرسل على معناها ، وعداوة الملائكة بمخالفة ماجاؤا به •

وقوله : (فإن الله عدو للكافرين) جواب الشرط نيابةً والتقدير من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو له • لأنه كافر والله عدوّ للكافرين • وسبب نزول الآيتين : أنه دخل عمر ـ رضي الله عنه ـ مدارس اليهود يوماً فسألهم عن جبريل فقالوا : ذاك عدونا يُطْلِعُ محمداً على أسرارنا ، وَإنه صاحبُ كل خسفٍ وعذاب • وميكائيلُ صاحبُ الخصب والسلام • فقال : ما منزلتهما من الله تعالى ؟ قالوا : جبريلُ عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، وبينهما عداوة • فقال : لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوّين ، وَمَنْ كان عدواً لأحدهما فهو عدوّ لله ثم رَجَعَ عُمَرَ فوجد جبريلَ قد سبقه بالوحي • فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لَقَدْ وافقكَ ربُّك يا عمر • قال عُمَرَ : لقد رَأيتُني بَعْدَ ذلك أَصْلَبَ مِنَ الحجر •

وحاصل التفسير : قل يامحمد : من كان عدواً لجبريل فلا إنصاف له ؛ لأن جبريل نَزّلَ على قلبك القرآن بإذن الله تعالى حال كون القرآن مُصَدّقاً لما بين يديه من الكتب السماوية ، وهُدىً للمهتدين وبُشرى للمؤمنين •

وليست العاقبة السيئة والخروج عن الحق لعداوة جبريل فقط ، بل كل من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فالله تعالى عدوٌ له ؛ لأنه كافر واللهُ تعالى عدو للكافرين •

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَمايَكفُرُ بِها إلاّ الفاسِقُونَ (٩٩) أَوَ كُلّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ؟

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لايَعْلَمُونَ)(١٠١)

قوله : (ولقد أنزلنا إليك) الآية •• نزلت بسبب إبن صوريا كما روي عن إن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حين قال لرسول الله : ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل عليك من آيات فنتبعك ! وهو معطوف على ماقبله عطف القصة على القصة •

وقوله تعالى : (الفاسقون) معناه هنا المتمردون في الكفر ، الخارجون عن الحدود • وقوله تعالى : (او كلما عاهَدُوا عَهداً) نزلت في مالك بن الصيف قال : والله ما أُخِذَ عَلينا عهد في كتابنا أن نؤمن بمحمد ، ولا ميثاقٌ •

والهمزة للإستفهام الإنكاري • وكلما ظرف منصوب بجوابه وهو نبذ ، والواو للعطف على محذوف ، أي أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا ؟ الآية • وقوله : نبذه أي نقضه وترك العملَ به • وقوله : فريق هم اليهود الذين كانوا في عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وقوله : الكتاب أي التوراة • وقوله : كأنهم لا يعلمون أي نبذوه مشبّهين بمن لا يعلم أنه كتاب الله تعالى ، أو لايعلمه أصلاً ، أو لايعلمونه على وجه الإتقان ، ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

وحاصل التفسير : لاشبهة في أنا أنزلنا إليك يامحمد آيات واضحات أو شاهدات باعجازها على نبوتك ورسالتك ، ولا يكفر بها إلا الفاسقون الخارجون عن الحدود • أو كفروا بها وكلما عاهدوا مع الله على تصديق رسالتك عهداً أكيداً نقضه فريق منهم ؟ ولا تتصور أن الفريق قليل منهم

بل كثير بل أكثر ، فإن أكثرهم لا يؤمنون بوجوب الوفاء بالعهود ، أو لا يؤمنون بالله حتى يفوا بها . وهذا النبذ والنقض عادتهم شابوا عليها فشبّوا عليها . فلذلك لمّا جاءهم رسول من عند الله مصدّق للكتاب الذي هو معهم وفيه نعوتك وصدق رسالتك نَبَذَ فريق منهم كتاب الله الذي معهم وهو التوراة وراء ظهورهم أي أهملوه ولم يعملوا به كأنهم لايعلمون شيئا منه وهم من الجاهلين .

(واتَّبَعُوا ماتَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيمانَ وماكَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وماروتَ ، وَمايُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتى يَقُولا إنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ . فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَماهُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلا بِإذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مايَضُرُّهُمْ وَلايَنْفَعُهُمْ ، ولَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ مالَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ، وَلَبِئْسَ ماشَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوكانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) (١٠٣)

قوله : واتبعوا عطف على مجموع ما قبله عطف القصة على القصة . والضمير لليهود الموجودين في عصر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أو لمن تقدمهم ، أو للمجموع الموجودين في عهد سليمان وبعده . وقوله : الشياطين أي شياطين الجن أو الإنس أو القبيلتين ، لأن علم السحر وفن إضرار الناس بدقائق الحيل كانت من لدن فجر التأريخ واستمر ويستمر

مادام البشر على الصاهرة . وكل ذلك لأجل نيل حطام الدنيا الدنية والشهوات النفسية . ولكن لما طغى المال والجاه في عهد سليمان عليه السلام ، ولم يتيسر ذلك لكل إنسان بالطريق المشروع جدّدوا فنون السحر ونشروها بين الناس ، وكان للإنس والجن منها نصيب . واليهود المنافقون في عهد سليمان عليه السلام كانوا ينسبون إليه معرفة فن السحر وينسبون ما يظهر على يديه إلى السحر لا إلى الخوارق الكونية التي خصّه الله تعالى بها . كما أن المشركين نسبوا الآيات القرآنية التي عجزتهم عن المعارضة إلى كونها سحراً مأخوذا من السابقين . وهذا دأب العاجز عن نيل ما ناله معاصره من الخوارق والبوارق التي بهرت العالمين .

وكل ماينسب إلى سيدنا سليمان في هذا الباب مما لايليق بمقام الرسل الكرام ، فهو من اختلاقات اليهود اللئام ، حتى إذا روي شيىء يوهم شيئاً من ذلك وجب تحقيقه ؛ فإن من كان من زمرة المرسلين الأخيار بريء من كل وجه عما ينسبه إليه الفساق الأشرار ، وليكن المسلم العاقل على بصيرة والله يهدي إلى سواء السبيل .

وقوله تعالى : (وما كفر سليمان) جملة معترضة لتنزيه ساحة سيدنا سليمان عليه السلام عن أوساخ أوهام اليهود ، فإنه كما روى إبن جرير عن شهر بن حوشب قال : قال اليهود : أنظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل ؛ يذكر سليمان مع الأنبياء وإنما كان ساحراً يركب الريح . فقال تعالى : (وما كفر سليمان) أي ماكان مزاولاً لعمل السحر الذي كان كفراً بالوجه المعمول إذ ذاك . ولكن الشياطين من الجن والإنس كفروا بعمله والعمل به .

وقوله : (يعلّمون الناس السحر) حال من فاعل كفروا . وقيل : بدل من الجملة . وقيل : استيناف لبيان شئونهم . أي كانوا يعلّمون الناس

السّحر المعهود بينهم ، وخاصّةً ما أُنزل منه على الملكين ببابل هاروت وماروت فإنه كان من أرقى فنونه وأدقّ طرقه .

وقوله : السحر في الأصل مصدر سحر يسحر بفتح العين إذ أبدى ما يدق ويخفى ويستعمل بما لطف وخفي سببه . والمراد به أمر غريب يشبه الخارق وليس به إذ يجري فيه التعلم ويستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح : قولاً كالرقى التي فيها ألفاظ الشرك ومدح الشيطان وتسخيره ، أو عملاً كعبادة الكواكب والتزام الجناية وسائر الفسوق ، أو اعتقاداً كاستحسان ما يوجب التقرب إليه ومحبته إياه وذلك لايستتبّ إلا بمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس ؛ فإن التناسب شرط التعاون والتضامّ . فكما أن الملائكة لا تعاون إلا أخيار الناس المشبهين بهم في المواظبة على العبادة والتقرب إلى الله تعالى بالقول والفعل كذلك الشياطين لاتعاون إلا الأشرار المشبهين بهم في الخباثة والنجاسة قولاً وفعلاً واعتقاداً . وبهذا يتميز الساحر من النبي والولي . فلا يرد ما قال المعتزلة : من أنه لو أمكن للإنسان من جهة الشيطان ظهور الخوارق والإخبار عن المغيبات لاشتبه طريق النبوة بطريق السّحر انتهى . وذلك لأن السحر لا يتحقق إلا بطريق الإكتساب الخاص المبني على التقرب إلى الشيطان قولاً وفعلاً واعتقاداً . وأما المعجزة فليست كسبية وإنما هي موهوبة من الله تعالى . وكرامة الأولياء إن كانت موهوبة بأن ظهرت على يد إنسان مسلم ملتزم للآداب فلا كلام فيها . وإن كانت مكسوبة أي مترتبة على الخلوة والرياضات النفسية والسهر والجوع ودوام الأذكار والنوافل فهي مترتبة على أمور يتقرب بها إلى الله تعالى بالتزام الشرع قولاً وفعلاً واعتقاداً . وأصحابها أصحاب الأدب والسكينة والوقار والأنوار . وأقوالهم كالدرر المنثورة وأعمالهم كلها مشروعة معروفة مشهورة . وإليه يشير الحديث

الذي رواه البخاري : (مازال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى اُحِبّه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر بـه ، ويـده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها . ولئن سألني لأعطينه ، ولئـن إستعاذ بي لأعيذنه) .

والجمهور على أن للسحر حقيقة ، وأنه قد يبلغ الساحر إلـى حيث يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، ويقتل النفس ، والفاعل والخالق في كل ذلك هو الله تعالى . والسحر من الأسباب ، ولكن لم تجر سنة اللـه في الكون على تمكين الساحر من فلق البحر ، وإحياء الموتـى ، وإنطـاق العجماء ، وغير ذلك من آيات الرسل عليهم السلام . ويظهر من ذلك فرق آخر بين المعجزة والسحر حيث أن المعجزة لها درجات عالية لاتنالهـا قـوة الساحرين ، ولكن الفارق الصحيح المفيد هو الأول ، أي أن السحر نتيجـة التقرب إلى الشيطان والمعجزة والكرامة نتيجة التقرب إلى الله المنّان . ومن هنا تظهر لطافة ما قالوا : (لايعرف الولاية بالكرامة ، وانما تعرف الكرامة بالولاية) يعني أن الخوارق إنما تكون كرامة وصاحبها ولياً إذا أطاعَ الله ، وإلا فخوارق العصاة سحر أو استدراج .

ثم السّحر بالمعنى المذكور المشهور ، وإلا فبعض العلماء جعله أقساماً . وعدّ منها ما يبنى على أعمال صناعية دقيقة كصندوق الساعات وعلم جـرّ الأثقال وما شاكلها ... ولايشتبه منها بالكرامة والمعجزة إلا بعضُ أقسامها كما سيظهر لك فإنه قال والسحر على اقسام :

الأول : سحر الكلدانيين الذين كانوا في قديم الدهر ، وهـم قـوم يعبدون الكواكب يزعمون أنها هي المدبرة لهذا العالم ، ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة . وهم الذين بعث الله تعالـى إبراهيم عليـه السلام لإبطال مقالتهم .

القسم الثاني : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، فإن النفوس الإنسانية قد يختص بعض منها ببعض صفات توجب لها قوة في تغيير أوضاع الناس وأفكارهم ، وهذا مما يشبه البديهيات ، وكذلك يجوز أن يكون لبعض النفوس خاصية غريبة تكون سبباً لحدوث الخير في المقابل كبعض الأصفياء الذين يستفيد الإنسان من مجالسته ، ويتنور بصحبته ، وينشرح صدره بمحبته ، او لحدوث الشرّ فيه كصاحب العين ، فإنه قد جرّب بما لا مجال فيه للإشتباه أن العيونَ قد ينظر إلى بعض المستحسنات فتسبب حدوث مشاكل فيها من : العور ، والعرج ، والمرض ، والعرض ، والضرر المالي والحالي .

القسم الثالث : الإستعانة بالأرواح الخبيثة الأرضية ، أي أرواح الجن والشياطين . فإن وجود الجن وأنه جسم لطيف ناري معلوم عند المسلم . وكذلك إيمان بعضهم وكفر بعض . فقد يحصل للإنسان بطريق خاص المناسبة مع أرواح الجن الكافرين فيستعملها الشخص في بعض الأمور التي يهواها من إضرار الناس ، والتفريق بين المرء وزوجه . ومن هذا النوع : كتابة الطلسمات التي يقال إنه يحصل منها آثار كإثارة الملك على الرعايا ، أو بالعكس ، وبإيقاع العداء بين القبائل والعوائل والأحباب والأصحاب وما شاكلها .

القسم الرابع : التخيلات والأخذ بالعيون ، كأن يُرى الواحدُ اثنين أو على لونين في آنين . . وهذا النوع يحصل من خفة اليد وإشغال حواس الحاضرين .

القسم الخامس : الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات على النسب الهندسية ، أو على ضروب الخيلاء ؛ كصنع مادة حديدية ذات منافذ عديدة على كيفيات مرتبة علمية . فإذا ضربتها الرياح ، أو نفخ فيها حصلت

تارة ألحان مريحة وسالمة ، وتارة أصوات مزعجة ، وتارة ألحان محزنة مبكية ، وأخرى ألحان مضحكة ، وتارة تحدث هياجاً نفسياً وإقداماً على الحروب وما شاكل ذلك . والآلة الموسيقية من هذا القسم .

القسم السادس : الإستعانة بخواص الأدوية مثل أن يجعل في الطعام بعض المواد التي أكلها يخفف العقل ويفسد الدماغ ، وهذا باب واسع .

القسم السابع : ربط القلب وتعليقه بشخص ، كأن يدعي شخص فاسد أن عنده حذاقة في فن كذلك يمرض الإنسان أو يخلصه من مرضه فيرتبط به ، فتنقاد نفس هذا الإنسان الضعيف له فيتصرف فيه كيف يشاء وهذا القسم أَفسَدُ أقسام السحر بالنسبة إلى البسطاء وضعاف العقول .

القسم الثامن : السعي في الإفساد وتغيير المجتمع بالقول والفعل . فمن الأول السعاية والوشاية والنميمة والغيبة والبهتان . ومن الثاني السعي في إضرار أحد الناس بعمل ما ، كأن يرى شخص عدوه المبتلى بمرض لايناسب أكل الماكولات فيأتي به إليه في صورة محب يخدم حبيبه فيأكله ويموت به . وتسمية هذا القسم والخامس والسادس سحراً لاشتماله على الدقة والحذاقة كتسمية إنشاء الشعر البليغ جداً سحراً . وكذلك الأعمال المادية الدقيقة من أي نوع كان وتتفاوت الدقة بحسب تطور الزمان . وأما الدقة والحذاقة القولية أو العملية التي تستعمل في تربية إنسان وإصلاحه أو إصلاح ذات البين فيما عجز عنه الناس . فذلك يعتبر جهاداً في سبيل الله . وكلمة من تلك الكلمات تساوي عند الله آلاف الكلمات ، وفعل واحد من ذلك القبيل يوجب للإنسان الدرجات العالية عند الرب الجليل . وهي وإن أمكن أن يسمى سحراً لدقتها لكن التسمية به مجاز بحسب المعنى العرفي ، وإن كانت حقيقة بحسب أصل اللغة .

ومن هنا ظهر أن أيّ عمل متقن لم يكن فيه مخالفة للشرع أي لم يكن منهياً عنه وظفر به بعض من خصهم الله بفضله كعلم الجفر لاستكشاف المجهولات ، وعلم الحروف والاوفاق لقضاء الحاجات ، فهو حسن ممدوح يثاب فاعله عليه على درجات متفاوتة ولا تنظر إلى قول الجاهلين بالحقيقة فإنهم خارجون عن الطّريقة .

(فائدة) السحر المذموم مما علمته يحرم تعلّمه وتعليمه والعمل به . فإذا كان مُصادماً للحق ومخالفاً لما علم من الدين بالضرورة فمعتقده كافر والعامل به مرتكب للكبيرة . نعم قالوا : إن تعلّمه إذا أمكن بدون مزاولة المكفرات جائز ، لاسيما إذا كان للصيانة . قال الشاعر :

عرفت الشر لا للشر بل لتوقيه

ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه

وقوله : (وما انزل على الملكين) عطف على السحر ، والعطف للتغاير الإعتباريّ ، أو لاختصاصه بمزيد دقة . وقوله : (ببابل) ظروف وقوله : (هاروت وماروت) عطف بيان للملكين . ومنع صرفهما للعجمة والعلمية .

وهذان الملكان أنزلا لتعليم السحر إبتلاء من الله تعالى للناس ، فمن تعلمه وعمل به كفر ، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان . وقيل : إنّه كان للتمييز بين السحر وبين المعجزة ، حيث كثر السحر في ذلك الزمان ، وأظهر السحرة أموراً غريبة وقع الشك بها في النبوة ، فبعث الله الملكين لتعليم أبواب السحر حتى يزيلا الشبه . أي حتى يعلم الناس أن السحر علم إكتسابي ، وكل إنسان قادر عليه خيرّاً كان أو شريراً ، وإن المعجزة نعمة وهبية يهبها الله لمن يشاء من عباده ، ولا تظهر إلا على المختار من العباد

المخلصين . قيل : كان ذلك في زمن إدريس عليه السلام في البيضاوي . وقيل رجلان سميا ملكين باعتبار صلاحهما ويؤيده قراءة الملِكين بالكسر . وما يروى من الحكايات فمن الأباطيل ؛ لأنَّ الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، أو إخبار الباري تعالى ليس قابلاً للنسخ .

وقوله : (وما يعلمان من أحد) أي مايعلمان أحداً السحر حتى ينصحاه ويقولا له إنما نحن فتنة . أي محنة وابتلاءٌ منه للناس . فمن تعلّم وتوقى عن عمله بقي على الإيمان ، ومن تعلّم وعمل به خرج عن الإيمان وكفر بربه الديان فلا تكفر أيها المتعلم .

(فيَتَعلَّمونَ مِنهُما ما يُفرِّقونَ بِهِ بيْنَ المَرْءِ وزَوْجِهِ ، وما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِن أحَدٍ إلاَّ بإِذْنِ الله) وإرادته ؛ لأنه هو الفاعل المختار الخالق لكل شيء ، والأسباب غير مؤثرة ، وحدوث الآثار عندها لا بها . (ولقد علموا) أي اليهود (لمن اشتراه) أي أخذ ماتتلوه الشياطين بدل العمل بكتاب الله (ماله في الآخرة من خلاق) أي نصيب مبارك (ولبئس ماشروا به أنفسهم) أي إستخلصوا به أنفسهم عن الهلاك بزعمهم أو باعوها به ، وهو وجود الهدايا والرشايا والجاه بين البرايا (لوكانوا يعلمون) أي قبحه . أو لو كان يعلمون ما يصيبهم في المآل ما عملوا شيئاً غير مشروع في الحال .

(يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَقُولُوا انْظُرْنَا ، واسْمَعوا وَلِلْكافِرينَ عَذابٌ أليمٌ (١٠٤) ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلا المُشْرِكينَ أنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ واللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم) (١٠٥) أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن

عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان المسلمون يقولون للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : راعِنا أي راقِبْنا وتَأنَّ بِنا فيما تُلقّنُنا حتى نَفْهَمَه . وسمعه اليهود فافترصُوهُ وخاطَبُوه به مريدين نسبتَه إلى الرَّعن ، أو سَبَّه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابّون بها ، وهي راعينا ؛ فَنُهِيَ المؤمنُونَ عنها وأُمروا بما يُفيد تلك الفائدة بلا تلبيس نحو اُنْظرنا أي اُنظر إلينا أو إنتَظِرنا .

قوله : (راعنا) صيغة امر المفرد المذكر المخاطب من باب المفاعلة مشتق من الرعي بمعنى الرعاية معتل اللام واصله راعِيْنا حذفت الياء لبناء صيغة الأمر وفاعله مستتر فيه اي انت وضمير : (نا) في محل النصب مفعول به صريح .

وقوله : (انظرنا) صيغة أمر المفرد المذكر المخاطب أيضا من الباب الأول ، أي أنظر إلينا على معنى اللطف والمراعاة ، أو بمعنى إنتظرنا .

وقوله : (واسمعوا) أي استمعوا لتلقين الرسول إياكم حتى تأخذوا كلامه ولا تحتاجوا إلى سؤال المراعاة .

وقوله : (ما يود الذين) الآيـة . نزلت تكذيباً لجمع من اليهود كانوا يدعون محبتهم للمسلمين .

وحاصل التفسير : يا أيها الذين آمنوا إذا تلقنتم العبارات من الآيات البينات فاستمعوا إستماعاً عن حضور القلب حتى تفتهموا ما يلقنكم ، وتأخذوه ولا تغفلوا فتحتاجوا إلى أن تقولوا له راعنا حتى لاتغتنم اليهود فرصة أخذ هذه العبارة واستعمالها بمعنى فاسدٍ ، وهو كن راعِناً أي ذا سَفَهٍ أو أنت راعينا أي راعي أغنامنا .

وقولوا : انظرنا بدل راعنا . وللكافرين الذين يتهاونون بالرسول ويسبونه عذاب أليم واعلموا أن بينكم وبينهم معاندة ومناوأة ويحبون هلاككم ، ولا يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم أي خير من جانب ربكم ، ولا يعلمون أن الله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟ ؟ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ؟ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٠٧)

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُم كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بِالإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُو الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (١١٠)

قوله : (مانسخ) الآية نزلت عندما قال المشركون أو اليهود ألا ترون إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه؟ ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً؟ ما هذا القرآن إلا كلام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوله من تلقاء نفسه وهو كلام يناقض بعضه بعضا .

والنسخ : في اللغة إزالة الصورة أو ما في حكمها عن الشيىء وإثبات مثل ذلك في غيره سواء كان في الأعيان أو في الأعراض . فمن الأول : نسخت الريحُ الأثر أي أزالته . ومن الثاني نسختُ الكتابَ إذا أثبتُّ مافيه في موضعٍ آخر . وهو مشترك بينهما . وحدّه عرفاً : الخطابُ الدالّ على إرتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً به مع تراخيه عنه . ونسخ الآية بيان إنتهاء التعبد بقراءتها كآية : (الشيخُ والشيخة إذا زنيا فارجمُوهما نكالاً مِن اللهِ والله عزيزٌ حكيم) أو الحكم المستفاد منها كآية : (والّذينَ يُتَوَفّونْ منكم ويَذرَوُنَ أزواجاً وَصيّةٌ لأزواجهم متاعاً إلى الحول غيرَ إخراج) أو بهما جميعاً كآية (عَشْرُ رَضَعاتٍ مَعْلوماتٍ يُحَرِّمْنَ) . وفيه رفع التأبيد المستفاد من إطلاقها . ولذا عرفه بعضهم برفع الحكم الشرعي . فهو بيان بالنسبة إلى الشارع ، ورفعٌ بالنسبة إلينا . واختص التعريف بالأحكام إذ لاتعبد في الأخبار أنفسها .

وانساؤها إذهابها عن القلوب بأن لاتبقى في الحفظ . وقد وقع هذا فإن بعض الصحابة أراد قراءة بعض ما حفظه فلم يجده في صدره فسأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : (نُسِخَ البارحةَ عن الصّدور) . وعن أبي موسى : إنا كنا نقرأ سورة نُشبّهها في الطول والشدة ببراءة ، فأنْسيتُها غيرَ أني حَفظتُ منها (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً وما يملأ جوف ابن آدَمَ إلا التراب)

وقوله تعالى : (نأت بخير منها أو مثلها) أي بما هو خير للعباد في النفع والثواب ، أو مثلها في الثواب ولو كان برفع الحكم هناك .

وقوله : (من ولي ولا نصير) وأصل معنى الولاية الإتصال بين شيئين من غير تخلل شيىء آخَرَ اَجنبيّ بينهما • ثم يستعار للقرب في المكان ، أو في النسب ، أو في الصداقة والنصرة •

والنصير والناصر المعين • وبينهما عموم وخصوص من وجه ؛ لأن الولي قد يضعف عن النصرة فلا ينصر • والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور فيجتمعان فيما إذا كان الولي قادراً على النصرة والنصير قريباً في النسب من المنصور • ويفترق الولي عن النصير فيما إذا لم يقدر على النصرة • والنصير عن الولي فيما إذا كان أجنبياً عنه • قوله تعالى : (أم تريدون) قالوا يجوز أن تكون كلمة أم هذه متصلة للمعادلة بين شيئين ومنقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الإستفهام •

وإذا كانت متصلة فالمعادلان قوله تعالى : (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ؟) وقوله : (أم تريدونَ اَنْ تسألوا رَسُولكم ؟) ووجه المعادلة : أن قوله (ألم تعلم) محمول على الثقة وقوله : (أم تريدون) دال على الإقتراح والإزعاج بالسؤال كما اقترحت أسلاف اليهود من موسى عليه السلام فيئول الكلام إلى معنى ألكم وثوق بالرسول بعد العلم بما يوجب الوثوق من أن الله له ملك السموات والأرض وهو الذي أرسله إليكم ؟ أم ليس لكم وثوق وتقترحون كما اقترحت أسلاف اليهود ؟

وإذا كانت منقطعة فالمعنى على الإضراب عما سبق ، والإستفهام عن السؤال •

وقوله : (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) معناه ومن ترك الثقة بالآيات البينات وشك فيها واقترح غيرها فقد ضل سواء السبيل •

وقوله : (حسداً) مفعول له حصولي لقوله ودّ • وقوله : (من عند أنفسهم) أي حسداً ناشئاً ومنبعثاً من أعماق أنفسهم • وقوله :(فاعفوا واصفحوا) الصفح : ترك تثريب العدو • والعفو : ترك عقوبته • فذكر الصفح بعد العفو للدلالة على استحسان إهمال ذكر الذنوب بعد العفو حتى لايبقى كدر ظاهر في الجوّ • والأمر مُغَيّاً بإتيان أمر الله تعالى بالإنتقام والقتال فليس منسوخاً بآية السيف • وقوله : (من خير) أي من أداء واجب أو مندوب أو كف النفس عن حرام أو مكروه ، فإن النكرة في سياق الشرط للعموم • وقوله :(تجدوه) أي ثوابه •

(وَقَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أوْ نَصارى، تِلكَ أَمَانِيُّهُمْ • قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١١١) بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُون) (١١٢)

قوله تعالى : (وقالوا) عطف على قوله تعالى (ودّ كثير) وقوله : (لن يدخل) أي قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى • ودليله قوله تعالى : (وقالت اليهود ليست النصارى على شيئ وقالت النصارى ليست اليهود على شيئ) • وقوله : (هودا) جمع هائد كعوذ جمع عائذ • وقوله : (تلك أمانيهم) إسم الإشارة تشير إلى ماسبق من أن لاينزل على المؤمنين خير من ربهم • وأن يردّوهم كفارا ، وأنه لايدخل الجنة غيرهم على ما ذكرناه ، والأماني الأكاذيب • وقوله : (هاتوا) في القاموس : وهات

بكسر التاء أَعْطني انتهى • أي فكلمة هاتوا جمع المذكر المخاطب أي اَعْطوني •

وقوله : (برهانكم) البرهان دليل مركب من مقدمات يقينية لإنتاج اليقين ، يعني أن هذه المطالب من العقائد ولابد أن تبنى على الدليل القطعي فإن الظن لا يغني من الحق شيئاً فإن كان عندكم برهان فأتوا به، وإلا فاسكتوا فرحم الله امرءً قال خيراً أو سكت •

وقوله : (بلى) رد لما تفوهوا به • وقوله (من أسلم) أي سلم نفسه إلى قدسه وخضع له واتّقاهُ ، وَهُو محسن في خضوعه بأن خضع له على وجه الإعتناء بوجه الطاعة حتى وصل إلى درجة الإحسان المفسر بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراكَ • أو أحسن في إسلامه بأن كان عاملاً للصالحات حتى يتقارن الإيمان والعمل الصالح • أو وهو محسن في خضوعه وإسلامه بأن كان على وجه إرشاد رسوله بدون تعنت وعناد منه ، وبدون تناسي وصاياه لا كأهل الكتاب الذين يدّعون الإسلام ويخرجون عن وصية الأنبياء ببيان نعوت الرسول العربي وكتابه وأمته والإيمان به فيكتمون الجميع وهم يعلمون • فمن أسلم وجهه لله على هذه الحال فلا خوف عليهم يوم القيامة من كل منتظر مكروه ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في حياة دنياهم لأنهم يدخلون عالماً أوسَعَ واَمْتَعَ من كل ما يتصور لنفسه في العالَمين •

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ : لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ ، وَقَالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كذلكَ قَالَ الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيمَا كانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ) (١١٣)

نزلت لما قدِمَ وَفدُ نَجران على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وَأَتاهُمْ أَحبارُ اليَهُودِ فوقع بينهما المناظرة فقال كلٌ ماقال . والوفد : القوم الوافدون أي القادمون . ونجران : كسكران اسم بلدة في اليمن فتحت سنة عشر من الهجرة فيها قوم من نصارى العرب . وقوله : (على شيىء) أي على أمر يصح ويعتد به . أي ما كانوا عليه أقل رتبة من المعدوم الممكن والمحال ، إذ يقال لهما (شيىء) بمعنى ما يصح أن يعلم ويخبر عنه . فلما لم يكونا على شيىء فقد بولغ في ترك الإعتداد إلى ما ليس بعده كما يقال : فلان أقل من (اللاشيىء) . والتوبيخ على قصد كل منهما إبطال دين الآخر وإنكار نبيه .

وقوله تعالى : (وهم يعلمون) الواو حالية ، والجملة حال . وقوله : (كذلك) مفعول به لقال ، وقدم عليه للإهتمام ، وقوله : (مثل قولهم) صفة قول مقدر ومفعول مطلق أي قال الذين لا يعلمون كلاماً مثل ذلك الكلام الذي قالته اليهود والنصارى . ويجوز أن يكون مثل ذلك صفة للمفعول به المقدر ، وكذلك حالاً له قدم عليه . أي قال الذين لا يعلمون الحق مثل عباد الاصنام والمعطلة قولاً مثل قول اليهود والنصارى بالنسبة إليهما والى المسلمين حال كونه كلاماً جارياً على ذلك المنهج ناشئاً عن الشهوة والغرور .

وحاصل التفسير : إن اليهود والنصارى تنافسوا بينهم وقال كل فريق للآخر : إنه ليس على شيىء ؛ لا دينٍ يعتدّ به ، ولا رسولٍ يُصَدَّق به . وقال الكفار المعطلة وعبدة الأصنام قولاً مثل قولهم بالنسبة إليهما وإلى المسلمين أيضاً . فالله تعالى يحكم بين كل من المتناظرين والمتنافسين يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَاكَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (١١٤)

قوله تعالى : (ومن أظلم) الآية نزلت في طيطوس بن آسيا قوس الرومي وأصحابه .

وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل فقتلوا مقاتليهم ، وسلبوا ذراريهم ، وحرقوا التوراة ، وخربوا بيت المقدس ، وقذفوا فيه الجيف ، وذبحوا فيه الخنازير ، وبقي خراباً إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ !

وروى عطاء عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنها نزلت في مشركي العرب منعوا المسلمين عام الحديبية من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام .

وظاهر الآية العموم في كل مانع وفي كل مسجد ، وخصوص السبب لايمنعه . وقوله : (أظلم) اسم التفضيل خبرٌ عن مَن ، ولايراد بالإستفهام حقيقته لأنه تعالى عالم بالأمر فهو مستعمل في معنى النفي . قوله (وسعى في خرابها) أي في هدمها وتعطيلها .

وقوله : (ماكان لهم أن يدخلوها) أي ماكانوا أهلاً ولائقاً بدخول ذلك المقام المقدس إلا خائفين من المؤمنين أن يطردوهم . أو ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلاّ بخشية وخشوع ، فضلاً عن أن يجترؤا على تخريبها ؛ لأنهم لوكانوا عقلاء كان حقهم ذلك .

واختلف الأئمة في دخول الكفار المساجد ، فجوزه الإمام أبو حنيفة مطلقاً سواء الحرم المكي وغيره للآية • فإنها تفيد دخولهم بخشية وخشوع ، ولأنّ وفد ثقيف قدموا عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزلهم المسجد ، ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من دَخَلَ دار أبي سفيان فهو آمن ، وَمَن دخَلَ الكعبةَ فهو آمِن" • ومنعه مالك مطلقاً إلا لحاجة • وفرّق الشافعيّ بين حَرم مَكّةَ ومَسْجدها فمنع دخولهم فيهما ، وجوزه في غيرهما •

قوله : (خزي) بالقتل والأسر كما في بدر وغيره من مواقف الجهاد في إعلاء كلمة الحق والدين •

والحاصلُ : يقول الباري سبحانه : ياحبيبي توجّه إليّ وَتَوكّل عَلَيّ ، وجامِلِ الناسَ إلى أنْ يأتي اللهُ بأمره ، ولا تهتمّ بأولئك الناس الظالمينَ ، بل أظلم الظالمين • فمن أظْلَم ممّن مَنَعَ مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه ، سواء كانوا من الروم وَمَنَعُوا الإسرائيليين من ذكر الله في بيت المقدس ، أو من مشركي العرب وَمَنَعُوكم مِن دخول مكة وأداء مناسِكِ العمرة ، أو من أحبْارِ اليهود في عصرك المانعين للناس من أمتهم وغيرها أنْ يؤمنوا برسالتك ، ويدخلوا مسجدك في المدينة ، أو من سائر الناس النّاسين لحقوق نعمةِ الله وعظمتِه ، وكلِ من شاكَلَهم وَسَعى في خرابها وهدمها وتعطيلها عن نشر الدين ، وتثقيف أجْيال المسلمين ، أولئك ماكان ينبغي لهم أن يدخلوا تلك المساجد إلا خائفين خاشعين لله • فاعلم ياحبيبي إنّ لهم خزياً في الدّنيا اليومَ أو غداً ، ولا يَفلتُون من الله أبَداً فإن الله له الإمهال ولكن لا إهمال له في رعاية حقوق العالمين ، وَلَهُم مَع خزي الدنيا عذابٌ عظيم يحكم به ربّ العالمين •

(ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم)(١١٥) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ انه قال: كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي على راحلته تطوعا أينما توجهت به وهو ذاهب من مكة إلى المدينة ، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية • وقال في هذا انزلت • أخرجه مسلم والترمذي والنسائي • وقال ابن عمر أيضا أنزلت (أينما تولوا فثم وجه الله) أن تصلي حيثما توجهت بك راحلتك في التطوع أخرجه الحاكم • وقال صحيح على شرط مسلم • وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنها نزلت في صلاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على النجاشي ملك الحبشة حين أخبره جبريل عليه السلام بوفاته وجمع الصحابة للصلاة عليه فاستبعد بعض الصلاة عليه ولا يعلم كيف حاله وأنه يصلي إلى بيت المقدس ونحن نصلي إلى الكعبة فنزلت • وكانت الواقعة بعد تحويل القبلة إلى الكعبة الشريفة •

وعن جابر بن عبدالله ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يصلي على راحلته قبل المشرق ، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى أخرجه البخاري •

والمستفاد من الروايتين أن الآية نزلت في صلاة التطوع في السفر إلى غير جهة القبلة • وهنا رواية أنها نزلت في صلاة الفرض إلى غير جهة القبلة فيخطىء المصلّي فإن صلاته صحيحة كما عليه الأئمة الثلاثة ، لكنها ليست قوية عند المحدثين • نعم إذا كان الخطأ غير معين كما لو صلّى لأربع جهات بأربع اجتهادات فإن صلاته صحيحة ولا قضاء هنالك •

وقوله تعالى : (ولله المشرق والمغرب) المراد بهما الجهتان المعينتان على وجه أن تكونا كناية عن الأرض كلها • والمقصود أنه إذا منعتم من

الصّلاة في المسجد الحرام كما في عام الحديبية أو في المسجد الأقصى فصلوا في غيرهما من الأمكنة ، فإن الأرض كلها مسجد للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأمته ، وطهور لمن تيمم بترابها النظيف • وليس دين الإسلام على حصر الصلاة في المساجد كما في العهود السابقة ، فلم تجز الصلاة في غير البيع والكنائس إلا عند الضرورة • أو ان المشرق والمغرب ملك لله فله أن يرتضي التوجه في الصلاة مطلقاً أو في النافلة ـ إلى أية جهة •

وقوله تعالى : (فأينما تولوا) • إن حمَلنا الآية على صلاة التطوع في السفر فأينما ظرف مكان لازم للظرفية و (تولوا) منزل منزلة اللازم ، والمعنى ففي أيّ مكان فَعلتُم أيَّ تَولِية صحّت صلاتكم • وإن حملناها على مطلق الصلاة فالمعنى ففي أيّ مكان فعلتم التولية إلى أي جهة فقد صحت صلاتكم إذا عميت عليكم جهةُ القبلة كما عليه الأئمة الثلاثة • وكذا الإمام الشافعي في أحد قوليه • وأما حمل الآية الشريفة على مطلق الصلاة وتقييد الجهة بالقبلة كما قال البيضاوى رحمه الله تعالى فبعيد عن سياق التعميم المستفاد من قوله تعالى ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثم وجه الله • وقوله تعالى : (فثم وجه الله) أي جهته التي إرتضاها للتوجه إليها وأمر بها أو بمعنى ذاته أي فهو حاضر مطلع على عبادتكم ، وإنما أول بذلك لتنزهه عن المكان والجهة • وإذا قلنا إن الآية الشريفة توطئة لنسخ القبلة وإفادة أن الله تعالى محيط بكل جهة إحاطة علم وتصرف فله أن يرتضي ماشاء منها لاستقبالها فهي واضحة عند الناظرين • وقوله تعالى : (إن الله واسع عليم) أي محيط بالكائنات عليم بالكليات والجزئيات يتصرف في تخصيص أي جزء منها بكونه قبلة للمسلمين •

(وقالوا : اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون (١١٦) بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن ، فيكون) • (١١٧)

نزلت في رد اليهود والنصارى ، حيث قالت الأولى : إن عزيراً ابن الله ، والثانية إن المسيح ابن الله • وفي رد المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً • وذلك لفرط جهلهم وغباوتهم ، وعدم معرفتهم بالباري سبحانه معرفة سليمة بالإعتقاد بأنه متصف بالكمال ومنزه عن النقص ، وسر البقاء في ذلك الجهل إفراطهم في المادية وزعمهم أن الأصل في الكائنات المادة ، وأن الإله لابد أن يتمازج مع المادة • وقد رد الله عليهم مزاعمهم الباطلة بعبارات •

الأولى قوله تعالى : سبحانه ، وهو علم جنس للتسبيح ، وسرّ التنزيه أن الولادة تقتضي المجانسة والحاجة إلى البقاء وسرعة فناء المحتاج • والباري تعالى واجب الوجود المنحصر في الفرد ، وليس مجانساً للممكنات وقديم باق بالذات لا يعتريه الفناء ؛ فلا يحتاج في حفظ النوع إلى التناسل فهو بريء من أن يكون له ولد •

والثانية قوله تعالى : (بل له مافي السموات والأرض) يعني أن كل مافي الكون الأعلى والأسفل ملك له تعالى ، وهو خالق له ، ومن أجزائه عزير ، والمسيح والملائكة ، والمخلوق لايكون مجانساً للخالق فلا يحتاج إليه •

والثالثة : قوله تعالى : (كل له قانتون) أي كل مافي السماوات والأرض قانتون منقادون مطيعون له تحت تصرفه وقدرته بالإيجاد

والإعدام ، وما على هذه الصفات لايجانس خالق الأرض والسماوات لأنها من الممكنات والخالق واجب بالذات .

والرابعة : قوله تعالى : (بديع السماوات والأرض) أي مبدعهما ومخرجهما من العدم إلى الوجود والوالد ينفعل بانفعال مادة الولد وعنصره الموافق له . والواجب الوجود بريء من الإنفعالات ،فاعتقاد وجود الأولاد له يناقض الإعتقاد بوجوب وجوده .

والخامسة : قوله تعالى : (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن ، فيكون) أي إذا أراد حدوث حادث فلا مانع من إخراجه له إلى الوجود ، وإنما يأمر أمراً تسخيرياً يمثل له في سرعة النفاذ بقول (كن فيكون) فلا معنى للإعتقاد بأن حفنات من التراب أو أجساماً مخلوقة بدون علاقة الإنتساب أولاداً له تعالى .

فوائد : الأولى : فرق في شرح الإشارات بين الصنع ، والإبداع ، والإيجاد ، والتكوين ، والإحداث : بأن الصنع الإيجاد بعد العدم ، فهو والإيجاد عامان . والإبداع إيجاد من غير مادة ولا زمان ، فهو أعلى مرتبة من التكوين والإحداث ؛ لأن التكوين إيجاد من مادة ، والإحداث أن يكون مع الشيء وجود زماني وكل واحد منهما يقابل الإبداع من وجه ، والإبداع أقدم منهما ؛ لأن المادة لايمكن أن تحصل بالتكوين ، والزمان لايمكن أن يحصل بالإحداث لامتناع كونهما مسبوقين بمادة أخرى وزمان آخر . انتهى

قلت : لم يستند شارح الإشارات في تلك الفروق على شيء يعتد به ، لا لغة ولا عرفاً . وبعض مما قاله مبني على أصل فلسفي ليس بمسلم

عندنا • فإن الزمان عندنا موهوم ، وسبق المادة على إحداث المركبات لحمل الإمكان الإستعدادي ووجود الزمان ليكون ظرفاً لتعاقب الإستعدادات عندنا من أحاديث خرافة •

وكلام البيضاوي أقربُ إلى القبول ، وهو : أن الإبداع الإيجادُ الدفعي من غير مادة ؛ لأنه معنى الاختراع • والصنع الإيجاد عن مادة وهي العنصر الذي فيه صورته كالخشب للسرير • والتكوين إيجاد من مادة خلعت عنها صورتها الأولى التي هي صورة أخرى في زمان كتكوين الطفل من المضغة ، وهي من العلقة ، وهي من النطفة •

وما قيل من أن الإبداع بهذا المعنى لايناسب السماوات لإيجادها عن مادة الدخان مدفوعٌ بأن الإبداع متوجه إلى الأصل والفرع معاً ولم يكن شيىء آخر قبلهما •

الثانية : أن القضاء فصل الحكم في الشيىء قولاً وهو ظاهر ، أو فعلاً وهو إيجاده • ولما كان ذلك يستلزم الإرادة أطلق عليها • فعلم أنه يستعمل بمعنى الإيجاد ، ويقابله القدر بمعنى التقدير ، وقد يعكس ذلكَ • ومنهم من يفرق بين قدر الله وقضائه ؛ فيجعل القدر تقديره الأمور قبل أن تقع ، والقضاء إنفاذ ذلك القدر وخروجه من العدم إلى حدِّ الفعل ، وهذا هو الصحيح ؛ لأنه قد جاء في الحديث أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرّ بكهف مائل للسقوط فأسرع المشي حتى جاوزه ، فقيل له : أَتَفِرُّ مِنْ قضاء الله ؟ فقال : أَفِرُّ من قضائه تعالى الى قدره • ففرّق ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين القضاء والقدر ، وبيّن أن الإنسان يَجبُ أَن يَتَوقّى •

الثالثة : أن (كن فيكون) من كان التامة الدالة على وجود الشيء في نفسه ، وهي تدل على معنى الناقصة ؛ لأن الوجود المطلق أعم من وجوده في نفسه أو في غيره ؛ لأن الله تعالى كما يفيض الوجود في نفسه يفيض الوجود لغيره وهو ـ أيضاً ـ إنما يكون بأن يقول للشيء كن كذا .

ثم في هذا الأمر للعلماء آراء : منها أن هذا الأمر تمثيل لسرعة نفاذ أمره تعالى في المأمور بلا مهلة ، وليس هناك قول دال على الطلب ولا مأمور، بل المقصود ظهور المراد على الوجه الذي أريد . كما أنه ليس المقصود أن سنته في الخلق جرت هكذا ؛ لأنه تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيّام ، بل المقصود أنه قادر على تنفيذ ما أراد في أقل من لمحة العين بلا مهلة وبين .

ومنها أنه على تقدير تحقق الأمر والمأمور إن الأمر هو الطلب النفسي القائم بذاته تعالى والمأمور هو الشيء الموجود بالصورة العلمية الإجمالية أزلاً وفهمه للطلب من أسرار القدر ، والمأمور به المطلوب هو الوجود الخارجي للشيء سواء كان من الأعيان أو الأعراض . أي أطلب منك أن تتحول من الصورة العلمية والوجود الذهني إلى الوجود الخارجي على ما ذكرناه من الطلب التسخيري .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ : لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ ، أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (١١٩)

قوله تعالى : (وقال الذين) عطف على قوله (وقالوا اتخذ الله) . ووجه الإرتباط أن الأول كان قدحاً في التوحيد ، وهذا قدح في النبوة . والمراد من الذين لا يعلمون جهلة المشركين ، كما روي عن قتادة والسدي والحسن . أو اليهود الذين كانوا على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدليل ما روي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رافع بن خذيمة من اليهود قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن كنت رسولاً من عند الله فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه ! وقال مجاهد : المراد به النصارى . ورجحه الطبري بأنهم المذكورون . ونفي العلم عن المشركين على حقيقته ، إذ لم يكن لهم كتاب ، وعن أهل الكتاب مجاز ؛ لتجاهلهم ، أو لعدم جريهم على مقتضى علمهم . وقوله : (لولا يكلمنا الله) أي هلا يكلمنا بأنك رسول له. وقوله (أو تأتينا آية) أي حجة على صدقك في دعوى الرسالة ، وهذا تعنت وجحود منهم لأنه قد أتتهم آيات بينات في الكتب القديمة التي كانت عندهم ، وفي هذا العهد أيضاً .

وقوله : (كذلك قال) أي مثل ذلك الكلام قال الذين من قبلهم ، فقالوا : أرنا الله جهرة ، ونحو ذلك فهو مفعول به . وقوله : (مثل قولهم) مفعول مطلق لقال . أي قولاً كقولهم ونطقاً كنطقهم على طريق العناد والإستكبار . وقوله : (تشابهت قلوبهم) إستئناف لبيان أن قلوبهم كقلوبهم فهي عيون ماء الممات لا ينابيع مياه الحياة . وقوله : (قد بينا الآيات) أي نحن فرغنا عن أداء ما هو من سنتنا من تأييد الرسل بالآيات البينات والبراهين الساطعة ، لكنها لقوم يوقنون . ولما ورد على الرسول ـ صلى الله عليه وسم ـ ما ورد من أسئلة التعنت والإستكبار ثبّت الله تعالى قلبه

بقوله : (إنا أرسلناك بالحق) أي متلبساً بالكتاب الحق والدين الحق ، بشيراً للمستبشرين ، ونذيراً مهدداً للمستكبرين ، ولاتسئل أنت عن أصحاب الجحيم لم دخلوا النار الملتهبة ؟ لأنهم هم الذين قابلوا الرسل بالإستكبار فاستحقوا الخلود في عذاب النار ، أعاذنا الله الستار •

(وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصارى حَتّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ : إِنَّ هُدى اللهِ هُوَ الْهُدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)(١٢٠)

قوله تعالى : (ولن ترضى) إقناط منه تعالى لحبيبه في رجاء إيمان أهل الكتاب المردة المستكبرين العصاة القساة بأنهم لن يَرْضوا عنك حتى تتبع أنت ، وأنت رسولنا بالحق ، ملتهم المنسوخة من الله المحرفة من أنفسهم ، فكيف تأمل في إتباعهم لك وإيمانهم بك ؟ فقل في إعلان كونهم على الضلال : إن هدى الله الذي يهتدي به الناجون هو الهُدى المتبع لا غيره ، وهو الهوى المبتدع ، ولئن اتبعت أهواءهم الباطلة المبنية على الظنون والأوهام بعد الذي جاءك من العلم واليقين الواصل إليك من الله العلام مالك من الله تعالى من ولي يتولاك ، ولا نصير ينصرك •

(الَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ اوُلئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ) (١٢١) نزلت في أصحاب السفينة الذين أقبلوا من الحبشة مع جعفر ابن أبي طالب • قوله : (الذين اتيناهم) الموصول مع صلته مبتدأ ، وجملة (يتلونه) حال من المفعولين ، وجملة (أولئك يؤمنون به) خبره •

يعني أن أهل الكتاب الذين آتيناهم الكتاب على لسان رسولهم ، وحالهم أنهم يتلونه حق تلاوته أي مع الإيمان به والعمل على مقتضاه أولئك الذين يؤمنون بذلك الكتاب أو بكتابكم المنزل من الله الوهاب ، ومن يكفر به أي يتلونه لاحق التلاوة بل على وجه الغش والخداع ولا يجاوز تراقيهم فأولئك هم الخاسرون في الأول والآخر وهم من أصحاب الجحيم .

ولما افتتح الباري قصة بني إسرائيل بتذكيرهم بالنعم التي أفاضها على السلف منهم لكونهم أهل الشرف ختمها بمثل ذلك لتذكير ما هناك . وقال :

(يا بَني إسرَائيلَ اذكُروا نِعمَتيَ الَّتي أنعَمتُ عَلَيكُم وأنّي فَضَّلتُكُم على العَالَمِينَ) (١٢٢) في عصر المطيعين المسالمين . ولما كان وجه التفضيل على ذلك الدليل فمن انحرف عن طريق الهدى وسلك مسلك أهل الهوى والردى فأولئك هم الذين يتيهون في تيه الهوان والخسران جزاء لما هم اختاروه من العناد والكفران .

وهذه السنة السنية هي سنة الله في الكون مع البرية فمن سلك مسلك الحق وآمن بالله ورسوله فقد فاز ، ومن انحرف عن ذلك فأولئك هم الخائبون .

(وَاتَّقُوا يَوماً لاتَجزِي نَفسٌ عَن نَفسٍ شَيئاً ، وَلايُقبَلُ مِنها عَدلٌ ، ولاتَنفَعُها شَفَاعَةٌ ولاَ هُم يُنصَرُونَ)(١٢٣)

يعني : واخشوا يا بني إسرائيل أو يا أيها الناس عذاب يوم مهم مبهم الهوية من حيث شدّته وهوله وكفى في وصفه الرهيب أنه لاتجزي فيه

أيّة نفسٍ صالحة مؤمنةٍ عن نفس فاسدةٍ كافرةٍ شيئاً من النفع ، ولايقبل منها عدل وفداء لها ، ولا تنفعها شفاعة ورَجاء ، ولا هم يُنصرون من أي كبير أو أمير بمقدار كثير ولايسير ، والأمر يومئذ لله . فآمنوا بالله ورسوله حتى تدخلوا بابَ أمانِهِ وقبولهِ ويفتح لكم أبواب الوصول بشفاعة الرسول . وهذا هو النيل من الحياة الإنسانية وذلك خير محصول .

ولما قصّ على حبيبه قصة بني إسرائيل وثبّت فؤادَه بآيات الوحي والتنزيل وهو أيضا من نسل إبراهيم الخليل ذكّر الكل بقصة إصطفائه إماماً للأنام ، وتشريفه بفتح باب التوحيد والإسلام . فقال :

(وَاِذِ ابْتَلى اِبْرَاهيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَاَتَمَّهُنَّ قال : إنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إماماً ، قال : وَمِنْ ذُرّيَّتي ، قال : لايَنالُ عَهْدي الظّالِمينَ) (١٢٤)

في دائرة المعارف للعالم المصري (فريد وجدي) مانصه : هو رسول الله الجليل جدّ خاتم النبيين محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولد في بلدة (أور) من بلاد بابل قبل ميلاد عيسى عليه السلام بألفي عام ، وهو من الجيل الثامن من ذرية (سام ابن نوح) عليه السلام تزوج بسارة ثم بهاجر جارية سارة وَهَبَتْها له ، فَوَلَدت له إسماعيلَ عليه السلام ، وهو الذي هاجر إلى بلاد العرب ، وبَنَى مع أبيه إبراهيم الكعبةَ ثم رحل أبوه إلى الشام ، وبقي هو في بلاد العَرب ، فصاهَرَ بني جُرْهُمْ ، وَوُلِد له من إمرأته دَعْلة بنت مَضاض إثني عشر ذكراً وبنتاً واحدة .

وكان إبراهيم عليه السلام يُعاوِدُ ابنَه بالزيارة في مكة فأُمِر في آخر زياراته ببناء البيت الحرام فبناه هُو وابنُه . ولما ارتفع جداره قام

إبراهيم على حجر ليلحق الحائط فذلك المحل يسمى مقامَ إبراهيم • ثم رَحَل إبراهيم إلى الشام وتوفى بها بعد أن عاش مائة وسبعاً وخمسين سنة كما في بعض الروايات •

هذا الرسول الكريمُ يعد في تأريخ الأديان عامّة من كبار أولي العزم فيعتبره اليهود كرأس شعبهم المختار ، ويَعُدُّه النصارى على قدر العلاقة الموجودة بين دينهم وتأريخ العبرانيين ، ويعتبره المسلمون جدّاً للعرب الذين منهم خاتم النبيين ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد نص الكتاب على أنّه أوّلُ من سَمّاهُمُ المسلمين • إنتهى

وقد كتب في بعض كتب تأريخ الشرق القديم أن سيدنا إبراهيم الخليل ولد في (كُوثى) قرب بلدة (حلّة) الحالية ، وفي رواية ولد في (شرقات) وأخرى ولد في (شوش) قرية قربَ قضاء (عقرة) من أعمال المَوْصِل ، وذلك لأن أهل ذلك العصر كانوا غالباً يصطافون في بعض بقاع الشمال • ومن المشهور أن محل النار التي ألقوه عليه السلام فيها بين قضاء (رانية) وقضاء (قلعة دزه) وقيل :إن محلّها بلدة (أورفه) من كردستان تركيا والله أعلم •

والمراد بابتلائه تعالى لإبراهيم أنه نظر إليه نظر الرحمة حين تفكّر في آزر وقومه ومِلِكهم عاكفين على أصنام منحوتة لا حول ولا قوة لها ، يقدسونها ويرقصون حولها • وعلم أن تلك الشعارات شعارٌ بلا شعور ، ومنار بلا نور ، فتطور فكره إلى جهة العلو ، وتدرّج في مراتب إشعاع الكواكب الفلكية من الكوكب إلى القمر ، إلى الشمس البازغة ، فَعَدَلَ عَن كلّها لأُفُولِها ، وتَوَجَّه إلى فاطر السماوات والأرض الذي سخّر الكائنات بقدرته وجعلها مظاهر نور رحمته وإفاضة نعمته • وأكد على ربوبيته وإستحقاقه للعبادة وقال : إني وجّهتُ وجهي للذي فَطَرَ

السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين • لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين •

ولما تنوّرت روحه وقلبه إنشرح صدره وظهر عنده مبدؤه وأمره •• واجه أباه وقومه والملك القائم بأمرهم بكلمات هي أشدّ وقعاً من السيوف الصوارم ، بل كان كل حرف منها سيفاً • فقال لأبيه آزر : (أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إني أريك وقومك في ضلال مبين) فوقع آزر في تنّور من **النار من لهيب رفض معتقداته التي هي حياته ومماته ، ناره ونوره ،** حزنه وسروره ، دينه ودنياه رشاياه وهواياه ، وفي حواجز من الغرائز **إذ المعارض له إبنه وفلذة كبده ، وفي مقام الرأس من جسده ، وله أم وأفراد عائلة في قلب كل منها عنه خطر وغائلة ، وأخذ جانباً من الأمر** منتظراً لعارضة تأتي بندم إبراهيم ويسر في فكره إذا واجه قومه **معه بأشدّ من ذلك فقال لهم : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟** قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين • **قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ قال : بل ربكم رب** السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم **جذاذاً إلاّ كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون • قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين •**

قالوا : سمعنا فتىً يذكرهم يقال له : إبراهيم • قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلّهم يشهدون • **قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا**

يا إبراهيم ؟ قال بَل فَعَلَه كبيرهم هذا فَاسألوهم ان كانوا يَنطقون فرجَعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نُكِسوا على رؤوسِهم ، لَقَد علمتَ ما هؤلاءِ يَنطِقون • قال : أفتَعبدونَ من دون الله مالايَنفَعكم شيئاً ولايَضرّكم ؟ أفٍّ لكم ولِما تَعبُدونَ من دون اللهِ ! أفلا تعقلون الآية ؟

هذه هي المناظرات والمشاجرات القولية ، والأحداث العمليّة التي وقعَت بينه وبين أبيه وقومه ، ثم اشتهر الأمر واستفحل الخطر ، وراجَعوا الملِك حولَ الموضوع ، واستقر الرأي على إحراقه بالنار ، وجَعْل ذراتِ جَسده كالغبار ليعتبر به أهل الديار ! فقالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين فأوقَدوا ناراً من حطب الشمال ، وكان لهيبها يَعلو على التلال ، ولم يقدروا أن يقتربوا منها ، فجَعَلوه في (منجنيق) منصوب على مرتفع مشرف على وادي النار ، فرمَوه به إليها وألقوه فيها حتى لايبقى الا قليل من الآثار ، فحفظه الحفيظ العليم ، حيث يقول : (قلنا : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم !)

وأرادوا به كيداً (أي إحراقاً بمكيدة إستعمال المنجنيق) فنجينا إبراهيم وجَعَلناهم الأخسرين ، ولما نجا بحفظ مَن إليه يلجأ أمَر ملكُ الديار الآمرِ بإشعال النار بإحضار إبراهيم ، فأحضَروه ، فخاطَبَه خطابَ العتو والعناد : من ربكَ الذي تدعو إليه العباد ؟ قال إبراهيم الرشيد الأمين معرضاً عن بيان شخص رب العالمين إلى ذكر أوصافه العظيمة عند أهل التثبيت : وقال : ربي الذي يحي ويميت أي يحي من أرادَ خلقه وبقاءه ويميت من أراد زواله وفناءه ، ومن جملتهم إبراهيم الماثل بين يديك الذي توكل عليه لا عَليك • قال نمرود الكافر مشيراً الى الحال الظاهر : انا أحي مَن أردتُ بقاءه بإطلاق سراحه من السجون ، وأميت

من أريدُ زواله بسجنه أو الأمر بقتله وبالقائه في غياهب المنون . فانتقل إبراهيم من غير عجزٍ عَن تحوير قوله وبيان المراد من أصله فقال : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، وعلم الكل أن نمرود هو الذي خَسَرَ ، فرأى اَنْ يُبْعِدَهُ من الديار . فأمرَ بتهجيره بدون أيّ إستقرار . كما قال سبحانه : (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) وهي الأردن والقدس وفلسطين .

وهـذه هي الكلمات التي نبعت مـن رشـد القلب ، وخالص الروح واللّب ، وجرأة النفس والتوكل على ذات القدس ، واستمساك الأعصاب لتحويل الأمة إلى الصّواب . وبعد الخلاص من مهلكة الكلمات وما اختبره به رب الأرض والسماوات . قال له تعالى (إني جاعلك للناس إماماً) نبياً ورسولاً ومنزلٌ عليك كلاماً فاسْترشدْ بهِ وَأرشدِ الأنامَ ، وعلمهم العقائد والأحكام ، وَبعّدْهم عن اَوساخ الأوثان وأوهام الأصنام . قال إبراهيم متعالياً عن اختصاص نفسه مترجياً بقاء الدين في رديته لدوام قدسه . (ومن ذريتي) فأجابه رب العالمين بقوله : أما الصالحون السالمون فنعم ، وأما الظالمون فلا وحاشا وكلاّ فإن عهدي بالنبوة والرسالة لاينال أهل الضلالة ، فإني حَرّمْتُ الظلم على نفسي وحرّمتُ عَهْدي على الظالمين .

فالكلمات هي تلك الكلمات التي نَبَعَتْ من عين الحياة وبَعّدَ النّاس عن الظلمات ، وأما الخصال الثلاثون التي عَشْرٌ منها في سورة براءة من قوله (التائبون العابدون) إلى آخر الآية . وعشر منها في سورة الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات) الآية وعشر منها في سورة المؤمنون : (قد افلح المؤمنون الذين هم في صلوتهم خاشعون) إلى قوله تعالى

أولئك هم الوارثون ، وعشر منها في سورة المعارج التي إذا جمعتها وتركت المكرر منها تبقى منها ثلاثون ، والخصال التي كانت فرضاً في شرعه وهي سُنّة في شرعنا ، وهي خمس في الرأس : السواك ، والمضمضة ، والاستنشاق ، وقص الشارب ، وفَرْقُ الرأسِ ، ـ أي فرق شعره ـ وخمس في البدن : الإستنجاء بالماء ، والختان ، وحَلْق العانة ، ونَتْف الإبط ، وتقليم الأظافر . ومناسك الحج من الاحرام ، والطّواف بالكعبة ، والسّعي بين الصفا والمروة ، ووقوف عرفات ، ورمي الجمرات . فكل ذلك كان بعد النبوة والرسالة وأخذ الإمامة وهي من الأحكام والآداب التي يقوم بها آحاد الأمة من الصالحين ، وليست نقاط الابتلاء للأنبياء والرسل من رب العالمين . نعم إن الإلقاء في النار ، ثم تهجيره من الديار ، وتغريب ولده الممتاز الى بلاد الحجاز ، والقيام بذبحه بلا تردد وانحياز ، حقاً من المهمات المهمات ، ولكنها كانت بعد إعطاء عهد الرسالة وبعد نيل شرف المقام والجلالة ، وتلك الأتعاب ، والإبتلاء بتلك الكلمات كانت من الأسباب لنيل ما نال ، والسبب مقدم على المسبب في كلّ حال . على أن التعب الذي له قيمة قائمة ماكان قبل شرب لذات الوحي والمناجاة وإلا فالأتعاب بعده ليس له قدر في جنب ما استفاد من أنوار الوحي والبركات .

(فائدة) غفل من نقد عصمة الأنبياء والرسل الكرام وبما طرأ على سيدنا إبراهيم عليه السلام من مقالاته عند رؤية الكوكب والقمر والشمس ؛ فإن تلك المقالات كانت سوانح فكرية وعوارض نفسية قبل إستقرار النفس على كرسي القدس ، فلم تكن عن إيمان وإذعان بل كانت من بنات الأفكار الواردة على قلب الإنسان ، ألا ترى أنه لما ترك الخيالات على الطول والعرض كيف إستقر رأيه وقال : إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات

والأرض ؟ فكن في نحو هذه الخيالات على البصيرة ، والله شهيد على كل سريرة .

قوله : (إني جاعلك) من الجعل بمعنى التصيير . وقوله : (للناس) اللام فيه للجنس أو للإستغراق العرفيّ . وقوله : (إماماً) بكسر الهمزة إسم مفرد بمعنى القدوة الذي يأتم به الناس ويقتدون به ، ويمشون على طريقه ، ومنه قيل لخيط البناء إمام . ويحتمل أنه كان في الأصل مصدراً كصراف بمعنى القصد فجعل اسماً لمن يقتدي به ؛ لأنه لما قصده الناس وراجعوه كثيراً صار كأنه القصد مبالغة ، فاستعمل بمعنى المقصود . والذرّية : نسل الرجل ، وأصلها الأولاد الصغار ، ثم عمّت الصّغار والكبار الواحد والمتعدد ، واشتقاقها إن كان من الذرّ المضاعف ، كما ورد في الخبر ، (ان الخلق كان كالذرّ) والياء للنسبة فوزنها فُعْلِيَّة بضم الفاء وسكون العين وكسر اللام وياء النسبة وتاء التأنيث كالحرّيّة . وإن لم تكن الياء لها فوزنها إما فُعّولَة بضم الفاء وتشديد العين ، وأصلها ذُرّورَة بذال معجمة وراء مهملة مشدّدة وواو ساكنة زائدة ثم راء ثالثة كذلك فقلبت الراء الأخيرة ياء على قانون القلب في المضاعف كما في تَقَضّيت . وأصله تَقَضّضْت كتعلّمت فاجتمعت الواو والياء فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وكسر ما قبلها للمناسبة . وأما فُعّيلَة بضم الفاء وكسر العين المشددة وأصله ذُرّيرَة بذال مضمومة وراء مشددة مكسورة وياء ساكنة زائدة وراء كذلك مفتوحة ، قلبت الراء الأخيرة ياء وأدغمت الياء في الياء فصار ذرّيّة بضم الذال وكسر الراء المشدّدة وفتح الياء كذلك .

وإن كانت من ذرأ بمعنى خلق بالهمز فوزنه إما فُعّولة بضم الفاء وتشديد العين المضمومة وأصلها ذرّوءة بذال وراء مشددة مضمومة ، وواو ساكنة زائدة فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وكسرت الراء قبلها

للمناسبة فصارت ذُرِّيّة . وأمّا فُعيلة بضم الفاء وكسر العين المشددة وأصلها ذُرِّيئة فقلبت الهمزة ياء وأدغمت الياء في الياء فصارت ذرِّية .

وإن كانت معتل اللام الواوي من ذَرَتِ الريحُ الشيءَ إذا أطارَتْهُ وَأَذْهَبَتْهُ فأصْلُها ذُرُّووَةٌ بذال مضمومة وراء مشددة كذلك وواو ساكنة زائدة وأخرى أصلية على وزن فعّولة ، فاجتمعت واوان زائدة وأصلية فقلبت الأصلية ياء فاجتمعت واو وياء والسابقة منهما ساكنة فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء فصار ذُرِّيّة . وقيل : فُعِّيلة وأصلها ذُرِّيوَةٌ بضم الذال وكسر الراء المشددة وياء ساكنة وواو مفتوحة فأعلّت كما مرّ .

وإن كانت من ذريت فوزنها إما فُعولة وأصلها ذُرّوية فأعلّت . أو فُعِّيلة فأصلها ذُرِّيية فأدغمت الياء في الياء . هذا .

وفي قوله تعالى : (لاينال عهدي الظالمين) دليل على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر قبل البعثة ؛ لأن معنى الآية الشريفة أنه لاينال عهد الإمامة بمعنى النبوة والرسالة مَن كان حال وصول العهد إليه ظالماً ، والظلم إذا أطلق ينصرف إلى الكبائر من الكفر وما دونها من سائر الذنوب الكبيرة .

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (١٢٥)

قوله : وإذ جعلنا أي واذكر ياحبيبي . والجعل للتصيير فيتعدى إلى مفعولين ؛ أولهما البيت ، والثاني مثابة . وعطف عليها أمنا . والبيت صار

علماً بالغلبة للكعبة الشريفة ، كالمدينة لبلد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والمثابة بمعنى المرجع أو محل الثواب وجزاء الأعمال ، أو دخلت الهاء على المثابة للمبالغة لكثرة الناس الذين يرجعون إليه أي يحجون مرة بعد أخرى . أو المرجع والمثابة بمعنى المقصد للدخول فيه .

وقوله : (أمنا) أي وموضع أمن لايتعرض لأهله مثل ما يتعرض لأهل سائر الأماكن ، أو موضع أمن من عذاب الآخرة وعقاب الذنوب لورود الأخبار الكثيرة في حق الحجاج المخلصين لله تعالى بمغفرة الذنوب والأمان من العذاب .

واستدل به أبو حنيفة على ترك إقامة الحد في الحرم على المحصن والسارق إذا لجأ إليه وغيره على خلاف ذلك . وإن ذلك من المنسوخ لأن الإتفاق حاصل أنه لا يقتل في البيت ويقتل خارجه . وإنما الخلاف في أنه هل يقتل في الحرم أم لا . والحرم لايقع عليه اسم البيت .

وقوله تعالى : (واتخذوا من مقام إبراهيم) قرأه جمهور القراء بصيغة الأمر من باب الإفتعال ، والجملة معطوفة على قوله وإذ جعلنا بتقدير القول أي وقلنا لهم : إتخذوا آه ، والمقام في اللغة موضع القدمين . والأصح أنه الحجر الذي كان الناس الحجاج يصلون عنده ركعتي طواف القدوم . وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رأى البيت إستلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فصلى ركعتين قرأ فيهما بقل هو الله أحد ، وقل يا ايها الكافرون .

وفي البخاري أنه الحجر الذي إرتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناولها إياه في بناء البيت ، وغرقت قدماه

فيه قال أنس : رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه • غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم •

وفي فتح الباري : أنه كان المقام أي الحجر من عهد إبراهيم عليه السلام لزيق البيت إلى أن أخّره عمر ــ رضى الله تعالى عنه ــ إلى المكان الذي هو فيه الآن • أخرجه عبدالرزاق بسند قوي ، وأخرج إبن مردويه بسند ضعيف عن مجاهد : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو الذي حوّله أي إلى الموضع الذي بقي فيه ، وهو بعيد من الحجر الأسود بسبعة وعشرين ذراعاً • وعلمنا أن أمير دولة السعود حوله من موضعه القديم إلى أبعد منه ؛ وذلك لتسهيل طواف الحجاج بالبيت عند الإزدحام •

وروي أن سيدنا إبراهيم لما أذن في الناس بالحج قام على ذلك الحجر ودعاهم إليه ، والمشهور أن دعوة الناس إليه كانت فوق جبل أبي قبيس فإنه صعده بعد الفراغ من عمارة البيت ، ونادى أيها الناس حجوا بيت ربكم ، فإذا صحت الرواية مع ذلك المشهور فالجمع هو أنه عليه السلام أذّنَ في الناس بالحج مرتين : مرة قام على الحجر ودعاهم إليه ، ومرة أخرى صَعِد الجبل وأذّن فيهم بالحج •

والذي أعتقده أن دعاء الناس إليه كان على ذلك الحجر عند البيت ، وبما أن الدعوة كانت حسب أمره تعالى بها تلقاها كل روح قدر لصاحبها حج البيت الشريف • وإذا ثبت الصعود على جبل أبي قبيس وكان الدعوة عليه فلا كلام لأحد ؛ إذ لا اجتهادَ مع النصّ • والله اعلم

وسبب النزول ما أخرجه أبو نعيم من حديث عمر أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخذ بيد عمر ــ رضى الله عنه ــ فقال : يا عمر هذا مقام إبراهيم • فقال عمر : أفلا تتخذه مصلى ؟ فقال : لم أومر بذلك •

فلم تغب الشمس حتى نزلت هذه الآية • والأمر فيها للإستحباب إذ المتبادر من المصلى موضع الصلاة مطلقاً • وقيل : المراد به الأمر بركعتي الطواف لحديث مسلم السابق •

وقوله تعالى : (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل) أي أمرناهما بأن طهّرا • وأمره إبراهيم كان بالوحي وكذلك إسماعيل ، إذا كان عند بناء البيت رسولاً ، وإلا فعلى لسان أبيه إبراهيم عليهما السلام • والمراد بالنسبة إليهما تطهيره وما حوله من الأنجاس والأوساخ وكل مستقذر لا يناسب المعابد • ودخل في هذا الحكم جميع بيوته ، فيكون حكمها حكمه في التطهير والنظافة وتخصيصه بالذكر لإنحصاره في الفرد إذ ذاك بالنسبة إلى الحجاز • ويدخل في متعلق التطهير الأصنام والأوثان وصورها وآثارها ؛ لأنها من الأنجاس المعنوية التي يجب تطهير المعابد منها •

وقوله : (للطائفين والعاكفين) قالوا : المراد بالطائفين الغرباء الواردون على البيت ، وبالعاكفين المتوطنون • والظاهر أن المراد المعتكفون ، وأن الطائف قد يكون غريبا وقد يكون متوطناً ، وكذا المعتكف • فبينهما عموم من وجه • فقد يكون المسلم طائفاً وعاكفاً أي معتكفاً ، وقد يكون طائفاً لا معتكفاً ، وقد يكون معتكفاً لا طائفاً • وكل منهما مطلق يحتمل أن يكون مسافراً أو مقيماً وغريبا أو متوطناً • وإن المراد بالركع السجود هم المصلّون الذين يؤدون صلواتهم بكمال الأركان والشروط • وخص الركوع والسجود بالذكر ، لأن آثار الصلاة وهيأتها الخشوعية وهيبتها التعبدية تظهر فيهما أو للإحتراز عن صلاة اليهود الخالية عن الركوع والسجود •

واستدل الشافعي وأبو حنيفة والثوري وجماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والنفل داخل البيت • قال الشافعي ـ رضى الله

عنه ـ : إن صلى في جوفها مستقبلاً حائطاً من حيطانها فصلاته جائزة ، وان صلى نحو الباب والباب مفتوح فصلاته باطلة إلا إذا إرتفعت عتبته نحو ثلثي ذراع .

واختلفوا أيّهما أفضل : الصّلاة عند البيت ؟ أو الطواف حوله ؟ والجمهور على أن الصلاة أفضل . وقال مالك : الطّواف لأهل الأمصار أفضل والصلاة لأهل مكة أفضل . عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لولا فيكم رِجالٌ خشّع ، وبهائم رتّع ، وصبيان رضّع ، لصب العذاب على المذنبين صبّاً . وفي حديث آخر (وشيوخ ركّع) وفي حديث أبي ذر : الصلاة خيرٌ موضوعٌ فاستكثر أو استقلّ . خرّجه الآجري .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، قَالَ : وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (١٢٦)

قوله : (وإذ قال إبراهيم) في صحيح مسلم عن عبدالله بن زيد بن عاصم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال : إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإني حرّمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة . وإني دعوت في صاعها ومدّها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم فتح مكة : إن هذا البلد حرّمه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لأحد

قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لايُعْضَد شوكُه ، ولا يُنفَّرُ صيدُه ، ولا تَلْتَقَط لقطته إلا من عرّفها ، ولا يختلى خلاها ، (أي لايقطع نباتها الرطب الرقيق ما دام رطباً) فقال العباس : إلاّ الإزخر فإنه لِقَينهم ولبيوتهم • فقال : إلا الازخر • أخرجه مسلم الإزخر بكسر الهمزة وفتح الخاء • والقين : الحداد يعني يحرقه الحداد لتحمية الحديد • وقوله لبيوتهم أي لتسقيف بيوتهم عند البناء •

دعا سيدنا إبراهيم ربه فقال : رب اجعل هذا المحل الذي أمرتني ببناء البيت فيه ودعوة الناس إلى زيارته بلداً معموراً بأهل العلم والعمل الصالح مغموراً بكرمك ذا أمن وأمان ، ومحفوظاً من أهل العناد والعدوان ، ومغفور الذنب والعصيان وارزق أهله مَنْ آمَنَ منهم بالله واليوم الآخر من كل ما يستثمر من المزارع والبساتين ومكاسب المكتسبين ، من : الأقوات ، والفواكه ، والأقمشة ، والنقود ، مما يحتاجونه في المعاش ، ويتقوّون به على صلاح المعاد • فخصّ الخليل عليه السلام دعاءه ونداءه للمؤمنين تأدباً مع قوله تعالى لاينال عهدي الظالمين ، ولكن الله تعالى لوفور نعمته المبسوطة لعباده إستدرك عليه قال : ومن كفر منهم فأُمتّعه متاعاً قليلاً بالنسبة إلى ما أُمتع به مؤمنين في الآخرة ، ثم اضطره وألجؤه إلى عذاب النار بحيث لا يبقى له مفر منها لأنه في خدمة هواه باع آخرته بدنياه ، وبئس المصير عذابها ! والعياذ بالله تعالى •

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً

لكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١٢٩)

قوله تعالى : (وإذ يرفع) عطف على جملة (وإذ قال إبراهيم) وإذ ظرف غير متصرف مدلوله الزمان الماضي ، فذكر المضارع معه إستحضار لهذا الشأن ليقتدي به المسلمون والقواعد : جمع قاعدة وهي الأساس . والمراد برفعها رفع الجدار . عليها ، ففي ربط الرفع بها مجاز .

ذكر الباري هنا رفع القواعد من إبراهيم وإسماعيل وذكر في سورة الحج أنه أراه موضعه فقال : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكانَ البيت) أي عيّنا له محله وعرفناه به ، قيل : دلّه عليه بمزنة كان ظلها قدر مساحته . وقيل : دلّه عليه بريح تسمى الخجوج كنست عنه حتى ظهر أسه القديم فبنى عليه إبراهيم وإسماعيل .

وقوله : (وأرنا مناسكنا) أي متعبّداتنا في الحج أو مذابحنا . والنسك في الأصل غاية العبادة . وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة . وعن زهير بن محمد قال لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام قال : أي ربّ قد فرغتُ فأرِنا مناسكنا فبعث الله تعالى إليه جبريل فحجّ به حتى إذا رجع من عرفة وجاء يوم النحر عرض له إبليس فقال له إحْصِبْه فحصبه بسبع حصيات ، ثم الغد ، ثم اليوم الثالث ، ثم علا ثبيراً فقال : يا عباد الله أجيبُوا . فسمع دعوته مَن في قلبه مثقال ذرة من إيمان . فقال لبّيك اللهم لبّيك .

وعن مجاهد : لما قال إبراهيم عليه السلام : وأرِنا مناسكنا أي الصّفا والمروة وهما من شعائر الله بنص القرآن ، ثم خرج به جبريل فلما مرّ بجمرة العقبة إذا إبليس عليها فقال له جبريل : كَبِّرْ وارْمِه ، ثم في الجمرة القُصْوى كذلك ، ثم إنطلق به إلى المشعر الحرام ، ثم أتى به عرفة . فقال له : هل عرفت ما أرَيْتك ؟ قال : نعم فسميت عرَفاتٍ لذلك . قال : فأذن في الناس بالحج . قال : كيف اقول ؟ قال : قل : يا أيها الناس أجيبوا ربّكم ثلاث مرات ففعل . فقالوا : لبيك أللهم لبيك . قال : فمن أجاب يومئذ فهو حاجّ .

وقال محمد بن إسحاق : لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليه من بناء البيت الحرام جاء جبريل عليه السلام فقال له : طُفْ به سَبعاً . فطاف به سبعاً هو وإسماعيل عليهما السلام يستلمان الأركان كلها في كل طواف فلما أكملا سبعاًصليا خلف المقام ركعتين . قال : فقام جبريل فأراه المناسك كلها الصفا والمروة ومنى والمزدلفة . قال : فلما دخل مِنى وهبط من العقبة تمثل له إبليس ، فأمره جبريل برميه بسبع حصيات إلى آخر ما تقدم . والله أعلم .

وقوله تعالى : (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم) لم يبين هنا مَنْ هذه الأمةُ التي أجاب الله دعاء نبيه إبراهيم وإسماعيل ، ولا هذا الرسول الذي يبعث فيهم ، ولكن بَين في سورة الجمعة أن تلك الأمة العرب ، والرسول هو سيد الرسل محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ . وذلك في قوله : (هو الذي بعث في الأميين رَسُولاً منهم يتلو عليهم آياتِه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) لأن الأمّيّين العرب بالإجماع . ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا نبينا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحده . وقد

روى خالد بنُ مَعْدان انّ نفراً من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا له : يا رسول الله أخبِرْنا عن نفسك • فقال : نعم أنا دَعْوةُ أبي إبراهيم ، وبُشرى عيسى • وقد أرسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى العالمين بنصوص الكتاب والسنة و المبعوث رحمة للعالمين مبعوث إلى العرب والعجم رحمة وإحسانا •

وقوله : (ويعلمهم الكتاب والحكمة) الكتاب هو القرآن • والحكمة المعرفة بالدين • وقال قتادة : الحكمة السنة وبيان الشرائع • وقوله : (ويزكيهم) أي يطهرهم من وسخ الشرك والضلال وسوء الخصال • وقوله : (إنك أنت العزيز) أي الذي يقهر ويغلب على ما يريد • وقوله (الحكيم) وهو الذي لايفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو عزيز حكيم بذاته وكل من سواه ذليل جاهل في نفسه ، فلا عزة إلا منه تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) ولا علم إلا من تعليمه سبحانك لا علم لنا إلا علمتنا إنك أنت العليم الحكيم • قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : (والحكمة عبارة عن معرفة أجلّ الأشياء بأجل العلوم • واَجَلّ الأشياء هو الله تعالى • ولا يعرف كنه معرفته غيره فهو الحكيم المطلق ؛ لأنه يعلم أجلّ الأشياء بأجل العلوم • إذ أجلّ العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله • والمطابق للمعلوم مطابقة لايتطرق إليها خفاء وشبهة ، ولا يتصف بذلك إلا علم الله تعالى • وقد يقال : الحكيم لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعتها •

وكمال ذلك أيضاً ليس إلا لله تعالى فهو الحكيم المطلق • ومن عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله تعالى لم يستحق أن يسم حكيماً ؛ لأنه لم يعرف أجلّ الأشياء وأفضلها • والحكمةُ أجَلُ العلوم وجلالة العلم بقدر جلالة المعلوم ، ولا أجلّ من الله • ومن عرف الله فهو حكيم وإن كان

ضعيف المنة في سائر العلوم الرسمية كليل اللسان قاصر البيان فيها إلا أن نسبة حكمة العبد إلى حكمة الله تعالى كنسبة معرفته إلى معرفته بذاته وشتان بين المعرفتين فشتان ما بين الحكمتين • ولكنه مع بعده عنه فهو أنفَسُ المعارِف وأكثرها خيراً •(ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب) • نعم من عرف الله كان كلامه مخالفاً لكلام غيره • فإنه قلّما يتعرض للجزئيات بل يكون كلامه جملياً ، ولايتعرض لمصالح العاجلة بل يتعرض لما ينفع في العاقبة •

ولما كانت الكلمات الكلية أظهر عند الناس من أحوال الحكيم من معرفته بالله تعالى ربما أطلق الناس اسم الحكمة على مثل تلك الكلمات الكلية • ويقال للناطق بها حكيم ، وذلك مثل قول سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام : (رأس الحكمة مخافة الله ، الكَيِّسُ مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز مَنْ اتَّبَعَ نفسَه هواها وتمنّى على الله الأماني ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى ، السعيدُ مَنْ وُعِظَ بغَيْره ، القناعةُ مالٌ لايَنْفَدُ الصبر نصف الإيمان ، اليقين الإيمان كله •••) فهذه الكلمات وأمثالها تسمى حكمة وصاحبها يسمى حكيماً انتهى كلامه •

ثم إن في الآية إشارة إلى أن إرسال الرسل حكمة أي مصلحة وعاقبة حميدة ، لأن عمارة الظاهر وإنارة الباطن بهم لا بغيرهم • ولورَثتهم من العلماء العاملين والأولياء الكاملين حظ أوفى وأعلى في باب تزكية النفوس عن الرذائل وتحليها بالفضائل • وهم الذين تزين ظاهرهم باتباع الكتاب والسنة السنية وتنور باطنهم بأنوار أخلاق صاحب الشريعة المصطفوية • وهم المؤمنون المتّقون • وهم الاصحاب الصادقون ، وهم المعنيون بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وهم الذين يتنور اللاحقون بصحبتهم ، ، فينالون درجة السابقين •

والحكمة في عرف العلماء : علم بأحوال الحقائق الموجودة بقدر الطاقة البشرية فإن كانت تلك الحقائق أعمالاً في وجودها مدخل لاختيارنا فالعلم بها تسمى الحكمة العملية ، وإلا فالحكمة نظرية . وتنقسم الأولى إلى علم تهذيب الأخلاق ، وتدبير المنزل ، وسياسة المدن . والثانية إلى الحكمة الإلهية والرياضية والطبيعية ولكل منها أصناف .

وتطلق الحكمة في عرف أهل الدين بالقيام بالأمور على ما ينبغي علماً وعملاً وهذه هي المقصودة بقوله تعالى : (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً وما يذكر إلا أولو الألباب) اللهم اجعلنا منهم واحشرنا في زمرتهم بمنك وفضلك يا أرحم الراحمين .

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ؟ وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ قالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)(١٣٢)

قوله تعالى : (وَمَن يرغب) آه جملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة والإستفهام إنكاري واستبعاد لأن يكون أحد من العقلاء يرغب عن ملة إبراهيم ودينه والتوحيد الذي نشره في العالم .

وقوله إلا من سفه نفسه أي إلاّ مَن اَذَلَّ نفسه وحقرها واستخف بها لأن العاقل العزيز النفس يغتنم فرصة الدنيا في الحصول على أسباب السعادة ، فإذا اوجدها إهتمّ بها .

وقوله : (ولقد اصطفيناه) بيان وحجة لما تقدم . ومعناه إنا إخترناه للرسالة ودعوة الناس إلى الهدى ومنعهم عن الضّلالة وأمرناه ببناء بيت عزيز الجانب عالي المراتب والأذان بالناس ليحجّوه من الأطراف والأكناف ، وجعلناه إماماً لذريته ولسائر البرية في ملة التوحيد السنية في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين لنيل المراتب العالية ، أو من المشهود لهم بالفوز والصّلاح . فكيف يعرض العاقل عن إتباع ملّة التوحيدية ؟

وقوله (إذ قال له ربه اَسْلِم) ظرف لقوله إصطفيناه أي اصطفيناه للرسالة والإمامة عندما قلنا له اَسْلِم وَجهَك لله وحدَه فبادَرَ إلى الاِذعان بقلب أمين وقال : أسلمتُ لرب العالمين .

وقوله تعالى :

(وَوَصّى بها إبْراهيمُ بَنيه وَيَعْقوبُ)

أي وصّى إبراهيم عليه السلام بملته التوحيد أو بجملة (أسلمت لرب العالمين) وصية بليغة أكيدة وكررها مرات كثيرة وبمناسبات عديدة . بنيه الأربعة : إسماعيل ، وإسحاق ومدين ، ومدان ، وإبن إبنه يعقوب إبن إسحاق ودخل في البنين لأن إبن الإبن ابن" عرفاً . وأكبر أولاده إسماعيل وأمه هاجر القبطية ، وولد قبل أخيه إسحاق بمدة قيل أربع عشرة سنة ، وقيل دون ذلك . ونقله أبوه مع أمه هاجر إلى مكة وهو رضيع ، وهو الذبيح المُفَدّى من الله تعالى ، ومات في مكة وله مائة وتسع وثلاثون سنة .

ثم إسحاق وأمه سارة وعاش مائة وثمانين سنة . ومات بالأرض المقدسة ودفن عند أبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام .

ثم لما توفيت سارة تزوج إبراهيم عليه السلام (قنطورا) بنت (يقطن) الكنعانية فولدت له مدين ومدان وأولاداً آخرين .

وقرىء يعقوب بالنصب على أنه كان موجوداً بين الأولاد عندما وصاهم الخليل عليه السلام وقرىء بالرفع عطفاً على إبراهيم أي وصى يعقوب أيضاً بنيه بالملة الحنيفية الإبراهيمية . روي أنه لما دخل مصر ورأى الناس يعبدون الأصنام خاف على أولاده من الإنحراف فوصاهم بالتوحيد على التوكيد .

وقوله (يا بني إن الله اصطفى لكم الدين) أي دين التوحيد هو دين الحق واختاره تعالى لكم فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون عاكفون على التوحيد فتحيون موحّدين وتموتون مسلمين .

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : ما تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا : نَعْبُدُ إِلهكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسحاقَ إِلهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ماكَسَبَتْ وَلَكُمْ ماكَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(١٣٤)

قوله تعالى : (أم كنتم شهداء) كلمة أم إما متصلة وعديل المذكور محذوف . والتقدير : أكنتم غائبين أم كنتم حاضرين عند إحتضار يعقوب عليه السلام إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي فيحثهم على التوحيد والتزام ملة إبراهيم ؟ وليس الإستفهام على حقيقته بل هو للإلتزام والتبكيت . والمعنى أنتم سواء كنتم غائبين أو حاضرين فقد رغب يعقوب في التوحيد الذي هو ملة إبراهيم وقَدْ بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتقريره فلم لاتقتدون بجدّكم ولم لاتهتدون بخاتم النبيين ؟ وإما منقطعة بمعنى بل للإضراب وهمزة الإنكار ومعناها الإضراب عن الكلام الأول وهو بيان

توصية أجدادكم على التوحيد إلى توبيخ اليهود على إدعائهم اليهودية على يعقوب مع أنه كان ساعياً في نشر التوحيد الذي هو ملة إبراهيم حتى حين احتضاره •

وقوله : (إذ قال لبنيه) بدل من إذ حضر وأراد عليه السلام بذلك تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على ذلك فسألهم ماذا الذي تعبدونه من بعد موتي ؟ فأجابوا بأنا ثابتون على ما كنا عليه من التوحيد ونعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام المتفقين على توحيد الباري تعالى في وجوب الوجود والخالقية والمعبودية إلهاً واحداً لا تعدد له في ذاته ولا شريك له في صفاته وأفعاله ونحن له مسلمون وعد إسماعيل من الآباء تغليباً للأكثر على الأقل أو لأنّه كالأب لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمّ الرجل صِنْوِ أبيه •

وقوله تعالى : (تلك أمة قد خلت) الإشارة إلى إبراهيم وأولاده عليهم السلام • والأمة في الأصل المقصود أتت بمعانٍ منها الجَماعة • والمعنى : إن إنتسابكم إليهم لا يوجب إنتفاعكم بأعمالهم ، وإنما تنتفعون بموافقتهم في أعمالهم كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا معشر قريش إن أولى الناس بالنبي المتقون • فكونوا بسبيل من ذلك فانظروا أن لايلقاني الناس يحملون الأعمال وتلقوني بالدنيا فأَصُدّ عنكم بوجهي • وهذا جارٍ على طريق العدل الذي يجب للإنسان المسلم الإعتماد عليه • وانتفاع الإنسان بأعمال غيره جارٍ على طريق الفضل وعليه شفاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسائر الأنبياء والمرسلين والناس الصالحين للأمة أو لذوي القرابة والصداقة لهم • ورعاية العدل أحق بأهل التكليف وإن كان الفضل ثابتاً للتشريف • وقوله (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) أي لا تؤاخذون بسيآتهم كما لا تنتفعون بحسناتهم عدلاً ، وإن جاز بل ثبت

ذلك فضلاً لقوله تعالى (والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين) الآية الحادية والعشرون من سورة الطور •

وكما ثبت في الصحاح من حج الإنسان وصيامه عن المتوفين من الآباء والأمهات وتقرر إنتفاع الموتى بما يعمل وراءهم من الخيرات والصدقات ومن أداء الديون ومن إستغفار الأنبياء للوالدين وسائر المسلمين والمسلمات النازلة في الآيات (وَقَالُوا : كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ : بَلْ مِلَّةَ إبْراهِيمَ حَنِيفاً وَماكانَ مِنَ المُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا : آمَنَّا بِاللهِ وما أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَما أُنْزِلَ إلى إبْراهِيمَ وإسماعيلَ وإسْحاقَ وَيَعْقوبَ وَالأَسباطِ وَما أُوتِيَ موسى وعيسى ، وما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحنُ لَهُ مُسْلِمونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهُوَ السَّميعُ العَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ونَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)

قوله تعالى : (وقالوا كونوا هود) الآية الضمير راجع لأهل الكتاب ، والجملة معطوفة على ما قبلها عطفَ القصة على القصة • يعني وقالت اليهود للمسلمين : كونوا هودا تهتدوا • وقالت النصارى لهم : كونوا نصارى تهتدوا • وقل يا حبيبي في رد ما قالوا : بل أنتم إتبعوا ملة إبراهيم جدّكم الأعلى من دينه توحيد الله تبارك وتعالى حالكونه حنيفاً مائلاً عن الباطل إلى الحق ، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام ، وهو ما كان في

زمان من الأزمان من المشركين ، ولم يكن على نحو ما كنتم عليه من الإشراك والضلال .

وقوله : (قولوا) الآية خطاب للمؤمنين أي قولوا لأهل الكتاب مقررين لهم طريق الصواب : آمنا بالله وحده لاشريك له ، وما أنزل إلينا من القرآن الكريم ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من الصّحف السّماوية وهي وإن نزلت على سيدنا ابراهيم لكن لما كان من عطف عليه متعبدين بها صح القول بنزولها إليهم أيضاً لاسيما إذا كان من جملة آياتها تعميمُها حكمها لأولاده وعقبه وما أوتي موسى من التوراة ، وعيسى من الأنجيل . وخصا بالذكر لكون كتابهما متأخراً عن صحف إبراهيم بقرون وأحكامها مختلفة مع أحكامها في شؤون ، لاسيما لما مدت إليهما أيدي التحريف توهم أن لا عبرة بهما مع أن الأصل أصل وإن كان الفرع فصلا ، ولما لم يصرح ببعض الرسل وما أوتي من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ، وقد قال تعالى : (وإن من أمّة إلا خلا فيها نذير) . وقال تعالى : (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص) ولم يذكر هنا داود عليه السلام مع أنه تعالى قال : (وآتينا داود زبورا) والحال أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل سواء المذكورون في القرآن الكريم وغيرهم . وقال تعالى : (كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) زاد الله تعالى عطفاً على من سبق (وما أوتي النبيّون من ربّهم) من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ، (لا نفرق بين احد منهم) في الرسالة وإن كان فرق مابينهم في الفضل والجلالة كعموم الدعوة وخلود دينه أو كثرة نصَبه وتعبه في سبيل الإرشاد ، ونحن له مسلمون مخلصون منقادون مطيعون في وصاياهم وسجاياهم والأسباط جمع سبط كأحمال وحِمل . وهم أولاد يعقوب عليهم السلام ، مأخوذ من السبط وهو شجرة كثيرة الأغصان فكأنهم سموا بذلك لكثرتهم وقيل للحسنين : سبطا

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لإنتشار ذريتهم • ثم قيل لكل ابن بنت سبط ، وكذا قيل له حفيد أيضاً •

(فائدة) المشهور عند أرباب العربية أن لفظ (أحد) المستعمل في النفي العام مطلقاً أو مع كل في الإثبات همزته أصلية بخلاف ما أستعمل في الإثبات بدون كل ، فإن همزته منقلبة عن الواو • وقال العلامة التفتازاني إن أحداً في معنى الجماعة بحسب الوضع لأنه إسم لمن يصلح أن يخاطب يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والمجموع • ويشترط أن يكون إستعماله مع كلمة كل أو مع النفي نص على ذلك أبو علي وغيره من أئمة العربية • وهذا غير (أحد) الذي هو أول العدد في قوله تعالى : (قل هو الله أحد) (أي فهو بمعنى الواحد وأصله الواو) وليس كونه في معنى الجماعة من جهة كونه نكرة في سياق النفي على ما سبق إلى كثير من الأوهام • ألا ترى أنه لا يستقيم (لا نفرق بين رسول من الرسل) إلا بتقدير العطف أي رسول ورسول ولستن كأحد من النساء ليس في معنى كإمرأة منهن إنتهى • أي بل في معنى أي واحد وأي جماعة منهن • أي أنتن بمنزلة وهن بمنزلة أخرى إحتراماً واحتشاماً لأن بيت الرسالة ينبوع الأصالة فوجبت رعاية الإحتشام فيه أكثر من غيره •

وفي روح المعاني إعتراضاً على قوله : ألا ترى أنه لايستقيم لا نفرق بين رسول من الرسل الخ ما نصه دعوى عدم الإستقامة إلا بذلك التقدير غير مجمع عليه • فقد ذكر في الإنتصاف أن النكرة الواقعة في سياق النفي تفيد العموم لفظاً عموماً شمولياً حتى ينزل المفرد فيها منزلة الجمع في تناوله الآحاد مطابقة ، لا كما ظنه بعض الأصوليين من أن مدلولها بطريق المطابقة في النفي كمدلولها في الإثبات • وجعل هذا التعدد والعموم وضعاً هو المسوغ لدخول بين عليها هنا • إنتهى

وقال بعض المحققين : لفظ (أحد) أصله وحَدْ بمعنى واحد وحيث وقع في سياق النفي عمّ واستوى فيه الواحد والكثير ، وصحّ إرادة كل منهما وقد أريد به هنا أي في قوله تعالى : (لا نفرّق بينَ أحَدٍ منهم) الجماعة ولذا صح أن يضاف إليه (بين) ويفيد عموم الجماعات إنتهى •

وقوله تعالى : (فإن آمنوا بمثل) البـاء زائدة للتوكيد ، أي فـإن آمنوا إيماناً مثل إيمانكم بالله تعالى وحده وتصديقاً خالصاً خالياً عن النفاق والشقاق والغلو والإفراط والتفريط ، فقد اهتدوا طريق الحق والصراط المستقيم • وإن تولوا عن هذا الإيمان والإذعان ، فإنما هم في شقاق ومخالفة وعـداء وعناد ، ولا تهتم بهـم وبمخالفتهم فسيكفيكهم الله أي فَسَيَكفي اللهُ رَسولَهُ أعْداءه ويحفظه عن عدائهم وهو السميع لقول كل قائل العليم بما ينفذه في عباده في جزاء أعمالهم • وقوله : (صبغة الله) منصـوب على أنـه بدل مـن ملة إبراهيم أو على الإغراء أي ألزموا صبغة الله ، أي دينه وكتابه ، فهو الحق بجعله ميزة للإنسان المشرف بنور الإسلام تميزه عن الإنسان المصبوغ بصبغة الأوهام والآثـام ، أي مثـل تصبغ اليهود أبناءَهم يهوداً ، والنصارى تصبغ أبناءهم نصارى ، وإن صبغة الله الإسلام • وروي عن مجاهد والحسن وأبي العاليـة وقتادة الصبغة : الدين • وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء وهـو الذي يسمونه المعمورية ويقولون : هذا تطهير لهم • وسرّه عندهم أنـه الماء الذي غسل به سيدنا عيسى طفلاً ، ويجعلون هـذا الغسـل مكـان الختان • فرد الإسلام على ذلك كله واعتبره من الأوهام ، وجعل الشـعار الشريف للمسلمين وأولادهم الإسلام ونزلَ القرآنُ بقوله تعالى صبغة الله ومَن أحْسَنُ من الله صبغة ونحن له عابدون •

وقيل معنى قوله تعالى (صبغة الله) غُسْلَ الله أي ألزموا غسلاً قرره الله لكم عند دخولكم في الإسلام وفرضه عليكم للتعبير عن تنظيف

قلوبكم وقوالبكم من أوساخ الكفر والضلال . وبهذا المعنى جاءت السنة الثابتة في قيس بن عاصم وثمامة بن أثال حين أسلما . روى أبو حاتم البستي في صحيح مسنده عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن ثمامة الحنفي أسِرَ فمرَّ به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً فأسلم ، فبعث به إلى حائط أي بستان من النخل كان لأبي طلحة فأمَرَهُ أن يغتسل فاغتسل ، وصلى ركعتين فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حَسُنَ إسلامُ صاحبِكم . وخرّج أيضاً عن قيس بن عاصم أنه أسلم فأمره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يغتسل بماء وسدرٍ ذكره النسائي وصححه أبو محمد عبدالحق .

(قُلْ : أَتُحاجُّونَنَا في اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمالُنَا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَنَحنُ لَهُ مُخلِصونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ : إنَّ إبْرَاهِيمَ ، وإسْماعِيلَ ، وإسحاقَ ويَعْقُوبَ والأسْبَاطَ كانُوا هُوداً أوْ نَصارى قُل : أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ ؟ وَما اللهُ بغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ) (١٤١)

قوله تعالى : (قل أتحاجوننا) أي أتجادلوننا في شأن ربنا واصطفائه نبياً من العرب دونكم والله أعلم حيث يجعل رسالته روي أن أهل الكتاب قالوا الأنبياء كلهم منّا فلو كنت نبياً لكنتَ مِنّا فنزلت والمعنى : أن إرسال الرسول إن كان من إحسان الربوبية فهو ربنا كما أنه ربكم وإن كان من المواظبة على الأعمال فنحن مواظبون عليها مثلكم علاوة على ذلك إنا مخلصون في الطاعة لسنا كهيئتكم إذا جاء ما يسركم تطيعون وإلا ترفضون. فنحن أحق بإرسال الرسول منكم .

وقوله : (أم تقولون) كلمة أم منقطعة بمعنى بل للإضراب والهمزة للإنكار يعني بل أيقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أي على دين يهود مع أن كتابهم وهو التوراة لم ينزل إلا بعد إرسال موسى ، أو كانوا نصارى أي على دين النصارى مع أن كتابهم وهو الإنجيل تأخّر عن وفاتهم بقرون . قل لهم أأنتم أعلم بحال أولئك الرسل السابقين أم الله تعالى ؟ والله يعلم إنهم لم يكونوا على ما تنسبونهم إليه بل عندكم العلم ببراءتهم من ذلك ، وكان الواجب عليكم الشّهادة بأنّهم كانوا حنفاء على ملة التوحيد فلم تكتمونها ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من علم واصل إليهم من الله لا شك في مطابقة الواقع فإذا كتمتموه فاعلموا أن الله عليم وَمَا الله بِغافِلٍ عما تعملون وَسَتَرَوْنَ جزاء العلم والكتم .

وقوله تعالى : (تلك أمة) الآية كررت للمبالغة في الزجر عما هم عليه من العناد والإستكبار والإعتماد على شرف الآباء والإغترار بذلك وعدم الإهتمام بمغبة العقائد الفاسدة والأعمال الكاسدة ، ووعيد لهم على ذلك بأن الله يجزيهم على ما هم عليه وإنهم يرجعون إليه للميزان والحساب وهذا الداء العضال هو الذي ابتلى به كثير من الناس الذين ينتسبون إلى آباء أشراف فضلاء أتقياء علماء حيث إعتبروا إنتسابهم إليهم كل شيء واغترّوا بذلك وتكاسلوا عن أداء ما في ذمتهم من الإقتداء بهم بل بمن اقتدوا به أعني الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يصلوا إلى ما وصلوا إليه ويحصلوا على ما حصلوا عليه ، بل تعدّوا عن ذلك واعتبروا أن ذلك الإنتساب رفع عنهم أنصابَ الحساب ونسأل الله أن يحفظنا عما يوجب سوء القضاء ويوفقنا لما يحب ويرضى ، إنه سميع قريب مجيب .

الجزء الثاني

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ : ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها ؟ قُلْ : لِلَّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ ، وإنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُمْ إنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (١٤٣)

قوله تعالى : (سيقول السفهاء) قال العلماء : هذه الآية مؤخرة في النزول عن قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك في السماء) وعند ذلك حوّل الله التوجه من بيت المقدس إلى الكعبة فقالت اليهود الخفاف العقول ما قالوا .

وقال القرطبي : أعلم الله تعالى أنهم سيقولون عند تحويل المؤمنين من الشام (يريد بيت المقدس) إلى الكعبة : ما ولاّهم ؟ وسيقول بمعنى قال جَعَلَ المستقبلَ موضع الماضي دلالة على إستدامة ذلك وإنهم يستمرّون على ذلك القول . والمراد من السفهاء جميع من قال ما ولاّهم ، سواء

كانوا من اليهود أو من غيرهم ، والسّفهاء جمع سفيه بمعنى خفيف العقل •

وفي فتح الباري شرح صحيح البخاري : إن العلماء إختلفوا في الجهة التي كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتوجه إليها في الصلاة وهو بمكة • فقال ابن عباس وغيره ـ رضي الله عنهم ـ : كان يصلي إلى بيت المقدس • وقال آخرون : كان يصلي إلى بيت المقدس لكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس • وأطلق آخرون إنّه كان يصلي إلى الكعبة فلما تحوّل إلى المدينة إستقبل بيت المقدس ، وهو ضعيف ويلزم منه دعوى النسخ مرتين والأول أصح لأنه يجمع بين القولين • وقد صححه الحاكم وغيره من حديث إبن عباس ـ رضى الله عنهما ـ • وكأنّ البخاري أراد الإشارة إلى الجزم بالأصح من أن الصلاة لما كانت عند البيت كانت إلى بيت المقدس •

وقوله تعالى : (ما ولّيهم) إستفهام إنكاري من السفهاء ، أي ما الذي صرفهم من قبلتهم التي كانوا عليها وهي بيت المقدس ، وما كان يحق لهم ذلك الصرف والإنحراف لأنه كان قبلة الأنبياء السابقين ؟

وقوله (قل) أي قل في ردّهم وإرشادهم عن الخطأ إلى الصواب (لله المشرق والمغرب) لايختص به مكان دون آخر ولا شرف بالذات لأيّ محلّ وإنما الشرف يحصل بتجلي الرحمة من الله تعالى عليه وهذا الحكم الحكيم هو الصراط المستقيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم للسلوك عليه ، وذلك الصراط عبارة عما شرعه وقرره لا ما تقرونه وترتضونه •

وقوله : (وكذلك) الآية إشارة إلى معنى الآية السابقة أي وكما قررنا أن القبلة هي ما ارتضاها الباري وهديناكم

إليها ، جعلناكم يا أمة محمد على سبيل الإلتفات نحوها أمة وسطاً خياراً متصفين بالعلم الصحيح والعمل الصالح لتكونوا شهداء على الناس أي أمم الآخرين بتبليغ الأنبياء إليهم ما شرعه الله تعالى لهم • ويكون الرسول النبي العربي المختار محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهيداً على زكائكم وصحة شهادتكم على الأمم • روي أن الأمم يوم القيامة ينكرون تبليغ الرسل إليهم ويطلبون منهم الشهود لإثبات التبليغ فيؤتى بأمّة الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتشهد لأولئك الرّسل بالأمانة والتبليغ ، فيطلبون هناك تزكية هذه الأمة الشاهدة فيؤتى بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيشهد بِعدالتها وصحة شهادتها •

وقوله تعالى : (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) أي وما جعلنا القبلة التي كنت عليها قبل الهجرة وبعدها وهي بيت المقدس إلا لنعلم ويتعلق العلم بمن يتبع الرّسول ممّن ينقلب على عقبيه ، أي ممن له تردد نفسي ويرتدّ من دين الهدى إلى ديدَن الهوى من العرب الذين ألِفوا الكعبةَ ولا يستحبّون غيرَها ، ومن اليهود الذين يختارون دين اليهود على دين الإسلام ، ولو كنتَ متوجهاً إلى بيت المقدس الذي كان ولا يزال قبلتهم • فلما ظهر حال العرب المسلمين وأنهم يتوجهون إلى ما توجه إليه الرسول وحالُ اليهود وأنّهم لايتركون دين اليهود ، ولو توجهتَ إلى قبلتهم حوّلناك إلى القبلة التي ترضاها روحاً وهي الكعبة الشريفة ، أي أنّ التوجه إلى بيت المقدس كان شيئاً عارضاً والتوجه إلى الكعبة هو الأصل الثابت بالنسبة إليك وإلى دين الإسلام • فذلك الجعل هو الجعل المنسوخ بالتوجه إلى الكعبة •

ومنهم من قال : إن معناها وما جعلنا القبلة التي أنت عليها الآن وهي الكعبة الشريفة على زيادة كان وإن قوله (كنت عليها) بمعنى أنت عليها

وكان للتأكيد . إلا لنعلم من يتبع الرّسول المتحول إلى الكعبة من العرب الذين يتوهم فيهم ضعف الإيمان والإرتداد بسبب التغيرات في شأن القبلة ومن اليهود الذين يتوهم إرتدادهم بسبب ترك التوجه إلى بيت المقدس والتحول إلى الكعبة الشريفة فهذا الجعل هو الجعل الناسخ .

وقوله تعالى : (وإن كانت) إن مخففة من المثقلة ، واللام هي اللام الفارقة بين أن النافية والمؤكدة ، وضمير كانت راجع إلى نسبة الجملة السابقة ، والمعنى المؤكّد أن تلك التحويلة كبيرة وثقيلة على النفس ، إلاّ على الذين هداهم الله إلى التقبل للأحكام . وقوله : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) المراد بالإيمان الإيمان بالقبلة المنسوخة والعمل على مقتضاه أو الصّلوات التي صلاّها المسلمون متوجهين إليها .

والجملة لمن قالوا يارسول الله كيف حالُ مَن مات قبل التحويل حيث تبين أنهم ما توجهوا إلى قبلتنا اليوم ؟ أو كيف حال صَلَواتنا قبل التحويل هل صحت ومضت أو نَقْضيها ؟ فنزلت وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوفٌ رحيم .

(قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضيها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحَرامِ وَحَيْثُ ماكُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإنَّ الَّذينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَما الله بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ) (١٤٤)

قوله تعالى : (قد نرى) الآية قال العلماء : هذه الآية مقدمة في النزول على قوله تعالى سيقول السفهاء من الناس . قوله تعالى : (تقلب وجهك في السماء) الآية أي تردّد وتحول وجهك في السّماء إنتظاراً

للوحي ينزل عليك بتحول وجهك إلى الكعبة . وكان يتوجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى السماء لأنها قبلة الدعاء فإن الوحي كان ينزل منها كما أن النور والضياء والأمطار والأنداء والبركات تنزل منها . فقد قال تعالى : إنا أنزلناه في ليلة القدر . وإلا فالباري لا مكان له ولا يجري عليه زمان وهو مع كل داعٍ وساعٍ معيةَ العلم والقدرة .

وفي صحيح البخاري في كتاب الصلاة من باب الإيمان : حدثنا عمرو ابن خالد قال : حدثنا زهير قال : حدثنا أبو إسحاق عن البراء أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أول ما قدم المدينة على أجداده أو قال أخواله من الأنصار ، وإنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً . وكان يُعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت ، وأنه صلى أوّل صلاة صلاّها صلاة العصر ، وصلّى معه قوم فخرج رجل ممن صلّى معه ، فمرّ على أهل مسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صلّيت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قِبَلَ مكة فداروا كما هم قبل البيت .

وفي فتح الباري قوله : ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً كذا وقع الشك في رواية زهير ثم نقل رواية سبعة عشر أيضاً . ثم قال : والجمع بين الروايتين سهل بأن يكون مَنْ جزم بستة عشر لفّق من شهر القدوم وشهر التحويل شهراً وألغى الزائدَ . ومَن جزَم بسبعة عشر عَدّهما معاً ومَن شك تردد في ذلك . وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح . وبه جزم الجمهور . ورواه الحاكم بسند صحيح عن إبن عباس . انتهى المقصود . ثم علّق على قول البخاري وإنه صلّى أوّل صلاة صلاها صلاة العصر ما نصه : والتحقيق إن أول صلاة صلاّها في بني سَلمةَ

لما مات بشرُ بنُ البَراء بن مَعرور الظهر وَأوّل صلاة صلاّها بالمسجد النبوي العصر . وأما الصبح فهو من حديث إبن عمر بأهل قباء .

والحاصل : أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد قدوم المدينة المنورة صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، ثم وجه إلى الكعبة في رجب بعدَ الزوال قبل قتالِ بدر بشهرين في مسجد بني سلمة . وقد صلّى بأصحابه في مسجد بني سَلمة ركعتين من الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب فتبادل الرجال والنساء صفوفهم فسمي المسجد مسجد القبلتين .

وقوله تعالى : (فلنولينك قبلة ترضاها) أي فلنوجّهنك إلى قبلة أنت ترضاها وهي الكعبة الشريفة . فول وجهك شطر المسجد الحرام ، أي لأنها داخلة فيه . وقوله تعالى : (وحيثما كنتم فولوا وجهكم شطره) أنزله لدفع توهم إختصاص التحول بشخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أو بوقت الوجود في المدينة المنورة . يعني أن تحول القبلة عامّ شامل لك ولأصحابك ولسائر أمتك أينما كنتم من الأرض في المدينة أو غيرها من المغرب أو المشرق أو الجنوب أو الشمال فحيثما كنتم من الأرض فولوا وجوهكم شطره .

وقوله تعالى : (وإن الذين أوتوا الكتاب لَيَعْلَمونَ أنه الحق من ربّهم) يعني أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليس شيئاً غريباً مجهولا عند علماء التوراة والإنجيل ؛ لأنهم كانوا يعلمون بمطالعة كتابهم أن النبي الأمي المبعوث في آخر الزمان صاحب القبلتين ، فيتوجه في صلاته إلى بيت المقدس ، وإلى الكعبة ، وأنه الحق من ربهم فاستنكارهم لذلك التحويل عناد واستكبار ، وما الله بغافل عما يعملون وأنه يجازيهم عليه يومَ يُبعثون .

واختلف العلماء المجتهدون في معنى لفظ الشطر ، وفي كيفية التوجه إلى الكعبة : ومما لاشك فيه أن الشطر ظرف مكان وجاء بمعنى نصف الشيء وجهته . ولا خلاف بين العلماء أن الكعبة قبلة" في كل أفق ، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فرض عليه إستقبالها ، وأنه إن ترك إستقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاة له . واختلفوا : هل فرض الغائب إستقبال العين أو الجهة ؟ فالصحيح عند الشافعية أن الواجب إصابة عين الكعبة . وبه قال بعض المالكية ورواية عن أحمد.وقال أبو حنيفة وأحمد في رواية راجحة ومالك على ما نقله أكثر الموالك : أن الواجب إصابة الجهة وحكاه الترمذي عن عمر بن الخطاب وعن علي بن أبي طالب وابن عباس وابن المبارك .

ويستدل الشافعي ـ رضى الله عنه ـ بظاهر معنى الشطر وهو النصف في قوله تعالى : فولوا وجوهكم شطره أي إلى نصف عينها أي منتصفها . وبحديث إبن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله وعليه وسلم ـ لما دخل الكعبة (عام الفتح) خرج فصلى إليها وقال : هذه هي القبلة . رواه البخاري ومسلم . واحتج المعتبرون للجهة بحديث أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ما بين المشرق والمغرب قبلة. رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وصح ذلك عن عمر ـ رضى الله عنه ـ موقوفاً عليه .

ومما ينبغي أن يعلم أن مراد الشافعي ـ رضى الله عنه ـ بوجوب إصابة عين الكعبة على الغائب السعي حتى يظن ظناً مؤكداً أنه أصاب عينها . ومراد الأئمة الثلاثة بالإكتفاء بالجهة هو إصابة الخط الخارج من عين الغائب إلى جزء من جانبي الكعبة يمينها أو يسارها بقدر لا جواز خروجه

وانحرافه عن جانبيها يمنة أو يسرة ، وهذا أيضاً مبني على إعتقاد المستقبل يدل على ذلك عبارة فقهاء المذاهب المحققين .

فمن غاب عنها إذا وجد ثقة يخبره عن عينها وجب عليه العمل بقوله ، ومثل المخبر عن علم محل صلاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واتجاهه، فلا مجال للإنحراف عنه مطلقاً ، فإن لم يجد أحداً يخبره عن علم إجتهد بما عنده من الأدلة من كوكب القطب ، أو مغرب الشمس ومشرقها ، أو الرياح الشمالية واتجاهها ، أو ما يعتمد عليه من الظن الأكيد الحاصل له من معرفة طول البلد وعرضه ، وطول مكة المكرمة وعرضها ، ومن ذلك وجود أبرة القطب المجربة لمن يعرف الطول والعرض ، فإن لم يقدر على الإجتهاد قلد مجتهداً ، فإن تحير صلى كيف شاء ، حتى لو صلى أربع ركعات لأربع جهات صحت صلاته ، لكن إذا تبين خطأه بعدها أعاد صلاته عند الشافعي دون الأئمة الآخرين ، وتفصيل الموضوع في كتب الفقه .

وتعلم أدلة القبلة فرض عين على المكلف كمعرفة الصلاة وأركانها عند بعض ، وفرض كفاية عند آخرين ، والمقام فيه تفصيل عند المحققين فمن كان حضرياً فالوجوب بالنسبة إليه على الكفاية لأنه ما دام هناك من يعرف القبلة فليس عليه أن يتكلف ، ومن كان مسافراً وحده أو مع عامة جهلاء يجب عليه العلم بها قطعاً ، هذا كله في غير صلاة الخوف وفي غير النافلة في السفر ، لأن إستقبال القبلة ليس بواجب عليهما إلا في تكبير التحرم على تفصيل في الموضوع ، والله أعلم .

ومن أدلة القبلة الكوكب الصغير المسمى بالقطب الشمالي فإنه إذا وقف الإنسان المستقبل للجنوب بحيث إذا إلتفت إلى اليمين رأى ذلك الكوكب خلف الأذن اليمنى فقد إتجه إلى القبلة وهذا جار مما بين همدان والموصل ، ولكن مع فرق يسير فإنه يراه في همدان بأدنى ميل يميني ،

ويحتاج إلى زيادة في الموصل وما والاها . وإذا وصل إلى الشام يقع الكوكب محاذياً لظهر الواقف ولا يراه بالتيامن .

ومن أدلته : مشرق الشمس في أول الشتاء ومغربها في أول الصيف فإن الواقف إذا توجه إلى منتصف ما بينهما فقد توجه إلى القبلة في العراق وما والاها شرقاً أو غرباً . ويحتاج هذا إلى الدقة في أخذ المنتصف .

ومن أدلته : أبرة القطب فإنها إذا وضعت زجاج الدائرة على أرض مستوية وتوقفت الأبرة عن الحركة فقد أخذت إتجاه خط الجنوب أي خط نصف نهار البلد، فإذا ملْتَ إلى غربيّ الأبرة بقدر تفاوت درجات طول بلدك عن درجات طول مكة المكرمة فقد إتجهت إلى القبلة . مثلاً إذا كان طول مكة ثنتين وسبعين درجة وطول بلدك تسعين درجة فملْ إلى غربي الأبرة ثماني عشرة درجة . وهكذا .

ومن أدلتها : مقام صلى فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالوقوف على منهاج وقوفه كالإستقبال لعين الكعبة بلا فرق ، ولا يجوز الإجتهاد فيه مطلقاً .

ومنها : محاريب مساجد المسلمين التي مضى عليها الزمان . لكنه يجوز الإنحراف عن اتجاهها قليلاً يمنة ويسرة حسب الأدلة الموجودة عند المستقبل . وأما المصلّى الواقع في المقابر فلا إعتناء به ولا إعتماد عليه إلا إذا أقره العارف العادل .

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَاتَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ)(١٤٥) .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (١٤٧)

قوله تعالى : (ولئن) اللام موطئة للقسم . وقوله (ماتبعوا قبلتك) جواب للقسم المقدر،والقسم وجوابه ناب مناب جواب الشرط.والمعنى:لا ينفع أولئك الناس المعاندين المستكبرين الإتيان بالآيات البينات الكاشفة عن الحقائق ؛ لأنهم لا يريدون أن يفتهموا واللا مفتهمون أفظع حالا من اللا" فاهمين لأن دواء الجهل يسير سهل ودواء العناد عسير صعب . وقوله (وما أنت بتابع قبلتهم) الآية يعني ولستَ بمن له قابلية تبعية الباطل كما أنهم لايتبع بعضهم قبلة بعض ، ولو كان كلهم في ضلال . وقوله (ولئن اتبعت أهواءهم) معناه بعد أن تبين الرشد من الغي والهدى من الهوى ، والله لئن اتبعت أهواءهم سواء م نحيث القبلة أو غيرها من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ، ولست منهم لأنك صاحب العهد من الله وصاحب العهد صالح سالم لا عنود ولا ظالم . وقوله الذين آتيناهم الكتاب إستئناف لبيان أن عدم إتباعهم ليس لجهلهم بالواقع وحقيقة أنك رسول الله وكتابك كلام الله، وقبلتك معينة من الله، بل لفرط عنادهم لأن الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه أي محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما يعرفون أبناءهم علماً بالأدلة السابقة والآيات اللاحقة ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك والباطل من أعدائك ، فلا تكن من المترين الشاكين في أن ما أنت عليه هو الحق من الله . وهذا النهي إما للتأكيد أو للتعريض بأولى النهى حتى لا يصيروا من المترين .

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (١٤٨)

قوله تعالى : (ولكل وجهة) يجوز أن يكون المراد بكل الأمم المختلفة من المسلمين واليهود والنصارى ، فيكون المعنى لكل أمة مسلمة أو يهودية أو نصرانية ، وجهة ومحل يتوجهون إليها في العبادة وقرروها قبلة لهم حقاً أو باطلاً . وقوله (هو موليها) الضمير المرفوع عائد إلى كل ومبتدأ ، وموليها خبره . ويتعدى إلى مفعولين والأول محذوف أي ولكل أمة قبلة هو مُولّي وجهه إليها ولا ينحرف عنها ، فاستبقوا الخيرات الحسان من تلك القِبَل ، فخيرها بالنسبة إلى المسلمين الكعبة ، وبالنسبة إلى اليهود هي الصخرة على زعمهم ، وبالنسبة إلى النصارى جهة المشرق . ولما كان الخير هو الخير الخالص الموافق للواقع فالوجهة المباركة والقبلة المقبولة هي الكعبة . زادها الله رفعة ومقاماً .

واذا تبين لكم الخير وتركتموه للتعصب والتحزب فاعلموا أنهم لاينفلتون من أيدي القادر فأينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ويحاسبكم ، إن الله على كل شيىء قدير . ويجوز أن يكون المراد بكل هو طوائف المسلمين يعني ولكل قوم وجهة من أطراف المسجد الحرام لميقات الإحرام . أو لكل قوم منكم ركن من أركان البيت كالركن الشامي والركن اليماني . فاستبقوا الخيرات والطاعات المقررة المأثورة ، وكونوا على مسابقة لنيلها حتى تنالوا خير الأجور فإنكم أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً للميزان والحساب ، ولكل قومٍ نَيلٌ على حَسَبِ المَيْلِ ، إن الله على كل شيىء قدير .

ويحتمل أن يكون المعنى ولكل إمام من أئمة الدين المجتهدين وجهة وهدف يميل إليها فيعمل على ذلك ويرشد أتباعه إليه ، فاستبقوا الخيرات

وتسابقوا فيها • أي فلا تأخذوها على التقليد الأعمى إذا كان عندهم قابلية للإجتهاد • فأينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً للمكافأة على حسب النيات وصحة الأعمال الصالحة فيجزي كلا بما يستحقه من عشر درجات إلى ما زاد والله أراد •

ومن هنا يدخل إختلاف آراء الأئمة المجتهدين في خير الأعمال وخير وجوه أدائها • فيرى الإمام الشافعي ـ رضى الله عنه ـ أن أول الوقت لأداء كل صلاة أفضل إلا لعذر مثل الإبراد بصلاة الظهر في البلد الحار لمن يبعد عن المسجد • وذلك نظراً لظاهر الأحاديث الدالة على ما قال • ويرى أبو حنيفة كما قاله القرطبي أن آخر الوقت أفضل لأنه وقت الوجوب المتعين، وأجر أداء الواجب أفضل•ويرى مالك التفصيل: فيقول أداء الصبح والمغرب أول الوقت أفضل • أما الصبح فلحديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي الصبح فتنصرف النساء متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس • وأما المغرب فلحديث سلمة بن الأكوع أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يصلي المغرب إذا غربت الشمس وتوارت بالحجاب • أخرجهما مسلم •

وأما العشاء فتأخيرها أفضل لمن قدر عليه •

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) ومِن حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ، وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ،

وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُعَلِّمُكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) (١٥٢)

قوله تعالى : (ومن حيث خرجت) كرر هذا الحكم لأمور : الأول : أن نسخ الأحكام مظنة الفتنة لأهل الأوهام لاسيما للمعاندين من الأنام فإذا لم يتكرر لم يتقرر • الثاني : أن كل إنسان لا يحفظ كل آية من آيات القرآن فإذا كانت الآية واحدة ربما لا يحفظها كل مسلم ولا تكون آية النسخ محفوظة عند الناس وإذا كررت كثرت ويكثر حفاظها • الثالث : ذكر للتحويل ثلاث علل : الأول تعظيم مقام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بابتغاء مرضاته أولاً فإنه كان يشتاق بلهف إلى تحويل القبلة فذكر لبيان قصد إرضائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ • الثاني : رفع حجج المخالفين • الثالث : أن التولية إلى الكعبة تدفع إحتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة لا الصخرة • وهذا النبي يصلي باتجاه الصّخرة فلا يكون النبي الموعود وبأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعي أنه صاحب شريعة مع أنه يتبع قبلتنا ، واحتجاجَ المشركين بأن هذا النبي يدعي دعوة الناس إلى ملة إبراهيم وهي التوحيد مع أنه يخالف قبلته • الوجه الرابع : أراد بالأول التولية إلى نفس الكعبة إذا عاينها • وبالثاني التولية إليها إذا كانوا غائبين • وبالثالث التولية إليها في الأسفار •

وقوله : (لئلا يكون للناس عليكم حجة) الناس يعم أهل الكتاب والمشركين واحتجاجهم عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمور مزيفة ذكرناها آنفاً • وقوله إلا الذين ظلموا منهم هذا الإستثناء متصل ومعناه

ليس لأحد حجة على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تحويل الكعبة مطلقاً إلا للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والإشراك ، واهملوا نظر العقل واتوا بحجة داحضة ، بل بشبهة واهية وهي أن محمداً تحيّر في دينه ولا يستقر على شيىء ، وهم غافلون عن أنه على بصيرة في دينه وثبات في يقينيه . وما إستقبل القبلة الأولى ولا الثانية إلا لِحكم ومصالح ظاهرة عند أهل النظر الناجح . ولما إنتهت الرعاية جاءته العناية . وتحولت إلى الكعبة بالأخير واستقر عليها البشير النذير ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقوله : (فلا تخشوهم واخشوني) الخشية : حالة نفسية تبعث على التوقي والحذر . والخوف : فزع القلب واضطرابه . والمعنى الحث على تحقير جميع ما سوى الله ومن سواه ممن يتبع هواه ومراعاة أمر الله تعالى والوقوف عنده بعزم وحزم . فإن الله هو الكافي الوافي وهو الحافظ العاصم في الدنيا والدين .

وقوله : (ولأتم نعمتي عليكم) معطوف على قوله تعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة وإتمام النعمة إنما هو بالنسبة إلى الظروف والمواقف وإلا فلا إتمام للنعمة فإنها تستمر إلى الأبد ولا حدّ له . وإتمامها هنا بالهداية إلى القبلة الثابتة . وما يقال من أن إتمامها بالموت على الإيمان فلأنه ورقة شهادة الأمان ودخول الجنة لأنه فتح باب العطاء والمنة وإلا فقد قال : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وما لا يحصى لا يوصل منه المنتهى .

وقوله تعالى : (كما أرسلنا) مربوط بما قبله أي ولأتم عليكم نعمتي بالهداية إلى القبلة الثابتة كما أنعمت عليكم بإرسال رسول من أنفسكم يتلو عليكم آياتنا البينات التي هي معجزات وكاشفة لحقائق يعجز عنها أهل الأرض والسموات . ويزكيكم ذلك الرسول

الأزكى عن أدناس العقائد الفاسدة الزائفة وأوساخ الأعمال الكاسدة الفارغة ، ويعلمكم الكتاب الهادي إلى الصّواب الحاوي للعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة ، والأخلاق الناجحة • والحكمة من الشريعة الكافية للأمة أو جمل جميلة تفيدكم الرقي وعلو الهمة • ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من كيفية التصرف في نقد الحياة الثمينة وصرفها في التجارة الرابحة • قوله (فاذكروني) يعني وما دام تنعمتم بهذه النعم الجسيمة فاذكروني قلباً بالتوحيد والقدم والبقاء أذكركم بالثواب وزيادة اللقاء ، واذكروني بالطاعة الخالصة أذكركم بالدرجات عليها والمغفرة للاعمال الفاضلة، واذكروني باللسان أذكركم بالأمر بإفاضة الإحسان•وللعلماء أقوال في معنى الذكر والمرادِ به هٰنا ، وحاصلها الحضور مع الله والرضا بالقضاء والإستقامة على ما يحبّ ويرضى • وأصل الذكر التنبّه بالقلب للمذكور والتيقظ له • وسمي الذكر باللسان ذكراً لأنه دليل على ذكر القلب لكنه لما كثر إطلاقه على الذكر باللسان صار هو السابق إلى الفهم والجامع بين الخيرين:ذكرٌ باللِّسان يوافقه الضمير، وذكرٌ بالقلب يساعده التقدير• واشكروا لي على نعمتي التي أنعمت بها عليكم بالخضوع جَناناً والطاعة أركاناً والذكر لِساناً ، ولكل طَرَفٍ منها أطراف والناس في أدائها أصناف وأتمّها أعَمّها ، ولذا قال تعالى : وقليل من عبادي الشكور • ولا تكفروني ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً حتى لا أعذبكم عذاباً نكالاً وأورثكم فضلاً وكمالاً •

(يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سبيلِ اللهِ : أمْواتٌ بَلْ أحْياءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرون (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ والْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ

وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)(١٥٧)

قوله : (استعينوا بالصبر والصلاة) الإستعانة طلب العون والمساعدة في أداء الواجب وترك المحرم بالدرجة الأولى وفي فعل المرغوب وترك المستكره بالدرجة الثانية • والصبر هو إمساك النفس على ما لايوافق هواها فليس هناك عمل ظاهر أو باطن فعلاً أو كفاً إلا ويحتاج إلى مقارنة الصبر فالصبر أساس النجاة وقاعدة السعادة الإنسانية • والصلاة في اللغة الدعاء وفي العرف الأقوال والأفعال المخصوصة المفتتحة بالتكبير والمختتمة بالتسليم • فمعنى الآية الشريفة : يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر على الذكر والشكر وسائر الطاعات من الزكاة والصوم والجهاد وترك المبالاة بطعن الطاعنين • وبالصلاة التي هي الأصل والموجب لكمال التقرب إلى الله ولاشيء من الطاعات البدنية أقوى في الإستعانة به على موجبات مرضاته تعالى وأقرب منها اليه تعالى • إن الله مع الصابرين معية خاصة بالعون والنصر للمؤمنين •

وقوله تعالى : (ولا تقولوا لمن يقتل) الآية نزلت في قتلى بدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلاً ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين • وذلك أن الناس كانوا يقولون للرجل يقتل في سبيل الله : مات فلان ، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها فأنزل الله الآية • أي : ولا تقولوا في شأنهم وبيان الأسف على فقدهم أنهم أموات فإنهم ليسوا أمواتاً بل أحياء • فقوله تعالى بل أحياء بتقدير المبتدأ جملة لتقرير حياة الشهداء • والإضراب عن مجموع الجملة السابقة القول والمقول لا عن المقول فقط ، إذ ليس المعنى لا تقولوا

إنهم أموات ، وقولوا إنهم أحياء بل المقصود إنهم أحياء في الواقع • ولكن لا تشعرون أنتم بأحوالهم في البرزخ فإنها لا تدرك بالعقل المجرد بل تدرك بالعقل المؤيد •

واختلفوا في هذه الحياة فقال بعض : إنها حياة بالروح والجسد ، وبعض إنها حياة بالروح فقط • لكن لا مثل حياة باقي الأموات بل أرقى من ذلك بما لا يعلم تفصيله إلا الله •

والحق في الموضوع أخذا من هذه الآية الشريفة وآية سورة آل عمران ، ومن الأحاديث الشريفة الواردة في موضوع حياة الأموات إنّ كل ميّت له روح متعلق به بعد قطع العلاقة الموجودة في عالم الحياة الجسدية • وإن كل ميت له جسد برزخيّ تدرك فيه النعيم واللذة إن كان من السعداء ، والشقاء والألم إن كان من الأشقياء • ومع ذلك فالباري تعالى منع بقدرته القاهرة الأرضَ عن أكل أجساد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم ، وجَعَل للشهداء لإعلاء كلمة الحق حياة وقوة روحية دون حياة الأنبياء والصديقين على ظاهر قوله تعالى (فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين و الصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) ومما لاشك فيه أن هذه الحياة البرزخية تختلف باختلاف درجات المتوفين ، من الآحاد إلى العشرات ، إلى المئات ، إلى الآلاف حسب الأصناف والله أعلم • وإن ذلك الجسد البرزخي يجوز أن يكون مثل الجسد الذي يتوفى فيه وإن كنا لا ندرك ذلك فإن عالم البرزخ عالم عجيب وقد جاء في الحديث الشريف : (إن المؤمن يفسح له مدّ بَصره ويقال له : نم نومة العروس) مع أنا لا نشاهد ذلك إذ البرزخ معزل عن أذهاننا ويجوز أن يكون جسداً آخر على صورة الطير تتعلق الروح به كما أخرجه عبدالرزاق عن عبدالله بن كعب بن مالك قال رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ (إن أرواح الشهداء في صورة طير خضر معلقة في قناديل الجنة حتى يرجعها الله تعالى يوم القيامة) وهناك روايات أخرى حول الموضوع بينها مخالفات جزئية في محل تعلقها والذي أعتقده : أنها كلها ثابتة والإختلاف فيها عائد إلى إختلاف درجات الشهداء . ومما لاشك فيه أن درجات المسلمين على كثرة أصنافهم مختلفة ومتفاوتة بما لا يعلمه إلا الله ، كما أن دركات الأشقياء مختلفة . أعاذنا الله من الدركات بفضله وأوصلنا إلى بعض الدرجات اللائقة بهباته ، إنه الرؤوف الرحيم .

وقوله تعالى : (ولنبلونكم) أي لنعاملن معكم معاملة المختبر لشخص والمراقب لحاله في عوارضه وأحواله فهو مجاز وإلا فالباري تعالى لايخفى عليه شيء ولا يحتاج إلى إختبار أحد .

وقوله بشيء التنوين للتنكير ، والمراد به التقليل أي وسيلة إختياركم شيء قليل من ذلك وإلا فكثيره لا يطيقه أحد إلا من أعانه الصمد . وقوله : (من الخوف) الآية ... المراد من الخوف : الخوفُ من كل من يَمَسّه بسوء أو يؤذيه مِن أهله وجيرانه وأقاربِه لاسيّما الذين أعْلنوا عداوتهم له ، ومن الجوع قلةُ المأكلِ والمشرب بسبب خاصٍ أو عام كالقحط . ومن نقص الأموال نقص ما يملكه من النقود أو العُروض او العقار أو المواشي ، ومن نقص الأنفس : وفاةُ الأصول والفروع والحواشي القريبة والبعيدة . ومن نقص الثمرات : هلاكُ ثمار البساتين والمزارع بالجوائح أو غيرها كأهل العدوان . وقال الإمام الشافعي ـ رضى الله عنه ـ : الخوف خوف الله تعالى ، والجوع صوم رمضان ، ونقص الأموال الزكاة والصدقات ، ونقص الأنفس الأمراض ، ونقص الثمرات موت الأولاد .

وقوله : (وبشر الصابرين) خطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو لكل من يتأتى منه الترغيب والترهيب وَأَمر لـه بـأن يبشِّر الذيـنَ يصبِرون على ما داهَمَهُم ، ويُمسكونَ بأنفسهم عن الإعتراض قلباً ، والمعارضة والقدح وسوء البيان لساناً . (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون) قولاً موافقاً لسكون القلب وإيمانه بأنّ كـل مقدر مُيَسَّر وإن العالَم لله ، وإن المآل إليه ، ويتصرف في العالم بمـا يشاء ، ببشارة لا يحيط بملابساتها البيان ، وإنما الممكـن الإجمـال ، والإستئناف بقوله الجامع لكل فضل وهو (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) يعني أولئك الصابرين تنزل عليهم بركات وسكينة من ربهم . وحاصلها رحمة تعمهم في سائر أحوالهم في الدنيا والآخـرة ، وبشارة فيها إعلان أن أولئك هم المهتدون بهدي الباري للدنيا والدين .

إنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِـنْ شعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فلا جُناحَ عَلَيهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيراً فَإِنَّ اللهَ شاكِرٌ عليم) (١٥٨)

قوله تعالى : (ان الصـفا والمروة) وجه المناسبة بينه وبين ما تقـدم هو أن الآيات السابقة ذكر فيها الصبر وأجر الصابرين ولما كان الحج صعباً على الإنسان محتاجاً إلى الصبر على بذل المال والحال وقبول الأتعـاب ذكره بعدها .

ومما يجب أن يعلم أن الحج والعمرة كانا مـن الشـرائع المتقدمـة واستمرت إلى عهد رسالة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فجعلا من أركان الإسلام واختصّا بكثير من الأحكام يأتي تفصيلها إن شاء الله تعالـى في تفسـير : (وأتمـوا الحـج والعمرة لله) آيـة مائـة وسـت

وتسعين من سورة البقرة وفي وقت تشريعهما في الإسلام أقوال : أرجحها أنه كان في السنة الثامنة من الهجرة بعد فتح مكة المكرمة . وبعث ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبا بكر الصديق في السنة التاسعة آمراً على الناس ، فحجّ بهم ، وتأخر عنه مياسيرُ الأصحاب الكرام كعثمان ابن عفان وعبدالرحمن بن عوف من غير شغل بحرب ولا عدو ، حتى حجوا مع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في السنة العاشرة الحجة المشهورة بحجة الوداع . والأصح أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ حج قبل الهجرة مرتين واعتمر مراراً ، ولم يبين كيفيتهما . وأما بعد الهجرة فإنه حج مرة واحدة تلك الحجة المعروفة ، ولكنه إعتمر أربع مرات عمرة القضاء في السنة السابعة وعمرتين عام الفتح ، وعمرة مع حجة الوداع . وقوله تعالى من شعائر الله ؛ جمع شعيرة أو شعارة وهي العلامة . والمراد بكونهما من شعائر الله أنهما من أعلام العبادة لله تعالى . والصفا والمروة علمان لموضعين معينين بمكة عند المسجد الحرام علماً بالغلبة واللام لازمة فيهما ، وسبب النزول ما صح عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ : أنه كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له : أساف ، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى : نائلة .

زعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فمسخهما الله حجرين فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما الناس ، فلما طالت المدة عبدا من دون الله ، فكان أهل الجاهلية إذا سعوا بينهما مسحوا الوثنين ، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ومن هذا يعلم دفع ما يترائى أنه لا يتصور فائدة في نفي للجناح بعد إثبات أنهما من شعائر الله بل ربما لايتلازمان إذ أدنى مراتب الأول الندب ،

وغاية الثاني الإباحة ولا جناح فيهما قطعاً . وقد وقع الإجماع على مشروعية الطواف بينهما في الحج والعمرة لدلالة نفي الجناح عليه قطعاً . لكنهم إختلفوا في الوجوب فروي عن أحمد أنه سنة ، وعن الشافعي ومالك أنه ركن ، وهو رواية عن الإمام أحمد واحتجوا بما أخرج الطبراني عن ابن عباس قال : سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إن اللهَ كَتَبَ عَلَيكُمُ السَّعيَ فَاسْعَوا . ومذهب الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ انه واجب يجبر بالدم ، لأن الآية لا تدل إلا على نفي الإثم وذلك يستلزم الجواز . وأما الركنية فلا تثبت إلا بدليل مقطوع به ولم يوجد .

وقوله تعالى : (وَمَنْ تَطَوَّعَ خيراً) الآية معناه ومن زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف بالبيت (فإن الله شاكر عليم) أي قابل لطاعته ومثيب له عليها ، لأنه عليم بنيته للعبادة والتقرب إليه تعالى فيثيبه برحمته ولا يردها عليه ، فلله الحمد أَبَدَ الآبدين (إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهدىمِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فــي الْكِتَابِ أولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ ويَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إلاَّ الَّذِينَ تابُــوا وَأَصلَحُوا وَبَيَّنُوا فأولئــك أَتوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمْ (١٦٠)

إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والملائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (١٦١) خَالِدِينَ فِيها لايُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ ولاهُمْ يُنْظَرُونَ)(١٦٢)

قوله تعالى : (ان الذين يكتمون) الآية عن قتادة أنها نزلت فــي الكاتمين من اليهود والنصارى . وقيل : نزلت في كل من كتم شيئاً مــن أحكام الدين لعموم الحكم للكل . فقد روى البخاري وابن ماجه وغيرهما

عن أبي هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال : لولا آية في كتاب الله ما حَدَّثتُ أحداً بشيء أبَداً ثمّ تلا هذه الآيةَ .

وقوله : (ما أنزلنا) أي على الرسل وقوله (من البينات) أي الآيات الواضحة الدالة على الحق . ومن ذلك ما أنزلناه على موسى وعيسى عليهما السلام في أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونعوته ونعوت أصحابه . وقوله (والهدى) أي وما يهدي إلى وجوب الإيمان به واتباعه وقوله : (من بعد ما بيّناه للنّاس) أي من بعد ما شَرَحْناه وأظهرناه لهم . وقوله : (في الكتاب) وهو التوراة ، أو المراد جنس الكتاب من التوراة وأسفار شعياء وأرميا وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم السلام . وقوله : (أولئك يلعَنُهم الله) مبتدأ وخبر والجملة خبر" لإنّ . أي إن أولئك الكاتمين يبعدهم الله عن رحمته ويجعلهم في عذابه ونقمته جزاءً لعنادهم واستكبارهم واستنكارهم رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ويلعنهم اللاعنون أي كل من يأتي منه اللعن من الملائكة والجن والإنس لإعلان طردهم عن حضرة القدس . أعاذنا الله من الكتم لأحكام الدين . وقوله : (إلا الذين تابوا) أيْ رَجَعُوا عَن الكتمان لنعوته ، أولها ولكل ما يحتاج إلى البيان . وقوله : (وأصلحوا) أي وأصلحوا ما أفسدوه من معاني الأسفار بالتأويل والتحريف ، أو أصلحوا قلوب الناس بعد تشويشها إصلاحاً ناجحاً بالبيان والإرشاد والتعريف وقوله : (وبينوا) أي وأوضحوا ما بينه الله تعالى للناس . وذلك يكون توبة لهم لأن توبة الظالم يرد الحقوق وتوبة الكاتم ببيان الواقع .

وقوله : (فاولئك) أي فأولئك الناس التائبون أتوب عليهم بغفران ذنوبهم وأنا التواب الرحيم .

وقوله : (ان الذين كفروا) الصلة للإشارة إلى الناس المعهودين بنقض العهود وكتمان نعوت صاحب المقام المحمود من النصارى واليهود . وقوله : (وماتوا وهم كفار) أي وأصرّوا على كفرهم وكتمانهم وصفاتهم الرذيلة وأعمالهم المغشوشة الدخيلة ، وماتوا على تلك الحالة الفاسدة ، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . معناه يستمر عليهم اللعن من الله ، واللعن من الملائكة على حسب أمره ، ومن الناس العالمين بالحق وقدره . وقوله : (خالدين فيها) حال مقدرة أي مقدرين خلودهم في نتائج تلك اللعنة وهي العذاب الدائم . لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون : أي يمهلون بتأجيل العذاب يوم القيامة ، أو بقطع العذاب عنهم حينا بعد حين . وهذا على أن الفعل من الإنظار بمعنى التأخير . ويجوز أن يكون من النظر بمعنى الإنتظار . أي لا ينتظرون فيعتذرون أو من النظر بمعنى الرؤية . أي لايُنْظَرُونَ من الله ولا يَنظُرُ إليهم نظرَ الرحمةِ .

(وإلهُكُمْ إلهٌ واحِدٌ لا إله إلاّ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ) (١٦٣)

لما ذكر الباري تعالى في الآيات السابقة أهلَ الكتاب والمشركين وأوْعَدهم بالعذاب ووَعَد الذين يؤمنون منهم بالثواب ، حَوّل السياقَ إلى بيان جهة الوحدة للجميع فقال : وإلهكم إله واحد أي أن الإله لجميع أفراد الإنسان واحد وهو أمركم بالإيمان به وبرسله وأن لاتفرّقوا بين أحد منهم . ثم أكّد وقرر الوحدة له تعالى بقوله لا إله إلا هو . أي لا معبود بالحق سواه حيث إنه هو الرحمن المنعم بجلائل النعم ، والرحيم المنعم بدقائقها ، وكل منعم كذلك يجب أن يُعْبد ويُوَحّد .

ثم أتى بالإستدلال على وحدته تعالى بآيات الآثار العظيمة التي تدل على وجوده ووحدته فقال :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (١٦٤)

والمراد بالسموات : جميعُ الأجرام الموجودة العلوية المزينة بالشمس والقمر والواكب الثوابت والسيارات التي تجري على فلكها الخاص ومدارها المعين بدون إنحراف عنها في دقيقة من الدقائق بطول الزمان . و المراد بالأرض : الجرم المادي الموجود فوقه البشر وسائر الحيوانات المرتب لها طرق معاشها بالمياه والأقوات والفواكه وسائر ما يتمتع به ويحتاج إليه المزين بالبحار والأنهار والعيون ، والحدائق والأوراد واشجار ذوات الثمار وغيرها ، والمسقف بمظلة مضيئة بالأيّام ، منوّرة بالليالي ، والمنظفة بهواء صافٍ وافٍ للدّيار . والمراد باختلاف الليل والنهار تعاقبهما ومجيء كل منهما عقب الآخر بلا إنفصال . فمن طلوع الفجر إلى غروب الشمس ومن غروبها إلى طلوع الفجر كالأمس ، أو تغايرهما بالساعات والدقائق في سائر البقاع إلا ماشذّ من نقطتي الإعتدال الربيعي والخريفي ، أو إختلافهما بحسب الحركات المستوية والمائلة والرحوية . فإن في القطبين الشمالي والجنوبي تكون السنة يوماً وليلة ، وكل منهما ستة أشهر وفيهما تختلف مراتب الأضواء والانوار .

وقوله : (والفلك) أي وفي إبداع القوة العقلية الصناعية في البشر وبالأخص في سيدنا نوح عليه السلام في صنع السفينة بكل دقة وحذاقة

إلهامية وإيحائية من الله بدون تعلم علم الفيزياء • ومعرفة موازين الهواء والبحار ، ورعاية وزن السفينة مع حمولتها حتى لا تغور في البحار • وهي التي تجري في البحر بقوة الرياح سابقاً والنار والكهرباء لاحقاً ، مصاحبة بما ينفع الناس من المطعوم والمشروب والملبوس وباقي ملابساتها • وقوله : (وما أنزل الله من السماء من ماء) أي وثلوج وبَرَدٍ وأنداءٍ ومَنٍّ السماء • وقوله : (فأحيا به الأرض بعد موتها) أي وخلق فيها النضارة والبشارة بالزروع والثمار بعد موتها ويبسها وجمودها وتعسر من عليها • وقوله : (وبث فيها من كل دابة) عطف على أحيا فيدخل تحت فاء السببية لأن الماء سبب عادي لحياة الأرض بعد الموت ، وانتشار الحيوانات من كل نوع منها • والمراد بها الدواب الإعتيادية المخلوقة لا مطلقاً ، حتى يرد عليها الجن والملك على فرض تسميتها دابة أو حيواناً • وقوله تعالى وتصريف الرياح أي تقليب الله تعالى لها جنوباً وشمالاً ، وقبولاً ودبورا ، وحارة أو باردة ، وعاصفة ولينة ، وعقيما ولواقح ، وتارة بالرحمة وتارة بالعذاب ••

وقوله : (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) أي وفي مادة السحاب وإنشائها ورفعها إلى جهة العلو وتسخيرها هناك بالوقوف في محاذاة بقعة من بقاع الأرض أو جريانها إلى حيث شاء الله • وقوله : (لآيات لقوم يعقلون) يعني إن في كل ما ذكر لآيات عظيمة قطعية الدلالة على وحدة الصانع الحكيم والقادر العليم فتدل على وحدته بعد الدلالة على وجوده وعظيم صنعته • أما دلالتها على وجوده فلأن كل ذلك من الآثار الحادثة بعضها بالبداهة وبعضها بالنظر والحادث يحتاج إلى محدث واجب حتى لا يلزم التسلسل ، وأما دلالتها على وحدته فلأنه لو كان مع وجوده إله آخر يقدر على ما يقدر هو عليه فإن توافقت إرادتهما فالحادث

إن كان بهما لزم إجتماع مؤثرين واجبين كاملين على مؤثر واحد واستحالته واضحة لأن توجه إرادة أيّ واحد منهما إليه كاف في خلقه فيكون الآخر عبثاً مستغنى عنه . وإن كان بواحد منهما لزم الترجيح بلا مرجح ولزم أن يكون الإله الآخر عبثاً مستغنى عنه لحدوث الحوادث بغيره إن كان كاملاً ، وإلا لزم عجزه المنافي لألوهيته . وإن إختلفت لزم التمانع فعلاً وعدم حدوث الحوادث لمنع كل غيره عن التأثير أو إمكان التمانع المستلزم لإمكان العجز المستلزم لعدم صلوحية أيّ واحد منهما للألوهية وحدوث الحوادث بدون صانع حكيم ، وكل ذلك مستحيل بنظر العقل السّليم .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ، وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا : لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) (١٦٧)

قوله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً) . الأنداد : الأمثال ، والمراد بها الأصنام : وقيل : المراد الرؤساء الذين يطيعونهم ، وقيل : المراد أعم منهما ، وهو ما يشغل عن الله تعالى . وقوله : (والذين آمنوا أشد حباً لله) جملة مستأنفة ذكرت لدفع توهم مساواة محبة المشركين للأنداد ومحبة الموحدين لله تعالى .

وذلك لأن محبة المشركين للأنداد ناشئة عن أوهام عاطلة فكلما عارضها مانع زالت • وأما محبة الموحدين له تعالى فمبنية على أساس متين من الإعتقاد واليقين وعلى نورانية واطمئنان للقلب حاصلة من ذكره تعالى أوصلهم إلى درجة الإحسان وحضور التجليات بالإستمرار • وقوله تعالى : (ولو يرى الذين ظلموا) شرط محذوف الجواب أي ولو يرى المشركون عند رؤية العذاب يوم القيامة أن القوة والتصرف كله لله تعالى لا نصيب لغيره فيها لوقعوا في حسرة وندامة لا يمكن الكشف عنها أبَدَ الآبدين •

وقوله : (إذ تبرأ الذين اتبعوا) بدل من قوله إذ يَرَوْنَ والفصل بين البدل والمبدل منه جائز • وما قيل من فعل مجهول وما بعدها معلوم ، والمتبوعون إن كانوا من الناس المفسدين فتبريهم بنطق معتاد عند العباد ، وإن كانوا من الأصنام فبإنطاقِ القادر على إبداع النامي والجماد • وقوله : (وتقطعت بهم الأسباب) الباء في بهم بمعنى عن أي تقطعت عنهم العلاقات والترابط المزيفة المفتعلة الموجودة بينهم في الدنيا • وقوله : : (وقال الذين اتبعوا) ومعناه وقال الأتباع الضالون: ياليت لنا رجوعاً مع المتبوعين إلى الدنيا، والوضع الإجتماعي السابق حتى نعلن هناك تبرّينا وابتعادنا عن المتبوعين الأنذال ، كما أعلنوا في هذا العالم تبرأهم مِنّا • وقوله تعالى : (كذلك يُريهِمُ الله أعمالَهم حَسَرَاتٍ عليهم) أي اراءة وإظهاراً مثل ما ذكرنا يظهرُ اللهُ تعالى أعمالَ التابعين لهم ، ويجعلها مكشوفة خالية عن النتائج الحميدة والعواقب السعيدة • حالكونها حَسَرَات وآسافاً عليهم لاتنفعهم شيئاً وتفيدهم أشياءً مِن الخيبة والخسران والعار والبوار • وما هم بخارجين من النار لأنهم كانوا كفرة فجرة مثل سائر الكافرين وأما سائر المعذبين بالنار فليس عذابهم على الخلود والإستمرار بل يكون مؤقتاً محدوداً وبنتيجة الأمر يحصل لهم الخروج حَسْبَما وَعَدهم الله تعالى

على لسان رسوله أن مَن آمن بالله إيماناً سليماً عن شوائب الضلال ، وآمن برسوله وما جاء به من الله المتعال فإنه يدخل الجنة خالداً فيها أبد الآبدين والحمد لله رب العالمين •

(يا أيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا في الأرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلاتَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأنْ تَقولُوا عَلَى اللهِ مالا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإذَا قِيلَ لَهُمْ : اتَّبِعُوا ما أنْزَلَ اللهُ • قالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ ما ألْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا • أوَلَوْكانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ؟ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذي يَنْعِقُ بِما لايَسْمَعُ إلاَّ دُعاءً وَنِداءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (١٧١)

قوله : (يا أيُّها النَّاسُ كلوا) الآية نزلت في قوم حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس • وقال الشهاب : إنما نزلت في المذكورين آية المائدة يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم • وأما هذه فنزلت في الكفار الذين حرموا البحائر والسوائب والوصائل كما ذكره إبن جرير وغيره بدليل قوله : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا •

وقوله : (حلالاً) مفعول به وقوله : (طيباً) صفة حلال • أما الحلال فواضح ، وأما الطيب فهو ما يستطيبه طبعُ المستهلكِ المتوسّطِ • وقوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) وهي تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرّمه الله تقليدا واتباعاً للهوى • لأن التحليل والتحريم إن كانا تعبديّين فذلك واضح • وإن كانا لحكمة فالحكيم المطلق هو الله ولا يجوز التجاوز عما شرعهُ

أبداً • وقوله : (انه لكم عدو مبين) تعليل للنهى السابق • وبين عداوته بقوله : (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) السوء : مطلق ما ساءك دينا ويعم القبائح كلها • والفحشاء : منها ما يجاوز الحد في القبح كهتك الأعراض • وقيل الأول مالا حدّ فيه والثاني : ما فيه الحدّ • والمراد من أن تقولوا على الله مالا تعلمون أن تنسب إلى الدين ما ليس منه لا نصّاً ولا إستنباطاً • فما حكم به المجتهد المستفرغ وسعه في إستخراج الحكم من الأدلة الشرعية يجب إتباعه على غير المجتهد لأن للدين أصولاً وفروعاً ، عقائد وأحكاماً • والعقائد يجب أخذها من الأدلة القطعية بلا شبهة •وأما الأحكام فلم نكلّف باليقين فيها لأنه متعذر أو متعسر • وغايته إقامة الدليل الشرعي عليها •

وقوله : (وإذا قيل لهم) الآية إما مرتبط بما سبق وبيان لفساد أحوالهم بالإعتماد على تقليد الجاهلين الجاحدين الخامدين أو نزل في طائفة من اليهود دعاهم الرسول إلى الإسلام فقالوا : نتبع ما وجدنا عليه آباءنا لأنهم كانوا خيراً منّا وأعلم • وحاصله أنّهم ملازمون لما وجدوا عليه آباءهم لا ينفكّون عنه ، وهذا لَجاج ما فوقه لجاج لأن إمتياز الإنسان عن الحيوان بالعقل والعقل فضله أن يكون أحكامه على البداهة أو على البرهان ، وأما التقليد للناس الجهلاء الحائرين فلا يفيدُ إلا التقييد • لا سيما إذا كان آباؤهم لا يعقلون • أي لا نظر لهم يتوصلون به إلى النتيجة بالذات ولا يهتدون باتباع أصحاب النبوات والمعجزات ثمّ سَجّل أحوال أولئك الناس بأنهم يشبهون البهائم في إختصاصهم بإحساس الأشياء بالحواس وليس لهم إدراكها بالعقول بقوله : ومثل الذين كفروا أي ومَثَلُ داعي الدين كفروا من أولئك الذين ذكرنا أحوالهم وأشباههم كمَثَل الذي ينعق أي كمثل الراعي الذي ينعق أي يصوت في الرغبة والرهبة

بما لا يسمع إلا دعاء ونداء أي بحيوانات سائمة من البهائم التي لا تسمع إلا دعاء ونداء أي صوتاً يدرك منه الإقبال تارة والإدبار أخرى والهدوء وقتاً والحركة والرواح وقتاً آخر بدون فهم المعاني وأسرارها وعللها قطعاً . فكلمة ما واقعة على البهائم وقوله تعالى : (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) على وزن فعل بضم الفاء وسكون العين جمع الأصم والأبكم والأعمى ورد تقريراً لما سبق ، يعني أولئك الكفار كالبهائم تسمع صوت الراعي ولا تسمعه كما يسمع الإنسان العاقل كلام الداعي له إلى الخير الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر فيستجيب له حسب فهمه والتأمل فيه ولا ترى الداعي حتى يهتم بكلامه فهم يسمعون كلام الداعي لهم إلى الله لكن لايسمعونه سماع تدبر في مدلول المسموع ولما لم يسمعوه كذلك لم يستجيبوا له استجابة نافعة بكلام ناشيء عن علم ومعرفة فهم بُكْمٌ حيث لم ينطقوا في الإجابة نطقاً ناشئاً عن علم وإعتقاد ، ولم ينظروا إلى شخص الداعي وأعماله والآيات البينات التي أتى بها . فهم عُمْيٌ عن إبصار الآثار والآيات النفسية والآفاقية التي تفيد الإهتداء إلى الصراط المستقيم ، فهم لا يعقلون مبدأ أمورهم ومنتهاه كالعاقل الذي ينظر في أمور دنياه وأخراه بل لهم إدراك كإدراك البهائم للمحسوسات التي ترغب فيها أو تنفر عنها . وذلك لا يؤثر فيهم بحيث ينقادون للحق وبه يؤمنون .

والإنسان إذا تفكر في أحوال الناس تفكراً دقيقاً علم أن الناس لهم قلوب يفقهون بها وحواس يحسون بها ، وكلما كان إستعمالهما بطريق الإعتدال تحصل له حالة نفسية معتدلة تسيطر عليه وتوجهه إلى إحساس المحسوسات بقدر منافعها ومضارها ، وإدراك المعقولات كذلك فيستفيد من إستعمال الحواس إستفادة جلية ، ومن إدراك المعقولات كذلك ، وإلا إبتلي بالمحبة للأمور المادية فيتوغل فيها وينسى من المعقولات المعاني العالية

الداعية إلى السعادة الأبدية فتكون من القاصرين الهالكين أعاذنا الله من تلك الإتجاهات الدنية ، ووفقنا إلى سلوك سبيل الرشد والنجاة الأبدية بمنه وفضله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٧٣)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كلوا) الآية لما وسع الله تعالى على الناس بإباحة ما في الأرض سوى ما حرّمه عليهم ، حثهم على إختيار طيّباته والقيام بحقوقها .

وقوله تعالى : (واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) معناه إن صح أنكم تعبدونه فلابد أن تشكروه على إنعامه عليكم ، فإن العبادة الصحيحة ملزومة لأداء الشكر على نعم المعبود ، وما دام اللازم منتفياً تبين أن الملزوم وهو العبادة له منتف ودعوى الملزوم مع إنتفاء اللازم خارج عن المعقول .

وقوله تعالى : (إنما حرم عليكم الميتة) الحصر إضافي أي هذه الأمور محرمة عليكم لا ما حرمتموه من البحيرة والوصيلة والحام وأمثالها ، وإلا لو كان حقيقياً لزم أن لا يكون ما عدا المذكورات في الآية حراما مع أنه سيأتي في الآيات غيرها . وقد استثنى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الميتة والدم بعضاً بقوله فيما رواه إبن

ماجه والحاكم عن إبن عمر ـ رضى الله عنهما ـ مرفوعاً : (أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال) الحديث ومن الميتة كل عضو إنفصل من الحي لما رواه أبو داود من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة » . وقوله : (وما أهل به لغير الله) أي رفع الصوت به عند ذبحه للصنم ، ثم جعل عبارة عما ذبح لغير الله تعالى على وجه التقديس له ، فليس منه ما ذبح لقدوم سلطان خوفاً منه لعله يسامح الناس ، أو إحتراماً وإجلالاً له ولا ما ذبح لقدوم علماء أو صلحاء إكراما لهم ، وإن اعتقد الذابح فيهم وجود طاعة وتقوى ولا ما ذبح لرعاية قلوب الضيوف الأصدقاء ، ولا ما ذبح في وليمة مولد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا ما ذبح من المنذورات المعلقة بشفاء مريض أو خلاص أسير ولو قصد وصول ثوابها لروحانية أحد الصالحين ؛ فإن ذلك ليس تقديساً له ولا عبادة والعياذ بالله . وإنما غايتها ومنتهى الأمر زيادة محبة لذلك الشخص أو حسن اعتقاد فيه .

غير أن المنذورات بعبارتها المعروفة كأن شفى الله مريضي فعلي ذبح نعجة مثلاً يختص أكلها بالفقراء غير أهل الذابح ممن تجب عليهم نفقته . وأما قولهم : هذه ذبيحة مولد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فاطرد العرف العام بأنها صدقة عامة ويجوز لصاحبها وأصوله وفروعه والأغنياء أن يأكلوا منه إذ ليس في صيغة الشخص إلتزام لذبحها ، واطرد العمل به على ما ذكرته .

وقوله : (غير باغ) أي على مضطر آخر بأن يتعدى عليه ويستأثر نفسه بها . وقوله : (ولا عاد) أي متجاوز سد الرمق أو غير متجاوز عند إضطراره على الحدود والحقوق الشرعية ، كأن خرج هاربا عن الحدود الشرعية أو متجاوزاً على حقوق الناس بأخذ أموالهم وقطع الطريق عليهم .

وقوله فلا إثم عليه أي لا إثم عليه حينئذ في تناول ما ذكر من المحرمات إن الله غفور لما فعل ورحيم بإعطاء هذه الرخصة للمضطرّين .

فوائد : الاولى : إن الميتة ما فارقته الروح من غير ذكاة مما يذبح وما ليس بمأكول كالسباع ونحوها فلا تفيدُ ذَكاته .

الثانية : لايجوز الإنتفاع من الميتة بشيء عند الإمام الشافعي إلا بجلدها بعد الدباغ . فشعرها وصوفها نجس . وفي ذلك خلاف لبعض الأئمة .

الثالثة : إذا نُحرت الناقة ، أو ذُبحت البقرة ، أو الشاة وكان في بطنها جنين ميت جاز أكله عند الإمام الشافعي . فقد روى جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن البقرة والشاة تذبح والناقة تنحر فيكون في بطنها جنين ميت فقال : إن شئتم كلوه فإن ذكاته ذكاة أمه .

الرابعة : من المطعوم المحرّم مال الغير إلا بطيب نفس منه ، فإن كان هناك عادة يعمل به كماء السقاية ، أو بستان أبيح للعابرين . ومن الحرام أكل مال جيء به لصفة فيك ولم توجد ، أو موقوف على جهة ولستَ بوافٍ حقها أو قدم إليك إستحياءً .

(إنَّ الَّذينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابَ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَليلاً أولئِكَ ما يَأْكُلُونَ في بُطُونِهِم إلاَّ النَّارَ ، وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ (١٧٤) أولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى والعذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ؟ (١٧٥) ذلِكَ بأنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا في الكِتابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) (١٧٦)

قوله : (يكتمون) الآية المراد به عدم الإظهار أو إظهاره مع تأويل باطل ، وسبب النزول علماء اليهود ، ولكن الحكم عام .

وقوله : (ثمناً قليلاً) أي عوضاً حقيراً من الرشايا والهدايا . قوله (في بطونهم) ومعنى في بطونهم ملء بطونهم والبطن ليست ظرفاً للأكل بل للمأكول ، لأن الأكل هو المضغ وهو في الفم ، لكن ذكر البطن للدلالة على أن المأكول مَلأَ البطن فإذا أكل ومَضَغَ في الفم فكأنه أكل في البطن لأن الفم والبطن إتصل كل منهما بالآخر فالبطن صار فما والفم صار بطنا . ومعنى أكل النار أكل ما سيصير نارا في الآخرة . وأما في الدنيا فالنار نار العار عند أهل الإعتبار .

وقوله : (ولا يكلمهم الله) أي يغضب عليهم ويأمر بعذابهم . وقوله (ولا يزكيهم) أي لايثني عليهم أو لا يبرؤهم من العقاب . وقوله : (اشتروا الضلالة بالهدى) أي في الدنيا (والعذاب بالمغفرة) أي في الآخرة . وقوله : (عذاب أليم) أي مؤلم .

وقوله : (فما أصبرهم على النار) ما أَصْبَرَ على وزن ما أفعل صيغة من صيغتي التعجب . والصيغة الثانية : أفعِلْ بِهِ على وزن أَمر باب الإفعال . فالصيغة ذكرت لإنشاء التعجب من إختلاطهم بأوساخ الكفر والضلال الموجبة للعذاب الخالد بنار أعدّت لهم ولأمثالهم بدون مبالاةٍ وَاهتمام . ومِن صَبْرِهم على العذاب بتلك النار على الدّوام .

قوله ذلك أي ذلك العذاب بالنار وجب عليهم بسبب أن الله نزل الكتاب الذي أوتي موسى عليه السلام متلبساً بالحق من العقائد ونعوت الرسول الخالد . وإن اليهود الذين اختلفوا في ذلك الكتاب أي في تأويله بالباطل بعد الإنحراف عن الحقّ لفي شقاق وافتراق وابتعاد عن الحق بعيد غاية البعد أعاذنا الله تعالى منه .

وتفصيل معنى الآية الشريفة : ان المراد بالكتاب إما القرآن أو التوراة والإنجيل ، أو جنس الكتاب • فإن كان المراد الأول فمعنى إختلافهم فيه إختلافهم في إسناد وجوه الفساد إليه ، فإن بعضهم قال : إنه كهانة ، وبعضهم إنه سحر" ، وثالث إنه شعر ، ورابع إنه من أساطير الأولين • وإن كان المراد التوراة والإنجيل فمعنى إختلافهم هو إختلافهم في تأويل الأسفار الدالة على نبوة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فذكر كل منهم تأويلاً فاسداً غير ما ذكره الآخرون ، لأن الإنسان إذا ضل وانحرف عن الحق أخذ طرقاً شتّى ، فمنهم من يقول : إنه لم يأت زمانه بعدُ ، ومنهم من يقول : إنه ليس هذا الشخص الحائز لبعض نعوت الشخص الموعود •

وإن كان المراد بالكتاب جنس ما أنزل الله من الكتب فمعنى إختلافهم فيه أنهم قبلوا بعض الكتب وهو التوراة ورفضوا بعضها وهو الإنجيل أو قبلوا بعضاً وهو التوراة والإنجيل ورفضوا بعضاً وهو القرآن • ومعنى كونهم في شقاق بعيد أنهم في نزاع واختلاف عن الحق الثابت بالبرهان القاطع ، فإن الإنسان بعد أن آمن بالله رب العالمين وأنه لايترك عباده بلا شريعة ومنهاج يجب أن ينظر إلى وجوه الدلالة على صدق من يدعي الرسالة من الله بعين الإنصاف ، فالوجه إذا كان إعتدال الأخلاق والإعتدال موجود في محمد كما كان موجوداً في عيسى وموسى وغيرهما من الرسل وإذا كان صحة مدلول الآيات المنزلة وصدقها وبعدها عن الإضطراب فهو موجود في القرآن بلا شبهة • وإذا كان ظهور المعجزات الباهرة القاهرة فكما وجدت لسيدنا موسى بالعصا واليد البيضاء وإنفلاق البحر وغيرها ، ولسيدنا عيسى بالآيات الكبرى من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص كانت موجودة لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كمعجزة الإسراء والمعراج

وشق القمر وتسليم الشجر والحجر ، وتسبيح الحصى في كفه الشريفة ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وإخباره بالمغيبات الماضية والمستقبلة ، والقرآن الكريم كله معجزة وكل سورة منه معجزة ، وآياته الناطقة بالعلوم الكونية التي تحير فيها العقلاء معجزات ، وهو موجود وسيبقى كما كان الى يوم القيامة فكما دلّت الأخلاق والأعمال والسيرة الطيبة والمعجزات على صدق دعوى الرسالة لهم ، فكذلك تدل على صدق سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أن هذا الرسول الجليل سجلت نعوته العالية في الكتاب والأسفار الموجودة عندهم إلى هذا اليوم ، بحيث لا تبقي مجالاً لشبهة الإنسان العاقل المنصف في رسالة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنه المبعوث رحمة للعالمين .

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ ، وَالْكِتَابِ ، وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (١٧٧)

قوله تعالى (ليس البر) الآيات عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلاً سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن البر فنزلت الآية فدعا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرجل فتلاها عليه . وقال : أيضاً كان الرجل قبل الفرائض إذا شَهِدَ أَنْ لآ إله إلاّ الله وأن محمداً رسولُ الله ثم مات على ذلك

وجبت له الجنة ، فأنزل الله الآية . وفي البيضاوي : البـر كل فعل مرضي ، والخطاب لأهل الكتاب فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حوّلت وادعى كل طائفة أن البـر هو التوجه إلى قبلته فرد الله عليهم وقال : ليس البر ما أنتم عليه فإنه منسوخ ، ولكن البـر ما بيّنه الله واتّبعه المؤمنون . وقيل : الخطاب عام لهم وللمسلمين أي ليس البر مقصوراً بأمر القبلة أو ليس البـر العظيم الذي يحسن أن تذهلوا بشأنه عن غيره أمـرها .

ونحن إذا نظرنا إلى مورد النزول والسبب الخاص ننظر أيضاً إلى عموم الفائدة والبيان بالنسبة إلى أهل ملة الإسلام الذي جاء لنشر الثقافة الروحية والفكرية ولبث الأخلاق العالية التي تنفع كل إنسـان ذي شـأن أي غيـر المجانين ، وننظر إلى أن أمر القبلة أمر مختص بأحد أعمال المسلم في أداء أحد أركان الإسلام ، ولكن الإسلام ليس منحصراً في ذلك بل أعم وأشمل وأنفع وأكمل فإن للمسلم جانب العقائد التي هي أساس السعادة وجانـب الأحكام الفرعية العملية وجانب الأخلاق النافعة للشخص والمجتمع بصرف القوى المادية والمعنوية في سبيل إنقاذ البشرية من مهالك المـادة ومطامـع النفس وجانب الآداب الشخصية في الوفاء بالوعود والعهود ، والصـدق والمروءة ، والصبر على مشاق الأمور في السراء والضراء والسماح عن أهل الزلة من أولي الغفلة ، ومع ذلك كله تواضع الإنسان أمام ربـه وخليقـة الرب فهذا هو البر لمن إتصف به وفي الحقيقة دليل تحقـق ذلك البـر فـي الإنسان هو إطمئنان النفس وسكينة القلب وانشراح الصدر واختيار آجـل الثواب على عاجل الخير والإ فدعـوى البر موجـود حتـى فـي أقسى البرّانيين وأغلظ الماديّين وعلى ذلك المنوال أتى الباري بجهات البر مرتّبـاً لهـا على ترتيب ترتضـيه العقول السليمة . فبـدأ بالإعتقاديات من الإيمان بالله الواحد الأحدالذي هو الأساس للمبدأ وباليوم الآخر بعثاً

للأموات وحشراً في العرصات ، وحساباً وميزاناً للحسنات والسيئات ، واستحقاقاً للدركات أو الدرجات في النيران أو الجنات والإيمان بالملائكة المخلوقة من النور أي المواد اللطيفة النورية بطريق الأمر الإبداعي لا بالتناسل الإعتيادي . الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون الوسائط بين الله وبين عباده المرسلين . والإيمان بالكتاب المنزل من الله رب العالمين إلى كل رسول أمين والإيمان بالنبيين والمرسلين المصطفين الأخيار الذين هم مظاهر تجليات الرحمة وواسطة إرشاد الأمة الذين في تبليغاتهم الكفاية لأهل الهداية والرعاية للدين .

ثم آداب حسن المعاشرة بإعطاء المال الخاص بعد الوفاء بالنفقة الواجبة للممون من نفسه وغيره ذوي القربى من الأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولادهم البنات والبنين ، واليتامى المحتاجين إلى إحسان المحسنين ، ثم الفقراء والمساكين من الأجانب وابن السبيل أي المسافرين العائزين ، وفي إستخلاص الرقاب من المكاتبين إذا كانت الصرف من الصدقات المستحبة الخالصة عند الله .

ثم آداب تهذيب النفس بالصلاة وسائر العبادات عن درن الغفلة والكسل وبإيتاء الزكاة للمستحقّين عن أوساخ اللؤم والشح ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وبالوفاء بالعهد والوعد وبالصّبر في حالتي الفرح والفزع . وفي البأساء من القحط والجدب والغلاء والضراء بالإبتلاء في الأنفس بالأمراض والعاهات عافانا الله وحين البأس والشدة من الأعداء .

وحاصل تفسير الآيات الشريفة : أنه ليس البر والعمل المرضيّ منحصراً في أن تولوا وجوهكم المشرق والمغرب على أساس أنهما القبلة للنصارى واليهود ويجب بقاء قبلة كل طائفة منها إلى يوم القيامة ، ولكن البر برّ من آمن بالله والملائكة والكتاب والنبيين جميعهم من غير تفرقة بين

أحد منهم والإيمان بالله معناه التصديق بوجود ذاته الواجب الوجود المتصف بالكمال المنزه عن النقص والإيمان باليوم الآخر الإيمان بأنه يأتي بعد فناء هذه الدنيا عالم آخر للثواب والعقاب والإيمان بالملائكة الإيمان بأنهم عباد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون والإيمان بالكتاب الإيمان بأنه منزل من الله بواسطة الملك المعصوم جبريل ، أو بلا واسطة ككلام الباري مع موسى بالذات ومع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ـ ليلة المعراج والإيمان بالنبيين الإيمان بأنهم معصومون عن الذنوب وأنهم أشرف الناس حسباً ونسباً ، وليس فيهم وصمة عيب منفر ، وأن أولهم آدم وخاتمهم سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع والتمسك بها واجب على كل مكلف إلى يوم القيامة كما قال تعالى الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي اُنزل معه أولئك هم المفلحون ، قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون • والبربرُّ من آتى المالَ على حبه ، أي حب المال ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل أي المسافرين المحتاجين والسائلين المعوزين وفي ذلك الرقاب عن الرق للمكاتبين •

وبِرّ من أقام الصلاة على الوجه المشروع فرضاً ونفلاً ، وبِرّ مَن آتى الزكاة لمستحقّيها الموفون بعهدهم أي وبرّ الناس الموفين بعهدهم إذا عاهدوا ولم يتخلفوا بدون عذر مشروع وَبر الصابرين في البأساء من القحط والغلاء والضراء من الأمراض والعاهات والبلاء ، وبرّ الصابرين

عند البأس والشدة من لقاء الأعداء ، أولئك الذين صدقوا وثبت لهم الصدق في الدنيا والدين وأولئك هم المتقون على وجه اليقين •

وقوله تعالى : (والصابرين) منصوب على المدح بتقدير أخصّ أو أمدح • وغير الأسلوب تنبيها على فضيلة الصّبر ومزيته على سائر الأعمال والصّفات غير الإيمان وهو كذلك قال تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) •

(يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصاصُ فِي القَتْلى : الحُرُّ بالحُرِّ وَالعَبْدُ بالعَبْدِ ، والأُنْثى بِالأُنْثى ؛ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أخيهِ شَيءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأداءٌ إلَيْهِ بِإحْسانٍ ذلِكَ تَخْفيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعدَ ذلِكَ فَلَه عَذَابٌ أَليمٌ) (١٧٨) •

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) الآية سبب النزول : إنه كان في الجاهلية بين حيّين من أحياء العرب دماء ، وكان لأحدهما طَول (أي قوة وزيادة) على الآخر ، فأقسَموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى • فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فنزلت الآية • وأمَرهم أن يتباوَؤا أي يتقاصّوا في قتالهم على التساوي فيقتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى • أي لا حُران بحر واحد فيما إذا لم يتشاركا في قتله ، ولا عبدان بعبد واحد ، ولا أنثيان بأنثى واحدة • ولا تدل على أن لا يقتل الحر بالعبد ولا الذكر بالأنثى ، كما لا تدل على عكسه • فإن مفهوم المخالفة إنما يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى إختصاص الحكم ، وقد بيّنا ما كان الغرض هناك •

تعالى . فقد ورد : الراحمون يرحمهم الرحمن . علاوة على ما يظهر من تجليات رحمة الباري سبحانه وتعالى عند الإفطار ، وعند السحور ، ووقت الأسحار ، ويوم البعث والوقوف بين يدي الله العزيز الغفار .

وللصوم درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص . أما الأول : فهو كف البطن والفرج من قضاء الشهوة . وأما الثاني : فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وأما الثالث : فهو صوم القلب ومنعه عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية ، وتوجيهه إلى الله تعالى فيتنور بأنوار القدس ، ويطمئن ، وفي الإطمنان سعادة الإنسان .

وشرائط وجوبه : الإسلام والبلوغ والعقل والقدرة على الصوم . وفرائضه : النية أي قصد صيام فرض رمضان تلك السنة بالليل . والإمساك عن الأكل ، والشرب ، والجماع ، وتعمّد القيىء . والمفطرات : ما وصل عمداً إلى الجوف أو الرأس أو الحقنة في أحد السبيلين والقيىء عمداً والوطء عمداً في الفرج والإنزال عن مباشرة ، والحيض والنفاس والجنون والرّدة . ويستحب فيه تعجيل الفطر ، وتأخير السحور ، وترك الكلام الفاسد .

وأما لوازم الإفطار فأربعة : القضاء ووجوبه عامّ على كل مسلم مكلف تَرَكَ الصومَ بعذر أو بغير عذر . فالحائض تقضي الصوم وكذا المرتد . والكفّارة ولا تجب عند الإمام الشافعي إلا بالجماع ، وتجب عند الإمام أبي حنيفة به وبغيره من المفطرات وهي عتق رقبة ، فإن لم يمكن فصوم شهرين متتابعين ، وإن عجز فإطعام ستين مسكينا كل مسكين مدّ عندنا ، وطعام مسكين عند الحنفية نصف صاع من البرّ . والفدية : وتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفاً على ولديهما ، لكل يوم مدّ وهذا

وقوله : (فمن اعتدى) أي فمن إعتدى منهما على الآخر بعد ذلك بأن إغتنم ولي الدم الفرصة واغتال القاتل بعد العفو أو ماطل القاتل في أداء الدية وهو موسر فله عذاب أليم أي مؤلم في الآخرة •

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (١٧٩)

وقوله تعالى : (ولكم في القصاص) اه أي ولكم في تشريع القصاص على الوجه المذكور حياة للأمة ؛ فلا يمد أحد يده إلى غيره بالقتل غالباً مخافة أن يقتص منه • وفي ذلك كسب إطمئنان على حياة الجاني والمجنى عليه وغيرهما ممن تسري الفتنة إليه يا أولى الألباب والعقول الناضجة الخالصة ، لعلكم تتقون الله في المحافظة على القصاص والحكم به والإنقياد التام له •

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، إِن تَرَكَ خَيْراً ، الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) ، فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١٨٢)

قوله تعالى : (كتب عليكم) أي فرض عليكم • قوله : (إذا حضر أحدكم الموت) أي علامة الموت ، كالمرض المخوف لاسيما للشيّاب ، وقوله (إن ترك خيراً) أي مالاً كثيراً • وروي ذلك عن علي وابن عباس وعائشة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ ، وقالوا في سبعمائة دينار إنه قليل • والظاهر أن

المراد بالخير المال الذي يحتمل عادة التبرع بمقدار منه مع بقاء ماينفع من بقي من الورثة ويسد حاجتهم المؤقتة .

وقوله : (الوصية) وهي لغة كل شيء يؤمر بفعله في الحياة وبعد الموت ، ، وخصّصها العرف بما يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت . وقوله : (بالمعروف) أي بالعدل أي لايزيد على الثلث ، ولا يوصى للغني ويدع الفقير .

وكان السبب في نزول هذه الآية : أن أهل الجاهلية كانوا يوصون بما لهم للبعدى رياء وسمعة ، وطلبا للفخر والشرف ، ويتركون الأقارب في الفقر والمسكنة ، فصرف الله تعالى بهذه الآية في بدء الإسلام ما كان يصرف إلى الأبعدين إلى الوالدين والأقربين فعمل بها ما كان العمل بها صلاحاً وحكمة .

ثم إن هذا الحكم كان في بدء الإسلام ثم نسخ بآية المواريث كما قاله ابن عباس وابن عمر وقتادة وشريح ومجاهد وغيرهم . وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه ، والنسائي وابن ماجه عن عمرو بن خارجة ـ رضى الله تعالى عنهم ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبهم على راحلته فقال : وإن الله قد قسم لكل إنسان نصيبه من الميراث فلا تجوز لوارث وصية .

وأخرج أحمد والبيهقي في سننه عن أبي أمامة الباهلي : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حجة الوداع في خطبته يقول : إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحو ذلك . وهذه الأحاديث لتلقي الأمة لها بالقبول إنتظمت في سلك المتواتر في صحة النسخ بها عند أئمتنا قدس الله أسرارهم ، بل

قال البعض : إنها من المتواتر ، وإن التواتر قد يكون بنقل من لايتصور تواطؤهم على الكذب ، وقد يكون بفعلهم بأن يكونوا عملوا به من غير نكير منهم . على أن النسخ بآيات الفرائض والسنة مبينة لها .

ثم إن القائلين بالنسخ إختلفوا : فمنهم من قال : إن وجوبها صار منسوخاً في حق الأقارب الذين يرثون ، وبقي في حق الذين لا يرثون من الوالدين والأقربين ، كأن يكونوا كافرين ، وإليه ذهب ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ . وروي عن علي كرم الله وجهه : من لم يوص عند موته لذوي قرابته ممن لا يرث فقد ختم عمله بمعصية .

وبعد نسخ الوصية الواجبة بالنسبة للوالدين والأقربين فالأصل فيها الندب ، لأنها في ذاتها قربة ، وكل قربة لا أقل من أن تكون مندوبة ، وقد تكون واجبة لمن كانت عنده وديعة أو عليه حقوق الغير وهناك تركة توفي منها ، وقد تكون محرّمة مثل الوصية لجهة المعصية ، أو مكروهة كالوصية بالزائد على الثلث فيما إذا كان له ورثة . وقد تكون مباحة . كذا قالوا . وفيه نظر ، لأن ما وضعه على الندب لا يكون مباحاً فهي مندوبة .

وقوله : (حقاً على المتقين) حقاً مصدر مؤكد للحدث الذي دل عليه كتب . أي حق ذلك حقاً .

وقوله : (للمتقين) للدلالة على أن المحافظة على الوصية والقيام من شعائر المتقين الخائفين من الله تعالى .

وقوله تعالى : (فمن بدله) الضمير عائد إلى الحكم المستفاد من قوله كتب عليكم أو إلى الإيصاء المستفاد من الوصية . والمبدّل إما الوصي أو الشاهد على الأمر أو القائم على تنفيذه من الحكّام . وقوله : (بعد ما سمعه) المراد بعدما وصل إليه وتحقق عنده . وقوله : (فإنما إثمه) أي

فما إثم الإيصاء المغير أو التبديل إلا على مبدّله؛ لأنه الذي خان وخالف الشرع . وقوله : (إن الله واسع عليم) وعيد للمبدلين .

وقوله تعالى : (فمن خاف) الآية الخوف : توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة ، كما أن الرجاء توقع محبوب كذلك . والجنف الميل بالخطأ في الوصية . والإثم هو التعمد فيه . وهذه الآية الشريفة في معنى الإستثناء من المبدلين أي كل مبدل له أثم إلا من ادرك أن الموصي يميل إلى ظلم خطأً أو تعمداً ، وحصل هناك نزاع بين الورثة والموصى لهم ، بأن يأمر الموصي بالعدل والرجوع عن تلك المظلمة في الوصية ودفع ما يورث النزاع والفتنة حالاً أو مآلاً فلا إثم عليه لأنه أراد الإصلاح وأصلح بينهم فعلاً فهو مثاب لا معاقب .

وقوله تعالى : (إن الله غفور رحيم) أتى به للوعد بالثواب للمصلحين . ويدخل في الجنف والإثم ما لو وصى الموصي بالزيادة على الثلث عند إباء الورثة ، أو بالحرام أو المكروه والوصية للوارث .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (١٨٤)

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ

فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٨٥)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) الآية واعلم أن الصوم أحد الأركان الخمسة للإسلام • وهو من العبادات الراسخة السابقة في الأديان السماوية لما يترتب عليه من المحاسن • فإن الإنسان قبل كل شيء يهمه الأكل والشرب لإدامة حياته ، ثم المشتهيات النفسية • فالأكل والشرب من لوازم حياته والشهوات من التوابع ، فإذا امتنع من هذا الأمر الذي هو من لوازم ذاته إطاعة لله تعالى فقد تحلّى بعبادته تعالى • وإذا صام وأمسك عن المفطرات صوماً يستحب في الدين فلاشك أنه تضعف قوته الشهوية فيتعفف وينال رضاء ربه تعالى والصبر عن الأكل والشرب وقضاء الشهوة في درجة لا حساب لها • • وعليه يقول تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله تبارك وتعالى يباهي ملائكته بالشاب العابد فيقول : أيها الشاب التارك شهوته لأجلي المبذل شبابه لي أنت عندي كبعض ملائكتي » ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء) أي قاطع لشهوته •

ففي الصيام تدريب النفس على الجوع والعطش تدريباً يعود بالنفع له أيام الشدائد والمجاعة والحروب • وفيه كبح جماح النفس عن الشهوات وتنويرها بأنوار الطاعة وتقريب لها إلى رضاء الباري سبحانه وتعالى • وفيه إنتباه لأحوال الجياع العطاش وترحم بهم • وفي ذلك إقتراب من الله

تعالى . فقد ورد : الراحمون يرحمهم الرحمن . علاوة على ما يظهر من تجليات رحمة الباري سبحانه وتعالى عند الإفطار ، وعند السحور ، ووقت الأسحار ، ويوم البعث والوقوف بين يدي الله العزيز الغفار .

وللصوم درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص . أما الأول : فهو كف البطن والفرج من قضاء الشهوة . وأما الثاني : فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وأما الثالث : فهو صوم القلب ومنعه عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية ، وتوجيهه إلى الله تعالى فيتنور بأنوار القدس ، ويطمئن ، وفي الإطمئنان سعادة الإنسان .

وشرائط وجوبه : الإسلام والبلوغ والعقل والقدرة على الصوم . وفرائضه : النية أي قصد صيام فرض رمضان تلك السنة بالليل . والإمساك عن الأكل ، والشرب ، والجماع ، وتعمّد القيء . والمفطرات : ما وصل عمداً إلى الجوف أو الرأس أو الحقنة في أحد السبيلين والقيء عمداً والوطء عمداً في الفرج والإنزال عن مباشرة ، والحيض والنفاس والجنون والرّدة . ويستحب فيه تعجيل الفطر ، وتأخير السحور ، وترك الكلام الفاسد .

وأما لوازم الإفطار فأربعة : القضاء ووجوبه عامّ على كل مسلم مكلف تَرَكَ الصومَ بعذر أو بغير عذر . فالحائض تقضي الصوم وكذا المرتد . والكفّارة ولا تجب عند الإمام الشافعي إلا بالجماع ، وتجب عند الإمام أبي حنيفة به وبغيره من المفطرات وهي عتق رقبة ، فإن لم يمكن فصوم شهرين متتابعين ، وإن عجز فإطعام ستين مسكينا كل مسكين مدّ عندنا ، وطعام مسكين عند الحنفية نصف صاع من البرّ . والفدية : وتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفاً على ولديهما ، لكل يوم مدّ وهذا

عند الشافعي . والشيخ الهرم إذا لم يصم تصدّق عن كل يوم مدّاً . وإمساك بقية النهار ، ويجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه . وإذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك ، والصوم في السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطقه . ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيما في أوله ، ولا يوم يقدم ، إذا قدم صائما .

وما عدا الصوم الواجب إما حرام وهو صوم يومي العيدين وأيام التشريق الثلاث ، وإما مكروه ، وهو صوم يوم الشك . إلا أن يوافق عادة له ، والنصف الأخير من شعبان وإما مندوب ، وهو إما يتكرر في كل سنة كصوم ست من شوال ، ويوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، والتسعة الأولى من ذى الحجة ، والعشر الأول من المحرم . وجميع الأشهر الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . أو يتكرر في الشهر وهو أوله ، وأوسطه ، وآخره . أو يتكرر في الأسبوع وهو صوم يوم الإثنين والخميس . والتفصيل في كتب الفقه فلتراجع .

وبعد بيان تلك النبذة نقول : قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) الآية نداء منه سبحانه وتعالى للمؤمنين ويقول يامن إتصف بشرف الإيمان الداعي لإطاعة الرحمن إعلموا أنه كتب وفرض عليكم الصيام ، وجعل ركناً من أركان دينكم ، كما كتب على المكلفين الذين كانوا من قبلكم في عهد الأنبياء والأمم السابقين . وفي ذلك توكيد للحكم الإيجابي ، وترغيب لهم في الوفاء به إعتقاداً وعملاً خالصاً وتطييب لأنفسهم في فرض طاعة مباركة في العمل بها سعادة للدارين . وإنما فرض عليكم لعلكم تؤدونه وببركة أدائه تتقون المعاصي ، فإن الصيام قاطع لعرق النزوع إلى المشتهيات الفاسدة التي تؤخر الإنسان عن السبق في الدين .

وقوله : أياماً معدودات يعني كتب عليكم الصيام والإمساك عن المفطرات في أيام معدودات من الفجر إلى غروب الشمس . وقوله : (معدودات) كناية عن قلتها فإن القليل من الشيء يعدّ عدّاً . والمراد بها أيام شهر رمضان المبارك الذي يأتي بعدُ .

ولما فرض الباري صيامه على المكلفين ولا يخلو أهل التكليف عن الأعذار المانعة غالبا أتى بإخراج المعذورين فقال : فمن كان منكم مريضاً مرضاً لا يتحمل معه الصيام عادة ، أو كان على سفر مستقراً عليه ومباشراً له بحيث يعتبر الصيام فيه خارجا عن طاقة أوساط الناس فالواجب المحتم عليه صيام عدة من أيام أخر بقدر أيام سفره ، إن أفطر في أيام مرضه أو سفره . فتأجيل الصيام لهما رخصة لوجود العذر لهما مع قيام السبب لأداء الواجب . هذا في المعذورين بعذر طارىء غيرِ مزمنٍ . وأما المعذورون بعذر ثابت لا يزول عادة في ذلك الشهرِ ، كالشيخ الهرم ، والعجوز العاجز ، فلا تجب عليهم الصيام وجوباً منجزاً ، وإنما يجب وجوباً مخيراً ، فإن صاموا فقد قاموا بالواجب المبارك ، وإن أفطروا وأدّوا الفدية عنه فقد فازوا برضاء الباري تعالى وتبارك . فقوله تعالى : (وعلى الذين يطيقونه فدية) أي وعلى الذين يبلغون في الصيام نهاية طوقهم وطاقتهم لعسره عليهم أو على الذين يسلبون طاقتهم عن الصوم أي لا يقدرون عليه حسب العادة فدية ، وهي : طعام مسكين مقدر بمدّ من الطعام عند الحجازيين ، ونصف صاع من بر عند الأئمة العراقيين الناشرين لأحكام الدين فيها كعبدالله بن مسعود وأشباهه . فمن تطوع خيراً فزاد في الفدية فهو خير له ، وأن تصوموا أيها الذين عسر عليكم فهو خير لكم من الفدية لأن الأصل خير من الفرع ، إن كنتم تعلمون ما في الصيام من الأجر عن العليم العلام ما تركتموه وأديتموه بالإهتمام .

وإنما فسرت قوله تعالى : (وعلى الذين يطيقونه) على ما ذكرت موافقة للقراءات المروية الثابتة التي كلها نص في معنى المباشرة بالعسر والتكليف . فقد قرىء يُطَوَّقُونَهُ على صيغة المجهول من باب التفعيل ، أي يُكَلَّفُونَه ويقلّدونه . كما قرىء يتطوَّقونَه على صيغة المعلوم من باب التفعل ، أي يَتَكلّفونه . كما روى يَطَّوَّقُونَه بفتح الياء والطاء والواو المشددتين من باب التفعل ، وأصله يَتَطوّقونه ؛ فقلبت التاء طاء وأدغمت الطاء في الطاء ومعناه يَتكلّفونه .

وقرىء (يُطَيِّقُونَه) بضم حرف المضارع وفتح الطاء المخففة وكسر الياء المشددة ، وأصله يُطَيْوِقونه مثالَ يُبَيْطِرونَهُ ، فالياء زائدة ، والفعل من الطوق . و (يَطّيّقونه) بفتح حرف المضارع والطاء والياء المشدّدتين ، وأصله يَتَطَيْوَقُونه . وهاتان القراءتان على صيغة المبني للفاعل وقالوا : إنهما من فَيْعَلَ وتَفَيْعَلَ . لا من فعّل وتفعّل بتشديد العين . وإلا لكانا بالواو دون الياء ؛ لأن المجرد طوق بالواو . فاجتمع فيهما الواو الأصلية والياء الزائدة فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء على القاعدة المقررة . فتكون الصيغتان من الملحقات بالرباعي بزيادة الياء قبل عين الفعل كما في بَيْطَرَ . ومعناهما يتكلّفونه أي الصيام . لكنه يستفاد من الشهاب على البيضاوي أنهما من فعّل وتفعل بتشديد العين كفرّح وتكسر . وضعّفت الواو التي هي عين الفعل ، ثم قلبت ياء لأنها أخف على اللّسان . ويقول : إنه قد كرر (إبن جني) هذا القلب وجعله كقاعدة ثابتة بلا تردّد . قلت : وعليها يستعمل التقييم بدل التقويم . وهذه القراءات منقولة من ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، وكلها يدل على معنى يتكلفونه وتتفق مع ما ذكرنا في تفسير (يطيقونه) من

باب الإفعال • وتنطبق على الشيوخ والعجائز الضعاف حيث يكتفي منهما بالفدية وإن كان الصوم لمن صام منهما أحسن وأوفى •

ولا داعي لتفسير (يطيقونه) بإطاقة الصيام بسهولة وتقدير حرف النفي عليه ، إذ تقدير حرف النفي عند بيان الأحكام ينفيه المعقول والمنقول • نعم قد فسر (يطيقونه) على الطاقة الإعتيادية المضبوطة بناء على أن الصوم كان إختياريا في أول تشريعه ثم نسخ بقوله تعالى (شهر رمضان) الآية الكريمة • لكنّ المحقّين من المحقّقين عارضوا هذا المعنى لوجوه :

الأول : أن صدر الآيات يصرح بأنه كتب الصيام على المسلمين كما كتب على الأمم في الأديان السابقة ، ولم ينقل أحد أن الصيام كان إختيارياً فيها •

الثاني : أنّ بيان أحوال المعذورين من المسافرين والمرضى يدل دلالة واضحة على أن الصيام لم يكن إختيارياً لا في الأول ولا في الآخر لأن الأمر الإختياري لغير المعذورين يكون إختيارياً للمعذورين بالطريق الأولى •

الثالث : أنه لو كان منسوخاً بقوله تعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن الآية ما كان يذكر الباري تعالى في آخرها يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ؛ لأن إرادة اليُسْر تنافي نسخ التخيير إلى التنجيز وإيجاب الصيام وحده ، وهو ظاهر •

وعليه فقد ثبت تشريع الصيام في شهر رمضان ، وبيّن حكم المعذورين بأعذار مؤقتة كالمسافرين والمرضى بأن لهما الإفطار ثم قضاء ما فات في أيام أخر ، كما بيّن حكم المعذورين بأعذار لا تزول كالشيوخ والعجائز بأن عليهم الفدية لا غير •

وأما المعذورون بالإبتلاء بالأشغال الشاقة في شهر رمضان المبارك كالحصّادين ، والدّياسين ، والحداديـن ، والحامـلات ، والمرضـعات اللاتي يخفن على أنفسهن أو الحمل أو الولد ، وأمثال أولئـك فقد قـرر الفقهاء قياسها على المسافرين أو المرضى مرضاً موقتاً بجامع وجود المشقة التي لا تطاق حيث قرروا أن لهم الإفطار ثم قضاء ما فات مـن الصّيام • وأما إيجاب الفدية على الحامل والمرضع إذا خافتا على الحمل أو الولـد لا على النفس فهو أمر إجتهادي مقرر ومدلل في محلّه •

وقوله تعالى : (شهر رمضان) مبتدأ وخبره يأتي ، أو خبر لمبتـدأ محذوف ، أي ذلكم شهر أو هي أي تلك الأيام شـهر رمضـان ، وعلـى قراءة النصب بدل من قوله ايّاماً معدودات ، ورمضان مصدر رَمَض إذا احترق ولكنه مصدر شاذ ؛ لأن الموزون بفَعَلان لا يأتي في الفعل اللازم • وأسماء الشهور العربية ثلاثة منها صارت أعلاماً مع لفظ شهر وهي : شهر رمضان ، وشهر ربيع الأول ، وشهر ربيع الثاني • والباقي منها أعلام بدون لفظ شهر ، ولا حاجة إلى إضافة شهر إليها ولذلك قالوا :

ولا تضف شهراً إلى اسم شهر
إلا لما أوّله الرا فادر
واستثن منه رجباً فإنه
ممتنعٌ إضافةُ الشهرِ لـه

وعلى ذلك فنحو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من صام رمضان الخ من باب حذف جزء العلَم لعدم الإلتباس •

وهو غير منصرف للعلمية والألف والنون المزيدتين ، ولا يقدح فيه وجود المضاف •

وقوله تعالى : (أنزل فيه القرآن) أي أنزل فيه كله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ، ثم نزل منجما إلى آخر حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو ابتدىء فيه إنزاله وكان ذلك في ليلة القدر ، كما قال تعالى إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم . وقال إنا أنزلناه في ليلة لقدر . ولا نظر إلى أن شهر رمضان من الشهور العربية . وهي دائماً في التحول والإختلاف فتقع في مواسم الفصول الأربعة فإنّه لمـّا أنزل الله تعالى القرآن في ليلة القدر من ليالي رمضان فقد قرر جزءاً من هذا الشهر موسم نزول تجليات الرحمة على العباد المطيعين ، لأنه أخبر بأن تلك الليلة تفضل العبادة فيها على عبادة ألف شهر . فاحفظه . وهو تعالى قادر على إنزال رحمته في كل آن على من يشاء من عباده .

والقرآن في الأصل مصدر كالغفران بمعنى القراءة ، ثم جعل علماً للقدر المشترك من الكتاب المنزل على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كله أو بعضه . فسورة الإخلاص قرآن" ومن القرآن . وقوله : (هدىً للناس) حال من القرآن ، وهدايته لهم بيان طريق الحق والصراط المستقيم . كما قال تعالى : إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وقوله تعالى : (وبينات من الهدى والفرقان) حال منه أيضا . وتفيد أنها تشهد على رسالة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ باعتبار أنّها تعجز الثقلين عن معارضتها والإتيان بمثلها وتُفَرِّقُ بَين الحق والباطل . فإن القرآن هو القول الفصل ، وهو الحكمة وفصل الخطاب ، وقوله تعالى : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) تأكيد لفرض صيامه . على المكلفين .

ثم إن شهود الشهر عبارة عن حضور المكلف شهر رمضان ، ودخوله فيه وللأئمة فيه آراء . قال أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ : إن كانت السماء

مُتَفَيِّمَة قبل واحد ، وإن كانت صاحية ببلد أو قرية كبيرة لم تقبل إلا شهادة الجم الغفير . وروي عنه أنه تقبل شهادة عدلين . وقد روي عن مالك ـ رضى الله عنه ـ أنه لايجوز أن يصام ولا يفطر بأقل من شهادة رجلين عدلين . وقال الشافعي في رواية المزني أنه يصام بشهادة رجل واحد على الرؤية ولا يفطر بأقل من شهادة رجلين .

وسبب إختلافهم إختلاف الآثار في هذا الباب وتردد الخبر في ذلك بين انّه من باب الشهادة أو من باب العمل بالأحاديث التي لا يشترط فيها العدد بعد الإتفاق على قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم فأتموا ثلاثين .

وإذا ثبتت رؤية الهلال فيأي" بلد ثبت حكمها فيالبلد الغربي" منه، وأما في البلد الشرقي فتثبت عند من لم يعتبر باختلاف المطالع كأبي حنيفة ومالك وأحمد . وأما عند الإمام الشافعي فلا تثبت فيه إعتباراً باختلاف المطالع .

روى مسلم عن كُرَيْب أن أم الفضل بنت حارث بعثته إلىمعاوية بالشام، قال : فقدمت الشام فقضيت حاجتها ، واستُهل عَلَيّ رمضانُ وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ، ثم قدمت المدينة في آخر الشهر فسألني عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فقال : متى رأيتم الهلال ؟ فقلت : رأيناه ليلة الجمعة . فقال : لكنا رأيناه ليلة السبت فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين ، أو نراه . هكذا أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقوله : (فمن كان منكم مريضاً) للمريض أحوال : الأولى أن لا يطيق الصوم فعليه الفطر وجوباً . الثانية أن يقدر على الصوم لكنه بمشقة وتعب فيجوز له الفطر ويترجح على الصوم . الثالثة : أن يقدر عليه بدون مشقة فيجوز له الصوم ويترجح على الفطر .

وقوله تعالى : (أو على سفر) إختلف العلماء في السفر الذي يجوز فيه الفطر وقصر الصلاة . فقال الإمام أبو حنيفة : ثلاثة أيام . وعند الشافعي يومان . وكذا عند مالك . والذي في البخاري وكان إبن عمر وابن عباس يفطران ويقصران في أربعة بُرُدٍ وهي ستة عشر فرسخاً والفرسخ : ثلاثة أميال . والميل : ستة آلافِ ذراعٍ بذراع اليد . وهذه المسافة تساوي (٨٠½) كيلومتر و (١٤٠) متراً .

وقوله تعالى : (ولتكملوا العدّة . ولتكبروا الله على ما هداكم) يعني بين الله تعالى الأيام المعدودات للصيام المفروض بشهر رمضان المبارك حتى يتحدد عندكم أيام الصيام ، وتكمّلوا عدتها ، فإن الشهر ظرف معين محدود بالإبتداء والإنتهاء ولتكبّروا الله بعد إنتهاء الشهر ، إعلاناً لختم عبادته وإعلاماً بعظمة شريعته . وفي صيغة التكبير اَوْجُهٌ . والمقرر عند الإمام الشافعي ألله أكبر ألله أكبر ألله أكبر (ثلاث مرات) لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر (مرتين) ولله الحمد . ويسن التكبير عنده بعد غروب شمس آخر يوم من رمضان إلى الشروع في صلاة العيد ، وينقطع بعد ذلك في عيد الفطر . ويبقى في عيد الاضحى إلى عصر آخر أيام التشريق . كما أن التكبير هناك يبدأ بصبح يوم عرفة المبارك .

ولعلكم تشكرون ربكم على تشريع هذا الصيام لنيل الرضا ودرجات دار السلام وتحديد أيامه بشهر حتى لا تغتبه عليكم بمرور العصور والأيام، وترخيصه للمرضى والمسافرين وبإباحة الإفطار وقضاء ما فاتهم رفعاً للعقاب على الآثام .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (١٨٦)

سأل بعض الصحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم نزلت الآية . وهذا ما ذكر في سبب النزول . والواقع أن الآية الشريفة مَمْزوجَة ببيان الصيام وأحكامه ، ثم إكمال العدة وتكبير الله تعالى وشكره على هذه الإنعامات العظيمة ، فعقبها بهذه الآية المباركة للدلالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم وسميع لأقوالهم ، ومجيب لدعائهم إذا كانوا مستجيبين لله تعالى في أداء الواجبات وترك المحرمات ، والإتيان بسائر الطاعات .

ومعناها : أنا معهم حيثما كانوا ولا أضيع عمل عامل منهم ، وإذا دعاني داع منهم فإني مجيب له ومجازيه على دعائه ، وكذلك شأني مع عبادي المؤمنين فليستجيبوا لي إذا دعوتهم للإيمان والإطاعة والإحسان . وليؤمنوا بي على بلاغ المرسلين ونوابهم وليثبتوا ويداوموا عليه في مستقبل الأزمان لعلهم يَرْشدون ويصيبون الحق فينالوا سعادة الدنيا والدين .

فإن قال قائل : قوله تعالى : فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانى حق . فما للداعي قد يدعو ولا يجاب ؟ فالجواب : أن الآية الكريمة وإن كانت مطلقة لكنها مقيدة بقيود واردة في الكتاب والسنة .

منها : أن يكون الدعاء بتفرغ وخفية أي بينه وبين ربه لا بالرياء والجهار . قال تعالى : (أدعوا ربكم تضرعاً وخفية) .

ومنها : أن لايكون الداعي معتدياً بأن يدعو دعاء فيه إثم أو قطع رحم لما رواه أبو سعيد الخدري ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ،

وإما أن يدخر له ، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها قالوا : إذن نُكْثِر قال : الله أكثر » أي : اللهُ أوسع نعمةً ، وأَوْفى دائرةً للقبول .

ومنها : أن لايكون أكلُه وشربُه ولبسُه وسكنُه حراماً . قال ـ صلى الله عليه وسلم : « الرجل يطيلُ السفر أشعث أَغْبَرَ يمد يديه إلى السماء : يارب ّ يارب ّ ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام ، وغُذِي بالحرام فأنّى يُستجاب لذلك ؟ » .

ومنها : أن يكون الدعاء بالعزم . روى الأئمة ، واللفظ للبخاري ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة . ولا يقولن : أللهم إن شئتَ فأعطني فإنه لا مُسْتَكْرِهَ لهُ » .

ومنها : ملاحظة الأوقات والأحوال فإن للدعاء أوقاتاً وأحوالاً يكون الغالب فيها الإجابة وذلك كالسحر ، ووقت الإفطار ، وما بين الأذان والإقامة ، وما وافق نزول المطر ، أو حالة الإضطرار ، أو المرض أو السفر . وما كان في المسجد الحرام أو بين الركن والمقام ، أو عند رؤية روضة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام . وما كان بعد صلاة الحاجة وهي ركعتان يقرأ في الأولى بعد الفاتحة سورة الكافرون ، وفي الثانية الإخلاص ثم يحمد ربه ويسبحه ويهلل ويصلي على حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يدعو بعزم ورغبة وظن ّ إجابة فإنه إن شاء الله يستجاب له .

وقد يستنبط غالب هذه القيود من قوله تعالى (فليستجيبوا لي) ومعناه فليطيعوني في ما آمُرُهم وأنهاهم حتى أجيبُ لهم دعاءَهم ومُترجّاهم .

وبعد ذلك فليعلم المؤمن العاقل أن الله تعالى فاعل مختار وفعّال" لما يريد ، وجميع وعوده مقيدة بالمشيئة • فيقول : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) • وقال : (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) • ويقول : (فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) • وما يدريك فلعل ما دعوت به لنفسك قد دعا به احد قبلك أو معك لنفسه وقد قبل الله دعاءه ، فقد سبقك بها عكاشة • أو أن ذلك الأمر الذي تدعو بحصوله قد أبرم الله فناءه أو ما تدعو بزواله قد أبرم الله القضاء ببقائه ، ومعلوم أنه لا مرد لقضائه •

والحاصل : إن الدعاء بالخير لك أو لغيرك بحصول نعمة أو بدفع نقمة بعد تحقق القيود السابقة هو تحت المشيئة رداً وقبولاً • ولكن دائرة القبول أوسع • ونرجو من الله سبحانه وتعالى القبول بفضله ورحمته إنه سميع قريب مجيب •

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ، وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (١٨٧)

قوله تعالى : (أحل لكم) الآية بيان لبعض أحكام الصوم • روى البخاري عن البراء قال كان أصحاب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي • وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً ، وفي رواية كان يعمل في النخيل بالنهار وكان صائماً فلما حضر الإفطار أتى أمرأته فقال لها : أعندك طعام ؟ قالت : لا ، ولكن أنطلق فأطلب لك • وكان يومه يعمل فغلبته عيناه فجاءته إمرأته ، فلما رأته قالت : خيبة لك ! فلما انتصف النهار غشي عليه ، فذكر ذلك للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ • فنزلت هذه الآية أحل لكم الآية • ففرحوا فرحاً شديداً • ونزلت (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) •

وفي البخاري أيضاً عن البراء قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لايقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم ، فأنزل الله تعالى : (علم الله أنكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) فقوله تعالى : (أحل) بصيغة الماضي المجهول يقتضي أنه كان محرماً قبل ذلك ثم نسخ وأبيح • وقوله : الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من إمرأته • وقال إبن عرفة : الرفث هنا الجماع • وضمن معنى الإفضاء الذي يراد به الملابسة • ولذلك أوصل بكلمة إلى• وقوله تعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) إستئناف لبيان سبب الإحلال ، وهو قلة الصبر عنهن وصعوبة إجتنابهن • وأصل اللباس في الثياب ، ثم سمي إمتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً لامتزاجهما وتلازمهما تشبيهاً بالثوب ، أو لأن كلاً منهما يستر صاحبه ويمنعه عن الفجور • وقوله : (تختانون

أنفسكم) أي تخونونها وتظلمونها بتعريضها للعقاب • والإختيان أبلغ من الخيانة كالإكتساب أبلغ من الكسب •

وقوله : (فالآن باشروهن) أي بعد نسخ التحريم عنكم • وكان التحريم بالسنة ونسخت بالقرآن • وقوله : (وابتغوا ما كتب الله لكم) إرشاد للمؤمنين بأن يطلبوا عند المباشرة ما كتب الله لهم من ولد صالح يستفاد من عمله ونسله كأصله وإعفاف النفس عما يبعدها عن القدس • وقوله : (حتى يتبين لكم) بيان مبدأ الإمساك ، والخيط الأبيض : مبين بالفجر وظهور بياض الأفق الشرقي ، واستغنى به عن بيان الخيط الأسود بالليل • وقوله : (وأتموا الصيام إلى الليل) بيان لمنتهى الإمساك • فجعل الباري تعالى كل الليل ظرفاً للأكل والشرب والجماع وسائر المباحات • كما جعل كل النهار ظرفاً للصيّام والأعمال الصالحة وسائر المباحات للأنام • فمعناه أنه إذا أصبح جنباً واغتسل بالنهار صح صيامه ، ولكن على المغتسل الإحتياط لصيانة منافذه عن تسرّب الماء منها إلى الجوف الشرعي ، يعني الدماغ والحلقوم والمثانة وما قابلها من الوراء • كما أن في الآية دليلاً على أنه يحلّ الإفطار بدخول الليل ، وعلامته ظهور السواد من الأفق الشرقي • ومن الخير للأمة التعجيل بالإفطار عند إنتهاء النهار • وتيقن دخول الليل لا يحتاج إلى أكثر من دقيقتين • ويستحب السّحور وتأخيره أفضل لمزيد القوة في الأمر ولاقتراب الفجر • ومن إتمام الصوم إستصحاب النية من أوله أي عند بقاء جزء من الليل لأن الصيام عمل مهم من أركان الإسلام • وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنما الأعمال بالنيات » • وظاهر الحديث الشريف أنّ وجود العمل المشروع بالنية ، وهي قصد إمساكه في جميع نهار الغد عن أداء فريضة رمضان السنة التي هو فيها •

ويستحب الإعتكاف في كل وقت ، وفي العَشر الأواخِرِ من رمضان أفضل لطلب نيل بركة ليلة القدر . وهي في أوتارها أرجى ، وميل الشافعي إلى أنها ليلة الحادي أو الثالث والعشرين . وميل أبي حنيفة إلى أنها ليلة السابع والعشرين . وهو لغة : الملازمة للشيء والعكوف عليه . وفي عرف الشرع : ملازمة طاعة مخصوصة في وقت مخصوص ، في موضع مخصوص . وأجمع العلماء على أنه ليس بواجب بل قربة من القرب . وأجمعوا على أنه لا يكون إلا في المسجد ، وأقله عند مالك وأبي حنيفة يوم وليلة . وقال الشافعي : أقله لحظة ولا حدّ لأكثره . ويكون مع الصوم وبدونه وعند أبى حنيفة يشترط أن يكون مع الصوم . والجماع يفسد الإعتكاف ، وعليه قوله تعالى (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) فإذا جامع المعتكف في المسجد أثم وبطل إعتكافه أو في غيره بطل ولم يأثم إن كان الإعتكاف نفلاً والا أثم .

وقوله : (تلك حدود الله فلا تقربوها) أي تلك الأحكام الستة المذكورة المشتملة على : إيجاب وتحريم وإباحة حدود حاجزة بين الحق والباطل ، فلا تقربوها حتى لاتقربوا الباطِلَ . والذي أعتقده أن جملة لا تقربوها كناية عن لا تمسوها بسوء ولا تخالفوها ؛ لأن من كان حارسا على طعام أو شراب واقترب منهما يمد اليد إليهما غالبا ، فكذلك كل حكم من أحكامه تعالى يجب المحافظة عليه ، ولا يخالفه المكلف . فذكر تلك الجملة كناية عن تلك الجملة .

وقوله : (كذلك) أي كذلك المذكور من الأحكام الواضحة المبينة يبين الله آياته أي آيات أحكامه للناس لعلهم يتقون المعاصي فيرتقون على مدارجِ رحمةِ ربِ العالمين .

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَتُدْلُوا بِها إِلى الحُكّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(١٨٨)

نزلت الآية في عبدان ابن أشرع الحضرمي إدعى مالا على إمرىء القيس الكندي واختصما إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنكر إمرىء القيس وأراد أن يحلف فنزلت هذه الآية : فكف عن اليمين ، وَحَكَّمَ عبدان في أرضه ولم يخاصمه . وامرؤ القيس هذا صحابي وليس الشاعر المشهور ؛ لأنه جاهليّ . وسبب النزول خاص والحكم عام يتضمن جميع أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض نقداً أو عرضاً ، ولا يتمتع بمنافعه بدون حق فيدخل في هذا القمار ، والغش ، والخداع ، والغصب ، وسائر وجوه الإستيلاء على أموال الناس .

كما يستفاد منها حرمة التوسل بالمحاكم الشرعية لأخذ مالٍ بالطريق المعتاد ما دام يعلم أن لا حق له فيه .

ويستفاد من الآية الشريفة أن حكم الحاكم باستحقاق شخص لمالٍ بشهود ظاهرهم العدالة إنما ينفذ ظاهراً لا باطناً وأنه يحرم على المدعي التمتع بذلك المال . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه . فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار فليحملها أو يذرها » .

(يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ : هِيَ مَواقِيتُ لِلنّاسِ وَالحَجِّ ، وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلَكِنَّ

البِرَّ مَنِ اتَّقَى ، وأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(١٨٩)

روي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم ؛ فقالا : ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط ثم يزيد حتى يستوي ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ فنزلت الآية . سألا عن السبب والعلة لعروض الإختلافات على القمر فيبدو دقيقاً ويسمى بالهلال ، ثم يزداد حجمه إلى أن يبلغ صورته في التربيع ، ويزداد إلى البدر ثم يتناقص إلى آخر الشهر فيغيب ويعود مرة أخرى كما السابق .

ولما لم يكونوا مستعدين لفهم تلك الأسرار لغموضها ووقتها أجاب ببيان الحكمة والفوائد الناشئة عن تلك الإختلافات لتكون معالم للناس يؤقتون بها أمورهم ، وللعبادات الموقتة يعرف بها أوقاتها ولاسيما للعبادة التي كان ركنا من الإسلام وهو الحج ؛ فإن الوقت فيه مرعي جدا ولا يجوز النسيء فيه وتأخير وقته . وذكر أن مثل أولئك السائلين كمثل من أراد أن يدخل داراً وترك باب البيت ولم يدخل منه ، ودخل من ورائه . وقال بعض : إن قوله تعالى : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها إتصل بذكر مواقيت الحج لاتفاق وقت السؤال عن الأهلّة وعن دخول المحْرِمين بيوتهم من ظهورها فنزلت الآية فيهما جميعاً . وكان الأنصار إذا حجّوا وعادوا لايدخلون من أبواب بيوتهم ، فإنهم كانوا إذا أهلّوا بالحج أو العمرة يلتزمون شرعاً ألاّ يحول بينهم وبين السماء حائل ، فإذا خرج الرجل منهم بعد ذلك أي من عند إحرامه من بيته فرجع لحاجة لايدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء ، فكان يتسنم ظهر بيته على الجدران ثم يقوم في حجرته ، فيأمر بحاجته فتخرج إليه من بيته ، فكانوا يرون هذا من النسك والبر كما كانوا يعتقدون

أشياء نسكاً فردّ الله عليهم فيها وبين الله تعالى أن البر في إمتثال أمره ، فقال تعالى : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى • أي ولكن البر بر من اتقى المحارم ، وترك ماحرّمه الله تعالى عليكم • وَأْتوا البُيُوتَ مِنْ أبوابها ، إذ ليس في العدول عنها برّ ، وباشروا الأمور من وجوهها ، واتقوا الله في تغيير أحكامه ، لعلكم تفلحون وتفوزون بالفلاح وتصلون إلى المطلوب بإطاعة ربّ العالمين •

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ المُعْتَدِينَ)(١٩٠) لما كان المشركون صدّوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيُخْلُوا له مكةَ ثلاثة ورجع عليه السلام لعمرة القضاء وخاف المسلمون أن لايوفوا لهم ويقاتلوهم في الحرم أو في الشهر الحرام وكرهوا ذلك •• نزلت الآية • أي إذا دخلتم الحرم وجاء المشركون للقتال فقاتلوا الذين يقاتلونكم ويناجزونكم القتال ، ولا تعتدوا بابتداء القتال والمفاجأة به من غير ظهور عزمهم أو مباشرتهم للحرب (إن الله لايحب المعتدين) • أي لايريد بهم الخير •

(وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وأخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ ، وَلَاتُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ؛ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)(١٩٣)

قوله تعالى (واقتلوهم) الآيات إمّا مربوط بما تقدم ، يعني فإن يدؤكم بالقتال فاقتلوهم ، أو فتح باب لحرب الكفار وتهيج للمسلمين على محاربتهم • وقوله : (حيث ثقفتموهم) أي حيث غلبتموهم وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء علماً كان أو عملا ، والفعل منه ثقف ككرم وفرح • يعني واقتلوهم حيث وجدتموهم في حلّ أو حرم وقوله : (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أي أخرجوهم من مكة التي أخرجوكم منها ، وقد وقع ذلك في من لم يسلم يوم الفتح • وقوله : (والفتنة أشد من القتل) أي المحنة التي يفتتن بها الناس كالإخراج من الوطن إلى الغربة بدون مال وحال أشدّ عذاباً من القتل ، فإن عذابه ، وإن كان صعباً لكنه موقت بدقائق ، وهذه الفتنة تدوم سنين !

قوله : (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) أي ولا تفاتحوهم بالقتال عند المسجد الحرام صيانة له عن هتك حرماته ، حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم أي فاتحوكم بالقتال فيه فاقتلوهم ، ولا تبالوا بهتك حرمته عند ذلك لاضطراركم إلى القتال ، ولأنكم إذا ظفرتم أعدتم حرمة المسجد الحرام كما هو حقه ، كذلك الذي أمرنا به من قتالهم عند مفاتحتهم لكم بالقتال فيه جزاء الكافرين المعتدين • وقوله : (فإن انتهوا) أي عن القتال والكفر فإن الله غفور رحيم لما سلف منهم من السيئات الإعتقادية والعملية • وقوله : (وقاتلوهم) أي وقاتلوهم حتى لا تكون ولا توجد فتنة بالإشراك ، ويكون الدين والإعتقاد بالله وحده والعمل خالصاً لله • فإن انتهوا عما نهوا عنه ، فلا عدوان إلا على الظالمين المصرّين عليه ، إذ لا يَحْسُنُ أنْ يُظْلَمَ إلا مَنْ ظَلَمَ ، وقتالهم حينئذ ليس إعتداء وتسميته عدْواناً لمقابلة عدْوانهم •

(الشَّهْرُ الحرامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ؛ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ)(١٩٤)

نزلت هذه الآية في عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة ، مقابلة لافتخار المشركين على المسلمين في السنة السادسة حين ردوهم عن العمرة واقتص الله تعالى منهم • يعني لما هتكوا حرمة شهركم بالصدّ فافعلوا بهم مثله ، وادخلوا عليهم عَنْوة وقهراً • واقتلوهم إن قاتلوكم ، فعملنا في الشهر الحرام مقابل لعملهم معنا فيه سابقاً ، وفي الحرمات قصاص فدخولنا فيه عنوة في مقابلة صدهم لنا كذلك • فمن اعتدى عليكم وبدأ بالإعتداءِ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، ولا تزيدوا على حقكم في القصاص ، واتقوا الله في كل عمل لم يرخّص لكم فيه • واعلموا أن الله مع المتّقين بالنّصر المبين •

(وَأَنْفِقُوا في سَبِيلِ اللهِ وَلاتُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلى التَّهْلُكَةِ ، وأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ)(١٩٥)

روي عن أبي ايّوب الأنصاري أنه قال : لما أعزّ الله الإسلام ، وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونُصلحها•فنزلت والمعنى على هذا : أنفقوا أيها المسلمون أموالكم في سبيل الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ولا تتركوا الجهاد في سبيله ، ولا تلقوا بأيديكم أي أنفسكم إلى التهلكة باستيلاء الكفار فيهلكوكم بأنفسكم وأهليكم وأموالكم ، وَأَحْسِنوا إلى أنفسكم وأهليكم بالإنفاق في سبيل الله والجهادِ الّذي يُنجيكم إنّ اللهَ يحبّ المحسنين •

أو المراد : أنفقوا أموالكم في سبيل الله إنفاقاً للواجب أو للصدقات على وجه الإعتدال ، ولاتلقوا أنفسكم إلى التهلكة بالإسراف والتبذير حتى لايبقى عندكم نقير . وأحسنوا إلى الناس الذين أساؤا معكم إن الله مع المحسنين .

فالأيدي جمع اليد بمعنى الأنفس ، والباء زائدة ، والتهلكة على المعنى الأول هو هلاك النفس بالقتل بأيدي الكفار أو الهوان بالبقاء على الذل تحت أمرهم . وعلى الثاني : ضياع الأموال ، والفقر المدقع بسبب الإسراف والتبذير . والإحسان في الطاعة : إخلاص يوصل إلى درجة الحضور ، وفي الإجتماعيات مقابلة الإساءة بالخير .

(وأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ ، وَلاتَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتّى يَبْلُغَ الهَدْيِ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أذىً مِنْ رَأْسِهِ ، فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إلىَ الحَجِّ فَما اسْتَيسَرَ مِنَ الهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ في الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي المَسجِدِ الحَرَامِ وَاتَّقُوا اللّهَ ، واعْلَموا أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ العِقَابِ)(١٩٦)

قوله تعالى : (وأتموا الحج) إن الحج ركن من أركان الإسلام الخمس وفرض من فروض الدين ، وفي وقت تشريعه أقوال ، وراجحها أنه فرض في السنة الثامنة من الهجرة ، وأرسل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا بكر في السنة التاسعة فحج بالناس .

والحج : عبارة عن زيارة بيت الله سبحانه وتعالى أداء لفريضة الإسلام في أوقات محدودة بشروط مخصوصة معلومة من الكتاب والسنة .

وأما العمرة : فقد إختلف في وجوبها فمنهم من قال : إنها واجبة ومن أركان الاسلام ، وعليه الإمام الشافعي والإمام أحمد ، وأبو ثور ، وأبو عبيد ، والثوري ، والأوزاعي . وهو قول ابن عباس من الصحابة ، وابن عمر ، وجماعة من التابعين . وقال الإمام مالك وجماعة : هي سنة . وقال أبو حنيفة : هي تطوع ، وبه قال أبو ثور في رواية وداود . ومن اَوْجَبها إستدل بظاهر قوله تعالى (واتمّوا الحجّ والعمرةَ لله) حيث إنّ مَعْنَى الآيةِ الشريفة الأمر بالإتيان بهما تامّين مستجمعين . وهذا على ميزان قوله تعالى : (وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأَتَمّهنّ) أي فأتو بهن كاملةً . وقوله تعالى : (وأتِموا الصّيامَ إلى الليل) . ومن لم يوجبها قال : المراد إتمامهما بعد الشروع فيهما فإن من أحرم بنسك وجب عليه المضي فيه ولا يَفسخه .

وقوله تعالى : (فإن أحصرتم) مقابل المحذوف ، أي هذا الإتمام لهما إن قدرتم عليه.وإن أحصرتم فما استيسر من الهدى، أي وَان مُنِعْتم مِن إتمامهما بعدوّ مثلاً ، فالواجب عليكم أن تَذْبحو هَدْياً وتتحلّلوا عَنِ الإحرام على ما يأتي . وقوله : (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يَبْلُغَ الهَديُ مَحِلّه) أي لاتتحلّلوا عن الإحرام ولا يجوز لكم التحلل بحلق الرأس أو تقصيره حتى يبلغ الهدي المبعوث إلى الحرم الشريف مكانه الذي يجب أن ينحر فيه ، وهو الحرَمْ كما قال تعالى (هدياً بالغ الكعبة) وقال : ثم محلها إلى البيت العتيق . وما روي من ذبحه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحديبية مُسَلّم لكن الظاهر أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذبح

الهدي في الجزء الداخل في الحرم منه . وقوله تعالى : (فمن كان منكم مريضاً) الآية مخصص لقوله تعالى : (ولاتحلقوا) الآية أي فمن كان منكم مريضاً مرضاً يحوجه إلى الحلق ، أو به أذى من رأسه من جراحة وقمل وصداع ، واحتاج إلى الحلق وحلق (ففدية من : صيام ، أو صدقة ، أو نسك) . أي فعليه فدية من : صيام ثلاثة أيام ، أو صدقة بإطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع ، أو نسك أي ذبح شاة . ففي البخاري عن عبدالله بن مغفل قال : قعدت إلى كعب بن عجرة ـ رضى الله عنه ـ في هذا المسجد يعني مسجد الكوفة فسألته عن قوله : ففدية من صيام ، فقال : حملت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقمل يتناثر على وجهي فقال : ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا! . أما تَجدُ شاةً ؟ قلت : لا . قال : فَصُمْ ثلاثة أيّام ، أو أطعمْ سِتّة مساكين لكل مسكين نصفُ صاعٍ من طعامٍ ، واحلق رأسك . فنزلت فيّ خاصّة . وهي لكم عامة انتهى .

وقوله : (فإذا آمنتم فمن تمتع) الآية معناه فإذا كنتم في أمْنٍ وسَعَة ، ولم تكونوا خائفين ، فمن تَمَتّع بالعُمرة إلى الحج أي إستمتع وتقرّب إلى الله تعالى بالعُمرة إلى وقت الحج أي كان هذا التمتع قبل الإنتفاع بفضيلة مُباشَرَةِ الحج ، وكانَ ذلك في أشهرِ الحج فيَجبُ علَيه ذبحُ ما استيسر له من حيوان مجزيءٍ في الأضحيّة . وهذا الدم دَمُ جبران عند الإمام الشافعي يجوز ذبحه بعد التحلل من عمرته متى شاء ، ولا يأكل منه إلا فقراءُ الحرم . ودم نسك عند الإمام الأعظم كالأضحية يجوز ان يأكل منه هو وأهلُه والأغنياء والفقراءُ . ولكن لا يجوز ذبحه إلا في يوم النحر وما بعده من أيام التشريق .

وقوله : (فَمن لَم يجدْ) أي فَمن لم يجد الهديَ مطلقاً ، أو وجده بأزيد من ثمن المثل ، أو وجده به ولم يكن قادراً عليه فالواجب عليه صيام ثلاثة أيام في الحج بعد الإحرام به وقبل التحلل منه ، وسبعة أيّام إذا رجعتم إلى أهليكم . تلك عشرة كاملة من أيام الصيام .

وقوله : (ذلك) أي وذلك الحكم وهو التقرب بذبح هدي للواجد وبالصيام تلك المدة للفاقد لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام وحاضِرُوه مَنْ كان مسكنه بمكة المكرمة ، أو بالحرم ، أو بأرض تكون على مسافة القصر ، أو اقل منها لا أزيد ، وإلا فلا يجب عليه بالتمتع شيء من الواجبات المذكورة .

وفي الفقه : ويشترط أن لا يرجع إلى ميقات إحرامه المعتاد . وإلا فلا شيء عليه ، واتقوا الله أي عقابه في مخالفته ، واعلموا أن الله شديد العقاب للمخالفين .

(الحَجُ اَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَ فَلا رفَثَ وَلا فسُوقَ ولا جِدَالَ في الحَجِّ ، وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَتَزوَّدوا فَإنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا اُولي الأَلْبابِ)(١٩٧)

قوله تعالى : (الحج أشهر معلومات) بيان للميقات الزماني للحج فإن له ميقاتاً زمانيا ، وميقاتا مكانيا ، أما ميقاته الزماني فقد قال تعالى هو أشهر معلومات ، والمراد بها على ظاهر الآية الكريمة ثلاثة أشهر ، وهي : شوال ، وذو العقدة ، وذو الحجة كلها . وهذا ما اختاره الإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ ووجهه أنه أراد بوقت الحج وقت أعماله ومناسكه من الأول إلى الأخير وما لا يحسن فيه غيره من المناسك ، فإنه يجوز الإحرام

بالحج في أول يوم من شوال وبقاء الحاج محرما إلى أن يأتي بالمناسك كلها : أركانها وواجباتها ، وسننها ، ويرمي الجمار الثلاث في أيام التشريق واستكره الشروع بالعمرة في بقية ذي الحجة • وشهران وعشرة أيام من أوائل ذي الحجة عند الإمام الأعظم • وأيد هذا الرأي بأنّ يوم النحر وقت لركن من أركان الحج ، وهو طواف الركن الذي يسمى طواف الإفاضة وطواف الزيارة، وبأنه فسر يوم الحج الأكبر بيوم النحر، كما فسر يوم الحج الأصغر بيوم عرفة وشهران وتسعة أيام من أوائل ذي الحجة بناء على أن وقت الحج وقت جواز الإحرام بالحج فيه ، وأنه إذا طلع الفجر يوم النحر لايبقى المجال للإحرام والوقت فائت ويؤجل الحج إلى سنة أخرى كما أن الوقوف بعرفة إذا فات فقد فات الحج وعلى هذين الرأيين في الآية الشريفة تجوز لأنه سمى الشهرين وبعضاً من الشهر الثالث أشهراً ، وهي تسمية جارية على العرف •

وأما ميقاته المكاني فقد روى الأئمة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقّت لأهل المدينة : (ذا الحليفة) ولأهل الشام (الجحفة) ولأهل نجد (قرن) ولأهل اليمن (يلملم) (هنّ لهنّ ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة ، ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ) حتى أهل مكة يهلّون منها • وأجمع أهل العلم على القول بظاهر هذا الحديث واستعماله لا يخالفون شيئاً منه • واختلفوا في ميقات أهل العراق وفيمن وقته • فروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَقّتَ لأهل المشرق العقيق • قال الترمذي : هذا حديث حسن • وروي أن عمر ـ رضى الله عنه ـ وقّت لأهل العراق (ذاتَ عرق) • وفي كتاب أبي داود عن عائشة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَقّتَ لأهل

العراق (ذات عرق) قال القرطبي وهذا هو الصحيح • ومـــن روى أنّ عُمَرَ وقته لأن العراق أفتتحت في عهـــده فغفلة منه ، بل وقته رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما وقّت لأهل الشام الجحفة ، والشـــام كلهـــا يومئذ كانت دار كفر كما كانت العراق وغيرها يومئذ من البلدان ، ولـم تفتح الشام ولا العراق إلا على عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ •

قال ابو عمر : كلّ عراقيّ أو مشرقيّ أحرم من ذات عرق فقد أحرم عند الجميع من ميقاته • والعقيق أحوط عندهم ، وأولى من ذات عِرْقٍ • وذات عرق ميقاتهم أيضا بإجماع • ثم قال : أجمع أهل العلم على أن من أحرم قبل أن يأتي الميقات أنّه مُحرِم ، وإنما مَنَعَ من ذلك مَن رأى أن الإحرام عند الميقات أفضل ، كراهيةَ أن يُضيّق المرءُ على نفسه ما قد وسّع اللهُ عليه ، وأن يتعرض بما لا يؤمن أن يُحدث في إحرامه ، وكلهم ألزمه الإحرام إذا فعل ذلك لأنه زاد ولم ينقص • انتهى

وقوله تعالى : (فمن فرض فيهنّ الحج) يعني فمن أوجب على نفسه الحج في تلك الأشهر بالإحرام به فيهنّ أو بالتلبية أو سوق الهدي عنـد أبي حنيفة فلا رفث أي فلا يجوز الجماع ، ولا القول الفحش • ولا فسوق أي لا يجوز الخروج عن حدود الشرع بارتكاب المحظورات والمحرّمات • ولا جدال ولا مِراءَ ولا مجادلة مع الرفاق في الحج • وهذه الأشياء كلها محرمة في الحج • وإثمها فيه أزيد من إثمها في غيره • ويترتب علـــى الجماع فساد الحج ووجوب الفدية وقضاؤه في السنة القادمـــة • وهـــذه الفقرات الواقعة جزاء للشرط وإن كانت مع مقدّمها قضايا وهي إخبـار لكن المراد بها النهي عنها ، وتبعيد الناس عن مباشرتها •

وقوله : (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) يعلمه كل إنسان مؤمن فاهم ، والغرض منه لازمه وهو الترغيب على الخير قليله وجليله ، وإخلاص النية فيه لأن العمل عبادة لمن يستأهله . وقوله : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) على معناه الظاهر أمرٌ بالتزود بالأعمال الصالحة التي تنفع العاملين يوم لقاء رب العالمين . وعلى معنى مناسبة مورد نزوله أمرٌ بالحجاج أن يتزودوا بما يحتاجون إليه مدة سفر الحج ذهاباً وإياباً حتى لا يكونوا كَلاًّ على الناس . وقوله : (واتقون يا أولي الالباب) المراد به الأمر بالإخلاص في التقوى لأن أيّ إتقاء وأيّ إجتناب لا يكون لامتثال الله سبحانه وتعالى فهو هابط لاقيمة له في الميزان . جعلنا الله من المتقين المخلصين آمين .

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ؛ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ) (١٩٨)

قوله تعالى : (ليس عليكم جناح) عن ابن عباس قال : كانت عُكاظُ ، ومجنّة ، وذوُ المجازِ ، أسواقا في الجاهلية ، فتأثموا أنْ يَتجروا في الموسم ، فسألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك فنزلت الآية . أخرجه البخاريّ . وعن ابن عباس قال : كانوا يَتّقون البيع والتجارة في موسم الحج ويقولون هي أيام ذكرِ لله تعالى . فنزلت الآية . رواه أبو داود وابن أبي شيبة . أي لا جناح عليكم في أن تطلبوا عطاء ورزقاً من الله تعالى بالإسترباح في التجارة فلا تظنوا أن في التجارة في موسم الحج إثماً أو نقصاً في مناسككم حسب الأصول المشروعة .

وقوله تعالى : (فإذا أفضتم) الإفاضة:الإنصباب،وعرفات:كأذرعات جمع لا واحد لهما إذ لم يُسْمَع عرفة ولا أذرعة ، وقول الناس : نزلنا بعرفة ليس بعربي محض ، وجعلت عرفات إسماً للبقعة المعلومة المعينة الخارجة عن أرض الحرم، وجعل الوقوف بها ركناً من أركان الحج إذا فات فات الحج، ولذلك ورد منه ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « الحج عرفة » وهي هنا إسم لليوم التاسع وإنما سميت البقعة عرفات ؛ لأنها نعتت لإبراهيم عليه السلام فلمّا أبْصَرها عَرَفها ، أو لأن آدم وحواء إلتقيا فيها فتعارفا ، وفي الكشاف هي من الأسماء المُرْتَجَلة ، وفي قوله تعالى : (فإذا افضتم من عرفات) دليل للأمر بالوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون إلا بعد الوقوف ، وهي مأمور بها بقوله تعالى (ثم أفيضوا) ومقدمة المأمور به مأمور بها ، وأما وجوب الوقوف بها وكونه ركناً من أركان الحج فيؤخذ من قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الحج عرفة حيث حصره فيها ... ولما عُلم أنه ليس محصوراً فيها حقيقة علم أنها أهم أركانه .

ومعنى الجملة : فإذا اندفعتم وانصببتم من عرفات نحو المزدلفة فاذكروا الله بالتلبية والتهليل والدعاء ، وقيل : بصلاة العشاءين جمع تأخير عند المشعر الحرام ، وهو جبل يقف عليه الإمام ويسمى (قُزَحْ) لما روى جابر أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما صلّى الفجر يعني بالمزدلفة بغَلَسٍ ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا وكبّر وهلّل ولم يزل واقفاً حتى اَسْفَر ، وإنما سمي مشعراً لأنه مَعْلَمُ العبادة ، ووصف بالحرام لحرمته ، ومعنى عند المشعر الحرام : مما يقرب منه فإنه أفضل ، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادِي مُحَسّر فإن آخره أوّل مِنى ، فليس كلّه موقفاً .

أجمع أهل العلم على أن من وقف بعرفة يوم عرفة قبل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يعتد بوقوفه ذلك . كما أجمعوا على تمام حجّ من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهارا قبل الليل إلا الإمام مالكاً فإنه قال لابد أن يأخذ من الليل شيئاً وإلا فحجّه ناقص . ثم إختلف الجمهور فيمن أفاض قبل غروب الشمس ولم يرجع إليها بالليل ماذا عليه مع صحة الحج ؟ فقال عطاء وسفيان الثوري والشافعي وأحمد وأبو ثور وأصحاب الرأي وغيرهم : عليه دَمٌ . وقال الحسن البصري عليه هَدْيٌ . وقال إبن جريج : عليه (بَدَنَةٌ) . وقال مالك عليه : حج قابلٌ الهَدْيَ ينحره في حج قابل وهو كمن فاته الحج . فإنه عاد إلى عرفة حتى يدفع بعد مغيب الشمس . فقال الشافعي : لاشيء عليه . وهو قول أحمد وإسحق وداود ، وبه قال الطبري ، وقال أبو حنيفة وأصحابه لايسقط عنه الدم وإن رجع بعد غروب الشمس .

وقوله تعالى : (واذكروه كما هداكم) أي واذكروا الله تعالى لما علمكم واجباتكم الدينية التي توجب سعادتكم إذا عملتم بها بإخلاص ولاسيما مناسك الحج . وإن كنتم من قبل الهداية والتعليم لمن الضالين عن الطريق السليم .

(ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١٩٩) ولما كان قريش لا يقفون مع الناس بعرفات بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهي من الحرم ، وكانوا يقولون : نحن سُكّان حَرَمِهِ فينبغي لنا أن نعظّم الحَرَمَ ولا نعظّم شيئاً من الحلّ .. أكد الله تعالى عليهم فقال : ثم أفيضوا أيها الناس الساكنون في الحرم من حيث أفاض الناس أي من عرفة لا من المزدلفة ، وكانوا يقفون (بجمع) من المزدلفة وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعاً عليهم ، فأمروا بأن يُساووهم .

و (ثم) لتفاوت ما بين الإفاضتين كما في قولك أحسن إلى الناس ثم أحسن إلى الكرماء .

وقيل : معناه ثم أفيضوا من المزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفة إليها ، واستغفروا الله من أنانية الجاهلية في تغيير المواقف والمناسك ، واستغفروه من التمايز مع سائر الناس المسلمين لشبهات واهية ، إن الله غفور رحيم يغفر الذنوب لسعة رحمته .

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ) (٢٠٢)

عن ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون بالموسم ويذكرون مفاخر آبائهم ، فنزل قوله تعالى فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله الآية .

وعنه أيضاً أنه كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيدعون بحصول أمور دنياهم فقط ، فنزل قوله : فمن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق إلى آخر الآية الثانية .

قوله تعالى : (فإذا قضيتم) الآية يعني إذا قضيتم مناسك الحج ، وفرغتم منها فاذكروا الله كذكركم آباءكم وأكثروا ذكره وادعوه وبالغوا في الأذكار والدعوات كما تبالغون بذكر آبائكم وذكر مفاخرهم وعاداتهم المقبولة في الجاهلية ، أو أشد ذكراً وأكثر وأبلغ وأخلص فإن ذكر الآباء

لا يفيدكم إلا الفخر والغرور والإباء بدون منفعة واقعية ، وذكر الله يفيدكم إطمئنان القلوب في العبادة والتوحيد ومزيد القوة على الطاعة الموجبة لسعادة الدارين • فلا تكونوا كالناس القاصرين • فمن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا ماتلتذ به ونعتز وينسون أمور الآخرة ، وما لهم في الآخرة من خلاق ونصيب إذ لا يطلبونه حتى يجابون إليه ، ومنهم من يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة من صحة البدن والأمن في الحال والمال والمنال وحسن صحبة العيال والجيران والأقارب والكفاف وغيرها • وفي الآخرة حسنة من ختام العمل بالقبول ، والعمر بالإيمان الموجب للوصول ، وثواب الأعمال فضلاً ورحمة • وقنا عذاب النار والفوز بالجنة في صحبة الأبرار ، وأولئك الفريق الثاني لهم نصيب واف وافر مما كسبوا من الأعمال الصالحة والدعاء بالحسنتين ، والله سريع الحساب يحاسب العباد في وقت قليل ويعطي الصالحين الجزاء الجزيل ، والطالحين العذاب الوبيل إلا ما عفا عنه وسامح بفضله وكرمه وإحسانه الجميل •

(وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (٢٠٣)

قوله تعالى : (واذكروا الله) الآية يعني وكبّروا اللهَ تعالى أدبار الصلوات ، وعند ذبح القرابين ، ورمي الجمار وغيرها في أيام التشريق • فمن تعجل أي إستعجل النفر في يومين بعد يوم النحر الذي يتم فيه الأركان من المناسك غالباً وخرج من منى في ثاني أيام التشريق بعد رمي الجمار وقبل الغروب فلا إثم عليه في ترك رمي اليوم الثالث • ومن تأخر في النفر حتى رمى الجمار الثلاث في اليوم الثالث بعد الزوال أو قبله على ما رآه

الإمام الأعظم . فلا إثم عليه ايضاً . ومعناه : التخيير للحاج بين الأمرين وإن كان البقاء والتأخر أفضل ، خلافاً لما عليه أهل الجاهلية من وجود الإثم في التأخر والبقاء ، وذلك التخيير واكتساب الجزاء لمن اتقى الله وعمل لرضاه ، واتقوا الله في كافة أحوالكم واعلموا أنكم إليه تحشرون .

واعلم أن الحج أحد الأركان الخمسة للإسلام ، فهو واجب على كل مكلف مستطيع في العمر مرة واحدة . ودليله من الكتاب قوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه) ومن السنة قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . وقد أجمعت الأمة الإسلامية على وجوبه ؛ فيكفر منكره . ويدل على أنه فرض في العمر مرة واحدة : قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجّوا فقالَ رجل : اكلَّ عام يارسول الله ؟ فسكت ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى قالها ثلاثاً . فقال عليه الصلاة والسلام : لو قلتُ نعم لوجبتْ ولما استطعتم » .

والعمرة واجبة عند بعض الأئمة وسنة عند بعض . ووجوبها فوري عند بعض ، وعلى التراخي عند بعض كما هو مؤكد .

والحج له في السنة وقت واحد فلا يمكن الإتيان به في السنة إلا مرة واحدة . وأما العمرة فكل السنة وقتها إلاّ وقت الإشتغال بأداء مناسك الحج على تفصيل مذكور في محلّه .

وشرائط وجوب الحج : الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، ووجود الزاد والراحلة ، وخلو الطريق عن الموانع وإمكان المسير . وأركانه أربعة : الإحرام مع النية ، والوقوف بعرفة ،والطواف بالبيت ،

والسعي بين الصفا والمروة • وأما الحلق أو التقصير فهو من الأركان عند بعض ، ومن الواجبات عند آخرين • وواجبات الحج غير الأركان ثلاثة : الإحرام من الميقات ، ورمي الجمار الثلاث ، والحلق أو التقصير • والفرق بين الأركان والواجبات أن إنتفاء أحد الأركان مبطل للحج ، وأما الواجبات فإذا انتفت تجبر بالفدية • وشرط الإحرام : الإسلام ، والعقل ، والنية بالقلب مع التعرض للفرضية • وأما التلفظ بها فسنة • وأما التلبية فشرط عند الحنفية ، وليس بشرط عند الشافعية • ومن سننه : التأهب له بتنظيف بدنه من الأوساخ ، وحلق العانة ونتف الإبط ، وقص الشارب ، وقلم الأظفار ، وغسل الرأس ، وأن يغتسل ويصلي ركعتين بنية سنة الإحرام • وشروط الطواف سبعة : الطهارة عن الحدث والخبث ، وستر العورة والبدء بحجر الأسود بحيث يحاذيه بالبدن في المرور ، وجعل البيت عن يساره ، وكون طوافه خارج الكعبة وداخل المسجد الحرام ، ولو على سطوح المساجد • وأن يطوف سبعاً ، فإن نقص بطل الحج ، ولكن الحنفية إعتبروا معظم الأشواط من الركن والزائد من الواجبات تجبر بدم إذا تركه •

وشروط السعي : أن يبدأ بالصفا ، فإن بدأ بالمروة لم يحسب من العدد ويحسب له بعد الوصول الى الصفا ثم السعي منه ، وأن يبدأ بالصفا في المرة الثانية ، وأن يتقدمه طواف صحيح سواء كان طواف القدوم أو الركن ، وأن يكون عدده سبعاً ، وأن لا يقع بينه وبين الطواف ركن من الأركان ؛ فلو طاف للقدوم ثم وقف بعرفة ثم سعى بطل سعيه • وعليه أن يسعى بعد طواف الإفاضة •

وشروط الوقوف بعرفة : أن يكون الواقف أهلاً للعبادة لا كافراً ، وأن يكون الوقوف بين زوال اليوم التاسع وطلوع فجر يوم النحر ؛ فإن وقف قبل الزوال واقتصر عليه لم يحصل الوقوف • ولو اقتصر على

الوقوف ليلاً صح وقوفه ، والأفضل الجمع بين الليل والنهار ولو بجزء قليل .

وسنن الحج سبع : الإفراد ، وهو تقديم الحج على العمرة عند الشافعي ، والتلبية ، وطواف القدوم ، والمبيت بمزدلفة ، وركعتا الطواف ، والمبيت بمنى ، وطواف الوداع .

ومحرمات الإحرام عشرة : لبس المخيط ، وتغطية الرأس من الرجل ، والوجه من المرأة ، وترجيل الشعر ، وحلقه ، وتقليم الأظفار ، والطيب ، وقتل الصيد ، وعقد النكاح والوطء ، والمباشرة بشهوة . وفي جميع ذلك الفدية ، إلا عقد النكاح فإنه لاينعقد . ولايفسده إلا الوطء في الفرج . ومن فاته الوقوف بعرفة تحلّل بعمل عمرة ، وعليه قضاء الحج والهدي . ومن ترك ركناً لم يتحلّل من إحرامه حتى يأتي به . ومن ترك واجباً لزمه الدم ، ومن ترك سنة لم يلزمه بتركها شيء .

وللمرأة ستر رأسها وسائر البدن بالثوب المخيط ، ومن الوجه القدر المجاور للرأس ؛ لأن ستر الرأس واجب وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب ، وأن تسدل على وجهها ثوباً متجافياً بخشبة ونحوها لحر وبرد ، أو خوف فتنة ، وحرم عليها لبس القفازين ، والقفاز شيء يعمل لليدين ، وتجب به الفدية كالرجل .

والدماء الواجبة في الإحرام خمسة : الأول الدم الواجب بترك نسك كترك الإحرام من الميقات وهو على الترتيب : شاة ، فإن لم يجد فصيام عشرة أيام ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله .

والثاني : الدم الواجب بالحلق أو الترفه كالطيب والدهن والحلق وهو على التخيير : شاة ، أو صوم ثلاثة أيام أو التصدق بثلاثة آصُع على ستة مساكين .

والثالث الدم الواجب بالإحصار ، فيتحلل ويهدي شاة ويحلق رأسه بعد الذبح .

والرابع الدم الواجب بقتل الصيد وهو على التخيير إن كان الصيد مما له مِثْل" أخرَجَ المِثلَ مِن النَّعَم ، أو قوَّمه واشترى بقيمته طعاماً وتصدق به أو صام عن كل مد يوماً . وإن كان الصيد مما لا مثل له أخرج بقيمته طعاماً أو صام عن كل مدٍّ يوماً .

والخامس الدم الواجب بالوطء وهو على الترتيب : بَدَنَة" . فان لم يجدها فبقرة ، فإن لم يجد فسَبْع من الغنم ، فإن لم يجدها قوَّمَ البدنة واشترى بقيمتها طعاماً وتصدق به ، فإن لم يجد صام عن كل مد يوماً . ولا يجزئه الهدي ولا الإطعام إلاّ بالحرم ، ويجزئه أن يصوم حيث شاء ، ولا يجوز قتل صيد الحرم ولا قطع شجره ، والمُحِلّ والمحرم في ذلك سواء" .

اوقات الذبح :

الحنفية قالوا : يتعين عندهم أيام النحر الثلاثة لذبح هَدْي القِران والتمتع ، ويكون الذبح بعد رمي جمرة العقبة ، وإن ذبح قبلَ أيام النحر لم يُجْزئه . وإن ذبح بعدها أجْزأه وعليه هَدْي لتأخير الذبح عن أيام النحر .

المالكية قالوا : إبتداء نحر الهدي يوم العيد ويندب أن يكون بعد رمي جمرة العقبة ، ويدخل وقت الرمي من طلوع فجر يوم النحر ، ويندب تأخيره إلى أن تطلع الشمس . ويمتد وقته إلى آخر اليوم الثالث من أيام العيد ، فأيام النحر ثلاثة : يوم العيد ، وتالياه . ولو فاتت هذه الأيام الثلاثة ذبحه أيضاً .

الشافعية قالوا : يدخل وقت ذبح الهدي الواجب بالنذر أو الهدي المندوب بمضي زمن يسع صلاة العيد وخطبتين معتدلتين بعد طلوع شمس يوم العيد . ويمتد ذلك الوقت إلى غروب الشمس من آخر أيّام التشريق . فإن فات الوقت المذكور بأن مضت أيام التشريق لزمه ذبح الهدي قضاء إذا كان منذوراً وإلا لزم . فإن ذبحه كان مجرد لحم لا هدياً . أما الهدي الواجب بسبب فعل محظور من أفعال الحج فإن وقته يكون بعد وقوع سببه إلاّ دَمَ الفوات فإنه يكون في حجة القضاء ، وأما الهدي الواجب على المتمتع فوقته إحرامه بالحج ، ويجوز تقديمه على الإحرام بالحج إذا فرغ من عمرته ولا آخر لوقته وإلا فضل ذبحه يوم النحر .

الحنابلة قالوا : إبتداء وقت ذبح الهدي بجميع أنواعه يوم العيد بعد الصلاة ولو قبل الخطبة ، وإلا فضل أن يكون بعدها . وآخره آخر اليوم الثاني من أيام التشريق وإن ذبحه قبل وقته لم يجزئه ووجب عليه بدله ، وإن فات وقته فإن كان تطوعاً سقط عنه ، وإن كان واجباً ذبحه قضاء . ومكان الذبح عند الكل هو الحرم فقط .

ثم لا خلاف في أن الحج والعمرة يؤديان على ثلاثة أوجه :

الاول التمتع : وهو أن يحرم الإنسان بالعمرة في أشهر الحج ، فيدخل مكة فيطوف بالبيت سبعة أشواط ، ثم يذهب فيسعى بين الصفا والمروة سبع مرات ، ثم يتحلل بالحلق أو التقصير فيلبس ملابسه الإعتيادية إلى أن يحرم الناس بالحج ، فيحرم به ويخرج من مكة إلى منى ويبيت به ، وفي اليوم التالي يذهب إلى عرفة ، وعندما وصل إلى نمرة نزل وصلى صلاة الظهر والعصر بها جمع تقديم ، ثم يذهب إلى عرفات ويقف بها إلى أن تغيب الشمس ، وبعد غيابها يفيض منها إلى المزدلفة فيصلي صلاة المغرب والعشاء بها جمع تأخير ، ويبقى إلى وقت صلاة الصبح فيصلي في أول

الوقت وينزل إلى المشعر الحرام ، ويبقى هناك ذاكراً داعياً ومكبراً ومهللاً إلى أن تطلع الشمس فيرمي جمرة العقبة بسبع حصيات ، ثم يتحول إلى منى ويذبح فدية التمتع ، ثم يحلق فيحصل له التحلل الأول . ويحل له كل شيء إلا النساء . ثم يذهب إلى الكعبة الشريفة فيطوف بها سبع طوفات ويسعى بين الصفا والمروة سبعاً ، ويعود إلى (منى) ويبيت بها ، وفي اليوم الثاني يبقى بها إلى ما بعد الزوال فيرمي الجمرات الثلاث سبعاً سبعاً ، ثم يرجع إلى منى ويَبيت بها الليلة الثانية ويومها ، ويرمي الجمرات الثلاث بعد الزوال أيضاً . فإذا أراد الخروج من منى خرج قبل الغروب إلى مكة ، وإذا أراد الخروج منها طاف طواف الوداع ، وإذا أراد رمي الجمرات الثلاث في اليوم الثالث بقي في منى إلى أن يرميها كما رماها سابقاً ، ويعود إلى مكة فيطوف طواف الوداع ويخرج منها .

الثاني : الإفراد بأن يحرم الإنسان بالحج فيدخل مكة ، ويطوف طواف القدوم ، وإن شاء سعى بين الصفا والمروة كل منهما سبعاً سبعاً ، ويخرج مع الحجاج إلى منى ، ثم إلى عرفة . وهكذا كما ذكرنا . وبعد إنتهاء آداب الحج ، أي في اليوم الثاني أو الثالث من أيام التشريق يذهب إلى أدنى أرض الحل كالتنعيم ، أو جعرانة ، فيحرم بالعمرة ويعود إلى الكعبة ويطوف بها سبعاً ، ثم يسعى بين الصفا والمروة سبعاً ، ثم يتحلل بالحلق أو التقصير . وإذا أراد الخروج من مكة طاف طواف الوداع وخرج منها . وهذا النوع لا يحتاج إلى الفدية .

الثالث : القِران بأن يحرم بالحج والعمرة معاً ، ويأتي بآداب الإفراد إلى أن ينتهي منها . ولكن الحنفية في القران يطوفون بالبيت مرتين ويسعون بين الصفا والمروة كذلك مرتين .

واختلف الأئمة في الأفضل من الأوجه الثلاثة ، واختلافهم مبني على الإختلاف في حج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجة الوداع . فمن قال كانت على الإفراد فضل الإفراد ، أو على القران فضل القران ، أو على التمتع فضل التمتع . وعند الشافعية أن حجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أول الأمر على وجه الإفراد ؛ لأنه أحرم بالحج وحده وبعد أن وصل إلى وادي العقيق أضاف إليه العمرة فصار قراناً ، كما ذكره المحدث الشيخ إبن حجر العسقلاني في شرح البخاري الشريف . ومن أراد الإطلاع على تفصيل الامر فليراجعه .

ثم إن التمتع بالعمرة إلى الحج على أربعة أوجه :

الاول منها : مجمع عليه ، وهو الذي ذكرناه سابقاً كان يتمتع بحرم الآفاقي بالعمرة ، فيطوف ويسعى ويتحلل كما ذكرنا . وتجب عليه الفدية يذبحها بعد التحلل من العمرة ، أو عند الإحرام بالحج ، أو في ايام التشريق .

الثاني منها : التمتع الحاصل بصفة القران أي الجمع بين الحج والعمرة في النية كما ذكرنا . والتمتع هنا عبارة : عن حصول النسكين بنية واحدة وعمل واحد منهما ، وفيه الفدية أيضاً . وهو معلوم .

الثالث : التمتع الذي توعّد عليه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال : متعتان كانتا على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنا انهى عنهما وأعاقب عليهما : متعة النساء ، ومتعة الحج . وذلك أن يحرم الرجل بالحج حتى إذا دخل مكة فسخ حجه وأتى بعمل عمرة ، وأقام حلالاً حتى يهل بالحج يوم التروية . فهذا هو الذي تواردت به الآثار عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فإنه أمر أصحابه في حجته من لم يكن معه هدي ولم يَسُقْه وقد أحرم بالحج أن يجعلها عمرة . وقد أجمع العلماء على

صحة هذا الأثر ، إلا أنهم اختلفوا في القول بــه والعمل لعلل فجمهورهم على ترك العمل بها لأنها عندهم خصوص خصّ بها الرسول أصحابه الذين لم يسوقوا الهدي • قال ابو ذر : كانت المتعة لنا في الحج خاصة • أخرجه مسلم • والسر في تجويزه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك لأصحابه المذكورين ما قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنهم كانوا يَرَوْنَ أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض • فقدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صبيحة اليوم الرابع من ذي الحجة ، وكان أصحابه مُهلّين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة ، فتعاظم ذلك عندهم ! فقالوا : يا رسول الله أي الحِلّ هذا ؟ أي هل يحل كل ما حرم بالإحرام بهذه العمرة والتحلل منها ؟ فقال : الحِلُ كلّه أخرجه مسلم • وقد كان ذلك الإنتقال من خصائص الأصحاب الذين كانوا معه خاصة لا لغيرهم ؛ لأن الله تعالى قال : (وأتموا الحج والعمرة لله) ولا يمكن الإنتقال من حكم كتاب الله إلا لسنّة مبيّنة كما هنا • ويحتج على ذلك بما روى من حدث أبي ذر وبحديث الحارث بن بلال عن أبيه قال : قلنا : يارسول الله فسخ الحج لنا خاصة أم للناس عامة ؟ قال : بل لنا خاصة • وعلى هذا جماعة فقهاء الحجاز والعراق والشام •

الرابع : مُتْعَة المحصر ومن صُدّ عن البيت • ذكر يعقوب بن شيبة قال : حدثنا أبو سلمة النبوذكي ، حدثنا وهيب ، حدثنا إسحق بن سويد قال : سمعت عبدالله ابن الزبير وهو يخطب ، يقول : أيها الناس إنه والله ليس التمتع بالعمرة إلى الحج كما تصنعون ، ولكن التمتع أن يخرج الرجل حاجّاً فيحبسه عدوٌ أو أمرٌ يعذر به حتى تذهب أيام الحج فيأتي البيت فيطوف ويسعى بين الصفا والمروة ثم يتمتع بحلّه إلى العام المستقبل ثم يحج ويُهدي •

وهذه نبذة من آداب الحج والعمرة ذكرتها في تفسير آياتهما الكريمة للإستبصار ، ومن أراد الإطلاع الكامل فليراجع كتب الفقه في الموضوع . والله ولي التوفيق .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلى مافي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سعَى في الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لايُحِبُّ الفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذا قِيلَ لَهُ : اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ)(٢٠٦)

عن السدي قال : نزلت في الأخنس بن شريق أقبل إلى النبي ـ صلى عليه وسلم ـ بالمدينة وأظهر له الإسلام وقال : ألله يَعْلم إني لصادق ! فأُعجب به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم خرج مِن عنده فمرَّ بزرع لقوم من المسلمين وبحُمُر لهم فأحرق الزرع ، وعقر الحمر ! فأنزل الله فيه هذه الآيات . أخرجه ابن المنذر وابن جرير . وكان شريق هذا حسن المنظر ، حلو المنطق ، يوالي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدّعي الإسلامَ وهو منافق .

يعني : ومن الناس من يعجبك قوله بياناً واداءً لحلاوة لفظه ، وفصاحته في أمور الحياة الدنيا ؛ لأن الكلام فيها مبذول لكل أحد دون حياة الآخرة وأحوالها ؛ لأنه لا يؤمن بها ولا يحبها أو لا يؤذن له فيها . ويشهد الله على مافي قلبه من المودة والإخلاص للإسلام والرسول المبعوث به ؛ وهو ألَدّ الخصام وأشد الأعداء عداوة . فالخصام جمع خصم بمعنى العدو ، والجملة حالية . وقوله : (وإذا تولى) الآية يعني وإذا أدبر وغاب عنك

يسعى في الأرض بأنواع الحيل الفاسدة . ليفسد فيها بإفساد قلوب الناس وبث روح العداء للدين ، ويهلك الحرث أي المزارع بالإحراق والإتلاف ، والنسل بالقتل والهتك والإعتساف ، والله لايحب الفساد فلا يحب أهله من العباد .

وقوله : (وإذا قيل) يعني وإذا قيل لهذا الشخص نصيحة ونهياً عن المنكر : إتق الله واحذر عن هذه الأعمال الفاسدة السافلة .

وقوله : (أخذته العزة بالإثم) قال البيضاوي : حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذي يؤمر باتقائه لجاجاً ، من قوله أخذته بكذا أي حملته وألزمته إياه .

وقال الشهاب : أراد أنه إستعارة تبعية أستعير الأخذ للحمل بعد أن شبّه حالة إغراء الحمية الجاهلية وحملها إياه على الإثم بحالة شخص له على غريمه حق فيأخذه به ويلزمه إياه . والمراد بالإثم حقيقته .

وقال الشهاب أبو الثناء : أخذته العزة أي إحتوت عليه وأحاطت به وصار كالمأخوذ بها وبالإثم ، أي مصحوباً أو مصحوبة به . إنتهى . يعني أن بالإثم حال من الهاء أو من العزة .

ثم قال : ويجوز أن يكون أخذ من الأخذ بمعنى الأسر ، ومنه الأخيذ للأسير . أي جعلته العزة وحمية الجاهلية أسيراً بقيد الإثم .

وقال أبو البقاء : بالإثم في موضع نصب على الحال من العزة والتقدير : أخذته العزة متلبسة بالإثم . ويجوز أن يكون حالاً من الهاء أي أخذته العزة آثماً . ويجوز أن يكون الباء للسببية فيكون مفعولاً به . أي أخذته العزة بسبب الإثم . قلت : وقال بعض : إن بالإثم متعلق بالعزة أي إذا قيل له : إتق الله فالعزة المقرونة بإثم الإفساد وقتل الأنفس

البريئة أخذته وسلبت عنه الطاقة الإختيارية . وإنما كلف حينئذ مع أن المأخوذ قهراً لا تكليف عليه لأن أساسه كان على الإفساد والأعمال السيئة ، والخبل المبني على عمل تعدى به لا يسقط التكليف .

وقوله : (فحسبه جهنم) كلمة حسب إما اسم بمعنى كافي ، أو اسم فعل ماض بمعنى كفى . وجهنم علم لدار العقاب ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث . وقوله : (لبئس المهاد) جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف . أي والله لبئس الفراش الممهد جهنم .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالعِبَادِ) (٢٠٧)

نزلت في صهيب بن سنان الرومي أخذه المشركون وعذبوه ليرتد ، فقال : إني شيخ كبير لا ينفعكم وجودي معكم ، ولا يضركم خلافي لكم فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي ، فقبلوه منه وأتى المدينة . فيقول : ومن الناس من يبيع نفسه ويبذلها في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يقتل وذلك طلباً لرضاء ربه تعالى . والله رؤوف بالعباد فيجزي أولئك واحداً بعشرة إلى سبعمائة ضعف ، ويزيد لمن يشاء . وصهيب بالتصغير صحابي معروف ، ولم يكن رومياً ، وإنما أسره الروم صغيراً فقيل له : الرومي .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ البَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٢٠٩)

قال البغوي : نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب عبدالله بن سلام وأصحابه • وذلك أنهم لما أسلموا قاموا على تعظيم شرائع موسى عليه السلام ، فعظموا السبت ، وكرهوا لحوم الإبل وألبانها ، وقالوا إن ترك هذه الأشياء مباح في الإسلام وواجب في التوراة • وقالوا أيضاً : يا رسول الله إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنقرأ به في صلاة الليل • فأنزل الله هذه الآية ، وأمرهم أن يدخلوا في السلم أي في جميع شرائع الإسلام وأحكامه ولا يتمسكوا بالتوراة لأنها نسخت • وعلى نزولها في شأنهم فمعنى الآية الشريفة : يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب بدين الإسلام ورسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أدخلوا في السّلم والإنقياد لدين محمد كافة عامةً ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان بخلط أحكام التوراة بأحكام القرآن حتى لا يتميز أهل الإسلام من غيرهم ، إنه لكم عدو مبين ، أي عدو ظاهر العداوة • فإن زللتم وانحرفتم عن الدخول في الإطاعة هكذا من بعد ما جاءتكم البينات أي الأدلة الواضحة الشاهدة على أنه حق واجب الإتباع فاعلموا أن الله عزيز أي غالب على أمره فينتقم منكم ، حكيم في إنتقامه لا ينتقم إلا بحق •

(هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ والمَلائِكَةُ وقُضِيَ الأَمْرُ ؟! وإلىَ اللهِ تُرْجَعُ الأُمور) (٢١٠)

قوله تعالى : (هل ينظرون) إستفهام إنكاري وهو نفي في المعنى • وقوله (أن يأتيهم الله) أي أمره أو عذابه • وقوله : (في ظلل من الغمام) أي في قطعات من الغمام الأبيض تظلّلهم وتقف فوق رؤوسهم كأنها ظلّة • وإنما خص إتيان العذاب في ذلك الوضع ، لأن الغمام الأبيض ينتظر منه الأمطار والبركات ، وإذا كان إظلالها عليهم لنزول العذاب كان أشدّ وأوقع

على نفوسهم فإنّ مجيء الزجمة من مُنتَظر الرّحمة أشَدّ عذاباً على الأمة .

وقوله : (والملائكة) عطفٌ على الله . وقوله (وقضي الأمر) أي نفذ أمر إهلاكهم . وإلى الله ترجع الامور .

وخلاصة التفسير : إن بقاء الأمة على العناد وإنكار رسالة سيّد العباد يقرب إلى أذهان المؤمنين العارفين بالأمور أنهم إستعدوا لقضاء الأمر فيهم وحلول العذاب عليهم بأقصى أصنافه وأقسى أوضاعه بأن يفاجئهم العذاب بغتة ومجيء ملائكة العذاب في مظهر غمام أبيض ينتظر منه الرحمة فإذا هو يصب عليهم أنواع البلايا والرزايا ويقضي فيهم ما شاء الله . وهذا الوضع ليس من شأن العقلاء فالأولى بل الموافق لهم أن يتوبوا عن هذا العناد والإستكبار ، ويتعرضوا لعفوا الباري تعالى حتى يتوب عليهم ويعفو عنهم . ولا ينتظروا مفاجأة ذلك العذاب بالإستمرار على الكفر والأعمال السيئة وإلا فلا ملجأ من الله إلا إليه وإلى الله ترجَعُ الأمور .

(سَلْ بَني إسْرائيلَ كمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ؟ ومَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ ، فَإنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ) (٢١١)

قوله تعالى : (سل بني إسرائيل) أمر منه تعالى لحبيبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسأل بني إسرائيل المصرين على الكفر والإستنكار والإستكبار كم آتيناهم أنفسهم في عهد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وآباءهم وأجدادهم في العهود السابقة من المعجزات الواضحة الدالة على أن رسالة الله وبعث الرسل إلى البشر حق . وتلك الإرشادات بالآيات البينات والمعجزات القاهرات كلها نعمة من الله أنعمها عليهم حتى ينتبهوا

وينتهوا عما هم عليه من الضلال ، فوجب قبولها والعمل بها ، وأن لا يقابلوا تلك النعم الجسام بالعناد كما هو عادة اللئام .

وقوله تعالى : (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته) معناه أن أولئك الناس الذين جاءتهم تلك الآيات حقهم أن يقرروا تلك الآيات ويقروا بها ولا ينكروا إفاضتها عليهم ، بأن يقولوا ما أتانا من الآيات وما رأينا شيئاً من المعجزات ، أو حقهم أن يعملوا بها ويمشوا على مناهجها ، ويؤمنوا برسالة محمد الموعود ببعثه سابقا ولا يمدوا إليها يد النسخ والتأويل والتحريف . ومن يبدلها بأحد الوجهين فإن الله شديد العقاب يعاقبهم عليه كما يستحقون .

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (٢١٢)

قوله تعالى : (زين للذكين كفروا) الآية . قال بعض : إن فاعل الصيغة المجهولة هو الشيطان ؛ لأن الشيطان هو المحسّن للقبائح والمقبح للحسنات . وقال بعض : إن الفاعل هو الله تعالى ، وهو الحق ؛ لأنه قد ثبت بالبراهين القاطعة أن الخالق والموجد لكل مايحدث هو الله تعالى . (ألله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) وإذا خص الإيجاد ببعض مايمكن التأثير فيه بدليل العقل أو النقل فيبقى العام في ما عداه نافذ الدلالة والإرادة .

والتحقيق الحقيق بالقبول : أنه إن أريد تزيين صوري أو عمل ظاهري ناتج عن القوى النفسانية المقتضية للسوء فإسناده إليها بعلاقة السببية مجازاً وارد . وإن أريد التزيين الواقعي بالإبداع والإيجاد فالفاعل هو

الله تعالى لا غيره . ولا عتب فيه لأن الله سبحانه وتعالى بين الخير والشر وأسبابهما كما أودع في المكلفين العلم والإرادة والقوى الشهوية والغضبية ، وخول الإنسان في الكسب وأسنده إليهم . فمن صرف إرادته وقدرته نحو الخير خلقه له ، ومن صرفهما نحو الشر خلقه لهم ، ولا لوم إلا على أنفسهم ، وَما كانَ اللهُ ليظلمهُم وَلكنْ كانوا أنفُسهمْ يَظلِمُون .

فيقول الباري سبحانه وتعالى : زين للذين كفروا الحياة الدنيا أي حسّنت في عقولهم ومشاعرهم الحياة الدنيا وملاذها ومغرياتها ، وحصلت فيهم داعية الكبر بحيث يسخرون من الذين آمنوا لاسيما فقرائهم ويسترذلونهم ، والحال أن الذين اتقوا أي المؤمنين المتقين فوقهم يوم القيامة ، عكس ما في الدنيا فهم في عليين والكافرون في أسفل السافلين . وهم يستهزؤن بالذين استهزؤا بهم في الدنيا جزاء وفاقا . والله يرزق من يشاء من المقام العالي والكرامة بغير تقدير وحساب .

(كانَ النّاسُ أُمّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النّبِيّينَ مُبَشّرِينَ ومُنْذِرِينَ، وَأنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاّ الّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ماجاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الّذِينَ آمَنُوا لِما اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقّ بِإِذْنِهِ ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٢١٣)

قوله تعالى : (كان الناس أمة واحدة) الآية معناه : إنه كان الناس بعد بعث سيدنا آدم عليه السلام وفترة زمنية في عهد أولاده وأحفاده أمة واحدة متفقة على التوحيد وعبادة الله تعالى ، إلى أن بعث الله إدريس فتكاثر الناس وتشاجروا وأثّرت فيهم المطامعُ والمطامح ، فاختلفوا في

الأصول والأحكام ، واختار كل فئة طريقاً وسبيلاً ، وعبدوا غيرَ الباري سبحانه وتعالى تبعاً للأهواء ، فبعث الله النبيين مبشرين بالثواب لمن آمن بالله وحده واهتدى إلى الصراط المستقيم ، ومنذرين بالعقاب لمن كفر وأشرك ، وانزل معهم الكتاب بالحق أي جنس الكتاب واحداً متوارثاً بينهم ، أو متعدّداً لكل أجل كتاب ليحكم ذلك الكتاب أو النبي الذي أنزل معه بين الناس فيما اختلفوا فيه سابقاً ، ووقع فيه الجدال ، وبقي الخلاف إرثاً للأجيال ، أو فيما يختلفون فيه بعد ذلك الإنزال ؛ كاختلاف أهل الكتاب في الإنجيل بعد نزوله على سيدنا المسيح ، أو القرآن الكريم بعد نزوله على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وما اختلف فيه أي في الكتاب المنزل الجديد إلاّ الذينَ أُوتوه أي أوتوا الكتاب[1] في العهد السابق قبل نزول هذا الكتاب من بعد ماجاءتهم البينات أي الآيات الشاهدة على أن هذا الكتاب الجديد حق حيث ذكر في الكتاب السابق بعث النبي اللاحق ونعوته وإنزال الكتاب عليه . وذلك الإختلاف في الكتاب المنزل الجديد كان بغياً وعدواناً دائراً متوارثاً بينهم وحقداً على هذا النبي الجديد وكتابه، وتلك سنّة سيئة متبعة من أهل العلم بالكتاب السابق يغارون حقداً على العهد الجديد والنبي والمرسل فيه والكتاب المنزل إليه . فهدى الله الذين آمنوا من أهل الكتاب السابق وغيرهم لما اختلفوا فيه من الحق أي للإيمان بالحق الذي اختلفوا فيه ، فآمنوا به إيماناً خالياً عن الشكوك والأوهام ، واهتدوا إلى سلوك الصراط المستقيم . وذلك الإيمان منهم به كان بإذن الله وتوفيقه ولطفه . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، لا ترى فيه عوجاً ولا أمْتاً . وفي هذه الآية الجليلة بيان شافٍ للصدور بنورها الموفور .

(1) يعني أن في الضمير استخداما ، اذ أريد بالضمير السابق الكتاب الجديد ، وبالضمير اللاحق الكتاب السابق .

تنبيه : إن التفسير الذي قررته هنا كان موافقاً لعقيدتي في الموضوع ، ثم وجدت بعض الناس مقرراً له على حسب تقريري وحمدت الله تعالى على ذلك . والذي قرره البيضاوي والآلوسي هو أن الناس كان أمة واحدة لفترة من الزمن متفقة على الحق ، ثم وقع الإختلاف بينهم في الأصول والفروع ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس في ما اختلفوا فيه ، ويرفع الخلاف مع أن الذين أنزل عليهم الكتاب لرفع الإختلاف هم أنفسهم إختلفوا في هذا الكتاب بغياً بينهم وعدواناً من بعضهم لبعض . وهذا التفسير أيضا وارد" . ويظهر صحته لأن كل أمة سابقة أو لاحقة عندما كانوا في حاجة إلى رفع الخلاف والإختلاف ، وأنزل الله إليهم كتاباً مع النبي مرسل لدفع الإختلاف هم فسروا ذلك الكتاب واوّلوا على مبتغى آرائهم وأفكارهم ، واختلفوا أيضاً ، فترى الإسرائيليين اختلفوا في التوراة مع وجود الأنبياء بين أظهرهم ، وبعد بعث سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إختلف كثيرون من أهل الأهواء مع أهل الدين والإعتصام بالكتاب والسنة السنية . فنسبوا خلق الأعمال إلى العباد ، واوجبوا الأصلح على الله تعالى ، ونسبوا خلق الشرور والمفاسد إلى النفوس الشريرة والشياطين الملبّسين بشبه واهية . لكن الله سبحانه وتعالى لم يترك كتابه ورسوله وسنته السليمة بدون معين ومساعد ومطبق ، بل أعدّ للدفاع عن الحق أمّةً مؤمنة مطمئة آمنوا بالحق الواضح في شقي الخلاف والإختلاف ، وذلك بإذنه وعنايته وتوفيقه . وهذه سنة الله في خليقته وشريعته فكلما إشتد الإختلاف هيأ الله أناساً لإدراك الحق والإيمان به والعمل به ، وتطبيقه ، ورد المعاندين وتأييد الحق ونشره بين المؤمنين .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ، وَزُلْزِلُوا ، حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) (٢١٤)

روي عن قتادة : أن هذه الآية نزلت في غزوة الأحزاب ، وهي غزوة الخندق وفي ما أصاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين فيها من : جهد ومشقة ، ونصب وشدّة ، وحرّ وبَرد ، وخوف وسوء عيش وأذىً . كما قال تعالى في هذه الغزوة (وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ) الأحزاب / ١٠ .

قوله تعالى : (أم حسبتم) صيغة الخطاب إلتفات ، وأم إما منقطعة بمعنى بل للإضراب بدون تقدير إستفهام ، أو بتقديره على وجه الإنكار ، أي لِمَ حسبتم ؟ وإما متصلة بتقدير جملة معادلة لها تقديره : أعلمتم أن المؤمن يجب عليه الجهاد إلى لقاء رب العباد ؟ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة الآية وإلى الآن لم يأتكم مثل حال المؤمنين الّذين خلوا من قبلكم التي وَصلَتِ الذروةَ في الشدة : مَسَّتْهُم البأساءُ مِن الفقر والحاجة والضرّاء من الأمراض الفتاكة ذات اللجاجة ، وزُلزلوا ، وأزعجوا إزعاجاً بلغ منتهاه ، حتى يقول الرسول والذين معه : متى نصر الله ؟ وذلك لتأخره وكثرة العدو وتفاقم أذاه . فأوحى الله إليه ليبلغ إليهم : ألا إن نصر الله قريب . يعني أنه تقررت سنة الله في العباد أن اليسر بعد تعب العسر ، وأن الظفر بعد الصبر . وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « حُفَّت الجنةُ بالمكارِهِ ، وحُفّتِ النارُ بالشهوات » .

(يَسْئَلُونَكَ : ماذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلْ : ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ واليَتامى والمَساكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ ، وما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ) (٢١٥)

عن إبن جريج : قال : سأل المؤمنون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ماذا ننفق من أموالنا وأين نَضَعُها ؟ فنزلت الآية. وقيل ـ نزلت في عمرو بن الجموح الأنصاري ، وكان شيخاً كبيراً ذا مال كثير ، فقال : يا رسول الله بماذا تتصدّق وعلى من تنفق ؟ فنزلت الآية .

قوله تعالى : (يسئلونك) الآية هذه الآية الشريفة من البلاغة بمكان عال ، ومن تلقي السائل بجواب غير ما يريده وينتظره . يسألونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المال الذي ينفقونه في سبيل الله ويتصدقون أو يوصون به نوعاً وكمّاً ، فيجيبهم بغير ما ينتظرونه حيث يبين لهم المنفق عليهم . ومعناه أن المال الذي تصرفونه في سبيل الله من أي نوع كان وعلى أيّ مقدار فالمهم صرفه في المحل المناسب للانفاق الأهم فالأهم . من الوالدين المحتاجين ، والأقربين أولي الحاجة ، واليتامى بتسليمه إلى القائم بأمورهم ، والمساكين الناقصين مالاً ومصرفاً ، وابن السبيل المعوزين إعوازاً حسّياً أو شرعياً . وما تفعلوا من خير ، أيّا كان ، فإن خير فإن الله به عليم فيجازيكم بالثواب والرّضا في دار النعيم . وهذا الإنفاق من باب الصدقات العامة والزكاة من صرف الأموال الواجب صرفها . فهذا باب ، وتلك باب ، والله يهدي من يشاء إلى الصواب .

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (٢١٦)

قوله : (كتب عليكم القتال) أي فرض وهذا هو فرض الجهاد • والمراد بالقتال قتال الأعداء من الكفار ، ولم يؤذن للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في القتال مدة إقامته بمكة ، فلما هاجر أُذن له في قتال من يقاتله من المشركين • وهو فرض عين إن دخلوا بلادنا ، وفرض كفاية إن كانوا ببلادهم •

وقوله : (وهو كره لكم) بضم الكاف أي شاق عليكم مكروه طبعاً ، وهو مصدر نعت به للمبالغة ، أو فُعْل بمعنى مفعول كالخبز بمعنى المخبوز •

وقوله : (وعسى أن تكرهوا شيئاً) الآية وكلمة عسى للرجاء وانتظار غير الواقع • والكره وإن كان محققاً لكنه نزل منزلة غير الواقع لأن حق المؤمن الكامل أن لا يكره القتال في سبيل إعلاء كلمة الحق • وقوله : (وهو خير لكم) أي والحال إن ذلك المكروه خير لكم لكسب الشرف والسّيادة في الدنيا علاوة على الغنائم والمنافع التي تستفيدونها بالقتال ، ولكسب السعادة في الآخرة حيث إن العمل الذي قام أو يقوم به المُقاتِلُ جزءٌ من بناء صرح الإسلام الذي يفيد رضاء الباري تعالى بإعلاء كلمته ونشر دينه وشريعته • قوله : (وعسى أن تحبوا شيئاً) أي وعسى أن تحبوا شيئاً وهو الكسل والتباطؤ عن القتال ، والإبتعاد عن المناهي • وهو شرّ لكم لأن في ذلك إرضاء النفس والشيطان ، وهو شر للانسان لأنّ مآله الخسران ، والله يعلم الخير والشر في الواقع ، وأنتم لا تعلمون إلا بعضاً منه •

(يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ • قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وكُفرٌ بِهِ ، والمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ

القَتْلِ ، وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ ، وَهُوَ كافِرٌ ، فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، وَأُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٢١٨)

قال الشهاب : والذي في سيرة ابن سيد الناس أنه في رجب وأنه لم يرسلهم لقتال ، وإنما بعثهم ليعلم أمر قريش وأنهم لقوا هؤلاء (أي عمرو بن عبدالله الحضرمي وثلاثة معه وعيراً لقريش فيها تجارة الطائف)في آخر يوم من رجب، وقالوا : لئن تركناهم لقد دخلوا الحرم، وإن قاتلنا حينئذ قاتلنا في الأشهر الحرم،ثم عزموا على الفتك بهم، ففعلوا مافعلوا (أي قتلوا عمرو ابن عبدالله وأسروا إثنين واستاقوا العير) قال إبن إسحق : فلما قدموا على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لهم : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ا فَوَقَّفَ العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيأ • فلما نزلت الآية قبض ذلك • ويقال : وقّفه حتى رجع من بدر فقسمه مع غنائمها انتهى • وهي أول غنيمة في الإسلام •

والسائلونَ هم المشركون ، كتبوا إليه في الموضوع • وقيل : أصحاب السرية • وقال الشهاب : السائلون أصحاب السرية • وكونهم المشركين ضعيف لايناسب الرواية ولا الدراية • فمورد نزول آية : يسألونك هو هذه الواقعة • أما مورد نزول الآية الثانية فهو أنه لما كثر القيل والقال في الموضوع قال بعض الصحابة : إن لم يكن أصحاب السرية أصابوا وزرا

فليس لهم أجر • فنزلت : إن الذين آمنوا ، والذين هاجروا الآية • أخرجه البيهقي • وهذه الحادثة كانت قبل واقعة بدر بشهرين •

قوله : (قتال فيه) بدل من الشهر الحرام • وقوله : (قل قتال فيه كبير) جواب للسؤال • يعني أن القتال في الشهر الحرام للمقاتل الغير المضطر له ذنب كبير ، ولكن صد الناس عن سبيل الله ، وعن الوصول إلى المسجد الحرام ، والإشراك به تعالى ، وبث فتنة الإشراك اكبرُ من القتال بدرجات •

وقوله : (وصد) مبتدأ عطف عليه ما بعده • وقوله (أكبر عند الله) خبرُهما • ومعنى الصد عن سبيل الله منع النّاسِ عنِ الإيمانِ بالله • ومنع المؤمنين عن طاعة الله والتعبد له • وقوله : (وكفر به) أي بالله معطوف عليه • وقوله : (والمسجد الحرام) بالجر معطوف على الضمير المجرور في (به) والعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجارّ وإن كان ممنوعاً عند البصريين لكنه جائز عند الكوفيّين ويونس والأخفش وأبي علي واختاره ابن مالك حيث قال في ألفيته :

وعود خافض لدى عطف على
ضمير خفض لازماً قد جعلا
وليس عندي لازماً إذ قد أتى
في النظم والنثر الصحيح مثبتا

والتقدير : وكفر بالمسجد الحرام وبرعاية حقوقه ومساواة العاكف والبادي فيه •

وقوله : (وإخراج أهله منه) معطوف على قوله (وصدّ عن سبيل الله) يعني أن القتال في الشهر الحرام وإن كان فيه إثم كبير ، لكن صد

الناس عن سبيل الله ، والكفر به ، والكفر بالمسجد الحرام ، والتعدي على حرماته ، وإخراج اهله منه ، وهم المستحقون للبقاء فيه كالرسول وأصحابه ... أكبر إثماً عند الله من القتال الحادث فيه ؛ لأن القتال عمل فاسد ، والكفر بالله عقيدة فاسدة . وصدّ الناس عنه تعدٍّ عامّ على الدين وعلى الكعبة وعلى المسلمين . وإخراج أهله منه وإبقاء غير المستحقين فيه ، وهم المشركون ، ظلم وبغيٌ وعدوان على الحقوق المشروعة ، فلم ترتكبون هذه الجرائم الإعتقادية والعملية والإجتماعية ولا تهتمون بها ؟ وكأنّها ليست شيئاً قابلاً للذكر ! لكن قتال سرية من سرايانا في يوم من أيام الأشهر الحرام صار عندكم أكبر الآثام .

وقوله تعالى : (والفتنة أكبر من القتل) تذييل لما تقدم للتأكيد ، وعطف عليه عطفَ الحكم الكلي على الجزئي . والفتنة : ما يفتتن به المسلمون من كافة الوجوه من التعذيب ، والتنكيل ، والتهجير ، والترحيل . فشمل الوجوه المذكورة السابقة . أي تلك الجرائم الإعتقادية والعملية التي ترتكبونها أكبر من قتل شخص واحد أو أشخاص كثيرين لاسيما إذا كان القتيل فاسد العقيدة كاسد العمل .

وقوله تعالى : (ولايزالون يقاتلونكم) قطع الكلام مع المشركين السائلين إلى خطاب المؤمنين إذا كان السائلون من المشركين وإلا فاستمرار للكلام بمناسب المقام مع المؤمنين من أصحاب السرية وغيرهم . فيقول : إن أولئك المشركين أشد أعدائكم ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم الأصيل إلى إشراكهم العليل (إن استطاعوا) واقتدروا على ذلك ، ولكن لا يستطيعون على المؤمنين المخلصين .

وقوله : (ومن يرتدد منكم) الآية تهديد لمن إختلج في قلبه الأوهام وتصور الإرتداد عن الإسلام • فيقول : وَمَن يَرتَدِدْ مِنكم عَنْ دينه فَيَمُتْ وهُوَ كافِر فأولئكَ حبطت أعمالهم في الدنيا بالحرمان عن المنافع الدنيوية الإسلامية والآخرة بسقوط الثواب ، وَأولئك أصْحابُ النارِ هُمْ فيها خالِدون (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفورٌ رحيم) هذه الآية كما ذكرنا نزلت في شأن أصحاب السرية ، حيث ظن الناس أنهم وإن سلموا من العقاب لكن ليس لهم أجر عند الله ، فبين الله جزاء أعمالهم الجليلة الناشئة عن الإخلاص لله ولرسوله ، ورد الله على المتوهمين ظنونهم الغير المفيدة للحق • وقال : إنهم بإيمانهم وهجرتهم من أوطانهم وجهادهم في سبيل الله يرجُونَ رحمة الله لهم بإيتائِهِم حَسَنَةً في الدنيا وحسنة في الآخرة ، والله غفور لما فَرط منهم من الذنوب ، ورحيم بهم وبغيرهم فيجزيهم بفضله أكثر مما يستحقون •

(يَسْأَلونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ : فِيهِمَا إثْمٌ كَبِيرٌ ومَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وإثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، ويسألونكَ : ماذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلِ : العَفْوَ ، كذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرونَ (٢١٩) في الدنْيا والآخِرَةِ ، ويَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامى ، قُلْ : إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ ، وَلَوْ شاءَ اللهُ لأَعْنَتَكُمْ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٢٢٠)

قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والمَيْسر) قال الواحدي : نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار ، أتوا رسول الله ــ صلى

الله عليه وسلم ـ فقالوا : أفتنا في الخمر والميسر ، فإنهما مَذْهَبَة للعقل وَمَسْلَبَة لِلمال . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وفي بعض الروايات : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدم المدينة والناس يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر ، فسألوه عن ذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . فقال قوم : ماحرمتا علينا ، فكانوا يشربون الخمر إلى أن صنع عبدالرحمن بن عوف طعاماً فدعا أناساً من الصحابة ، وأتاهم بخمر وشربوا وَسَكروا ، وحضرت صلاة المغرب ، فقدّموا علياً كرم الله وجهه فقرأ (قل أيها الكافرون أعبد) بحذف (لا) فأنزل الله تعالى : (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فقلّ من يشربها ، ثم إتخذ عتبان بن مالك طعاماً ودعا رجالاً من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقاص . وكان قد شوى لهم رأسَ بعير ، فأكلوا وشربوا الخمر حتى أخَذَت منهم . ثم إنهم إفتخروا عند ذلك ، وتناشدوا الأشعار ، فأنشد سعد مافيه هجاء الأنصار وفخر لقومه . فأخذ رجل من الأنصار لحى البعير ، فضرب به رأس سعد فشجه موضحة . فانطلق سعد إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشكا إليه الأنصار فقال : أللهمّ بيّن لنا رأيك في الخمر بياناً شافياً ! فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنو إنّما الخَمر والمَيْسِرُ والأنصابُ وَالأزلامُ رِجسٌ من عَمَل الشّيطان ، فَاجْتَنِبُوه لعلكم تُفْلِحُون . إنما يُريدُ الشّيْطانُ أنْ يُوقعَ بينكم العَداوةَ والبَغضاءَ في الخَمرِ والمَيْسرِ ، وَيَصُدّكم عَن ذكرِ اللهِ وَعَن الصّلاة فَهَلْ انتم مُنْتَهون ؟) وذلك بَعْدَ غزوةِ الأحزاب بأيام . فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ : انتهينا يا رب .

والخمر عند الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ التي مِن ماء العنب إذا غلى واشتد وقذف بالزبد . وسميت بذلك لأنها تخمر العقل

أي تستره . وذهب الإمامان إلى عدم إشتراط القذف ، ويكفي الإشتداد ، لأنّ المعنى المحرم يحصل به . ومن الناس من قال : هو حقيقة في كل مسكر ، لما أخرج الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي (كل مسكر خمر) . وأخراج أبو داود نزل تحريم الخمر يوم نزل وهو من خمسة : من العنب ، والتمر ، والحنطة ، والشعير ، والذّرة . وأخرج مسلم عن أبي هريرة : الخمر من هاتين الشجرتين ، وأشار إلى الكرم والنخلة . وأخرج البخاري عن أنس : حرمت الخمر حين حرمت . وما يتخذ من خمر الأعناب إلا قليل ، وعامة خمرنا : البسرُ والتمرُ . ويمكن أن يجاب : إن المقصود من ذلك كله بيان الحكم ، وتعليم أن ما أسكر حرام كالخمر ، وهو الذي يقتضيه منصب الإرشاد لا تعليم اللغات العربية ، سيما والمخاطبون في الغاية القصوى من معرفتها .

وفي الصحيحين : أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن النقيع ، وهو نبيذ العسل ، فقال : كل شراب أسكر فهو حرام . وروى أبو داود نهي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر . وصح ما أسكر كثيره فقليله حرام . وفي حديث آخر « ما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام » والأحاديث متظافرة على ذلك .

وقوله : (والميسر) مصدر ميمي من يَسَرَ كالموعِدِ والمرجع . يقال يسرته إذا قمرته . وإشتقاقه من اليسر لأنه أخذ المال بيسر .

وصفته : أنه كانت لهم عشرة أقداح ، هي : الأَزلام ، والأقلام الفذ والتّوأم ، والرقيب ، والحلس ، والنافس ، والمسبل ، والمعلّى ، والمنيح ، والسفيح ، والوغد . لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزؤنها ثمانية وعشرين جزءً ، إلا الثلاثة وهي : المنيح ، والسفيح ، والوغد . للفذ سهم ، وللتوأم سهمان ، وللرقيب ثلاثة ، وللحلس أربعة ،

وللنافس خمسة ، وللمسبل ستة ، وللمعلى سبعة ، يجعلونها في الربابة ، وهي خريطة ، ويضعونها على يدي عدل يُجَلْجِلُها ويدخل يده ، فيخرج باسم رجل قدحاً منها ، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح • ومن خرج له قدح مما لانصيب له لم يأخذ شيئاً ، وغرم ثمن الجزور كله مع حرمانه • وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ، ولا يأكلون منها ، ويفتخرون بذلك ، ويذمون من لم يدخل فيه • ويسمونه البَرَم • وفي حكم ذلك عند الحنفية جميع أنواع القمار من : النرد ، والشطرنج ، وغيرهما • حتى أدخلوا فيه لعب الصبيان بالجوز والكعاب ، والقرعة في غير القسمة ، وجميع أنواع المخاطرة والرهان • وعن ابن سيرين كل شيء فيه خطر فهو من الميسر • والشافعي لم يحرم إلاّ بمقابلة المال •

قوله تعالى : (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) معنى فيهما في تعاطيهما والتلبس بهما • وفي معنى التعاطي للخمر : بيع العنب للمشهور بعصره للتخمير ، والسعي في عملية عصره وما بعده حتى يتخمّر كما يدخل الياسرين والعاملين به • وأما الإثم : فهو بالنسبة إلى شرب الخمر مخالفة النهي الوارد من صاحب الشريعة ، ومباشرة ما يسلب العقل ويهيء الشارب للتعرض والوقوع فيما يخالف أحكام الإسلام قولاً وفعلاً كالشتام والسباب ، وهتك الأعراض ، ونهك الحقوق • وبالنسبة للميسر : فهو إيذاء الناس باخذ اموالهم بالباطل بدون بدل وإيذاء أنفسهم بالتغريم ، وما يترتب عليه من المعاتب والجرائم •

وأما المنفعة : فهو التجارة بأسبابهما ، وأخذ أموال الناس بدون تعب وأذى ، وصرف بدل مشروع ، والتلذذ النفسي ، والغفلة عن الواجبات ، وإن كان مآل الكل الخسارة في الدنيا والدين •

وقوله : (وإثمهما أكبر من نفعهما) أي المفاسد التي تنشأ منهما أعظم من المنافع المتوقعة فيهما • فمن المفاسد التي تنشأ منهما ما ذكرناه آنفاً • وعلاوة على ذلك فإنه قد تنشأ من شرب الخمور وتعاطي الميسر إيقاع العداوة والكراهية والبغضاء في العوائل والمجتمعات ، والإبتلاء بتقيّد نفسي إلى أن يموت بحيث لا تمكنه مفارقته لهما ما أمكن بأيّ حال من الأحوال وفي أي زمان ومكان • وابتلاء شربة الخمور بأمراض فتاكة لا تفارقهم كما لا يخفى على من طالع كتب الطب والرسائل المؤلفة في ذلك الباب • ولذلك قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث » • عصمنا الله تعالى منها ومن كل عمل مكروه ، وهدانا إلى كل عمل محبوب نافع للدنيا والدين •

وقوله تعالى : (ويسألونك ماذا ينفقون) عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن نفراً من الصحابة أمروا بالنفقة في سبيل الله تعالى أتوا النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالوا : إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا فما ننفق منها ؟ فنزلت •

وقوله تعالى : (قل : العفو) أي صفته أن يكون عفواً • والمراد به : مالا يتبين في الأموال • وفي رواية ما فضل عن العيال • وعن الحسن : مالا يجهد • أي مالا يشق إنفاقه • وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وابدأ بمن تعول » أي من عليك نفقته •

وقوله : (كذلك يبين الله لكم الآيات) أي مثل ما بين أن العفو والسهل أصلح من الجهد والصعب ، لأنه أبقى للمال وأنفع للآخرة • وقوله : (لعلكم تتفكرون) أي تتفكرون في الآيات لفهم المصالح في الدنيا والآخرة فتسعدون •

وقوله تعالى : (ويسألونك عن اليتامى) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لما أنزل الله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) وقوله تعالى : (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً) إنطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه عن طعامه وشرابه عن شرابه فوقع اليتامى في عسر وضيق وكذلك أقاربهم . فذكروا ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت . وقوله : (قل إصلاح لهم خير) أي رعاية أموالهم بطريقة مشروعة وإصلاح اموالهم بالحفظ والتنمية خير لهم ولكم في الداريـن من هذه المجانبة والمتاركة . ولما كان الإصلاح خيراً فلا مانع من مخالطتهم . وقوله : (وإن تخالطوهم) معناه : إن تخالطوهم في الطعام والشراب والمسكن والمصاهرة تؤدّوا اللائق بكم ؛ لأنهم إخوانكم في الدين ، وبذلك قرأ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ .

وأخرج عبد بن حميد عنه : المخالطة أن يشرب من لبنك وتشرب من لبنه ، ويأكل في قصعتك وتأكل في قصعته ، وتأكل من ثمرته ويأكل من ثمرتك .

وقال أبو عبيد : مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال ويشق على كافله أن يفرد طعامه عنه ، ولا يجد بدا من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم مايرى أنه كافيه بالتحرّي فيجعله مع نفقة أهله ، وهذا قد يقع فيه الزيادة والنقصان فجاءت هذه الآية الناسخة بالرخصة فيه .

ومما علم من الدين أن ولي اليتيم أبوه ، فجده ، فوصي الأب إن لم يكن جد أو لم يكن بصفة الولاية ، فوصي الجد ، فالقاضي الأهل ، فالقيم المعيّن من طرفه بشرطه . وأما الأم فلا ولاية لها على الأصح . ومقابله

أنها تلي لاسيما إذا كانت عاقلة فاهمة للامور بشرط أن لا تكون زوجة لغير أبيه • وفي التحفة : إذا لم يوجد له ولي أو وجد حاكم جائر وجب على المسلمين النظر في مال المحجور وتولي حفظه له إنتهى •

وهذه الآية الشريفة تبين حكم حفظ أموال اليتامى فيما إذا لم يكن قاضٍ شرعي يراعي أموالهم ووقع عدّة من اليتامى تحت يد واحد من إخوتهم فله أن يخلط أموالهم بماله ويراعي المصلحة فيها بأن يبيع مايشرف على الضياع منها ويحفظ ثمنه لليتيم ، ويترك الأموال التي تدوم كالعقار والمسقفات للإستفادة منها ، ويصرف من مستغلات أموالهم أو من أعيان رؤوس الأموال في نفقاتهم ، و ليقدم الأحظّ بالبيع بأن يبيع الفروش الزائدة ، ثم الحيوانات الذكور ، ثم ما طعن في السن منها • فإذا تصرف كذلك فقد أدّى واجبه الشرعي • ولا يمنع هذا الخلط من أكل أطعمة الإخوة الكبار إذا كانت التصرفات على ما ذكرنا لأنه غاية ما يمكن تطبيقه هنا • وأما فصل طعام اليتامى وشرابهم عن طعام البيت فدونها خرط القتاد • ولا يمكن عادةً تطبيقها •

وإذا اجتمع وجوه القرية وجعلوا أحد الإخوة قيّما على الأيتام وأموالهم فذلك حسن بل واجب حتى تكون تصرفاته مندرجة تحت الأصول المشروعة •

وأما تصفية أموال اليتامى ببيعها لأحد الإخوة وصرف ثمنها في نفقاتهم فهذا شيء إثمه أزيد من برّه ، وفساده أكثر من خيره ، لأن بقاء رؤوس أموالهم أنفع لهم بدرجات • ثم لا موجب لهذه المعاملة والمشتري غير مؤتمن للمستقبل حتى يرد على اليتامى أثمان أموالهم أو ينفقها عليهم إنفاقاً معتدلاً مشروعاً •

علاوة على ذلك فقد يترتب على ذلك بعد بلوغ اليتامى مشاحنات وفتن كاد أن يقتل بعضهم بعضاً . وقد جربت هذه الأمور مرّات . نعم إذا كان هناك قاض يبيع أموالهم ويحفظ أثمانها أو يستنميها بصورة مشروعة كان ذلك احسن وأنفع .

وقوله : (والله يعلم المفسد من المصلح) تهديد وتحذير لمن ولي أمر اليتامى وأموالهم بأن الله عالم بأحوال المفسدين والمصلحين وسيجزي كلاً منهم على حسب أعماله .

وقوله : (ولو شاء اللهَ لأَعْنَتَكُم) أي ولو شاء إتعابكم لأتعبكم بأن يكلفكم بفصل أموال اليتامى عن أموالكم وإدارتها معهم وإن كان هذا العمل صعباً جدّاً لكنه من فضله الواسع لم يكلفكم بذلك ، وسهل عليكم الأمر بإباحة مخالطتهم والمسامحة عن اللمم . فعليكم برعاية الحرام والحلال ومخافة الملك المتعال إن الله عزيز لا يمتنع عليه شيء ، وحكيم يتصرف في ملكه بما يريد .

(ولا تَنْكِحُوا المُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلا تُنْكِحُوا المُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ اَعْجَبَكُمْ أولئِكَ يَدْعُونَ إلى النَّارِ ، واللهُ يَدْعُو إلى الْجَنَّةِ وَالمَغْفِرَةِ بإذْنِهِ ويُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (٢٢١)

روي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث مَرْثدا الغَنَوِيّ إلى مكة ليخرج منها أُناساً مِن المسلمين ، فأتته عَناقُ ، وكان يَهْواها في الجاهلية ، فقالتْ : ألا نخلو ؟ فقال : إن الإسلام حال بيننا . فقالت : هل

لك أن تتزوج بي ؟ فقال : نعم ولكن اَستأمِرُ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستأمره ، فنزلت .

ومما ينبغي أن يعلم أن النكاح مشروع في الأديان السماوية كلها ، وتقرر في دين الإسلام على أحسن وجه وأوفقه بحياة الإنسان السعيد ، فمن راعى آدابه سعد في الدارين فهو في حد ذاته وسيلة لاستيناس الإنسان بالإنسان ، وقضاء حاجة النفس وكبح جماحها في الميل إلى العدوان ، وطريق للتناسل واستمرار سلسلة الرجال والنساء في العالَم ، والحجر الأساس لبناء المصاهرة الموجبة للتعاون والتكاتف والتراحم بين الأفراد والقبائل ، ووسيلة تكثير سواد الأمة السعيدة الصالحة المسلمة في تعمير الأرض بالعلم السليم والعمل الصالح . وعلى ذلك الأساس وردت أحاديث شريفة في الترغيب فيه واختيار الأكفاء ، ورعاية الدين والحسب ، حتى تحصل النتيجة المرغوبة المباركة ، ويعيش الرجال مع النساء بكرامة ومحبة واحترام .

ومن أهم النتائج : الإعفاف ، يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبَصَر وَاَحْصَنُ للفرج ، ومن لم يستطع فعليهِ بالصّوم ، فإنه له وِجاء" . والباءة : النفقة . والوِجاء : القطع للشهوة النفسية .

والرجل بالنسبة إلى الزواج لايخلو إما أن يكون تائقاً محتاجاً له أوْ لا ، وعلى كل فإما أن يكون واجداً للأهبة أوْلا ، فهو مستحب للتائق الواجد للأهبة إن لم يخف العنت ، وإلاّ فيجب عليه صيانة لدينه . وأما الفاقد لها فيستحب له الصوم إن أمكنه واندفعت به شهوته . وإلا أبيح له النكاح ، وعليه الكسب لتحصيل النفقة بقدر الإمكان . وأما غير التائق فيكره له النكاح إن كان فاقداً للأهبة ، أو واجداً لها وبه علة تمنعه من إعفاف الزوجة ، وإلا فإن تخلى للعبادة فهي أفضل ، وإلاّ فالنكاح لئلا تقضي به البطالة

إلى الفواحش • وفي غير التائق الفاقد للأهبة قد يحرم النكاح إذا أفضى إلى إفساد زوجته • وبالجملة فالنكاح دائر بين الأحكام الخمسة من الوجوب ، والحرمة ، والندب ، والكراهة ، والإباحة • والتفصيل في الفقه •

وهذا الذي ذكرناه إنما هو في عقد حلال في ذاته أي لم يكن هناك تحريم لعينه أو لسبب في العقد ، وإلا فقد يكون النكاح حراماً لعينه ، لنسب وهو نكاح الأم والبنت والأخت والعمة ، والخالة ، وبنت الأخ ، والأخت ، أو لرضاع وهو كالنسب ، أو لمصاهرة وهو نكاح زوجة الأب والابن ، وزوج البنت أمّها وزوج الأم المدخول بها بنتها أو للجمع ، كالجمع بين المرأة وأمها أو اختها أو عمتها أو خالتها • وبين أكثر من أربع زوجات • وإما لاشتباه مُحرمة بأجنبيات محصورة • أو لسبب في العقد وهو نكاح الشغار ، والمتعة ، ونكاح من دخل في الإحرام بالحج أو بالعمرة ، ونكاح المعتدة ، والكافرة غير الكتابيّة •

فقوله تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) المراد بالمشركات ما عدا الكتابيات من اليهوديات والنصرانيات • وهن : الوثنيات ، والمجوسيات ، والملاحدة المعطلات اللاتي لا يعترفن بربّ العالمين • وأما الكتابيات ، وإن أسند إلى اليهود والنصارى الإشراك لكن شرف أصل الكتاب والإيمان به حسّم تلك الوساخة • بدليل أنّ الله تعالى فرق بينهما بالعطف فقال: (ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) وقال : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ففرق بينهم في اللفظ ، وظاهر العطف التغاير بين المتعاطفين وأيضاً فالمشركات عام قابل للتخصيص ، وقوله تعالى : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) نصّ ، وهو أقوى

من العام فيتخصص به • فيجوز للمسلم نكاح الكتابية قبل الإسلام • لكن الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ إشترط في الجواز إثبات كونها كتابية قبل النسخ والتحريف • وذلك متعذر ، فلذا لا يصح نكاحهن له قبله •

ومنعُ عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ طلحة ابـن عبيدالله ، وحذيفة ابن اليمان عن إمساك الزوجة الكتابية كان رعايةً لمصلحة الإسلام حتى لا يختلط المسلمون بالكتابيين بالمصاهرة • فمعنى الآية الشريفة : ولا تنكحوا النساء المشركات حتى يؤمن ، وأما الكتابيات فلا مانع مـن نكاحهـن •

وقوله تعالى : (ولأَمَةٌ مُؤمِنَةٌ خيرٌ مِن مُشرِكَة) إخبار بأن المؤمنة المملوكة خير من المشركة وإن كانت ذات حَسَبٍ ومالٍ • نزلت في شأن خنساء وهي وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان ، فقال لهـا حذيفة : يا خنساء قد ذكرت في الملأ الأعلى مع سوادكِ ، وأنزل الله تعالى ذكركِ في كتابه ، فأعتقهـا حذيفة وتزوجها •

فمعنى قوله تعالى (ولو أَعْجَبَتكم) أنها ولو كانت المشركة ممـن تعجبكم بجمالها أو بمالها أو بسائر وجوه الحسن فيها ما دامت هي مشركة فالأمة المؤمنة خير منها للأمن من غوائلها فـي العائلـة وسـائر وجـوه المعاشرة •

وقوله تعالى (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) كلمة المشركين فيه عام لجميع من يستشـم منه رائحة الإشراك كتابياً أو وثنياً أو مجوسياً أو غيرهم • وليس في دين الإسلام ما يؤخذ منه جواز إنكاح المسلمة من الكافر • ومن هنا أجمعت الأمة على أن المشرك لايطأ المؤمنة لما فـي ذلـك من الحقارة والهوان على الإسلام ، وقد قال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) •

وقوله تعالى : (ولعبد مؤمن) الآية أي ولعبد مملوك مؤمن خير لاختياره للمصاهرة من مشرك حسيب ولو أعجبكم ماله وجماله وحسبه . ثم أتى الباري تعالى لتعليل الحكمين بقوله الكريم (أولئك يدعون إلى النار) أي أن المشركين والمشركات يدعون إلى العقائد والأعمال الموجبة لدخول النار والخلود فيها ، وقلّما يسلم أهلهم وأولادهم من فساد العقيدة والعمل . والله يدعو إلى الجنة بدعوته إلى العقائد السليمة والأعمال الصالحة والمغفرة دعوة متلبسة بإذنه وتوفيقه ، ويبين آياته للناس في النكاح وغيره بالأمر والنهي ، لعلّهم يتذكرون ويتعظون بها ويصلون إلى سعادة الدنيا والدين .

(وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ : هُوَ أَذىً ، فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ في المَحِيضِ ، وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ) (٢٢٢)

عن أنس بن مالك : أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم أخرجوها مِنَ البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يُساكنوها ، فسأل الصحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك ، فأنزل الله الآية . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إصنَعوا كلَّ شيء إلا النِّكاحَ . رواه مسلم والترمذي .

وقوله تعالى : (ويسئلونك عن المحيض) أي عن أحكام الرجال في قربان النساء عند الإبتلاء بالمحيض . وقوله (قل هو أذى) أي قل في جوابهم: إن الحيض شيء مستقذر مؤذٍ لمن يقربه نفرةً منه (فاعتزلوا النساء في المحيض) فاجتنبوا مجامعتهن في وقت المحيض وليس عليكم الإعتزال عنهن

في المأكل والمشرب والمسكن ، ولا الإبتعاد عن طعام يهيّئنه (ولا تقربوهن حتى يطهرن) أي ينقطع الحيض عنهن ويغتسلن بدليل قوله تعالى : (فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) أي فإذا إغتسلن وتنظّفن فجامعوهن من المحل الذي أمركم الله به وحلله لكم إن الله يحب التوّابين أي الرجاعين إلى الله تعالى والواقفين عند أمره ونهيه بالإمتثال والإجتناب ويحب المتطهرين المبتعدين عن الأوساخ والأقذار .

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (٢٢٣)

لما كان في قوله تعالى فأتوهن من حيث أمركم الله خفاء بينه بقوله الكريم (نساؤكم حرث لكم) أي مواضع حرث ، واستعمال نافع ، ووضع بذر لكم . فأتوا حرثكم واستعملوه وانتفعوا بالحرث (أنى شئتم) أي من أينَ شئتم أي من أيّ جهة شئتم الإتيان بالحرث ، وكيف شئتم على القعود ، او على الإمتداد ، ومتى شئتم أي زمان مالم يظن الإضرار بها في ذلك الوقت (وقدموا لانفسكم) مايصلح للتقديم من : نية الإعفاف ، والإستيناس ، والنسل الصالح ، والتسمية في بدء العمل ... واتقوا الله واحذروا مخالفته في الأمر والنهي ، واعلموا أنكم ملاقوه بالبعث والحساب فيجازيكم بأعمالكم ، فتزودوا ماينفعكم وبشر المؤمنين بحسن الثواب يوم الدين .

ومما ينبغي أن يعلم أنه يستفاد من الآيتين حرمةُ مجامعةِ النساء في أدبارهن من وجوه :

الأول : من قوله تعالى : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى) لأنه مادام وجب إعتزال النساء في وقت الحيض لأن دم الحيض أذى يستفاد

وجوب إعتزال النساء من الأدبار فإن أذى النجاسات المحلولة المتعفنة أقوى من أذى دماء الحيض . فالقياس جليّ وأولويّ .

الثاني : من قوله تعالى (فإذا تطهرن فأتوهن) لأنه يستفاد أن لا إتيان إليهن إلا مع الطهر والنظافة للمحل المستعمل . ومع تحقق النجاسة في الدبر أو توهمه لا مجال لإتيانه منه واستعماله .

الثالث : من قوله تعالى (ويحبّ المتطهرين) لدلالته على أن الله لايحب المتقذرين المتوسخين .

الرابع : من قوله تعالى (نساؤكم حرث لكم) لأن كل عاقل يعلم أن الحرث محل نشر البذر للنبات ، والأدبار مَضْيَعَةٌ للبذور ومثيرةٌ للشرور ، فلا مجال لإلقاء البذر فيها وإضاعتها .

الخامس : من قوله تعالى (فأتوا حرثكم) حيث أكد على الإتيان من الفرج حيث لم يقل نساؤكم حرث لكم فأتوهن . وقال فأتوا حرثكم . حتّى لايَتَوَهَّمَ أحدٌ أنّ إتيانهن جائز من أيّ منفذ كان .

السادس : من قوله تعالى : (وقدّموا لأنفسكم) لأن نية النسل الصالح وبقاء الدين في أهله إنما تتحقق في إتيانهن من القبل فإنه هو المظنة لحصول النسل الصالح واستمرار الخير في بيته .

السابع : من قوله (واتقوا الله) لأن الأمر بالتقوى يجلب النظر ، ويدعو إلى الإبتعاد عن الشبهات كالإتيان من الأدبار .

الثامن : من قوله (وبَشّر المؤمنين) لأن المؤمنين هم الواقفون على ظواهر الآيات المبتعدون عن الشبهات ، والله اعلم .

فهرس المجلد الاول من مواهب الرحمان في تفسير القرآن

٥ مقدمـــة
٧ الامر الاول مبدا التنزيل واول زمانه
٩ فتـــور الوحي
١٠ الامر الثاني تنزلات القرآن الكريم
١٠ الامر الثالث
١١ الامر الرابع
١٢ حكم تنجيم القرآن نزولا
١٥ الامر الخامس
١٧ احـــرف القرآن
٢٠ تفصيل في الأحرف السبعة
٢٣ القــراء والقــراءات
٢٦ الامر الســادس جمع القرآن الكريم
٣٤ مزايـــا مصاحف عثمان
٣٦ الامر الســابع ترتيب آيات القرآن وسوره
٤١ اقســـام الســـور
٤٢ الامر الثامن أول ما نزل وآخر مانزل
٤٣ الامر التاسع العلم بالمكي والمدني
٤٦ الامر العاشر آداب التلاوة
٥٤ مخـــارج الحـــروف
٥٧ أحوال الميم الساكنة
٥٨ أحكام الادغام

٥٩ احكام المد
٦٢ احوال الراء
٦٣ حروف القلقلة
٦٣ اقسام الوقف

٦٥ **الجزء الاول**

٦٧ **سورة الفاتحة**

٦٨ الآراء في البسملة
٧٢ لفظ الجلالة
٧٣ الحمد لله رب العالمين
٧٥ اياك نعبد واياك نستعين
٧٦ الاستعانة والتوسل
٨٠ زيارة القبور وحكمها وآدابها
٨١ اهدنا الصراط المستقيم
٨٢ الهداية والصراط
٨٦ صراط الذين انعمت عليهم ...
٨٨ خلاصة معنى سورة الفاتحة

٨٩ **سورة البقرة**

٩٠ القول في الايمان
٩٣ خلاصة الكلام في الايمان
٩٤ الغيب
٩٦ والذين يؤمنون بما أنزل اليك ...
٩٧ وهنا فوائد
٩٩ الختم والمراد به في (ختم الله على ...)
١٠٠ ومن الناس من يقول آمنا
١٠١ واذا قيل لهم آمنوا ...
١٠٢ واذا لقوا الذين آمنوا ...
١٠٣ الله يستهزىء بهم
١٠٥ الايمان صفة النفس
١٠٦ استعداد الانسان للخير والشر

١٠٨ أو كصيب من السماء ...
١١١ يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم
١١٥ وان كنتم في ريب مما نزلنا
١١٧ وجوه اعجاز القرآن الكريم
١٢٠ وبشر الذين آمنوا وعملوا ...
١٢٣ ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا
١٢٦ كيف تكفرون بالله وكنتم ... ؟
١٢٨ هو الذي خلق لكم ما في الارض
١٣٠ واذ قال ربك للملائكة : اني جاعل ..
١٣٠ فوائد مهمة
١٤٠ حاصل تفسير الآيات
١٤١ وقلنا : يا آدم اسكن
١٤٢ الجنة والنار هل هما مخلوقتان ؟
١٤٤ حاصل تفسير المقام
١٤٥ فتلقى آدم من ربه كلمات
١٤٦ عصمة الانبياء
١٤٩ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي ...
١٤٩ أدوار تاريخ الاسرائيليين
١٦١ تفسير الآيات في بني اسرائيل
١٦٥ حاصل تفسير الآيات
١٦٦ اخذ الأجرة مقابل تعليم القرآن
١٦٧ حكم المصلي باجرة
١٦٨ اتامرون الناس بالبر
١٧٠ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عل كم
١٧٢ موسى وبنو اسرائيل وفرعون
١٧٦ فائدة
١٧٧ و اذ قال موسى لقومه
١٧٩ واذ قلتم : ياموسى
١٨٠ واختار موسى قومه
١٨١ وظللنا عليكم الغمام

١٨٤ واذ استسقى موسى لقومه
١٨٥ واذ قلتم : يا موسى لن نصبر
١٨٨ ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى
١٩١ واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا
١٩٣ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت
١٩٥ واذ قال موسى : ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة
١٩٨ واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها
١٩٨ ههنا أمور
٢٠١ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك
٢٠٢ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم
٢٠٥ نقل من الكتب السابقة
٢٠٧ وإذا لقوا الذين آمنوا
٢٠٩ وقالوا : لن تمسنا النار
٢١١ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل
٢١٢ وإذ أخذنا ميثاقكم
٢١٤ ولقد آتينا موسى الكتاب
٢١٦ ولما جاءهم كتاب من عند الله
٢١٧ وإذا قيل لهم : آمنوا
٢١٩ قل : إن كانت لكم الدار الآخرة
٢٢١ قل : من كان عدوا لجبريل
٢٢٤ واتبعوا ماتتلوا الشياطين
٢٢٦ في السحر وانواعه
٢٣١ ياأيها الذين آمنوا
٢٣٣ مانسخ من آية
٢٣٦ وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو . .
٢٣٧ وقالت اليهود : ليست النصارى
٢٣٩ ومن اظلم
٢٤١ ولله المشرق والمغرب
٢٤٣ وقالوا : اتخذ الله ولدا سبحانه (

٢٤٦ وقال الذين لايعلمون : لولا يكلمنا الله
٢٤٩ واتقوا يوما لاتجزي نفس
٢٥٠ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات
٢٥٥ فائدة
٢٥٧ الذرية واشتقاقها
٢٥٧ وإذ جعلنا البيت مثابة
٢٦١ وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلدا آمنا
٢٦٢ وإذ يرفع إبراهيم القواعد
٢٦٧ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟
٢٦٩ أم كنتم شهداء إذ حضر
٢٧٠ إنتفاع المسلم بعمل غيره فضل ورحمة
٢٧١ وقالوا : كونوا هودا أو نصاى
٢٧٣ فائدة
قل : أتحاجوننا في الله . . . ؟

٢٧٧ **الجزء الثاني**

٢٧٩ سيقول السفهاء من الناس
٢٨٠ قبلة الرسول في أول الرسالة
٢٨٢ قد نرى تقلب وجهك وتفصيل استقبال الرسول ـ ص ـ
٢٨٥ أقوال العلماء في معنى الشطر
٢٨٦ ادلة القبلة وكيفية معرفة إتجاهها
٢٨٧ ولئن اتيت الذين أوتوا الكتاب
٢٨٩ ولكل وجهة هو موليها
٢٩٠ ومن حيث خرجت
٢٩٣ ذكر القلب وذكر اللسان
٢٩٣ ياأيها الذين امنوا استعينوا بالصبر والصلاة
٢٩٥ حياة الشهداء
٢٩٦ الخوف والصبر
٢٩٧ إن الصفا والمروة

٢٩٨ الحج والعمرة
٢٩٩ إن الذين يكتمون ماأنزلنا
٣٠١ وإلهكم إله واحد
٣٠٢ إن في خلق السموات والأرض
٣٠٤ ومن الناس من يتخذ من دون الله
٣٠٦ ياأيها الناس كلوا مما في الأرض
٣٠٩ ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم
٣١١ إن الذين يكتمون ماأنزل الله
٣١٣ وجه الدلالة على صدق الرسل
٣١٤ ليس البر أن تولوا وجوهكم
٣١٦ وجوه البر المهمة
٣١٨ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص
٣٢٠ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت
٣٢١ الوصية لغير الوارث
٣٢٣ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام
٣٢٤ حكمة الصيام وشرائط وجوبه ...
٣٢٥ لوازم الافطار ... والفدية والكفارة ...
٣٣١ بحث رؤية هلال رمضان
٣٣٣ مسافة السفر
٣٣٣ وإذا سألك عبادي عني
٣٣٤ الدعاء وآدابه
٣٣٦ احل لكم ليلة الصيام الرفث
٣٣٨ تعجيل الافطار وتأخير السحور
٣٣٩ سنية الاعتكاف
٣٤٠ ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل
٣٤٠ حكم الحاكم ينفذ ظاهرا
٣٤٢ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم
٣٤٤ الشهر الحرام بالشهر الحرام
٣٤٤ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة

٣٤٥ واتموا الحج والعمرة لله
٣٤٨ الحج اشهر معلومات
٣٤٨ الميقات الزماني للحج والعمرة
٣٤٩ الميقات المكاني لهمـا
٣٥١ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا
٣٥٢ وقوف عرفات والافاضة إلى المزدلفة
٣٥٣ بعض احكام عرفات
٣٥٤ فإذا قضيتم مناسككم
٣٥٥ واذكروا الله في أيام معدودات
٣٥٥ رمي الجمار الثلاث
٣٥٦ الحج ركن من اركان الاسلام
٣٥٦ والعمرة فرض أو سنة
٣٥٦ شرائط وجوب الحج وأركانه
٣٥٧ شرائط الاحرام وشروط الطواف
٣٥٨ سنن الحج ومحرمات الاحرام
٣٥٩ اوقات إراقة الدماء
٣٦٠ التمتع بالعمرة إلى الحج
٣٦١ الافراد بالحج
٣٦١ القـران
٣٦٢ ماهو الافضل من الاقسام ؟
٣٦٢ التمتع بالعمرة اقسام أربعة
٣٦٤ ومن الناس من يعجبك قوله
٣٦٦ ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة
٣٧٠ كان الناس امة واحدة
٣٧٣ أم حسبتم ان تدخلوا الجنة
٣٧٤ يسألونك ماذا ينفقون
٣٧٤ كتب عليكم القتال وهو كره لكم
٣٧٥ يسألونك عن الشهر الحرام
٣٧٩ يسألونك عن الخمر والميسر
٣٨٠ ماهي الخمر ؟

٣٨٣ الميسر
٣٨٤ اليتامى
٣٨٥ مراعاة أموال اليتامى
٣٨٦ ولاتنكحوا المشركات
٣٨٧ مشروعية النكاح وحكمه
٣٨٨ نكاح الكتابيات والمشركات
٣٩٠ ويسألونك عن المحيض
٣٩١ نساؤكم حرث لكم
٣٩٢ حكم إتيان المرأة من الدبر

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
(١١٢) لسنة ١٩٨٦

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م